تاريخ الشعوب الإسلامية
فى العصر الحديث

د. السيد حسين جلال

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الاسكندرية



تاريخ الشعوب الإسلامية

فى العصر الحديث

تاريخ الشعوب الإسلامية
فى العصر الحديث

د. السيد حسين جلال

كمبيوتر: (دار الوفاء)

الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة بلوك رقم (٣)

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الاسكندرية

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٤٨٢

الترقيم الدولى: 23 - 11 - 327 - 977

الإهداء

إلى الزميل الكريم الأستاذ الدكتور صلاح احمد هريدى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب بدمنهور
(جامعة الإسكندرية)
(ووكيل كلية الآداب ورئيس القسم سابقاً)
أهدى هذا الكتاب محبة وعرفاناً بفضله

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المقـدمـة:

تحاول هـذه الصفحات القاء الضوء على جوانب من تاريخ الشعوب الإسلامية وحضاراتها ومشاكلها فى العصر الحديث.

وفى الحقيقة تصعب الدراسة المتكاملة لتاريخ العالم الإسلامى من خلال صفحات معدودات لمنطقة شاسعة من العالم تقطنها الشعوب الإسلامية من عرب وترك وفرس وتركمان وأكراد وهنود مسلمون وقبائل الصحراء الكبرى والبربر والصوماليون والإندونيسيون وغيرهم.

لذلك قمت باختيار أهم الدول الإسلامية من حيث عدد السكان بالنسبة لقارة آسيا، كما اخترت بعض النماذج للمشاكل فى بلدان العالم الإسلامى فى قارتى أوربا وأفريقيا.

كما لم اتطرق لدراسة كل من العالم العربى والأتراك العثمانيين على اعتبار أن الطالب قد سبق له دراستها ضمن مقرراته الدراسية.

ومن خلال استعراض تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث، نجد أنها قد عانت من ثالوث خطير وهو : "التجزئة والتبعية والتخلف"، جعلها لا تتبوأ مكانتها اللائقة فى عالمنا المعاصر.

ويرجع السبب الرئيسى لهذه الأمراض إلى دور الاستعمار الغربى والشيوعية (قبل انهيارها) من جهة والصهيونية العالمية من جهة أخرى.

فالإتجاه الغالب الآن للشعوب الإسلامية نحو الانفصال والتفكك وضعف التوجهات التكاملية والوحدوية والتعاونية.

أضف إلى ذلك تعدد الطرق والمذاهب فى العالم الإسلامى ومحاولة أعداء الإسلام والمسلمين تعميق هذه المذاهب بطرق شتى وبوسائل معلنة وخفيه لاشعال

الفتنه بين طوائف الأمة واتباع سياسة "فرق تسد"، التى طبقتها انجلترا بنجاح عندما وضعت يدها على الهند وجنوب شرقى آسيا ومعظم أفريقيا.

ونجد أيضا أن الاستعمار الغربى قد نجح فى تدويل المشاكل والقضايا التى تخص العالم الإسلامى.

وكان لتخلف المسلمين علمياً وتكنولوجياً واعتمادهم على غيرهم من أعداء الإسلام، فاستغلوا هذه الفرصة لترسيخ الاختلافات والصراعات فيما بين المسلمين وتبعيتهم لغيرهم.

لقد كانت الوحدة الإسلامية هدفاً فى القرن التاسع عشر، إنهارت وتحطمت بفعل الزحف الاستعمارى الغربى وانتشار الفكر القومى والايديولوجيات الحديثة.

إن وحدة الدين والعمل بين المسلمين تتعدى القيود القائمه ولا تصطدم بها وتضع المسلمين أمام عدوان طائفى من قبل الإمبريالية والاستعمار الغربى والصهيونية العالمية.

وأخيراً لا يسعنى إلا أن أشيد هنا بجهود من سبقونى بتناول موضوع الشعوب الإسلامية بالدراسة والتحليل ممن وردت كتبهم فى قائمة مراجع هذا الكتاب، فقد استفدت كثيراً من جهدهم واستعنت بآرائهم فى إخراج هذا الكتاب.

و على الله قصد السبيل ، ، ،

دكتور السيد حسين جلال
كلية آداب دمنهور
جامعة الإسكندرية

الفصل الأول

سكان العالم الإسلامى

وتوزيعهم الجغرافى

يمثل المسلمون أكثر من خمس سكان [1] هذا الكوكب، أو قل إن واحداً من كل ستة أو خمسة أشخاص في العالم يدين بالإسلام. والإسلام في توسع مطرد بعيد المدى، بل لعله اليوم أكثر الأديان نمو عددياً، فهو من ناحية يكسب كل يوم أرضاً جديدة، وقوى مضافة على امتداد جبهة عريضة في أفريقيا وفي آسيا المدارية بالإضافة إلى العالم الجديد شماله وجنوبه.

وتتمير أغلب مناطق العالم الإسلامي بالنمو السكاني السريع علاوة على انخفاض معدلات الوفيات. ويتردد في كتابات الإمبرياليين عن أثر الاستعمار في زحف الإسلام في القرن الأخير خاصة في أفريقيا بما قدم من تسهيلات حديثه ومواصلات لانتقاله، وبعدم معارضته له كقوة سياسية وكأداة تشريعية، وهذه النغمة تملأ المصادر الفرنسية والإنجليزية والهولندية عن إندونيسيا. ولكن الحقيقة الموضوعية أن دخول الاستعمار جاء سداً أمام انتشار الإسلام، ولولاه لكانت خريطة الإسلام اليوم على الأرجح شيئاً يختلف كثيرا عما هي عليه الآن. فالتبشير الاستعماري، ولا سيما في أفريقيا، إنما تم على حساب الرصيد أو الاحتياطي الكامن بالقوة للإسلام. وفي الهند عمق الاستعمال عن عمد الصراع الديني بين المسلمين والهندوس مما أدى إلى وقف أو إبطاء زحف الإسلام الذي كان منطلقاً في شبه القارة الهندية كما سنرى.

ويأتي الإسلام - في مقياس الأديان العالمية الكبرى - في المرتبة الثالثة بعد البوذية والمسيحية، بينما بعده تأتي الهندوكية. وتكاد قوة الإسلام تتعادل عددياً مع قوة الكاثوليكية، كبرى طوائف المسيحية. وإذا اعتبرنا أن الأديان السماوية هي الأديان بمعنى الكلمة، نجد أن العالم المعاصر يستقطب في واقع أمره في قطبين لا ثالث لهما: " المسيحية والإسلام" أما اليهودية فحجمها ضئيل يتراوح ما بين ١٥-١٦ مليونا [2].

---

[1] بلغ عدد المسلمون ١٠٥٩ مليون نسمة في عام ١٩٨٥ من سكان العالم ٤٨٣٦ مليون نسمة وهذا يمثل ٢١,٩٪.

[2] د. جمال حمدان، العالم الإسلامي ص ص١٢-١٤.

وكان الشرق الإسلامى مركز الثقل الحضارى والسياسى فى العالم الوسيط. ومن حيث الرقعة ومدى الانتشار فالإسلام دين عالمى، رغم ما يدعيه البعض من أنه دين جزئى أو إقليمى أحيانا أو من أنه دين "أفريقاسى" أحياناً أخرى. إذ يوشك ألا تكون هناك دولة فى عالم اليوم لا يتمثل الإسلام فيها ولو ببضعة عشرات من الآلاف، كما فى استراليا أو غرب اوربا والعالم الجديد وأن كانت الأعداد فى تزايد مستمر.

والإطار الخارجى الأقصى للإسلام، يصل شمالاً حتى أعالى الفولجا ويترامى جنوباً حتى نهاية أفريقيا عند الرأس على خط عرض ٣٥° جنوباً.

أما شرقاً بقرب من خط طول ١٢٥° شرقاً حيث الفلبين إلى حوالى ٥٢° غربا عند الرأس الأخضر، أى حوالى ربع وثلث محيط الأرض، أو ما يعادل نصف دورة الليل والنهار ونصف دورة فصول السنة على التوالى.

ولقد اختلف الكتاب فى تعيين حدود العالم الإسلامى رغم وجود مناطق إسلامية معروفة تشغل قلب العالم القديم، ومعظم جزر جنوب شرق آسيا. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الرقعة التى يشغلها المسلمون فى العالم لا تشكل إقليما طبيعيا نستطيع أن نضع له حدوده الفاصلة التى تميزه عن غيره من الأقاليم. وتشتمل هذه المساحة الهائلة على عدد كبير من الدول والوحدات السياسية يدين معظم سكانها أو بعضها بالدين الإسلامى، ومن ثم يشكل المسلمون أغلبية أو أقلية تتفاوت كبراً وصغراً من مجموع سكان هذه الدول والوحدات السياسية.

وهنالك عدة مقاييس لتحديد ما يعرف بالدول الإسلامية، لعل أفضلها، وهو الشائع حالياً، المقياس العددى. ويقصد بهذا المقياس اعتبار الدولة التى يزيد عدد المسلمين فيها على ٥٠٪ من عدد سكانها دولة إسلامية بصرف النظر عما إذا كان دستورها قد نص على أن الإسلام هو دين الدولة الرسمى أم لم ينص. أما اذا لم يتجاوز عدد المسلمين هذه النسبة بين سكان الدولة فيعتبر المسلمون هناك أقلية دينية حتى ولو كان حجم هذه لأقلية الإسلامية كبيرا فى حالة الهند (٩١ مليون مسلم) والصين الشعبية (٨٤ مليون مسلم) والاتحاد السوفيتى (٥٢ مليون مسلم). وبناء

على (احصائية ١٩٨٥) ذلك نجد أن هناك ثلاثا وأربعين دولة إسلامية كلها مستقلة (عدا فلسطين).

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود اختلافات كبيرة فى تقدير اعداد المسلمين فى دول العالم المختلفة سواء بين المصادر الإسلامية أو المصادر العربية. ويرجع ذلك غالبا إلى عدم توافر الإحصاءات الدقيقة التى تحدد عدد المسلمين حيث يعيش معظمهم فى دول العالم الثالث حديثة الاستقلال التى تتصف احصاءات الكثير منها بقصور فى بياناتها الديموجرافية واعتمادها على تقديرات سكانية نتيجة انتشار بيئات استوائية ورعوية وصحراوية فى مساحات شاسعة منها. الأمر الذى لا يساعد على إجراء تعدادات دقيقة بالنسبة لسكانها. فضلا عن عدم اشتمال تلك التقديرات على بيانات خاصة بالعقائد الدينية.

ومن جهة أخرى تميل كثير من حكومات الدول وخاصة العالم الثالث، التى تشتمل على أقليات إسلامية إلى التقليل من حجمها الحقيقى تجنباً لمواجهة مطالب اقتصادية وتعليمية واجتماعية خاصة بها وربما سياسية كذلك.[1]

توزيع المسلمين فى قارات العالم:

يتضح من الجدول رقم (١) أن عدد المسلمين فى العالم يزيد عن (ألف مليون) مسلم، ومن ثم فهم يشكلون ١/٥ سكان العالم حيث يقترب عددهم الآن من خمسة بلايين نسمة. كما يلاحظ أن أكثر من ثلثى المسلمين يعيشون كأغلبية سكانية داخل دول العالم الإسلامى، والباقى كأقليات فى دول غير إسلامية.

[1] د. ياسين محمد مراد. السكان فى العالم الإسلامى ص٩١.

جدول (١) : توزيع السكان المسلمين فى قارات العام بالملايين سنه (١٩٨٥) (*)

القارة	جملة السكان	مسلمـــــون			النسبة المئوية للمسلمين	
		جملة المسلمين	دول إسلامية	أقليات	للقارة ٪	لجملة المسلمين فى العالم٪
أسيا (شاملة الاتحاد السوفيتى)	٣٠٩٦,٨	٧٥٣	٥٠٤,٤	٢٤٨,٦	٢٤	٧١
إفريقيا	٥٥٤,٩	٢٨٧,٩	٢٢٢,٦	٦٥,٣	٥٢	٢٧
أوروبا	٤٩١,٨	١٢,٤	٢,١	١٠,٣	٢,٥	١,٢
الأمريكتان	٦٦٨,٣	٤.٤	-	٤.٤	٠.٧	٠.٤
استراليا (شاملة الأقيانوسية	٢٤,٦	١,٤	-	١,٤	٥,٧	٠.١
	٤٨٣٦,٤	١٠٥٩,١	٧٢٩,١	٣٣٠,٠		

وفى إحصائيات عام ١٩٨٥ تحتل قارة آسيا نصيب الأسد من جملة عدد المسلمين فى العالم، إذ تشتمل على ما يقرب من ثلثى عددهم (٧٥٣ مليون) منهم (٥٠٠) مليون داخل دول إسلامية، (٢٤٨) مليون على هيئة أقليات. والجدير بالذكر أن غالبية تلك الأقيات (٢٢٧ مليون) تتركز فى ثلاث دول هى: الهند والصين الشعبية والاتحاد السوفيتى (٩١ مليون، ٨٤ مليون، ٥٢ مليون على التوالى). هكذا يشكل المسلمون فى آسيا نحو ١/٤ سكان القارة حيث يزيد عن ثلاثة بلايين نسمة كما يشكلون نحو ٧٠٪ من جملة المسلمين فى العالم.

تأتى بعد ذلك قارة أفريقيا إذ يبلغ عدد المسلمين بها (٢٨٧) مليون مسلم أى ما يقرب من نصف سكان القارة، على أن حوالى ربع هذا العدد يعيش كأقيات إسلامية فى دول غالبية سكانها من غير المسلمين. ويمكن القول بأن المسلمين فى أفريقيا يشكلون نحو ١/٤ جملة عدد المسلمين فى العالم.

(*) Based on "UNEPA, Assistance and Population Data, United Nations Wall Chart 1986.

أما بالنسبة لبقية القارات فالمسلمون بها يقدر عددهم بأقل من (٢٠) مليون مسلم معظمهم يتركز في عدد من الدول الأوربية والباقي ينتشر في الأمريكتين وأستراليا.

ويلاحظ من الجدول رقم (٢) أن من بين الثلاث والأربعين دولة إسلامية عشرين منها دول عربية:

ثمان في إفريقيا وأثنتي عشرة في آسيا، كما يتضح أن هناك سبع دول إسلامية[1] يبلغ عدد المسلمين بها (٥٣٩) مليون مسلم أي نحو نصف جملة عدد المسلمين في العالم.

جدول (٢) : توزيع السكان المسلمين في دول العالم الإسلامي (١٩٨٥)[*] بالملايين

أندونيسيا	١٥٢,٩	العراق	١٥,١	تشاد	٤,٠	الامارات	١,٣
باكستان	٩٧,٣	السعودية	١١,٥	بوركينافاسو	٣,٦	عمان	١,٢
بنجلاديش	٨٧,٠	ماليزيا	٨,٧	ليبيا	٣,٥	جمبيا	٠,٥
نيجيريا	٦٦,٦	مالي	٦,٩	فلسطين المحتلة	٣.٣	غينيا بيساو	٠,٥
تركيا	٤٨,٣	تونس	٦,٧	الأردن	٣.٣	جزر القمر	٠,٤
إيران	٤٣,٧	اليمن الشمالي	٦,٨	سيراليون	٢,٠	البحرين	٠,٤
مصر	٤٣,٢	السنغال	٥.٥	اليمن الجنوبي	١,٩	جيبوتي	٠,٣
الجزائر	٢١,٠	النيجر	٥,٣	موريتانيا	١,٩	قطر	٠,٣
المغرب	٢١,٠	غينيا	٤,٩	الكويت	١,٧	بروناي	٠,٢
أفغانستان	١٦,٣	الصومال	٤,٦	لبنان	١,٥	مالديف	٠,٢
السودان	١٥,٥	الكمرون	٤.٤	سوريا	١,٣		

الامتداد الجغرافي للعالم الإسلامي:

تتكون غالبية أراضي العالم الإسلامي على هيئة كتلة متصلة من النصف الشمالي لإفريقيا والربع الجنوبي الغربي من آسيا. وهي بذلك تمتد من خط طول ١٨° غربا عند الساحل الغربي لشمال إفريقيا حتى خط طول ٩٠° شرقاً حيث إقليم

---

(١) هي اندونسيا وباكستان وبنجلاديش ونيجيريا وتركيا وإيران ومصر.

(*) مرجع سابق

سنكيانج الصينى وإقليم كشمير وباكستان. أما عن امتداد تلك الرقعة بالنسبة لخطوط العرض، فهى تمتد من خط الاستواء عند الصومال حتى خط عرض ٥٥° شمالا عند الحدود الشمالية لجمهورية كازاخستان الإسلامية السوفيتية فى وسط آسيا. والجدير بالذكر أن مساحة هذه الكتلة الضخمة تبلغ ٢٨,٥ مليون كيلو متراً مربعاً أى نحو ٢١٪ من مساحة العالم. ويلاحظ أن توزيع المسلمين هنا لا يتخذ نمطاً موحداً وإنما تتركز المجموعات الكبرى منهم فى جهات معينة أبرزها باكستان، وعلى الأطراف الشمالية والجنوبية من هذا النطاق. ولئن كان المظهر العام للمنطقة الوسطى منه تتميز بكونها عبارة عن صحارى مجدبة مخلخلة السكان، إلا أنه يستثنى من ذلك وادى نهر النيل ذى الكثافة السكانية العالية والذى يفسر هذا الاستمرار الأرضى هو قرب الكتلة جميعها من جزيرة العرب مهد الإسلام. فقد جاء انتشار الدين فى كل الاتجاهات، فضلا عن وجود عامل جغرافى مساعد هو طبيعة الكتلة القارية المتصلة لاسيما فى قارة إفريقيا.

والجدير بالذكر أن الوسط الجغرافى من هذه الكتلة الإسلامية يمثله العالم العربى كقلب للعالم الإسلامى حيث بدأت فيه تلك العقيدة فضلا عن اشتماله للأماكن المقدسة، كما أنه ما زال معقلا أساسياً للإسلام. ولقد ظل دائما حقلا كثيفا من اخصب حقوله ويسود الجناح الغربى للعالم الإسلامى معظم أجزاء النصف الشمالى من القارة الأفريقية وهو بذلك يحتكر نحو ثلثى العرب فى حين أن الثلث الآخر يوجد فى القطاع الآسيوى من تلك الكتلة الرئيسية.

أما بقية الكتلة الإسلامية فى إفريقيا فتمتد جنوب الصحراء لتشمل منطقتى غرب إفريقيا وشرقها، وذلك بصفة أساسية. ففى غرب إفريقيا يتمثل الإسلام فى صف دول الصحراء والسافانا فى الشمال (تشاد، النيجر، مالى، موريتانيا، السنغال، جامبيا) وصف دول السفانا والغابة فى الجنوب. والجدير بالذكر أن نسبة عدد المسلمين فى دول النطاق الأول لا تقل عن ٨٥٪ من جملة السكان. أما فى النطاق الثانى فنسبة المسلمين تزيد أو تنقص قليلا عن نصف مجموع سكان الدولة فيما عدا غينيا التى يسودها الإسلام، وتفسير ذلك يرجع إلى أنه فى هذا النطاق التقى التيار الإسلامى

من الشمال مع التيار المسيحى القادم مع الاستعمار الأوروبى مـن الجنـوب. ومـن ثـم يلاحظ أن الإسلام فى غرب إفريقيا يرتبط بالسافانا فى الشمال أكثر منه بالغابة فى الجنوب حيث ينفذ الإسلام نحوها الآن.

أما إذا انتقلنا إلى الإسلام فـى شـرق إفريقيـا فنجـد أن غالبيـة المسـلمين يتركزون فـى أثيوبيا (١٩مليون)[1] ، وتنزانيـا (١٠مليـون) وكينيـا (٦مليـون) وأوغنـدا (٤,٦مليون) ومع ذلك فهم عبارة عن أقليات إسلامية فى دول غالبيـة سكانها من غير المسلمين، هذا فى حين أن وجود الملسمين كأغلبية بالنسبة للسكان يتمثل فى كل من: الصومال وجيبوتى، على أن انتشار المسلمين فى شرق إفريقيا يتخـذ اساسـاً محوراً يمتد من الشمال إلى الجنوب على طول امتداد الساحل الشرقى المطل على المحيط الهندى، هـذا النطاق كان بمثابة الجبهة الإفريقية التى استقبلت الدعـوة الإسلامية أول الأمر عـن طريق الملاحين العرب خلال رحلاتهم التجارية عبر مياه المحيط الهندى ومضيق باب المندب. كما أن هذا النطاق تلقى موجة جديدة فى القرن الماضى والحالى مع هجرة الهنود إلى الساحل الشرقى لإفريقيا الجنوبية، الأمر الذى يفسر وجود نحو ٦٤٠ ألف مسلم فى جمهورية جنوب إفريقيا.

يبقى بعد ذلك امتداد تلك الكتلة الإسلامية فى الجزء الجنوبى الغربى من آسيا حيث تشتمل على مجموعة دول غالبية سكانها من المسلمين وهى:

تركيا ودول الهلال الخصيب والجزيرة العربية وإيران وباكستان وأفغانستان.

على أن هنـاك، امتـداداً شمالياً لتلـك الكتلـة الإسـلامية داخـل الاتحـاد السوفيتى والصين يتمثل فى وجود نحو ٨٤ مليون مسلم فى الصين، و٥٣ مليون مسلم فى الاتحاد السوفيتى. ومع ذلـك تعتبر هاتان المجموعتان أقليتين إسلاميتين رغم ضخامتهما.[2]

---

[1] وذلك قبل أن تستقل ارتريا عن اثيوبيا (راجع الفصل العاشر).

[2] المرجع السابق ص ص٩٢-٩٤.

وهناك كتلة إسلامية ثانية تقع فى جنوب شرق آسيا، ولئن اشتملت هذه الكتلة على دولتين فقط غالبية سكانها من المسلمين هما إندونيسيا وماليزيا، إلا أن الأولى هى بحق الدولة ذات العدد الأعلى للمسلمين حيث يقترب من ١٥٣ مليون بنسبة تزيد عن ٩٠٪ من جملة السكان. هذا فى حين يبلغ عدد المسلمين فى ماليزيا نحو ٩ مليون فقط بنسبة لا تزيد كثيرا عن نصف سكان الدولة. وهنا تجدر إشارة إلى أن المسلمين فى هذه الكتلة يمتد انتشارهم فى الدول المجاورة كالفلبين وتايلاند وكمبوديا وفيتنام هلى هيئة أقليات أكبرها هى تلك الموجودة تايلاند والفلبين (حوالى ٦ مليون مسلم فى كل منهما).

تأتى بعد ذلك كتلة إسلامية ثالثة من الكتلتين وتشتمل على دولة إسلامية واحدة هى بنجلاديش (حوالى ١٠٠ مليون مسلم) يمثلون ٨٥٪ من جملة سكان الدولة.

جدول (٣): توزيع السكان المسلمين فى دول العالم الإسلامى (١٩٨٥)(*)

(١) آسيا			
الدولة	جملة السكان بالألف	عدد المسلمين	نسبة المسلمين ٪
اندونيسيا	١٦٦١٤٤	١٥٢٨٥٢٤٨٠	٩٢
باكستان	١٠٠٣٨٠	٩٧٣٦٨٦٠٠	٩٧
بنجلاديش	١٠١١٤٧	٨٦٩٨٦٤٢٠	٨٦
تركيا	٤٩٢٨٩	٤٨٣٠٣٣٢٠	٩٨
إيران	٤٤٦٣٢	٤٣٧٣٩٣٦٠	٩٨
افغانستان	١٦٥١٩	١٦٣٥٣٨١٠	٩٩
العراق	١٥٨٩٨	١٥١٠٣٠٠٠	
السعودية	١١٥٤٢	١١٥٤٢٠٠٠	١٠٠
ماليزيا	١٥٥٥٧	٨٧١١٩٢٠	٥٦
اليمن الشمالى	٦٨٤٨	٦٧٧٩٥٢٠	٩٩
فلسطين المحتلة	٤٧٤٢	٣٣٠٠٠٠٠	٦٩.٦
الأردن	٣٥١٥	٣٢٦٨٩٣٠	٩٣

(*) ١٥٥٠٠٠٠ فى فلسطين المحتلة وغزة والضفة ١٧٥٠٠٠٠ خارج فلسطين.

اليمن الجنوبى	٢١٣٧	١٩٢٣٣٠٠	٩٨
الكويت	١٨١١	١٧٢٠٤٥٠	٩٥
لبنان	٢٦٦٨	١٤٦٧٤٠٠	٥١
سوريا	١٠٥٠٥	١٣٠٩٣٥٠	٨٧
الأمارات	١٣٢٧	١٢٧٣٩٢٠	٩٦
عمان	١٢٤٢	١٢٤٢٠٠٠	٩٩
البحرين	٤٣٢	٤١٤٧٢٠	٩٦
قطر	٣١٥	٣١٥٠٠٠	١٠٠
بروناى	٢٣٢	٢٣٢٠٠٠	١٠٠
مالديف	١٨٣	١٨٣٠٠٠	١٠٠
المجموع	٥٥٧٠٦٥	٥٠٤٣٩٠٥٠٠	

تابع جدول (٣)

(ب) إفريقيـــــا			
الدولة	جملة السكان بالألف	عدد المسلمين	نسبة المسلمين ٪
نيجيريا	٩٥١٩٨	٦٦٦٣٨٦٠٠	٧٠
مصر	٤٦٩٩٩	٤٣٢٣٩٠٨٠	٩٢
الجزائر	٢١٧١٨	٢١٠٨٦٤٦٠	٩٧
المغرب	٢١٩٤١	٢١٠٦٣٣٦٠	٩٦
السودان	٢١٥٥٠	١٥٥١٦٠٠٠	٧٢
مالى	٨٠٨٢	٦٨٩٧٠٠	٨٥
تونس	٧٠٨١	٦٧٢٦٩٥٠	٩٥
السنغال	٦٤٤٤	٥٤٧٧٤٠٠	٨٥
النيجر	٦١١٥	٥٢٥٨٩٠٠	٨٦
غينيا	٦٠٧٥	٤٨٦٠٠٠٠	٨٠
الصومال	٤٦٥٣	٤٦٠٦٤٧٠	٩٩
الكمرون	٩٨٧٣	٤٤٣٠١٥٠	٥٥
تشاد	٥٠١٨	٤٠١٤٤٠٠	٨٠
بوركينافاسو	٦٩٤٢	٣٦٠٩٨٤٠	٥٢
ليبيا	٣٦٠٥	٣٥٣٢٩٠٠	٩٨

سيراليون	٣٦٠٢	١٩٨١١٠٠	٥٥
موريتانيا	١٨٨٨	١٨٦٩١٢٠	٩٩
جامبيا	٦٤٣	٥٤٠١٢٠	٨٤
غينيا بيساو	٨٨٩	٥٣٣٤٠٠	٦٠
جزر القمر	٤٤٤	٤٢١٨٠٠	٩٥
جيبوتي	٣٦٤	٣٤٩٤٤٠	٩٦
المجموع	٢٧٩١٤٤	٢٢٢٦٢٥١٩٠	

جدول (٤): توزيع الأقليات الإسلامية في دول العام (١٩٨٥)

(أ) آسيـــــــا			
الدولة	جملة السكان بالألف	عدد المسلمين	نسبة المسلمين ٪
الهند	٧٥٨٩٢٧٠٠٠	٩١٠٧١٢٤٠	١٢
الصين الشعبية	١٠٥٩٥٢١٠٠٠	٨٤٧٦١٦٨٠	٨
الاتحاد السوفيتي	٢٧٨٦١٨٠٠٠	٥٢٩٣٧٤٢٠	١٩
تايلاند	٥١٤١١٠٠٠	٦١٦٩٣٢٠	١٢
الفلبين	٥٤٤٩٨٠٠٠	٥٩٩٤٧٨٠	١١
بورما	٣٧١٥٣٠٠٠	٢٩٧٢٢٤٠	٨
فيتنام	٥٩٧١٣٠٠٠	١١٩٤٢٦٠	٢
سيرلانكا	١٦٢٠٥٠٠٠	١٤٥٨٤٥٠	٩
منغوليا	١٩٠٨٠٠٠	١٩٠٨٠٠	١٠
توبان	١٤١٧٠٠٠	٤٢٥١٠	٣
نيبال	١٦٤٨٢٠٠٠	٤٩٤٤٦٠	٣
لاوس	٤١١٧٠٠٠	٦١٧٥٥	١.٥
كمبوتشيا	٧٢٨٤٠٠٠	٣٦٤٢٠٠	٥
سنغافورة	٢٥٥٩٠٠٠	٨٩٥٦٥٠	٣٥
مجموع المسلمين		٢٤٨٦٠٨٧٦٥	

تابه جدول (٤)

(ب) أفـــريقيـــــــــــا			
الدولة	جملة السكان بالألف	عدد المسلمين	نسبة المسلمين ٪
أثيوبيا	٤٣٧٥٧٠٠٠	١٩٦٩٠٦٥٠	٤٥
تنزانيا	٢٢٤٩٩٠٠	١٠١٥٤٥٥٠	٤٥
بينين (داهومى)	٤٠٥٠٠٠٠	٢٠٢٥٠٠٠	٥٠
ساحل العاج	٩٨١٠٠٠٠	٤٩٠٥٠٠٠	٤٥
توجو	٢٩٦٠٠٠٠	١٣٣٢٠٠٠	٤٥
إفريقيا - الوسطى	٢٥٧٦٠٠٠	١٠٣٠٤٠٠	٤٠
ملاوى	٦٩٤٤٠٠٠	١٨٠٥٤٤٠	٢٦
كينيا	٢٠٦٠٠٠٠٠	٦١٨٠٠٠٠	٣٠
غانا	١٣٥٨٨٠٠٠	٢٥٨١٧٢٠	١٩
ليبيريا	٢١٩١٠٠٠	٥٤٧٧٥٠	٢٥
موزمبيق	١٣٩٦١٠٠٠	٣٤٩٠٢٥٠	٢٥
غينيا الاستوانية	٣٩٢٠٠٠	٨٥٨٠٠	١٥
ساوتومية وبرنسيب	٩٧٠٠٠	٩٧٠٠	١٠
ملجاش (مدغشقر)	١٠٠١٢٠٠٠	١٢٠١٠٠٠	١٢
بورندى	٤٧٢١٠٠٠	٩٤٤٢٠	٢
جزر الرأس الأخضر	٣٢٦٠٠٠	١٦٣٠٠	٥
موريشس	١٠٥٠٠٠٠	١٨٩٠٠٠	١٨
أنجولا	٨٧٥٤٠٠٠	١٣١٣١٠٠	١٥
زائير	٢٩٩٣٨٠٠٠	٢٩٩٣٨٠٠	١٠
ليبيريا	٢١٩١٠٠٠	٤٣٨٢٠٠	٢٠
أوغندا	١٥٤٧٧٠٠٠	٤٦٤٣١٠٠	٣٠
رواندا	٦٠٧٠٠٠٠	٣٦٤٢٠٠	٦
الكنغربرازفيل	١٧٤٠٠٠٠	٦٩٦٠٠	٤
جابون	١١٥١٠٠٠	١١٥١٠٠	١٠
ناميبيا	١٥٥٠٠٠٠	٤٦٥٠٠	٣
جنوب أفريقيا	٢٣٣٩٢٠٠٠	٦٤٧٨٤٠	٢
زامبيا	٦٦٦٦٠٠٠	٢٦٦٦٤٠	٤
زيمبابوى (روديسيا)	٨٧٧٧٠٠٠	٨٧٧٧٠	١
مجموع المسلمين		٦٥٣٢٤٨٣٠	

تابع جدول (٤)

الدولة	جملة السكان بالألف	عدد المسلمين	نسبة المسلمين ٪
(جـ) أوروبــــــــا			
البانيا	٣٠٥٠٠٠٠	٢١٣٥٠٠٠	٧٠
يوغسلافيا	٢٣١٥٣٠٠٠	٣٩٣٦٠٠٠	١٧
المانيا الغربية	٦٠٨٧٧٠٠٠	١٢١٧٥٤٠	٢
بلغاريا	٩٠٧١٠٠٠	١١٧٩٢٣٠	١٣
بريطانيا	٥٦١٢٥٠٠٠	١١٢٢٥٠٠	٢
فرنسا	٥٤٦٢١٠٠٠	١٠٩٢٤٢٠	٢
إيطاليا	٥٧٣٠٠٠٠٠	٥٧٣٠٠٠	١
بولندا	٣٧١٨٧٠٠٠	٣٧١٨٧٠	٢,٥
اليونان	٩٨٧٨٠٠٠	٢٤٦٩٥٠	١
رومانيا	٢٣٠١٧٠٠٠	٢٣٠١٧٠	١
بلجيكا	٩٩٠٣٠٠٠	٩٩٠٣٠	١١
مالطة	٣٨٣٠٠٠	٤٢١٣٠	١٠
جبل طارق	٣١٠٠٠	٣١٠٠	٢٦
قبرص	٦٦٩٠٠٠	١٧٣٧٤٠	
المجموع		١٢٤٢٢٦٨٠	

تابع جدول (٤)

الدولة	جملة السكان بالألف	عدد المسلمين	نسبة المسلمين ٪
(د) الأمريكتيــــــن			
الولايات المتحدة الأمريكية	٢٣٨٠٢٠٠٠٠	٣٣٣٢٢٨٠	١,٤
الأرجنتين	٣٠٥٦٤٠٠٠	٢٧٨٩١	١.٤
البرازيل	١٣٥٥٦٤٠٠٠	٢٤٤٠١٥	٠,١٨
جويانا (غيانا)	٩٥٣٠٠٠	١٢٣٨٩٠	١٣,٠
كندا	٢٥٤٢٦٠٠٠	١٠٩٣٣١	٠,٤
تريند ادوتو باحو	١١٨٥٠٠٠	٩٤٨٠٠	٨,٠
سورينام	٣٧٥٠٠٠	٨٢٥٠٠	٢٢,٠
	مجموع المسلمين	٤٤١٤٧٠٧	

(هـ) استراليا والأوقيانوسية			
الدولة	جملة السكان بالألف	عدد المسلمين	نسبة المسلمين ٪
بابوا (غينيا الجديدة)	٣٥١١٠٠٠	١٠٥٣٠٠٠	٣٠.٠
استراليا	١٥٧٩٨٠٠٠	٢٣٥٤٧٠	١.٥
جزر سليمان	٢٧٠٠٠٠	٨١٠٠٠	٣٠.٠
فيجي	٦٩١٠٠٠	٧٦٠١٠	١١.٠
	مجموع المسلمين	١٤٤٥٤٨٠	

انتشار الإسلام (محاور زحف وإشعاع الإسلام):[(١)]

يمكن القول أن الشعلة الأولى انطلقت من شبة الجزيرة العربية إلى منطقة العالم العربي في حدودها الحالية تقريبا وبعدها سلموا المشعل إلى بؤرات ثانوية تولت دفعة إلى آفاق مكانية أبعد. وقد تعددت هذه البؤرات الثانوية على الطريق حتى تتحذه الحركة في مجموعها ميكانيكية أشبه بسباق التتابع.

ويمكن بإيجاز تحديد ثمانية محاور وبعض هذه المحاور خدم أكثر من قارة:[(٢)]

المحور الأول: (المحور النيلي)

وبدأ بمصر ومنها انطلق، فبعد قرنين من الهجرة كانت مصر قد تحولت في مجموعها للإسلام، وبعد وقفه ليست بالقصيرة أمام النوبة استطالت أحيانا إلى القرن الرابع عشر اندفع السهم في السودان النيلي على محور ذي ثلاث شعب يمينا وقلبا ويساراً حيث غطى الإسلام كل السودان الشمالي في غصون العصور الوسطى. وإذا كان المد قد توقف جنوبا عند بحر العرب، فقد استدار مع الشعبة اليسرى نحو الغرب إلى سودان السفانا حيث منطقة بحيرة تشاد - ليغلق مع المحور الثاني - دائرة كاملة في حركة الإسلام التاريخية حول الصحراء الكبرى وتشمل سواحلها وشواطئها.

---

(١) انظر شكل رقم (١) ص (٢٧) الخاصة بمحاور زحف وإشعاع الإسلام.

(٢) جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر ص ص٦٥-٦٨.

المحور الثاني:

وانطلق هذا المحور الأخير غرباً على طول ساحل البحر المتوسط ليغطي كل شمال إفريقيا بالإسلام في غضون القرن العاشر؛ هذا عدا شعبة فيه عبرت البحر المتوسط إلى أسبانيا وصقلية، إلى أن استدار جنوباً مع المحيط الأطلسي على حواف الصحراء الكبرى (خلال القرن ١٠-١٢) واصلاً إلى سفانا السودان الغربي ابتداء من القرن ١١-١٣ ثم متمما دورته عكس عقارب الساعة ليلتقي في النهاية بصنوه النيلي عند بحيرة تشاد حوالي القرن الثالث عشر، واستمر استكمال إسلام هذا القطاع حتى القرن ١٦.

وقد خرجت من المحور فروع ثانوية عديدة قطعت الصحراء طولاً وعرضاً عن طريق القوافل ونقط الواحات.

المحور الثالث:

وهو محور شرق إفريقيا ابتداء من القرن الإفريقي حتى الرأس ومركز التصدير هنا هو الجنوب العربي البحري أساسا. فقد عبر عرب الجنوب البحر إلى شرق السودان وانساحوا فيه منذ صدر الإسلام، وإلى القرن الإفريقي حيث بثوا الإسلام في شرق الحبشة والصومالات منذ القرن العاشر، ثم إلى ساحل الزنج حتى الزمبيزي ومدغشقر وارخبيلها. ولم يتقدم المحور جنوبا بعد هذا إلا حديثاً في القرن التاسع عشر على أيدي الهنود المسلمين المهاجرين إلى جنوب إفريقيا حيث وصلوا به إلى الرأس.

المحور الرابع:

مع الهلال الخصيب (الشمال والعراق) الذي تم إسلامه في القرون الثلاثة الأولى من العصر الإسلامي، اتجه المحور الرابع حاملاً الدعوة ليرتقي بها سقف هضبة إيران الطبيعية برمتها (القرن ٧-٨) حتى وصل بها على حوائطها الشرقية إلى ممر خيبر (القرن ١٠) وتعد تلك الفتحة الطبيعية التاريخية الحاسمة التي دخل ومنها الإسلام للهند كاسحاً ومغطياً سهول الهند الشماليه السند والجانج حتى خليج البنغال شرقاً ومشارف هضبة الدكن جنوبا وتم ذلك حتى القرن ١٣.

المحور الخامس:

ومن أواسط المحور السابق فى إيران كبؤرة ثانوية يبدأ المحور الخامس إلى سهول التركستان المترامية إلى شرق بحر قزوين (الخزر حينذاك) ليرسم قوسا عظيماً عكس عقارب الساعة ليطوى ما وراء النهرين منتهياً شمال البحر وغربه إلى الفولجا وتخوم البحر الأسود، تلك الإنطلاقه هى فى واقع الأمر التى جعلت من وسط آسيا مشتلاً من مشاتل الإسلام المبكرة التى ارتبطت بحضارة المشرق العربى فى اوج عصرها الإسلامى. وقد وصل الإسلام إلى ما وراء النهرين واستقر فى القرن ٨-١٠ ولكنه لم يكتمل نهائياً إلا حتى القرن١٣.

وإذا كان هذا المحور هو ثانى محاور انتشار الإسلام فى آسيا، إلا أنه باستدارته غرباً اصبح أيضا محوراً من محاور دخوله إلى أوربا.

المحور السادس:

ومن العقدة السابقة التى خرج منها محور التركستان خرج " المحور الصينى". والواقع أن حوالى " عقدة البامير" الطبيعية ثمة عقدة إسلامية تاريخية حقيقية خرجت منها المحاور الثلاثة إلى: الهند والصين والتركستان، عدا محوراً رابعاً غرباً إلى تركيا، فمن القرن ١٣ – وقبله بكثير بدأ الإسلام مع التجار العرب والفرس ومع الهنود أيضا يصعد ذرى قلب آسيا الجبلية الهضبية فى طريق عالم الصين. وإذا كان هذا المحور يرتبط جملة بالتركستان الصينية (حوض سينكيانج) فقد تشعب إلى شعبتين: شمالا حيث الممرات الطبيعية الرئيسية خاصة ممر زو نجاريا وجنوبا حيث عقود الواحات النظيمه خاصة طورفان، وحيث طرق التجارة التقليدية التاريخية لاسيما طريق الحرير، ثم تعود الشعبتان فتلتحمان فى النهاية لتدخلا الصين فى شمالها الغربى فى القرن ١٣ تقريباً. ومنها يبدأ مركز توزيع ثانوى على شكل زاوية قائمة: شرقاً إلى شمال الصين وجنوباً إلى جنوبا الغربى، ومن الشعبة الأولى تسرب الإسلام قليلا إلى منشوريا ومن الجنوبية انساب قليلا كذلك إلى أقصى شمال الهند الصينية فى بورما. ويمكن أن يؤرخ لإنتشار الإسلام الحقيقى فى الصين بين القرنين ١٣-١٦ وحتى بعدها ظل بصفة ثانوية.

المحور السابع:

المحـور التركى الذى بدأ من وسط آسيا بصفة عامة وأخذ مساراً عكسـياً مضاداً لمسار المحور الإيرانى الهندى، فاتجه غرباً عبر إيران إلى الأناضول حيث تم إسلامها منذ القرن ١٣ وبعدها عبر إلى البر الأوربى لينقل الإسلام إلى البلقان حتى الدانوب ما بين القرنين ١٤، ١٧. وإذا كان هذا المحور آسيويا فى أصله فهو أوربى بأثره، بل هو أهم المحاور الثلاثة التى غزا الإسلام عليها اوربا وكان أشدها توغلا فيها.

المحور الثامن:

وهو محور بحرى، يترك اليابس إلى المحيط ليقفز بالإسلام قفزه واسعة عبر المحيط الهندى إلى عالم الجزر وأشباه الجزر فى جنوب شرقى آسيا، جنوب الجزيرة العربية، مرة أخرى هو بؤرة التوزيع. حيث خرج بحارة وتجار العرب والإسلام على الطريق المائى التاريخى، طريق البهار - كما يُطلق عليه البعض - حيث تركوا خميرته فى جنوب الهند وسيلان (القرن ٨) كمرحلة على الطريق ولكن دون أن يتوغل فى الأولى بما يكفى، ليقابل محور إسلام الهند الشمالى، ثم فى الملايو وإندونيسيا كنهاية المطاف حيث استقر الإسلام بقوة وبنشاط منذ القرن ١٣ وبعامة من القرن ١٢-١٥.

غير أن ملتقى الملايو وإندونيسيا كان بدوره بؤرة توزيع ثانوية خرج منها الإسلام مع ابنائها، وهم أيضا آهل بحر وتجارة، ليتفرع كأصابع اليد إلى جنوب الهند الصينية والفليبن. فدخل الأولى فى تاريخ متأخر نسبياً والثانية فى القرن ١٤،كذلك وصل الإشعاع إلى ساحل الصين الجنوبى أولا على يد التجار العرب أنفسهم منذ وقت مبكر ثم على أيدى التجار الملاويين فى العصور الوسطى، ولكن هذا اللسان ظل ثانوياً بحيث لا يمكن أن نتكلم إلا عن مدخل واحد للإسلام إلى الصين هو المحور البرى، بينما للمقارنه - تمتاز الهند نسبياً بمدخلين:

ا- براً فى الشمال. ب- بحراً فى الجنوب.



شكل رقم (١) محاور زحف وإشعاع الإسلام

نقلاً عن : جمال حمدان، العالم الإسلامى المعاصر ص ٦٨

أولاً

المسلمون في آسيا:

"إندونيسيا - الهند - فارس

افغانستان - ماليزيا - بروناى"



الفصل الثانى

المسلمون فى إندونيسيا

إنـــدونيســـا

يطلق أسم إندونيسيا على مجموعة الجزر الواقعة فى جنوب شرق آسيا والتى تضم سومطرة وجاوة وبورنيو وسيليبيس ولومبون وتيمور وجزائر الملوك، الجديدة وشبه جزيرة الملايو وبعض الجزر الأخرى المبعثرة وقد أطلق على مجموعة الجزر هذه أسماء متعددة فسميت قديماً بأسم نوسنتارا وانيسوليند.

وسميت أيضا بأسم جزائر الملايو، وبأسم جزائر الهند الشرقية الهولندية كذلك أطلق العرب الأقدمون عليها جاوة وهو من قبيل اطلاق الجزء على الكل. ومازالوا حتى يومنا هذا يحتفظون بتلك التسمية.

ومنذ عام ١٨٥٠ أخذ اسم إندونيسيا يغلب ما عداه من الأسماء، ويتكون هذا الاسم من جزءين هما: (اندو) وهى مشتقة من كلمة الهند والثانى (نيسيا) ومعناها الجزر. أى أن إندونيسيا هى جزائر الهند. وقد أصبحت هذه التسمية رمزا لوحدتهم وأمانيهم القومية. ولهذا السبب لم تكن الحكومة الهولندية التى حكمت تلك الجزر تعترف بتلك التسمية.

ويطلق هذا الأسم حاليا على مجموعة الجزر التى كانت خاضعة لحكم هولندا ولكن أسم إندونيسيا يشمل أيضا جزر الفلبين التابعة للولايات المتحدة الأمريكية، بل لقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن جزيرة مدغشقر وجزيرة سيلان تدخلان أيضا ضمن مجموعة الجزر الإندونيسية، لأن سكان هذه الجزر جميعها من أصل جنس الملايو.

ويمكننا أن ندرك مدى أهمية موقع تلك الجزر فى جنوبى شرق آسيا إذا ما عرفنا أن مساحتها تبلغ ٢,٣٧١,٤١٩ كيلو متراً مربعاً أى ما يعادل مساحة هولنده (التى حكمت تلك الجزر) حوالى ٦٨ مرة، ولكن هذه المساحة من الأرض ليست متصلة، بل هى عبارة عن جزر يفصلها عن بعض بحار داخلية فهى متناثرة وممتدة امتدادا شاسعاً يبلغ ٣٠٠٠ ميل أى ما يوازى المسافة بين شواطئ الخليج العربى شرقا

وسواحل البرتغال غربا، وتمتد هذه الجزر في مساحة عرضها مسافة ١٣٠٠ ميل. وإذا قدرنا مساحتها الكلية بما يتخللها من بحار نجدها تبلغ حوالي أربعة ملايين ميلاً مربعاً، فهي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، تزيد عنها بربع مليون ميل مربع باستثناء السكان .

وتنقسم تلك الجزر إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى وتتكون من جزيرة سومطرة وجاوة وبورنيو وسيليبيس وتسمى (سوندا الكبرى) والمجموعة الثانية وهي مجموعة الجزائر الصغرى التى تقع بين جزيرة غينة الجديدة شرقا وجزيرة جاوة غربا وتسمى (جزائر سوندا الصغرى). ومجموعة ثالثة تقع بين سيليبيس غرباً وغينيه الجديدة شرقاً وتسمى (جزر الملوك أو جزر البهارات) التى جاء ذكرها كثيرا في كتب التاريخ.

فهذه الجزر إذن تتمتع بموقع استراتيجي ممتاز وبموارد أولية ضخمة وبعدد كبير من السكان يمكن استخدامه في استغلال موارد الأرض لصالح الصناعات الغربية. كما أن هذا العدد أيضا يستهلك كميات ضخمة من المصنوعات اللازمة لقيام الصناعة في أوربا كما أنها سوقا رائجة لمنتجات الغرب فلا غرو إذا ما وقعت فريسة الإستعمار الهولندي والإنجليزي والأمريكي والبرتغالي.

عرفت إندونيسيا الوحدة السياسية منذ القرن الخامس الميلادي حتى القرن الثالث عشر تحت حكم إمبراطورية (سري ويجايا). وبعد سقوط تلك الإمبراطورية في أواخر القرن الثالث عشر، قامت على أنقاضها إمبراطورية أخرى هي إمبراطورية (ماجافا هيت) ١٢٩٣-١٤٧٨. واستطاعت تلك الإمبراطورية أن توحد جزيرة جاوة وجزائر سوندا الصغرى وجزيرة سيلبيس وجزائر البهارات وبرنيو وشبه جزيرة الملايو وجزيرة سنغافورة وسومطرة تحت حكمها، وأن تسيطر على تجارة تلك المنطقة، سواء بينها وبين الصين أو بينها وبين التجار الهنود الذين يقومون بتسليمها للتجار العرب في الخليج العربي حيث تتركز في مدينة بغداد ومنها تسير في طريقين: أحدهما يمر بتركيا إلى أوربا. وقد توقفت التجارة عن هذا الطريق بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين عام ١٤٥٣ والطريق الآخر المار بمصر ومنها إلى أوربا.

ونظرا لحاجة الغرب الشديدة إلى البهارات، ونظرا لارتفاع ثمنها ارتفاعا باهظا فى أوربا، حاول الأوربيون أن يصلوا إلى مناطق انتاجها لشرائها بأثمان منخفضة وقد شجع هذا ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٣م) الرحالة الإيطالى على مغادرة البندقية فى سنة ١٢٩٣ متجها إلى الصين ونزل بسومطرة بعض الوقت ثم تبعه فى نفس المضمار بارثلوميو دياز Partholomeu Diaz البرتغالى الذى استطاع الوصول إلى جنوب إفريقيا وأطلق على رأس القارة الجنوبى رأس الرجاء الصالح وذلك فى عام ١٢٨٦ وأتم عمله هذا بحار آخر يدعى فاسكو دى جاما Vasco da Gama حيث وصل إلى ميناء قاليقوط بالهند فى عام ١٤٩٨. واستطاع البرتغاليون وخصوصاً فى أيام الحاكم البرتغالى للمستعمرات البرتغالية فى الهند المسمى الفونسودى البوكيرك Alphonso d`Albuquerque(١٤٥٣-١٥١٥) أن يسيطروا على التجارة فى الجزء الغربى من المحيط الهندى وأن يتطلعوا إلى الجزء الشرقى حيث توجد جزر الهند الشرقية. وقد نشبت معارك شديدة بين الإندونيسيين المسلمين من ناحية وبين البرتغاليين من ناحية أخرى وقد اتخذت تلك الحرب شكل الحروب الصليبية، نظرا لقرب عهد البرتغاليين بمقاومة النفوذ العربى والقضاء عليه فى شبه جزيرة الأندلس. وتمكن البرتغاليون بعد جهود كبيرة من الاستيلاء على معظم سفن المسلمين واحتلال شبه جزيرة الملايو ومضيق ملقا الذى يعتبر من أهم الممرات التجارية المسيطرة على طرق التجارة الآسيوية.

ثم أخذوا فى إرسال الحملات المتعددة إلى الصين وسيام وإلى جزر الملوك أو جزائر البهارات بقصد الاستيلاء على البهارات واحتكارها فى أيديهم فقط. كما أرسلوا البعوث التبشيرية إلى تلك الجزر لنشر المسيحية فيها، وقد استطاعوا بالفعل أن يدخلوا عددا قليلا من سكان إندونيسيا فى الديانة المسيحية واتخذوهم اتباعا لهم ومؤيدين لسياستهم الاستعمارية. وظهور الإسلام فى إندونيسيا جاء نتيجة لاختلاط التجار الإندونيسيين بالتجار العرب فى موانى الخليج العربى، ومشاهدة هؤلاء التجار تقدم الدولة العباسية فى الحضارة وخصوصا فى أيام هارون الرشيد

فاعتنق كثيرون منهم الإسلام وعن هذا الطريق دخل الإسلام إندونيسيا وأنتشر وحل محل الديانة البوذية والوثنية.

ومنذ ذلك الوقت كثر سفر التجار الأوربيين إلى إندونيسيا والتعامل مع التجار الإندونيسيين مباشرة دون وساطة ليجنوا أكبر قسط من الأرباح.

وبانتشار الإسلام فى الجزر الإندونيسية قامت ممالك إسلامية متعددة فيها مثل مملكة بنتام التى أسسها الملك حسن الدين فى جاوة الغربية سنة ١٥٦٨ وملكة متارام التى أقامها رجل عسكرى يدعى سنافانى فى شرق جاوة سنة ١٥٨٣. وبذلك أصبحت جزيرة جاوة مركز الإشعاع للدين الإسلامى، فانتقل منها إلى غيرها من الجزر ثم قام نزاع بين هؤلاء الملوك والحكام كان من أثره اشتعال نار الفتنة وحدوث الاضطرابات مما أضعف البلاد أمام الغزو الأوربى المرتقب.

كان البرتغاليون كما سبق أن ذكرنا - أول من استطاع الوصول إلى إندونيسيا وذلك فى عام ١٤٦٨ وظلوا يحتكرون نقل تجارة التوابل إلى أوربا، حتى سنة ١٥٨٠ حيث استولت أسبانيا على البرتغال، فآلت إليها البرتغال بمالها من ممتلكات. ولما كان بين الأسبان والهولنديين عداء فى ذلك الوقت طمعت هولندا فى ضم الممتلكات البرتغالية فى إندونيسيا وفى منافستهم فى تلك الجزر. وبالفعل استطاعوا الوصول إليها فى أواخر القرن السادس عشر. ثم تبعهم الإنجليز والفرنسيون فى أوائل القرن السابع عشر وحدث تسابق بين تلك الدول فى استنزاف موارد الثروة فى البلاد على نطاق واسع بقدر ما كانت تتسع مراكبهم فى ذلك الوقت.

وقد جاء الهولنديون إلى إندونيسيا كمستعمرين، ولكن استعمارهم كان ذا صبغة تجارية صرفة، فما يهم الهولنديون فى ذلك الوقت هو السيطرة على موارد الثروة واستغلالها لصالحهم الخاص. ومن ثم نشأت الشركات الهولندية وعلى غرارها نشأت شركات أخرى إنجليزية وفرنسية تعتمد على أسطول تجارى ضخم وعلى قوة مسلحة لحمايته. وقد تنافست تلك الشركات منافسة عنيفة أدت إلى الاشتباكات المسلحة فى بعض الأوقات.

ويمكننا القول بأن هذه الشركات الأجنبية قد مكنت للنفوذ السياسى من أن يستقر وأن يتوطد. فنجد مثلا أن شركة الهند الشرقية الهولندية Vereenigde Oast Indish التى تكونت فى ٢٠ مارس سنة ١٦٠٢ قد لعبت دورا خطيرا فى توطيد أقدام الاستعمار الهولندى فى إندونيسيا، ومن أكبر دعائم تكوين الإمبراطورية الهولندية التى كانت تعتبر ثالثة الإمبراطوريات بعد الإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية البائدتين.

وعاونها فى هذا الشأن أيضا شركة الملاحة الهولندية Stampart Nederland Maatschapy التى تأسست عام ١٨٧٠. وقد سبقهما إلى هذا الميدان وهو ميدان الاستعمار - شركة الهند الشرقية الإنجليزية East India Company التى تأسست فى عام ١٥٩٩ والتى كان لها أكبر الأثر فى توطيد النفوذ الإنجليزى فى الهند وفى أقامه صرح الإمبراطورية البريطانية الزائلة.

وقد بذل الهولنديون نشاطا تجاريا ملحوظا منذ أن وطأت أقدامهم أرض إندونيسيا إذ قاموا برحلات استكشافية حول الجزر الإندونيسية بقصد توطيد علاقتهم بالأهالى والدخول فى علاقات تجارية معهم ووصلوا فى طوافهم إلى جزر الفلبين وشواطئ سيام والهند الصينية والصين. وكذلك وصلوا إلى اليابان فى سنة ١٦٠٠ وإلى شواطئ استراليا الشمالية فى سنة ١٦٠٥.

ساد التنافس بين البرتغاليين والهولنديين فى إندونيسيا، وكانت الأمور فى ذلك الوقت تسير فى مصلحة الهولنديين، وخصوصا وأن هذا التنافس قد أتى بعد هزيمة أسطول إسبانيا الأرمادا أمام الأسطول الإنجليزى فى عام ١٥٨٨، ولذا لم تستطع إسبانيا أن تشد أزر البرتغاليين فى صراعهم مع الهولنديين، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى تفوق الهولنديين فى النهاية.

وفى سنة ١٦٠٠ استطاع الهولنديون من عقد معاهدة تحالف مع الإندونيسيين فى جزيرة (امبوينا) وتنص هذه المعاهدة على منح الهولنديين حق إقامة الحصون للدفاع عن الجزيرة، فى مقابل احتكارهم لتجارة البهارات. وقد

سارت هولندا على سياسة عقد المعاهدات بين الملوك والسلاطين من حين لآخر توطيداً لنفوذها وسيطرتهما على هذه الجزر.

وبعقد مثل تلك المعاهدات قامت شركات هولندية متعددة لاستغلال موارد الثروة في البلاد وسار التنافس بين ممثليها بشكل أضر بمصلحة الهولنديين إلى أن رأت الحكومة الهولندية توحيد كل تلك الشركات في شركة واحدة تسمى شركة الهند الشرقية الهولندية V.O.C التي أشرنا إليها.

وفي سنة ١٦١٣ عينت هولندا السيد كون Coon رئيسا وحاكماً عاماً لجميع وكلاء الشركة في إندونيسيا، وكان ذا أطماع واسعة في احتكار تجارة إندونيسيا كلها بل وتوجيهها إلى العالم الآسيوي، واتخذ من مدينة (بتافيا) جاكرتا حاليا عاصمة جاوة مقراً له. ثم نشأ نزاع بينه وبين الإنجليز في سنة ١٦١٨ في ميناء جاكرتا.

ثم أخذ الهولنديون يدخلون في حروب مع حكام الجزر الإندونيسية الواحد بعد الآخر إلى أن تمكنوا من توطيد سلطتهم في إندونيسيا.

ومنذ أوائل القرن الثامن عشر بدأت الشركة تتحول من التجارة فقط إلى الزراعة أيضا، فأدخلت زراعات جديدة مثل زراعة البن التي أصبحت من أهم مصادر دخل الشركة في الربع الأخير من هذا القرن.

وقد ساعد الشركة في ذلك الوقت انهيار التجارة الآسيوية لانشغال اليابان بانقلابها الصناعي وبتنفيذ سياستها في الاكتفاء الذاتي. ولكن نظراً لانهيار تجارة الشركة مع الهند بدافع من فرنسا وإنجلترا، بدأت الشركة تفقد مالها من سلطان تجاري وتتحول إلى السياسة وإلى الحكم. وترتب على هذا الاتجاه الجديد زيادة خسارة الشركة وكثرة ديونها إلى أن انتهت بصفة نهائية في عام ١٧٩٩ وحلت الحكومة الهولندية محل الشركة في تسيير أمورها. ومنذ ذلك الوقت بدأت الحكومة الهولندية تستعمر اندونيسيا وتسير على نفس سياسة الشركة التعسفية مع عامة الشعب. فأدخلت بعض المحاصيل الجديدة إلى إندونيسيا وأجبرت الأهالي على زراعتها وتسليم محصولها إلى الحكومة بالثمن الذي تحدده.

وفي عام ١٨١١ نظراً لاحتلال نابليون هولندة، هاجمت إنجلترا الممتلكات الهولندية للاستيلاء عليها حتى لا تقع في يد نابليون، فدخلت في حوزتها جزيرة جاوة، وجزيرة تيمور، ومكاسر في سيلبس وجنوبي سومطره. وقد تم هذا الاحتلال عن طريق شركة الهند الشرقية الإنجليزية. وفي ظل الحكم الإنجليزي تمتعت إندونيسيا بشئ من الحرية في إدارة شئونها الداخلية وفي استغلال مواردها.

وبإنهزام نابليون واستغلال هولنده تعود الممتلكات الهولندية في إندونيسيا إليها مرة ثانية وذلك بمقتضى الاتفاقية التي عقدت بين إنجلترا وهولندا في عام ١٨١٤ باستثناء، جزيرة سيلان في الهند ومدينة الكاب في جنوب إفريقيا وجزائر الهند الغربية بأمريكا الوسطى التي احتفظت بها إنجلترا.

وقد رأت إنجلترا بعد أن سلمت إندونيسيا لهولنده أن تعمل على السيطرة على الطرق التجارية بين الهند والصين. ولذا وجدت أن من الضروري الاستيلاء على مضيق ملقا وأن افضل مكان تسيطر فيه إنجلترا على حركة التجارة هو جزيرة سنغافورة، فلم تتردد في شراء تلك الجزيرة من أحد الحكام المحليين في ٢٩ يناير سنة ١٨١٩ واعلان حرية هذا الميناء، وبأنه سيستخدم لتموين السفن الأوربية والإندونيسية. ومنذ ذلك الوقت أصبح لسنغافورة مركزها الإستراتيجي الممتاز في منطقة الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا.

ثارت هولنده لاحتلال الإنجليز لميناء سنغافورة واعتبروه من ممتلكاتهم الواردة ضمن الاتفاقية التي عقدت بينها وبين إنجلترا في سنة ١٨١٤، ولكن الإنجليز لم يأبهوا لهذه الثورة ولكنهم في نفس الوقت لم يكونوا على استعداد للدخول في منازعات مع هولنده ووجدوا أن خير طريق للمحافظة على الإستعمارين الإنجليزي والهولندي لتلك الجزر هو الاتفاق بالطرق الودية. وبالفعل أسفرت المفاوضات بين الجانبين على عقد اتفاق في مدينة لندن في عام ١٨٢٤. وينص هذا الاتفاق على احتفاظ الإنجليز بشبه جزيرة الملايو وجزيرة سنغافورة مقابل تنازل الإنجليز للهولنديين عن منطقة من الأرض غربي جزيرة سومطرة. كما استولى الإنجليز على شمال بورنيو. وتعهد الطرفان باحترام حدود مستعمراتهما وتجنب كل ما من شأنه

اثارة المتاعب للآخر. وبهذا ينتهي التنافس التجارى السياسى بين الدولتين فى الشرق الأقصى.

وإذا كانت هولندا قد وضعت حدا لنزاعها مع إنجلترا لتهدأ بالا باستعمارها لإندونيسيا، فإن هذا الهدوء لم يتحقق، فالقوانين التعسفية التى فرضتها السلطات الهولندية الحاكمة على السكان، بالإضافة إلى امتهانهم لعادات وتقاليد البلاد الإسلامية. قد أثارت الأهلين وعلى رأسهم الأمير ديبو ميجورو Dipo Megoro أحد علماء جاوة فقام نزاع بينه وبين تلك السلطات الهولندية الحاكمة تطورت إلى حرب طويلة بدأت فى منتصف عام ١٨٢٤ واستمرت حوالى خمس سنوات تكبدت هولنده خلالها خسائر فادحة فى الأموال والأنفس، ويقدر عدد القتلى فى تلك الحرب من الهولنديين بخمسة عشر ألفا.

ولما يئست هولندا من التغلب على الأمير لجأت إلى سلاح الخديعة فطالبت الدخول فى مفاوضات معه لوضع حد لهذا النزاع وذلك فى ١٦ فبراير سنة ١٨٣٠. ولكنهم غرروا به وقبضوا عليه أثناء المفاوضات ونفى إلى جزيرة سيليبيس حيث مكث فيها إلى وفاته فى ٨ فبراير سنة ١٨٥٥.

ويعتبر الأمير ديبو نيجورو من المجاهدين الإندونيسيين الذين ضربوا أروع الأمثال فى محاربة الاستعمار.

ونتيجة للحروب الكثيرة التى خاضتها هولندا ضد نابليون وضد بلجيكا، وكذلك لإخضاع ثورة الأمير، فإن الميزانية الهولندية قد ثقلت بالديون ووجدت هولندا أن أفضل سبيل للتخلص من هذا الارتباك المالى هو فرض الضرائب الباهظة على الإندونيسيين وتنفيذ سياسة التوجيه الاقتصادى وإجبار الأهالى على زراعة محاصيل بعينها تتولى الحكومة تصريفها فى الأسواق العالمية. وكان تنفيذ تلك السياسة بناء على توصيات رجال الحكومة الهولندية من المحافظين.

وكانت إندونيسيا خاضعة مباشرة لسلطة الملك فى هولندا دون تدخل من البرلمان وذلك بمقتضى دستور سنة ١٨١٥، ولكن منذ سنة ١٨٤٨ صار الملك يحكم تلك المستعمرات عن طريق وزير المستعمرات الهولندى. وكان كل من حزب

الأحرار والمحافظين فى هولندا يعتبر أن مهمة إندونيسيا هى العمل على رفاهية الشعب الهولندى، أى أن جزءاً كبيراً من ميزانيتها يجب أن يوجه لهولندا لرفع مستوى الشعب فيها.

ويمكننا أن نقسم تقدم النفوذ الهولندى فى إندونيسيا وتوسعه إلى ثلاث فترات:

الفترة الأولى: وتمتد من عام ١٨١٦ إلى عام ١٨٥٠ وهى فترة البناء والتشييد ففى خلالها خاضت هولنده حروبا ضد إنجلترا وبلجيكا وضد الأمير ديبو ميجورو، فارتبكت ماليتها واشتدت حاجتها إلى المال وإلى فرض الضرائب، ولهذا اقتصر نشاطها على توطيد نفوذها السياسى والاقتصادى فى جزيرة جاوة ولم تهتم كثيراً بالجزر الأخرى إلا إذا سنحت الظروف بذلك.

الفترة الثانية: وتمتد من ١٨٥٠ إلى عام ١٩٠٤. وفى خلال تلك الفترة بدأت الأوضاع تستقر بالنسبة للهولنديين فى جاوة فبدءوا يتطلعون إلى توسيع ملكهم، فحدثت بينهم وبين مملكة آتشية فى شمالى سومطرة حربا مقدسة استمرت واحد وثلاثين عاما من (١٨٧٣-١٩٠٤) وقد كبدت هولنده خسائر فادحة فى الأموال والأنفس. وتعتبر تلك الحرب مثالا رائعا للجهاد ضد المستعمر وأنموذجا حيا لقوة الشعب الإندونيسى وصبره وشجاعته.

الفترة الثالثة: وتشمل الفترة من عام ١٩٠٤ إلى قبيل الحرب العالمية الأولى وفى تلك الفترة بلغ النفوذ الهولندى أوج قوته فاستطاعت هولنده أن تخضع معظم ملوك إندونيسيا لسلطاتها إما بطريق الحرب أو بطريق الخدعة. ولكنها لم تحاول أن تظهر للشعب الإندونيسى بوجهها الاستعمارى البغيض. فحكمت تلك البلاد عن طريق حكامها وسلاطينها القدامى مع الاحتفاظ لهم بما كانوا يتمتعون به من أبهة وجاه.

حالة إندونيسيا عند قيام الحرب العالمية الأولى

تغيرت الأوضاع الاقتصادية فى إندونيسيا، بل فى معظم بقاع العالم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وكانت معظم الحكومات الأوربية فى ذلك الوقت قد أخذت بالنظرية الاقتصادية الجديدة التى تقضى بعدم تدخل الحكومة فى الشئون الاقتصادية والتجارية، وتركها حره تتحكم فيها عوامل المنافسة ونظرية العرض والطلب.

وقد أخذت الحكومة الهولندية بهذه النظرية منذ عام ١٨٧٠ خضوعاً لرأى حزب الأحرار الهولندى الذى كان يعتنق تلك النظرية فتخلت هولنده عن التدخل المباشر فى الشئون الزراعية والتجارية، ولكنها فى نفس الوقت احتفظت لنفسها بإدارة بعض المزارع الكبيرة وكذلك الإشراف على استغلال المناجم وشئون المواصلات.

ولم يشمل هذا التغير سياسة الحكومة الهولندية فحسب بل وجدت عوامل أخرى سياسية واقتصادية عالمية كان لها أثرها البالغ فى الاقتصاد الإندونيسى. من هذه العوامل الانقلاب الصناعى الكبير الذى عرفته دول أوربا خلال القرن التاسع عشر وكذلك أمريكا. هذا الانقلاب الصناعى الكبير القائم على الإنتاج الضخم السريع والذى يتطلب من تلك الدول الصناعية الحرص على استجلاب المواد الخام الأولية اللازمة لتلك الصناعة من مصادرها الأصلية. ومن هنا زاد الاهتمام بالمنتجات الإندونيسية الزراعية والمعدنية، واشتد الطلب عليها بل أن هذا الاهتمام لم يقتصر على منتجات إندونيسيا من المواد الخام فحسب، بل تعداه إلى إندونيسيا نفسها كسوق تجارية هامة لتصريف المصنوعات الأوربية الأمريكية.

ومما كان له أكبر الأثر فى تنشيط الحركة التجارية وفى تخفيض نفقات النقل وأسعار المواد الخام والمصنوعات شق قناة السويس التى قربت بين أسواق الشرق المنتجة - للمواد الخام - وبين أسواق الغرب المستوردة لتلك الخامات والمصدرة

للمصنوعات المختلفة. وفى مستهل القرن العشرين أخـذت الحكومة الهولندية تتفرغ لاستغلال البلاد استغلالاً منظماً بعد أن قضت على الثورات الداخلية، وبعد أن أخلد الشعب الإندونيسى إلى الهدوء إلى حد ما بعد هذا الصراع الدامى الطويل مـع الهولنديين. وقد رأت هولنده أن من مصلحتها مصانعة الدول الأوربية والأمريكية لمساندتها فى استعمار إندونيسيا وللاعتماد على تأييدها وضماناً لعـدم إثارة المتاعب ضد احتلالها لتلك البلاد ولهذا فقد شجعت الشركات ورءوس الأمـوال الأجنبية على استثمار أموالها فى إندونيسيا، وبذلت لها كل معونة مستطاعه فضمنت بذلك تأييد تلك الـدول للوضـع القـائم فـى إندونيسـيا ومـوءازرة هولنـده فـى موقفـها إزاء الإندونيسيين للمحافظة على مصالحها ورؤس أموالها.

وبفضـل تلـك السياسـة الاقتصاديـة الجديـدة ازدادت هجـرة الأوربيـين والآسيويين إلى إندونيسيا وتضاعف نشاطهم لاستغلال موارد البلاد، وفى وسط هذا النشاط الأجنبى وتكالب الأوربيين على استثمار موارد البلاد أخذ الإندونيسـيون يشقون طريقهم نحو حياة اجتماعية ودينية وسياسية جديده. وبدأت نهضة إندونيسيا الحديثة فى مستهل هذا القرن تحت زعامة شخصيـة نسـائية كبـيرة هـى الزعيمـة الإندونيسية (رادن أجينح كاريتينى) ١٨٧٩-١٩٠٤ التى أخذت على عاتقها قيـادة الحركة الوطنية لتخليص البلاد من رقة الاستعمار. وقد وصـل الإندونيسـيون فـى مستهل القرن العشرين فى الفترة التى بدأت قبل الحرب العالمية إلى ما بعد انتهائها بعدة سنوات إلى درجة من الفقر والحاجة لم تشهدها البلاد من قبل، ولم يكن ذلك ناجم بطبيعة الحال عن قلة موارد البلاد، بل كان يرجع إلى الأوضاع الداخليـة والاقتصاديـة القائمـة. فـالمراكز الرئيسـية فـى الدولـة فـى أيـدى كبـار الموظفـين الهولنديين الذين يتقاضون مرتبات ضخمة كذلك الأراضى والضياع والمؤسسـات كانت إما ملكا للشركات الأجنبية والهولندية أو ملكا للحكومة. ولم يكن أمام سكان إندونيسـيا إلا الاشتغـال كـأجراء فـى شركـات الأجـانب أو الحكومـة وكـانت تلـك الشركات تتحكم فى تحديد الامـر وتتعسف مع العمال الإندونيسيين لتضمن بذلك أكبر قدر من الربح.

وفـي خـلال الحـرب العالميـة الأولى قدمـت إندونيسـيا أكـبر قسـط مـن التضحيات. فنظراً لموقف هولنده على الحياد بين الكتلتين المتصارعتين إنجلترا وحلفائها من ناحية وألمانيا وحليفتها من ناحية أخرى، كانت بمثابة مركز لتموين الجانبين المتحاربين بالمواد الغذائية والمواد الخام اللازمة للأعمال الحربية. ففي أوربا كانت هولنده تقوم بتموين ألمانيا بما تحتاج إليه، وفي إندونيسيا أخذت تمد الحلفاء بما يلزمهم من مواد خام ومواد غذائية. ولم يكن يهم هولنده في ذلك الوقت انتصار أي من الجانبين بقدر اهتمامها باستمرار الحرب، وإمداد كلا الفريقين بما يحتاج إليه. أي أن موقفها في تلك الحرب كان لا يخرج عن موقف التاجر الذي لا يهمه سوى الربح بأي شكل من الأشكال وكذلك كان الشأن بالنسبة لسائر الشركات الهولندية والأجنبية التي رأت في قيام تلك الحرب فرصة نادرة للكسب والإثراء، سواء بالطرق المشروعة أو غير المشروعة.

ولهذا كانت إندونيسيا أهم مصدر لتموين تلك الحرب، وأصبحت ميداناً للتنافس والتصارع الاقتصادي بين الجانبين. وقد ركزت هولند اهتمامها بإنتاج المواد الأولية والغذائية اللازمة للطرفين المتحاربين بصرف النظر عما إذا كانت تلك السياسة تتفق مع مصلحة الإندونيسيين أم لا. وترتب على تلك النظرة، أن تعرض الأهالي للمجاعات المتكررة خلال فترة الحرب العالمية الأولى وما تلاها لعدة سنوات، رغم أن إندونيسيا من أكبر الدول في إنتاج المواد الغذائية. ولكن هذا الإنتاج لم يكن مخصصا للاستهلاك المحلي بل كان مخصصا للتصدير. فلا غرابة إذن إذا ما اشتد الغلاء وارتفعت أثمان المواد الغذائية وندرة وجودها في الأسواق ولجأ النـاس إلى أوراق الأشجـار وجذورهـا يسـتعيضون بـها عـن الطعـام. وقـد صـبر الإندونيسيين على هذا الضيم على أمل تنفيذ ما وعدت به هولنده من منح إندونيسيا استقلالا داخليا في إدارة شئونها. وما درى هؤلاء أن تلك الوعود التي تبذل أثناء الحروب ما هي إلا نوع من المخدر للشعوب كي تهدأ وتستكين ريثما ينجلي الموقف وتصبح الدولة المستعمرة في مركز يسمح لها بأن تبطش بتلك الحركات القومية وقد أعطانا التاريخ أمثلة عديدة لأمثال تلك المواقف.

حالة إندونيسيا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٨ تطلع الإندونيسيون إلى هولنده لتنفيذ ما وعدت به، ولكنها لم تعر مطالب الإندونيسين إذنا صاغية شأنها فى ذلك شأن الدولة المجتمعة فى مؤتمر الصلح بباريس. وسنجد أن هذا المؤتمر لم يقرر شينا بخصوص الأوضاع فى الشرق الأقصى، بل إن حق تقرير المصير الوارد بمبادئ الرئيس الأمريكى ولسون الأربعة عشر لم يطبق إلا فى أضيق الحدود بالنسبة لبعض الشعوب الأوربية فقط.

كان لابد إذن على إندونيسيا أن تسلك طريق الجهاد إذا أرادت لنفسها الحرية والاستقلال، فازدادت الحركة الوطنية تأججاً، وظهرت الأحزاب السياسية التى تبنت قضية الاستقلال، مثل حزب (بودى اوتومو) Budiutomo وحزب (شركت إسلام) والجمعية المحمدية التى تعد من أكبر الجمعيات الإسلامية فى العالم. وكذلك الجمعية العائشية الخاصة بالسيدات، وجمعية باسواندان وحزب جاوة الفتاه، وحزب الأمراء، وجمعية نهضة العلماء والجمعية الوصلية وجمعية اتحاد علماء الإسلام. وغيرها من الجمعيات والأحزاب التى بلغ عددها ٥٧ جمعية.

وقد تبلورت تلك الأحزاب وخصوصا الأحزاب السياسية منها إلى حزبين رئيسيين وهما: حزب القمصان الخضراء وحزب القمصان الحمراء.

١ - أما الحزب الأول وهو حزب القمصان الخضراء فكان من سياسته التعاون مع الحكومة الهولندية للوصول إلى الاستقلال التدريجى وقد طالب هذا الحزب الحكومة الهولندية بضرورة الوفاء بتعهداتها بشأن تكوين برلمان من الإندونيسيين للاشتراك معها فى إداره شئون البلاد، فرأت أن تستجيب لطلبه فى إنشاء برلمان صورى يرضى الشعب الإندونيسى من الناحية الشكلية فقط. ولهذا قامت بإنشاء مجلس يسمى (مجلس الرعية) ويتكون من ستين نائبا، نصفه من الإندونيسيين والنصف الأخر يشترك فيه الهولنديون بخمسة وعشرين عضوا والخمسة أعضاء الباقية يمثلون مصالح الأجانب المقيمين باندونيسيا. وللحكومة

الهولندية الحق فى تعيين رئيس للمجلس من الهولنديين وكذلك تعيين أثنين وعشرين عضوا من أعضاء المجلس. أما باقى الأعضاء فينتخبهم الشعب بطريق غير مباشر. ولم يكن لهذا البرلمان المعين فى حقيقة الأمر سلطة تذكر، كما لم تكن الحكومة الإندونيسية مسئولة أمامه.

٢- والحزب الأخر وهو حزب القمصان الحمراء فكان لايؤمن بسياسة التعاون مع الحكومة ويرى أن هذا الطريق لن يؤدى إلى استقلال إندونيسيا. وأن هذا الاستقلال لن يحقق بطريق التعاون والمفاوضات. ولما قامت الثورة البلشفية فى روسيا فى عام ١٩١٧ وبدأت المبادئ الفكرية الجديدة تخرج إلى العالم حاملة الثورة على الأوضاع والنظم الاقتصادية والسياسية القديمة، تسربت تلك المبادئ إلى إندونيسيا، فكون أعضاء هذا الحزب حزباً جديداً أطلق عليه أسم (شركت رعيت) أى حزب الأمة الذى سمى فيما بعد باسم الحزب الشيوعى الإندونيسى الذى أصبح من أقوى الأحزاب السياسية فى إندونيسيا.

وقد وجد أعضاء حزب (شركت إسلام) الذين رأوا سياسة التعاون مع الحكومة أن هذا التعاون لم يرد إلى تحسين حال الإندونيسيين. بل على العكس من ذلك فقد ازدادت الحالة سوءا، ولهذا قرر سحب أعضائه من مجلس الرعية والانضواء تحت قيادة الحزب الشيوعى لتوحيد جهودهم فى مقاومة الاستعمار الهولندى.

وبإتمام هذا الاندماج بين الحزبين قويت حركة المقاومة للنفوذ الهولندى واشتعلت نار الثورة فى غربى جاوة وفى سومطرة الغربية فى عامى ١٩٢٦-١٩٢٧، وكادت تلك الثورة تعصف بما لهولنده من نفوذ فى إندونيسيا لولا تكاتف الشركات الأجنبية ومعاونتها للحكومة فى اخماد الثورة خشية ضياع مصالحها فى إندونيسيا. وبفضل تلك المعاونة استطاعت هولندا أن تقضى على الثورة وأن تحكم بالنفى على زعماء الحركة البالغ عددهم ٤٠٠٠ ثائر من صفوة المثقفين الإندونيسيين إلى غينية الجديدة التى كان يطلق عليها الإندونيسيون اسم الأرض الحمراء نظرا لكثرة

ما بها من مستنقعات وأوبئة فتاكة. وأن تحكم البلاد حكما مطلقا وتقييد جميع الحريات.

ومنذ انتهاء الحرب العالمية بدأت حالة هولندا الاقتصادية تسوء نظرا لانشغالها في إخضاع ثورة الاندونيسيين وفي تتبع نشاط الشيوعيين. فأهملت الاشتغال بالتجارة وتركت هاذ العمل للشركات الأجنبية وتفرغت هي للحكم والسيطرة أي أنها قد سارت على سياسة: "الباب المفتوح".

ومبدأ حرية التجارة: هذا المبدأ الذي سيطر على معظم دول العالم في العصر الحديث ولكن سياسة الباب المفتوح هذه قد اصبحت في صالح اليابان بعد الحرب مباشرة فدول اوربا قد خرجت من تلك الحرب منهوكة القوى ومعظم مصانعها محطمة فانفردت اليابان بالسوق التجارية في الشرق الاوسط فزادت صادرات اليابان إلى إندونيسيا زيادة كبيرة واصبح الميزان التجاري في غير صالح إندونيسيا ولم تستطع التجارة الأوربية أن تنافس التجارة والمصنوعات اليابانية لرخصها ووفرتها وحاولت هولنده أن تقف أمام تيار التنافس التجاري الياباني وتكاتفت مع الشركات الأجنبية على الوقوف ضد اليابان في التفوق التجاري وسيطرته على أسواق إندونيسيا.

ومهما يكن من شئ فإن الشركات الأجنبية في إندونيسيا قد تمتعت بحماية الحكومة الهولندية وباشرت نشاطها التجاري على أوسع نطاق فاستطاعت أن تنتج المواد الخام الأولية بمقادير عظيمة وتصديرها إلى الدول الاوربية وإلى أمريكا وفي مقابل ذلك تستورد مقادير هائلة من مصنوعات تلك الدول وبذلك نشطت حركة التبادل التجاري في إندونيسيا إلى حد كبير ولم يعرقل نشاط حركة التبادل التجاري سوى الأزمة العالمية التي شملت العالم عام ١٩٣٠. فقد أضرت تلك الأزمة بالاقتصاد الإندونيسي ضررا بليغا فانخفضت أثمان المنتجات الزراعيه في إندونيسيا انخفاضا كبيرا وذلك لقلة الإقبال على شرائها من دول أوربا وأمريكا لاستحكام الأزمة. وترتب على ذلك أيضا أن إندونيسيا لم تستطيع أن تستورد من

تلك الدول ما تحتاج إليه من المصنوعات فوقفت حركة التبادل التجارى إلا ما كانت الشركات الأجنبية تستطيع تصديره فى مثل تلك الظروف.

إنحط مستوى المعيشة تبعا لهذا الكساد التجارى فزادت البطالة وتحكمت الشركات الأجنبية فى تقدير الأجور مستغلة هذه الظروف الاقتصادية السيئة بل لقد عملت الحكومة من جانبها بمعاونة الشركات الأجنبية على تحديد أسعار المحاصيل الزراعية وكذلك تحديد مقادير ما يزرع منها. ثم نجد أن الحكومة الهولندية تلجأ فى عام ١٩٣٣ إلى تحديد محصول المطاط الذى يزرع سنوياً وذلك لتحتفظ بأسعاره العالمية المرتفعة متأثرة فى ذلك بشروع الحكومة الإنجليزية والمسمى مشروع ستيفنسون Stevenson الذى نفذته فى عام ١٩٢٢ بشأن تحديد محصول المطاط فى شبه جزيرة الملايو الخاضعة لحكمها.

وقد أضرت سياسة الحكومة الهولندية بشأن (تحديد زراعة المطاط) الأهالى الإندونيسيين إلى حد بعيد ففرضت عليهم ضرائب باهظة أعجزتهم عن تصريف المطاط. بل لقد تعرضت صناعة السكر بإندونيسيا للكساد بعد أن انتعشت خلال فترة الحرب العالمية نظراً لحاجة أوربا إليها بعد أن انقطع زراعته أثناء الحرب لتحول مزارع البنجر فيها إلى ميادين قتال ولكن بانتهاء تلك الحرب تعود صناعة السكر فى أوربا إلى سابق عهدها فيقل الإقبال على السكر الإندونيسى هذا بالإضافة إلى منافسة السكر المصنوع فى جزيرة كوبا للسكر الإندونيسى فى الأسواق العالمية.

وأمام تدهور الحالة الاقتصادية فى إندونيسيا وانحطاط مستوى المعيشة بين السواد الأعظم من الشعب الإندونيسى أخذ أعضاء مجلس الرعية Volkaraad يضغطون على الحكومة الهولندية للتدخل السريع لمعالجة تلك الأزمة قبل أن يستفحل شرها ويصبح من الصعب إصلاحها. ونظراً لأن سوء حالة الإندونيسيين تشجع على انتشار المبادئ الشيوعية مما قد يؤدى إلى زعزعة النفوذ الهولندى أم انهياره فى إندونيسيا. وهذا السبب الأخير هو الذى دفع الحكومة الهولندية أكثر من غيره من الأسباب الأخرى إلى التدخل الحاسم، ولهذا بدأت

الحكومة الهولندية تتدخل فى الشئون الاقتصادية لصالح الإندونيسيين أى أنـها أخذت بسياسة التوجيه الاقتصادى مستهدفة فى ذلك القضاء علـى أثـار الأزمـة الاقتصادية وإفساح المجال أمام النشاط الأهلى وكذلك محاولة توزيع الدخـل القومى توزيعا عادلا دفعا للمبادئ الشيوعية من الانتشار.

كما كان لسياسة الحكومة الهولندية أيضا إدخال بعض الصناعـات فـى اندونيسيا حتى لا يعتمد اقتصـاد البـلاد اعتمـادا كليـا علـى الزراعـة والمنتجـات الزراعية، وسنجد أن مـن أثر تلك السياسة نهوض الصناعة فى إندونيسيا فى عـام ١٩٣٤ وذلك بفضل وفرة الأيدى العاملة الرخيصة ولحماية الحكومـة للمنتجـات المحلية، ولقيام تلك الصناعات فى جزيرة جاوة المزدحمة بالسكان.

ولكـن هذه الصناعات الناشئة وجدت مـن الأوربيـين والصينيـين منافسـة خطيرة إذ خشى هؤلاء أن تنجح تلك الصناعات فى يوم من الأيام فتـؤدى إلى كساد صناعاتهم التى يقومون بصناعتها أو استيرادها من الخارج ولهذا فقد واجهت الصناعات الوطنية الإندونيسية فى الفترة ما بين عامى ١٩٣٣، ١٩٣٥ عقبات متعـددة مـن قبل أصحاب رؤوس الأمـوال الأجنبيـة وقـد اسـتطاعت تلـك الإجـراءات أن تقضى على بعض الصناعات الناشئة، ولكن رغم ذلك فقد تمكنت صناعات أخرى من الصمود أمام تلك المؤامرات بفضل يقظة الشعـور القومى الإندونيسى وتصميم الإندونيسيين على مقاومة التدخل الأجنبى فى شئونهم الاقتصادية وتخليص البـلاد من السيطرة الأجنبية على إقتصادياتها.

ويمكن للصناعات الإندونيسية أن تنمـو وأن تزدهر نظراً لتوافر المقومـات الأساسية لنجـاح تلك الصناعات كتوافر الأيدى العاملـة ورخصـها وكذلـك توافـر المواد الخـام ورخصها أيضا. بالإضافة إلى ضخامة عدد السكان وكثرة الاستهلاك المحلى.

وهنا يجب أن نلحظ الارتباط الوثيق بين الحركة القومية الإندونيسية وبين التقدم الاقتصادى والاجتماعى للشعب الاندونيس، فالشعب الاندونيس وكذلـك الأجزاب الاندونيسية قد وجدت فى تشجيع المنشئات الصناعيـة الوطنية والصناعية

المحلية الوطنية نوعاً من مقاومة التدخل الأجنبى. فتمسك الهولنديين بإندونيسيا ومساندة الدول الأوربية لهولندا فى سيطرتها عليها هو بدافع الاستغلال والمحافظة على مصالحهم بها. فإذا تكاتف الشعب الإندونيسى وصمم على مقاطعة المصنوعات الأجنبية، واستهلاك المنتجات الوطنية أصيب الاستعمار وأعوانه بضربة شديدة.

ولهذا نشأت الأحزاب السياسية ذات البرامج الاقتصادية مثل حزب (فرهيمبونن إندونيسيا) الذى أنشأه الدكتور محمد حتا وكيل رئيس الجمهورية الإندونيسية الدكتور أحمد سوكارنو.

وكذلك تكون فى عام ١٩٣٠ حزب (اتحاد الشعب الإندونيسى) الذى كونه الدكتور سوتومو والذى عرف فيما بعد باسم (حزب _حزب إندونيسيا العظمى). وكان لهذا الحزب أيضا برنامج اقتصادى شامل، يرمى إلى تكوين بنك وطنى إندونيسى لتمويل المشروعات الاقتصادية الوطنية، وإيجاد اتحادات ونقابات لمختلف الطوائف للنهضة بمستوى الصناعة والصناع.

وكانت هذه الحركة الوطنية الاقتصادية تقابل من الجانب الآخر. من الحكومة الهولندية ومن الشركات الأجنبية بحركة مضادة للوقوف أمام تيار الوطنية المتدفق وللعمل على إحباط المشروعات الاقتصادية الوطنية الناشئة بمختلف الطرق المشروعة وغير المشروعة وقد خشيت الحكومة الهولندية من نجاح تلك الحركة فوقفت منها موقفاً متعنتاً، وباشرت سلطتها الاستبدادية للقضاء عليها. فقيدت حرية الصحافة والنشر والاجتماع، وفرضت رقابة شديدة على الأحزاب السياسية والجمعيات الدينية. وحرمت على الأهالى الإشتغال بالسياسة وكان الأشغال بالسياسة جريمة لا تغتفر فى عرف الهولنديين وكانت كافية للزج بمرتكبها فى أعماق السجون أو النفى خارج البلاد.

ومن هؤلاء الزعماء الذين ألقت بهم هولندا فى المنفى الدكتور أحمد سوكارنو رئيس الجمهورية، حيث نفته إلى جزيرة فلوريس بشمال استراليا، وزميله فى الجهاد الدكتور محمد حتا والسيد سوتان شهرير (أول رئيس للوزارة الإندونيسية) وعدد آخر من الزعماء إلى جزيرة (بندا نيرا) بجزائر الملوك. ونفت

طائفة أخرى من الزعماء إلى غينة الجديدة. وظل هـؤلاء الزعماء فى منفاهم إلى قيام الحرب العالمية الثانية وانتقال ميدانها إلى منطقة الشرق الأقصى.

واستطاعت الحكومة الهولندية بـهذه الحركـة التعسفية أن تقضى علـى الحركـة الوطنيـة المشتعلـة وأن تواصـل سياسـتها الاقتصاديـة متعاونـة مـع الـدول الأوربية. ويمكننا أن تقدر أهمية إندونيسيا بالنسبة للاقتصـاد الهولندى بصفة خاصة والاقتصاد الأوربيى بصفة عامة بمقدار الأموال الطائلة المستثمرة فـى إندونيسيا، إذ بلغت هذه الأموال فى عام ١٩٣٧ مبلغ ٣٧٠ مليون مـن الجنيهات، يخص هولنده منها ٢٥٠ مليونا من الجنيهات وإنجلترا ٥٠ مليونا وأمريكا ٣٤ مليونا.

بـل زادت رؤوس الأمـوال الأجنبيـة زيـادة كبـيرة بعـد ذلـك التـاريخ. وإسـتطاعت الشركـات الهولنديـة والأجنبيـة أن تجنـى أرباحـا طائلـة مـن تسـخير الإندونيسيين لاستغلال موارد بلادهم لصالح تلك الشركات العالمية مقابل دراهم معدودة لا تسد أودهم. فرغم الانتعاش الاقتصادى الكبير الذى شهدته إندونيسيا، ورغم الأموال الطائلة التى تدفقت على تلك الشركات لم ينل سكان البلاد منها شيئا بل زادت حالتهم سوءا، بينما تتمتع بتلك الثروة الكبيرة أفراد قلائل مـن هولنديين وإنجليز وغيرهم.

وأن نظرة واحدة إلى الإحصائيات الرسمية التى سجلت الدخل القومى لإندونيسيا لكافية لمعرفة مقدار الغبن الذى وقع على كاهل السكان الأصليين فالإندونيسيون البالغ عددهم ٩٧,٥ ٪ من عدد السكان لا يتجاوز ما يحصلون عليه من هذا الدخل ١٢,٥ ٪ بينما نجد أن الهولنديين لا يتجاوز عددهم ٠,٥ ٪ من عدد السـكان يحصلـون علـى ٦٥ ٪ مـن الدخـل القومـى وكذلـك نجـد أن الأجـانب والآسيويين الذين لا يزيد عددهم ٢ ٪ من السكان يتمتعون بنصيب مرتفع مـن هذا الدخل يقدر بنحو ٢٢,٥ ٪.

وعندما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية تظهر فى الأفـق أخـذ الهولنديـون يقللون من غلوائهم وينادون بمبدأ التعاون بـين الهولنديين والإندونيسيين لما فيه المصلحة العامة للطرفين. وقد اشتدت المطالبة بهذا التعاون بعد أن وقعت هولنده

فى قبضة الاحتلال الألمانى، وفرت الملكة ويلهلمينا وحكومتها إلى إنجلترا فى ١٠ يونية ١٩٤٠ واستغل الإندونيسون حاجة هولندا إلى معونتهم فى المطالبة بمنح إندونيسيا دستوراً حقيقياً يحقّق رغبتها فى اشتراك الشعب الإندونيسى إشراكا فعليا وليس اشتراكا صوريا كما كان فى إدارة شئون البلاد. كذلك السماح للحكومة الإندونيسية الجديدة بتجنيد قوات جديدة للدفاع عن البلاد ضد الأخطار المحدقة بها. ولكن الحكومة الهولندية رفضت الاستجابة إلى تلك المطالب خشية أن تتمكن إندونيسيا فى فترة الحرب من تقوية نفسها والخروج على سلطتها.

وبينما كانت المفاوضات الإندونسية الهولندية تتعثر إزاء تمسك كلا الفريقين بوجهة نظرة، داهم إندونيسيا الخطر اليابانى – وكانت اليابان إحدى دول المحور المكون منها ومن ألمانيا وإيطاليا – واستولى عليها فى ٩ مارس سنة ١٩٤٢ فخرجت إندونيسيا عن قبضة هولندا الدولة الغربية لتقع فى يد اليابان وهى الدولة الشرقية الناشئة.

إندونيسيا فى ظل الاحتلال اليابانى

لم يكن احتلال اليابان لإندونيسيا مِنْ قبيل الصدفة بل كان يرتبط هذا العمل ارتباطاً وثيقاً بتاريخ اليابان الحديث وبتطورها الاقتصادى السريع فى القرن التاسع عشر، فاليابان كدولة بدأت تسير فى ركب الحضارة الأوربية، وتأخذ بأسباب الحضارة الأوربية فى نظمها الاقتصادية والسياسية وتمارس سياسة التصنيع على نطاق واسع، وجدت أنه من الضرورى إيجاد مجال حيوى لها فى الدول المجاورة لها وخصوصا بعد أن زاد عدد سكانها زيادة كبيرة لا تتحمله تلك الجزر المتناثرة، وزاد إنتاجها الصناعى زيادة ضخمة.

ولهذا بدأت اليابان تتطلع إلى الشرق الأقصى كمجال حيوى لنشاطها التجارى وترى فى تدخل الدول الأوربية فى أسواق تلك المنطقة تدخلا غير مرغوب فيه من قبل دول غريبه عن الشرق. فيجب أن تبقى أسواق آسيا للآسيويين.

وأن تحاول اليابان جاهدة لغلق تلك الأسواق فى وجه المصنوعات الأوربية عن طريق المنافسة وإغراق الأسواق بالمنتجات اليابانية الجيدة الصنع الرخيصة الثمن.

وكانت اليابان تنظر إلى الصين كسوق عظمى للمنتجات اليابانية، وهى لهذا غير مرتاحة لتدخل النفوذ الأوربى فى منطقة الشرق الأقصى وخصوصا الصين. وتنظر بعين الحسد إلى ما تتمتع به تلك الدول من امتيازات ومن نفوذ فيها.

وفى عام ١٨٩٤ تقوم الحرب اليابانية الصينية بشأن كوريا، ونجحت اليابان فى ضمها إلى ممتلكاتها. ثم تلى تلك الحرب، الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ - ١٩٠٥) بشأن الاستيلاء على منشوريا وإبعاد النفوذ الروسى عن سواحل المحيط الهادى المواجه لليابان.

كما انتهزت اليابان فرصة قيام الحرب العالمية الأولى واستولت على جزر كارولين شمال المحيط الهادى من أيدى الألمان.

كانت هذه خطوات متتابعة قامت بها اليابان لتحقيق أطماعها فى تلك المنطقة وتوطيد نفوذها إلى جانب النفوذ الأوربى وفى عام ١٩٣٦ دخلت فى حرب مع الصين، واعتبرها المؤرخون بداية للحرب العالمية الثانية ثم بدأت تتطلع إلى جزر إندونيسيا وخصوصا بعد أن ارتبطت معها بصلات تجارية واسعة. فاليابان كدولة صناعية كبيرة تحرص كل الحرص على امتلاك المناطق المنتجة للمواد الخام الأولية اللازمة للصناعة. ولما كانت إندونيسيا تتوافر فيها تلك الصفة، لذا أخذت اليابان تفكر فى إدخالها مع المناطق المجاورة لها فى جنوب شرقى آسيا فى اتحاد اقتصادى يشمل دول تلك المنطقة أطلقت عليه اسم (منطقة الرخاء الأسيوية المشتركة) أى أن اليابان باتباعها تلك السياسة الاقتصادية الجديدة إنما ترمى إلى أبعاد النفوذ الأجنبى عن تلك المنطقة الأسيوية من العالم والمناداة بمبدأ آسيا للآسيويين. وكان هذا المبدأ بطبيعة الحال يخدم مصالح اليابانيين ويمكنهم من السيطرة على أسواق الشرق ويضمن لليابان التفوق الاقتصادى ويتبعه التفوق السياسى أيضا.

وما كانت هولنده أو إنجلترا وهما الدولتان اللتان لهما مصالح حيوية فى تلك المنطقة لترضيا عن هذه السياسة الجديدة. ولهذا رفضتا الموافقة على اشتراك مستعمراتهما الواقعة بمنطقة الشرق الأقصى فى هذا الاتحاد الاقتصادى المقترح. ولكن اليابان كانت تتحايل على بسط نفوذها الاقتصادى على هذه المنطقة ولو أدى هذا إلى استخدام القوة.

وقد حاولت اليابان الدخول فى مفاوضات مع السلطات الهولندية الحاكمة فى إندونيسيا لعقد اتفاق تجارى معها يضمن لها الحصول على كميات وافرة من المواد الخام التى تنتجها إندونيسيا وذلك فى منتصف عام ١٩٤٠.

وتمكنت اليابان نتيجة لضغطها المتواصل على هولنده من إبرام اتفاقية تجارية معها تخول لها الحصول على كميات ضخمة من البترول الإندونيسى فى خلال عام واحد وكان هدف اليابان من الاستحواذ على هذه الكمية الهائلة من البترول الاستعداد لخوض المعركة ضد دول الغرب.

وقد ترددت هولنده فى تنفيذ الاتفاقية، وأخيرا امتنعت عن تنفيذها لسبب تطورات الحرب فى أوربا، واتفقت رغبتها مع رغبة الإندونيسيين فى ضرورة التكاتف لمواجهة الخطر اليابانى ولم يقبل الشعب الإندونيسى أن يستبدل مستعمرا بمستعمر آخر ووجدت اليابان أنها لن تستطيع تحقيق أطماعها فى إندونيسيا إلا إذا انضمت إلى دولتى المحور (ألمانيا وإيطاليا) وهاجمت المستعمرات الغربية. بمنطقة الشرق الأوسط واستولت عليها عنوه ونفذت سياستها الاقتصادية كما تشتهى.

وفى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤١ قامت بمهاجمة اسطول الحلفاء فى ميناء بيرل هاربور والقضاء عليه، وتعتبر هذه المعركة من المعارك الهامة فى التاريخ ومن اقوى الضربات التى وجهت إلى الدول الغربية من دولة شرقية. ثم استمرت موجة الزحف اليابانى تتقدم نحو الجنوب بقوة شديدة، واكتسحت إندونيسيا وقضت على مقاومة هولنده فى ٩ مارس من عام ١٩٤٢ ولم تلق القوات اليابانية مقاومة كبيرة من قبل الهولنديين وكذلك لم تكن صعوبة تذكر نظرا لتعاون اليابانيين المقيمين باندونيسيا مع حكومتهم فى عمليات الغزو، ولمعرفتهم الدقيقة بأحوال البلاد وبطرقها ومسالكها

هذا بالإضافة إلى عدم استعداد هولنده لخوض معركة مثل تلك الحرب ولقلة عدد جنودها وافتقارهم إلى السلاح. ويقابلهم من الجانب الآخر قوات منظمة أحسن تنظيم ومدربة أحس تدريب ومزودة بأحداث أنواع الأسلحة.

وبهذا الغزو اليابانى تنطوى صفحة بغبضة من صفحات الاستعمار الهولندى لإندونيسيا وتبدأ صفحة أ غرى جديدة لا تقل بغضا عن سابقتها استمرت حوالى ثلاث سنوات ونصف حاولت خلالها اليابان أن توهم الشعب الإندونيسى بنواياها الطيبة نحو إندونيسيا ونحو الآسيوية. واستغلت الآراء التى تنادى بآسيا للآسيويين. وبتحقيق منطقة الرخاء الآسيوية المشتركة، لتستر نواياها الاستعمارية الحقيقية. أى أن اليابان استغلت مساوئ الاستعمار الهولندى لإثارة موجة من البغض نحو الهولنديين بصفة خاصة ونحو الأوربيين أى الجنس الأبيض - بصفة عامة.

وكان لابد لهذه الدعاية المسمومة من نهاية، فتصرفات اليابان فى إندونيسيا قد أقنعت المتفائلين من الإندونيسيين بأن الاحتلال اليابانى لا يختلف فى شئ عن زميله الاستعمار الهولندى. وأن أملهم فى التخلص من السيطرة الأجنبية لن يتحقق إلا بطرد الأجنبى كلية من بلادهم، سواء أكان هذا الأجنبى من آسيا أو من أوربا.

بل لقد اعتبر الإندونيسيون الاحتلال اليابانى نكسة أصابت حركتهم القومية وجهادهم فى سبيل الاستقلال. وقد عرفنا من قبل كيف كانت المفاوضات تدور بين الإندونيسيين والهولنديين حول منح إندونيسيا استقلالا ذاتيا. وكانت هولنده على وشك منح الأندونيسيين قسطا كبيرا من الحرية. فهذا الغزو اليابانى قد وضع حدا لتلك المفاوضات، وأصبحت اليابان تسيطر سيطرة تامة على إندونيسيا كدولة قد استولت على تلك البلاد بحد السيف. فهى ليست ملزمة أمام الإندونيسيين بأى شئ.

فالغزو اليابانى لم يكن ينظر إليه على أنه فى صالح الإندونيسيين - ولو أنه قد أدى فى نهاية الأمر إلى تخليص إندونيسيا من سيطرة هولنده كما سنوضح ذلك.

وقد حاولت اليابان خلال احتلالها لإندونيسيا تلك الفترة القصيرة أن توجه نشاطها الاقتصادى نحو الشرق. بعد أن بذلت هولندة مدى ثلاثة قرون فى توجيه الاقتصاد الإندونيسى نحو الغرب.

وإذا كانت هولنده أثناء احتلالها لإندونيسيا قد شجعت الشركات الهولندية الأجنبية على استغلال موارد البلاد لمصلحتها أولا، فإن اليابان قد عملت خلال استعمارها لإندونيسيا على استنزاف موارد البلاد بشكل ملحوظ. ويبدو من تصرفها هذا أنها لم تكن واثقة من استمرار بقائها فى البلاد، لهذا عمدت إلى استغلال مواردها استغلالاً تاماً.

وقد اتبع اليابانيون أثناء احتلالهم لإندونيسيا سياسة الاكتفاء الاقتصادى فى كل جزء من أجزاء الوطن الإندونيسى. فعل كل جزء منها أن يزرع ما يحتاج إليه من مواد غذائية دون الاعتماد على استيرادها من الجزء الآخر. وبهذا الأجزاء استطاعت اليابان أن تنقل كميات ضخمة من تلك المنتجات إلى بلادها الأصلية، واستخدام الأيدى العاملة الزائدة من الإندونيسيين فى الأعمال الحربية اليابانية.

كان من جراء السياسة التى أتبعتها اليابان فى استغلال موارد إندونيسيا أن كفر الإندونيسيون بمبدأ "آسيا للآسيويين" وبنظرية "منطقة الرخاء الآسيوى المشتركة" وتساوى فى نظرهم الاستعمار الغربى والاستعمار الشرقى.

وقد أرادت اليابان أن تحذو حذو الولايات المتحدة الأمريكية فى إصدارها مبدأ منرو فى عام ١٨٢٣ وهو المبدأ الذى نادى بأمريكا للأمريكيين. فإذا كانت الولايات المتحدة قد أعلنت هذا المبدأ لإبعاد النفوذ الأوربيى لعدم التدخل فى الشئون الأمريكية، وليكون لها الدور الرئيسى فى توجيه الشئون الأمريكية وحماية الجمهوريات الأمريكية الناشئة من تدخل الدول الرجعية. وإذا كانت تلك السياسة قد طبقت فى شرق المحيط الهادى، فقد أرادت اليابان أن يكون لها النفوذ المتفوق فى منطقة غرب المحيط الهادى لمقابله النفوذ الأمريكى فى شرقه. كما أن المناداة بمبدأ آسيا للآسيويين سيمكن اليابان من بسط نفوذها

السياسي والاقتصادى على دول الشرق الأقصى وأن يكون لها الزعامة فى توجيه سياسة تلك المنطقة لما فيه مصلحتها وللقضاء على النفوذ الغربى فيها.

قام مبدأ آسيا للآسيويين على أساس إثارة البغضاء فى نفوس الجنس الآسيوى الأصفر ضد الأجناس البيضاء صاحبة المصالح الاستعمارية فى، جنوب وجنوب شرق آسيا. وأن إثارة الحقد ضد العناصر البيضاء لن يخدم بطبيعة الحال سوى مصالح اليابان. فاليابان لن تترك الشعوب الآسيوية التى خضعت لحكم العناصر البيضاء تدير شئونها بنفسها لما فيه مصلحتها هى، بل كل ما ستفعله اليابان هو أن تحل محل تلك الدولة المستعمرة وتؤدى نفس الدور تحت ستار المناداة بمبدأ آسيا للآسيويين. وهو ما حدث بالنسبة للاستعمار اليابانى لإندونيسيا.

وإذا نظرنا إلى اليابان من ناحية نظام الحكم نجد أنها قد خضعت لنظم حكم دكتاتوريه يتمتع فى ظلها الإمبراطور اليابانى الذى يطلق عليه اسم الميكادو والذى رفعه اليابانيون إلى مرتبة التقديس، بحكم مطلق. فاليابان وحالتها هذه لا يمكن أن تعامل الشعوب الآسيوية الأخرى التى تدخل معها فى منطقة الرخاء الآسيوى المشتركة على أساس ديمقراطى سليم، يقوم على مبدأ المساواة بين الجميع.

فشلت سياسة اليابان فى اقناع الإندونيسيين بفائدة الرخاء الآسيوى المشترك، الذى لم يكن - فى حقيقة الأمر - سوى الرخاء لليابان وحدها. أما بالنسبة للإندونيسيين فهو عنوان الاستغلال فى أوج صوره. غلا غرابه إذا ما هب الإندونيسيين للدفاع عن استقلالهم المسلوب، ومقاومة الاستعمار اليابانى فى مختلف صوره وأشكاله. فليكن جهادهم متصلاً أيا كان المستعمر، سواء أكان من الشرق أو الغرب. ولذا أخذ زعماء الشعب الإندونيسى يقودون حركة المقاومة السرية، ويكونون التشكيلات السرية ضد الحكم اليابانى، فلجأت سلطات الاحتلال اليابانية إلى القبض على هؤلاء الزعماء ومحاكمتهم وأعدام البعض منهم ونفى البعض الآخر خارج البلاد. ثم شددت قبضتها على الشعب الإندونيسى، فساد الحكم الاستبدادى العسكرى أنحاء البلاد. وظل هذا الوضع قائما إلى هزيمة

اليابان واستسلامها دون قيد أو شرط فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ بعد ضرب مدينتى هيروشيما ونجازاكى بالقنابل الذرية.

وقد انتهز الإندونيسيون هذه الفرصة وأعلنوا استقلالهم بعد يومين من استسلام اليابان وذلك فى ١٧ أغسطس عام ١٩٤٥ مستندين إلى المواثيق والاتفاقات التى تمت بين رؤساء حكومات الغرب وأمريكا خلال الحرب. مثل ميثاق الأطلنطى واجتماعات طهران وسان فرنسكو والقاهرة هذا بالإضافة إلى الوعد الذى قطعته ولهلمينا Queen, Wilhelmina ملكة هولندا على نفسها فى إذاعة لها بالراديو خلال فترة الحرب، من أنها ستكون من هولندا وإندونيسيا وسورنام وكركاو حكومة كمنولث على غرار ما فعلته إنجلترا. وعلى أساس المساواة التامة بين حكومات تلك الشعوب فى الحقوق والمصالح المشتركة. ونودى بالجمهورية الإندونيسية تحت رئاسة الزعيم الدكتور أحمد سوكارنو، ووكيله الدكتور محمد حتا.

ثم تشكلت الجبهه الوطنية لاصدار دستور الجمهورية الإندونيسية الجديدة. وفى نفس الوقت قامت ثورة عامة ضد قوات الاحتلال اليابانى. وفى خلال ستة أسابيع من قيام الجمهورية الإندونيسية تمكنت الحكومة الجديدة من بسط سيطرتها على معظم أجزاء جاوه ومادورا وسومطرة ومناطق أخرى عديده.

وبينما كان زعماء إندونيسيا يعملون على توطيد سيطارتهم على معظم أجزاء إندونيسيا، إذ بالقوات الآنجليزية والهولندية تصل إلى الشواطئ الإندونيسية لنزع سلاح القوات اليابانية المستسلمة. ولكن الحكومة الوطنية الإندونيسية رفضت السماح للقوات الهولندية من أن تطأ أقدامها أرض البلاد وأبدت استعدادها فى أن تقوم بتسليم قوات الاحتلال اليابانى إلى الحلفاء. وقد حاول قائد قوات الحلفاء Sir Philip Christinson أن يقرب بين وجهتى نظر الإندونيسيين والهولنديين، رفض الهولنديون الدخول فى مفاوضات مع حكومة إندونيسيا بحجة أنها حكومة نشأت بإندونيسيا كنتيجة للاحتلال اليابانى. ويجب أن يزول الاحتلال اليابانى والنتائج التى ترتبت عليه وأن ترجع الحالة فى إندونيسيا إلى ما كانت

عليه قبل الاحتلال اليابانى، وأخيراً اجتمع ممثلوا الفريقين الإندونيسى والهولندى بمدينة بتافيا Batavia (جاكارتا حاليا) فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٥ تحت أشراف قائد القوات المتحالفة. ولم تستمر المفاوضات أكثر من خمسة أيام وفشلت لتمسك كلا الفريقين بأن له وحده السيادة والسلطة.

وفى نفس الوقت بدأت القوات الهولندية تنزل إلى الشواطئ الإندونيسية لارغام الحكومة الإندونيسية الجديدة على التسليم والخضوع من جديد للاحتلال الهولندى. وقد أتهم الإندونيسيون الإنجليز بأنهم قد تواطأوا مع الهولنديين ويسروا لهم النزول ليبسطوا نفوذهم على إندونيسيا من جديد. ودارت بين قوات الجمهورية الإندونيسية والقوات الإنجليزية والهولندية معارك فى مناطق متعددة بعد أن استطاعت القوات المعادية من أن تحتل بعض المدن الهامة فى جزيرتى جاوة وسومطرة.

وقد بدأت المشكلة الإندونيسية تستلفت أنظار العالم وتأخذ مكانها بين المشكلات الهامة التى يجب أن يوضع حد لها عن طريق هيئة الأمم المتحدة. وفى بداية عام ١٩٤٦ تقدمت حكومة جمهورية أوكرانيا السوفيتية إلى مجلس الأمن بطلب النظر فى تلك المشكلة على وجه السرعة لأنها تهدد الأمن والسلام العالمى طبقا لما نصت عليه المادة ٣٤ من ميثاق هيئة الأمم المتحدة.

وبينما كانت المسالة الإندونيسية معروضة أمام مجلس الأمن كانت هناك مفاوضات تجرى بين الطرفين الهولندى والإندونيسى للوصول إلى حل للمشكلة بالطرق الودية ولكن المفاوضات تعثرت بين الطرفين. وفى ١٧ سبتمبر عام ١٩٤٦ وصلت بعثة هولندية لبدء مفاوضات جديدة ودعت اللورد كيلرن Lord Killearn المبعوث الإنجليزى الخاص بجنوب شرق آسيا للتدخل والعمل على إنجاح المفاوضات. وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٦ توصل الطرفان إلى اتفاق فيما بينهما وسميت باسم اتفاقية لنجاجاتى Linggadjatic Agreement .

وتنص هذه الاتفاقية على اعتراف هولندا بالجمهورية الإندونيسية على أنها حقيقة واقعة ولها السيطرة الفعلية على جزر جاوة ومادورا وسومطرة، وأن على

القوات الإنجليزية والهولندية التى تحتل أى جزء من هذه الجمهورية يجب أن تجلو عنه بالتدريج.

كذلك نصت الاتفاقية على أيجاد تعاون بين هولنده والجمهورية الجديدة فى إدارة شئون البلاد وذلك بإنشاء حكومة فدرالية من أول يناير سنة ١٩٤٩ تشمل كل إندونيسيا يطلق عليها اسم الولايات المتحدة الإندونيسية United States of Indonesia وتشمل الأقسام الثلاثة الجمهورية الإندونيسية وبورنيو وشرق إندونيسيا. على أن يتكون من الولايات المتحدة الإندونيسية وهولنده اتحاد يسمى الاتحاد الهولندى الإندونيسيى Netherlands - Indonesian Union يشترك فيها الطرفان على قدم المساواة تحت التاج الهولندى، ومهمته العمل على تنمية المصالح المشتركة والإشراف على العلاقات الخارجية والدفاع والشئون الاقتصادية والثقافية.

وفى ٢٥ مارس سنة ١٩٤٧ وقعت الاتفاقية بصفة نهائية، وقام ممثلو هولنده فى هيئة الأمم المتحدة لإخطار سكرتاريتها العامة بنبأ الموافقة النهائية على المعاهدة. وبعد التصديق على المعاهدة بدأ الطرفان فى وضع بندها موضع التنفيذ وجرت مفاوضات واجتماعات بين ممثلى الجمهورية الإندونيسية وبين المقيم العام الهولندى فى إندونيسيا، وقد أوضحت هذه الاتصالات منذ بدايتها على مدى اختلاف وجهات النظر بين الطرفين فى مسائل متعددة، مثل عودة الممتلكات التى كان يمتلكها غير الإندونيسيين إلى أصحابها الشرعيين. وكذلك رفع الحصار البحرى الذى فرضته هولندا على إندونيسيا وعلاقة إندونيسيا الخارجية بغيرها من الدول.

وقد فشلت جميع الجهود التى بذلت للوصول إلى اتفاق فيما بينهما، وذلك لعدم ثقة كل منهما فى الآخر. وفى ٢٠ يونيه سنة ١٩٤٧ قطع المقيم العام الهولندى فى إندونيسيا مفاوضاته مع المفاوضين الإندونيسيين ورفع هذا الأمر إلى حكومته بلاهاى.

وقد فشلت جميع الجهود التى بذلت للوصول إلى اتفاق بينهما، وذلك لعدم ثقة كل منهما فى الآخر المفاوضين وفى ٢٠ يونيه سنه ١٩٤٧ قطع المقيم العام الهولندى فى اندونيسيا مفاوضاته مع المفاوضين الاندونيسيين ورفع هذا الأمر إلى حكومته بلاهاى. وفى يومى ٢٠ و٢١ يوليه سنة ١٩٤٧ بدأت قوات هولنده فى جزيرتى جاوة وسومطرة عملياتها الحربية ضد قوات الجمهورية الإندونيسية. وفى نفس الوقت أبلغ ممثلو هولنده فى هيئة الأمم المتحدة السكرتير العام للهيئة بأن الحكومة الهولندية قد وجدت نفسها مضطرة لأن تقوم ببعض إجراءات بوليسية إزاء حكومة الجمهورية الإندونيسية التى برهنت على عجزها التام عن حفظ الأمن والنظام داخل أراضيها. وأن حكومة صاحبة الجلالة الملكة التى تعمل بروح اتفاقيه لنجاجاتى لا يسعها إلا أن تقرر بأن الجمهورية الإندونيسية ليست على استعداد ولا هى قادرة على إنجاز الاتفاقية المشار إليها.

أرادت حكومة هولندا بهذا الإجراء أن تسترد ما فقدته من سيادتها المطلقة على إندونيسيا متعللة بمختلف الحجج لتبرير عدوانها وعودة سيطرتها المطلقة مرة ثانية.

وعقب استئناف الأعمال العدوانية مباشرة طالبت حكومات الدول وقف القتال، ولكن جهودها فى هذا الشأن قد باءت بالفشل. فبدأت كل من حكومتى استراليا والهند تعمل بمفردها لحض مجلس الأمن على التدخل فى هذا النزاع الذى قد يؤدى إلى زعزعة الأمن والسلام الدولى. وأجتمع مجلس الأمن فى ٣١ يوليه سنة ١٩٤٧ لنظر المشكلة. وقد رفضت هولندا رفضاً باتا الموافقة على أدراج المسالة فى جدول أعمال مجلس الأمن أو الاعتراف باختصاص هذا المجلس لنظر القضية معتمدة فى ذلك على تأييد الدول الاستعمارية مثل بلجيكا وإنجلترا وفرنسا.

وقد قرر المجلس الموافقة على اقتراح بوقف اطلاق النار وحث الطرفين على الدخول فى مفاوضات لحل النزاع بالطرق السلمية وقد نفذ هذا القرار فى ٩ أغسطس سنة ١٩٤٧ ورأى أعضاء مجلس الأمن تعيين لجنة أطلق عليها اسم لجنة المساعى الحميدة Committee of Good Offices للتوسط بين الطرفين

للوصول إلى تسوية سلميه للمشكلة. وقد استطاعت اللجنة بعد مشاورات طويلة من أن تصل إلى اتفاق وقع فى ١٧ يناير سنة ١٩٤٨ أطلق عليه اسم اتفاقية هدنة رنفيل Renville Truce agreement. وبدأ الطرفان فى تنفيذ الاتفاقية بوقف اطلاق النار وتحديد مناطق نفوذ كل منهما.

وبينما كانت إجراءات تنفيذ اتفاقية الهدنة تسير سيرا مرضيا، لم تبدأ المباحثات السياسية بين الطرفين حتى منتصف مارس من نفس السنة وذلك لتلكؤ الحكومة الهولندية فى تعيين مفاوضيها. وقد أثار هذا التلكؤ مخاوف حكومة الجمهورية الإندونيسية وشكوكها، وخصوصا وأن الحكومة الهولندية قد أخذت فى ذلك الوقت تقدم الضمانات إلى حكومات غرب جاوة ومادورا وشرق سومطرة وتنشئ حكومة فيدرالية مؤقتة خارجه عن نطاق الجمهورية الإندونيسية.

وأخيرا تم تشكيل أربع لجان رئيسية تتولى مناقشة أربعة موضوعات هامة كل على حدة. هى:

أولا : المسائل السياسية.

ثانيا : الشئون العسكرية.

ثالثا : الشئون المالية والاقتصادية.

رابعا : الشئون الإدارية والاجتماعية.

وقد اجتمعت اللجان الأربعة وباشرت مناقشة المسائل المعروضة عليها بمساعدة لجنة المساعد الحميدة.

كذلك أبدت حكومة الجمهورية الإندونيسية رغبتها فى إيجاد اتحاد هولندى إندونيسى تتمتع فى ظله حكومة الولايات المتحدة الإندونيسية بكامل استقلالها مع إيجاد نوع من الارتباط الواهى مع الحكومة الهولندية الإندونيسية بإدارة شئون البلاد.

وقد تعمدت الحكومة الهولندية أن تمد من أجل المفاوضات أطول فترة ممكنة تستطيع خلالها أن تثبت أقدامها فى إندونيسيا وأن تنشئ حكومات غرب جاوة ومادورا وشرق سومطرة اتحاد فيدرالى مؤقت. وكان هدفها من ذلك إيجاد

شئ من التوازن فى القوى بينها وبين حكومة الجمهورية الإندونيسية. وقد احتجت الأخيرة على هذا التصرف المخالف لنصوص اتفاقية رنفيل، واتهمت حكومة هولندا بأنها تتصرف بمفردها فى مناطق موضع خلاف بينهما ولا يجوز لها ذلك إلا بعد الوصول إلى اتفاق بينهما. وقد أعلنت حكومة هولنده بأن ما تتخذه من إجراءات هو بصفة مؤقتة ولن يغير من طبيعة المشكلة.

ولكن تصرف الحومة الهولندية يثير مخاوف الجمهورية الإندونيسية، وخصوصا ما لجأت إليه هولندا من دعوة مؤتمر يمثل الحكومات الاندونيسية غير الجمهورية للنظر فى تنظيم العلاقات فيما بينها. فطلبت حكومة الجمهورية من لجنة الوساطة أن تتدخل فى الأمر وأن تحول بين هولنده وبين اتخاذ أى إجراء يكون من شأنه عرقلة الوصول إلى تفاهم بالطرق الودية. وقد قبلت اللجنة ما أعطته حكومة هولنده من ضمانات، وتصريحها بأن ما يسفر عنه المؤتمر من قرارات لن يكون له أى أثر فى سير المفاوضات بينها وبين حكومة الجمهورية الإندونيسية.

وعندما تعثرت المفاوضات بين الطرفين، طالب مجلس الأمن لجنة الوساطة بتقديم تقرير عن سير المباحثات. وفى هذا التقرير أبدت اللجنة مخاوفها من العقبات التى اعترضت تقدم المباحثات، فطالبت بعض الدول بتدخل مجلس الأمن من جديد لإيجاد حل للمشكلة. ورأت الولايات المتحدة الأمريكية أن تتدخل تدخلا فعالا فى الأمر، وبعثت بممثل جديد لها ليحل محل الممثل السابق بلجنة الوساطة الذى فشل فى التفاهم مع المفاوضين الهولنديين.

ورغم ركود المفاوضات بين الطرفين فقد استمرت حكومة هولندا فى سياستها نحو إيجاد تنظيمات خارجه عن نطاق الجمهورية الإندونيسية بخطى سريعة، فكونت عددا من الحكومات الجديدة، وأنشأت مجلس الشورى الفيدرالى يتكون من رؤساء الحكومات ورؤساء الوزارات الخارجين عن الجمهورية الإندونيسية.

ولما لم تستطع هولنده الوصول إلى تفاهم مع الجمهورية طبقا لما تراه، استأنفت عملياتها الحربية فى صباح ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٨ خارقة بذلك اتفاقية

رنفيل للهدنة. ونتيجة لتلك العمليات سقطت عاصمة الجمهورية وقبض على الرئيس سوكارنو ووكيله الدكتور حتا وزج بهم فى السجن.

طالب ممثل هيئة الأمم المتحدة فى إندونيسيا الدكتور فيليب جوسب Dr. Pgilip C. Jessup عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن للنظر فى تدهور الحالة فى إندونيسيا. وأجتمع مجلس الأمن فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ووقف ممثل هولنده وأعلن فى المجلس تمسك حكومته ببنود اتفاقيتىLinggadjati و Renville واعترافها باستقلال وسيادة إندونيسيا ولكن حكومته وجدت نفسها مضطرة لاتخاذ بعض التدابير اللازمة لوضع حد للاضطرابات التى سادت أجزاء مختلفة من الجمهورية الإندونيسية. وهذا هو منطق الاستعمار فى تدبير اعتداءاته الدنيئة على السكان الآمنين، لا لسبب سوى لبسط نفوذه وسيطرته ولو على أشلاء المجاهدين الوطنيين.

طالب مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وبعودة قوات الطرفين إلى خطوط الهدنة التى حددتها اتفاقية رنفيل. ولكن هولنده لم تصدع للأمر واستمرت فى أعمالها العدوانية رغم هذا القرار. وأجتمع مجلس الأمن مرة أخرى فى ٧ يناير سنة ١٩٤٩ للنظر فى آخر التقارير التى أرسلتها لجنة الوساطة Committee of Good Offices بشأن الحالة فى إندونيسيا والتى أوضحت فيه بأن الطرفين لم يكفا عن إطلاق النار، كما أن هولنده لم تطلق سراح المسجونين السياسيين الإندونيسيين كما طالب بذلك المجلس.

وقد تبنى مجلس الأمن فى ٢٨ يناير سنة ١٩٤٩ المشروع الذى تقدم به مندوبو كوبا والصين والنرويج. وقد بدأ المشروع بالاشارة إلى أن الحلول التى أوصى بها المجلس فى ٢٥ و ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ لم تنفذ تنفيذا كاملا. وأقترح المشروع النقاط الآتية:

أولا: أن يطلب من هولنده إعطاء الضمانات والتأكيد بعدم الاستمرار فى عملياتها الحربية وكذلك يطلب من حكومة الجمهورية الإندونيسية بأن تأمر جنودها بالكف عن استخدام القوة.

ثانيا: أن يطلب أيضا من الحكومة الهولندية بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين من رجال حكومة الجمهورية الإندونيسية فورا والسماح لهم بالعودة إلى ممارسة أعمالهم بكل حرية بما فيها إدارة شئون جوجاكارتا.

ثالثا: توصى الدول المقدمة للمشروع كلا الطرفين باستئناف المباحثات بينهما فى أقرب وقت مستطاع بمعاونة هيئة الوساطة، على أساس ما جاء باتفاقيتى Renville, Linggadhati وكذلك مشروع Cochran (كوشران تقدم بهذا المشروع مندوب الولايات المتحدة الأمريكيه) على فرض أن الحكومة الاتحادية المؤقتة ستشكل فى حدود ١٥ مارس سنة ١٩٤٩ وأن الانتخابات للمجلس النيابى الإندونيسى ستتم فى مدة أقصاها أول اكتوبر. وأن انتقال السيادة إلى الجمهورية الإندونيسية سيتم فى أسرع وقت ممكن بحيث لا يتجاوز ذلك أول يوليه سنة ١٩٥٠.

رابعا: أعاده تشكيل لجنة الوساطة واعتبارها لجنة من قبل هيئة الأمم المتحدة لدى إندونيسيا، وتعمل كممثلة لمجلس الأمن فى إندونيسيا ويكون من مهمتها معونة الطرفين على حل مشاكلهما، تحت إشرافها. وكذلك يكون لها السلطة فى تقديم التوصيات التى تراها لحل هذا النزاع فى حالهما إذا لم تتم الإجراءات المتفق عليها فى حدود التواريخ المحددة لها.

وكذلك أوصى المشروع بعودة الأراضى التى كانت خاضعة إلى حكومة الجمهورية الإندونيسية إليها وانسحاب القوات الهولندية منها.

وفى الفترة ما بين ٢٠ و٢٣ يناير عقد فى مدينة نيو دلهى بالهند مؤتمرا يضم ١٩ دولة آسيوية ومن منطقة الشرق الأوسط بالإضافة إلى استراليا، بناء على دعوة رئيس وزراء الهند. وذلك لمناقشة الحالة السيئة فى إندونيسيا. وفى ختام المؤتمر تقدم الأعضاء بقرار إلى مجلس الأمن راجين فيه أن يتولى هذه المسالة ما تستحقه من عناية حفظا للأمن والسلام العالمى.

ويعتبر مشروع الحل الذى تقدمت به هذه الدول إلى مجلس الأمن معتدلا، إذا ما نظرنا إليه فى ضوء الظروف التى أحاطت بانتقاد المؤتمر وروح

العداء للاستعمار التى سيطرت على معظم البلاد الممثلة فيه. وعلى العموم فهذا المشروع كان أقوى من المشروع الذى كان معروضا على المجلس.

رفضت هولنده فى أول الأمر الاعتراف بوجود الحكومة الجمهورية كهيئة رسمية شرعية لإندونيسيا، ولكن معظم الإندونيسيين كانوا ينكرون هذا على هولنده ويقرون بحق زعماء الجمهورية فى الاعتراف بمركزهم كحكام شرعيين للبلاد. وعندما جاءت قرارات مجلس الأمن التى أصدرها فى ٢٨ يناير سنة ١٩٤٩ فى صالح هؤلاء الزعماء، أزداد مركزهم قوة. وأعلنوا فى منفاهم بجزيرة Banka ، بأنه رغم استمرارهم فى المباحثات غير الرسمية مع أعضاء المجلس الاستشارى الفيدرالى، فأنهم لن يدخلوا فى مفاوضات رسميه إلا بعد عودة حكومة الجمهورية إلى جوجاكارتا.

بعثت الحكومة الهولندية بأحد رجالها الدبلوماسيين إلى مجلس الأمن للاعتراض على إمكان تغيير المشروع الذى أوصى به المجلس، مستندا إلى أن هذا المشروع قد أوقع الحكومة الهولندية فى مركز حرج وجعلها عرضة لهجمات جميع الأحزاب. كما استقال وزير المستعمرات الهولندى احتجاجا على السياسة التى تعتزم حكومته تنفيذها فى إندونيسيا وأعلن بأن المندوب السامى الهولندى فى إندونيسيا قد أستدعى إلى لاهاى، وأن الحكومة الهولندية قد وافقت على وجهة نظره فى انتقال السيادة إلى حكومة الولايات المتحدة الإندونيسية فى أسرع وقت مستطاع. وتعتزم الحكومة الهولندية عقد مؤتمر للمائدة المستديرة فى لاهاى فى القريب العاجل لوضع التفاصيل الخاصة بانتقال السيادة وإنشاء الاتحاد الهولندى الإندونيسيى Netherlands - Indonesian Union.

وفى أول مارس تقدمت لجنة الوساطة بتقرير إلى مجلس الأمن تبين فيه أن هولنده لم تنفذ الالتزامات التى أصدرها المجلس فى ٢٨ يناير. وأن الموافقة لم تتم بشأن إقامة الحكومة الفيدرالية المؤقتة، كما أن المباحثات بين الطرفين لم تبدأ بعد. وترجع اللجنة سبب توقف المباحثات إلى رفض الحومة الهولندية السماح بعودة حكومة الجمهورية إلى جوجاكارتا.

رأى مجلس الأمن أن يوفق بين المقترحات الإندونيسية والمقترحات الهولندية فوافق على عقد مؤتمر للمائدة المستديرة بمدينة لاهاى باشتراك لجنة الوساطة الدولية على أساس ما ورد بقرارات ٢٨ يناير. وقد ووفق عل هذا الرأى فى جلسة ٢٣ مارس سنة ١٩٤٩. ويعتبر هذا القرار من قبل مجلس الأمن نقطة تحول فى سير القضية الإندونيسية، وتوضح مدى ما نالته تلك القضية من عطف الرأى العام العالمى وإصرار الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية على حلها بما يحقق مصالح الإندونيسيين.

ولم يكن تدخل مجلس الامن للضغط على هولنده لحل القضية هو العامل الوحيد الذى ساعد أنهاء هذا النزاع، بل اسهمت عوامل أخرى فى هذا الضغط. منها تلك التقارير التى كانت ترسلها لجنة هيئة الامم المتحدة والمراقبون المحايدون بشأن الحالة فى إندونيسيا واستمرار الأعمال العدوانية من جانب هولنده. وعدم استطاعة القوات الهولندية تأمين سلامة المناطق المحيطة بها بما فى ذلك المزارع الواسعة والممتلكات الهولندية الخاصة. كما أصيبت صادرات إندونيسيا ووارداتها بضربة شديدة، وخصوصا عندما قطعت الولايات المتحدة الأمريكية الإعانة التى كانت منحتها لإندونيسيا طبقا لمشروع مارشال Marshall Plan.

هذا بالإضافة إلى احتفاظ هولنده بقوات حربية كبيرة فى إندونيسيا تبلغ حوالى ١٢٠ ألف مقاتل، أثقلت كاهل ميزانيتها، وجعلها موضعا للضغط من قبل الدول المشتركة معها فى حلف شمال الأطلنطى ومعاهدة بروكسل الذين كانوا يطالبونها بضرورة زيادة إمكانياتها من الرجال والعتاد لتدعيم البناء الاقتصادى والحربى لدول غرب أوروبا. وأخذوا يحضونها على إنهاء المشكلة الإندونيسية حتى تستطيع أن تفى بالتزاماتها نحو الأحلاف الغربية. كل هذه العوامل مجتمعة قد دفعت هولنده إلى إيجاد تسوية سريعة للموقف الذى يزداد سوءا يوما بعد يوم.

وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر نجد أن زعماء إندونيسيا كانوا أشد حرصا من هولنده على الوصول إلى تسوية سريعة للموقف، فمن الناحية الحربية لن

يستطيعوا التغلب على قوات هولنده المجهزة أحسن تجهيز والمزودة باحدث الأسلحة. ومن الناحية الاقتصادية فإن استمرار أعمال العنف سيؤدى إلى إنهيار اقتصاديات البلاد وإلى انخفاض مستوى المعيشة مما قد يؤدى إلى زعزعة مراكز هؤلاء الزعماء في الأوساط الوطنية الشعبية.

كانت الظروف إذن مهيأة لعقد تسوية سريعة وحاسمة تضع حدا للاضطرابات في إندونيسيا.

اجتمع الفريقان المتفاوضان تحت إشراف لجنة الوساطة في بتافيا في ١٤ إبريل سنة ١٩٤٩ وكان الفريق الإندونيسي يتكون من رجال حكومة الجمهورية الذين اعتقلتهم هولنده عقب هجومها على العاصمة الإندونيسية في ديسمبر سنة ١٩٤٨. وقد وجد هؤلاء الزعماء الإندونيسيين أنه تصحيحا للأوضاع، يجب أولا وقبل كل شئ أن تتخذ التدابير لعودتهم إلى مقر الحكومة الجمهورية بمدينة جوجاكارتا، قبل أن يبدأوا في مناقشة أي خلاف.

وفي ٧ مايو سنة ١٩٤٩ اجتمع الطرفان تحت رعاية لجنة الوساطة، وفي هذا الاجتماع أعلن رئيس وفد المفاوضين الإندونيسيين الدكتور محمد روم M. Roemبأنه قد فوض من قبل الرئيس سوكارنو ووكيله الدكتور حتا ليعرب عن تأكيدهما الشخصي، بأنهما يستحثا عودة حكومة الجمهورية إلى جوجاكارتا، ليتمكنا من إصدار أوامرهما بوقف الأعمال العدوانية وللتعاون من أجل إقرار السلام وسيادة القانون والنظام وللاشتراك في مؤتمر المائدة المستديرة المزمع عقده في لاهاي.

وقد وافق رئيس لجنة المفاوضين Dr. Van Royen على عودة حكومة الجمهورية إلى جوجاكارتا والتعاون بين الطرفين للوصول إلى حل للنزاع.

وقد لعبت لجنة الوساطة دوراً فعالا في تقدم المباحثات غير الرسمية بين الطرفين. كما يرجع الفضل أيضا لهذا التقدم لمقدرة المستر كوتشران Mr. Cochran مندوب الولايات المتحدة الأمريكية في لجنة الوساطة، وكذلك لحسن إدراك رئيس وفد المفاوضين الهولنديين المستر فان روين

Mr. Van Royen لحقيقة الموقف. هذا بالإضافة إلى ما بذلته حكومة الولايات المتحدة الأمريكية من ضغط على الحكومة الهولندية الوصول إلى تسوية للمشكلة في أقرب وقت مستطاع.

وبعد اتفاق وجهتي نظر الطرفين فيما سمي باتفاق فان روين - Van Royen-Roem Agreement أصبح الطريق ممهدا لعقد مؤتمر المائدة المستديرة.

وفي ٢٢ يونيه ١٩٤٩ أعلن ممثل هولنده في لجنة المفاوضات، لجنة الوساطة بأن التدابير لعودة حكومة الجمهورية إلى مقرها في جوجاكارتا تتقدم بخطى واسعة، وأن الحكومة الهولندية ستأمر قواتها بالبدء في الجلاء عن مقر الحكومة في ٢٤ يونيه، كما أعلن الجانبان بأن المناقشات التي جرت بشأن إيقاف الأعمال العدوانية، قد أكدت التقاء وجهات النظر بين الطرفين، مما يبشر بقرب انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة، وعودة حكومة الجمهورية إلى مقر عملها.

وقد تم الجلاء عن جوجاكارتا في ٣٠ يونيه، وعاد الرئيس سوكارنو ووكيله الدكتور حتا والزعماء الإندونيسيين إليها وسط الحماس من جماهير الشعب الإندونيسي وباشرت الحكومة سلطتها في ١٣ يوليه، وبذلك تنتهي مهمة حكومة الطوارئ التي شكلت عقب سقوط جوجانارتا في أيدي الهولنديين.

وأتفق الطرفان في ٣ أغسطس على إيقاف الأعمال العدوانية بصفة نهائية، بحيث يتم ذلك بالنسبة لجزيرة جاوة في منتصف ليلة ١١/١٠ أغسطس سنة ١٩٤٩، وبالنسبة لسومطرة في منتصف ١٥/١٤ أغسطس. على أن تشكل لجنة اتصال مركزية Central Joint Board لتنظيم العلاقة بين الطرفين ولتسهيل القيام بالالتزامات المفروضة عليهما، وتشرف هذه اللجنة على ١٣ لجنة اتصال محلية Local Joint Committee.

مؤتمر المائدة المستديرة

اجتمع مؤتمر المائدة المستديرة في لاهاي في الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٩ في جو من التفاؤل والأمل المشوب بالتيقظ والحذر ومثلت

لجنة الوساطة التابعة للأمم المتحدة. وقد أنقسم أعضاء المؤتمر إلى خمس لجان رئيسية تختص كل منها بناحية معينة لمناقشتها والوصول إلى اتفاق بشأنها. وقد اشترك مندوبو لجنة الوساطة فى كل هذه اللجان تسهيلا لمهمتها.

واختصت اللجنة الأولى بالمسائل السياسية الدستورية. واللجنة الثانية للمسائل الاقتصادية والمالية. والثالثة للمسائل العسكرية، والرابعة للمسائل الثقافية والخامسة للشئون الاجتماعية.

وقد وقع المتفاوضون على ميثاق المؤتمر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٩ وقد تضمن هذا الميثاق النقاط الآتية:

١- مشروع لائحة بنقل السيادة من هولنده إلى جمهورية الولايات المتحدة الإندونيسية.

٢- مشروع دستور للاتحاد أندونيسى الهولندى يتضمن ملاحق واتفاقيات خاصة حول أسس الموضوعات التى ستكون مجالا للتعاون فى المستقبل.

٣- مشروع اتفاقية حول التدابير الانتقالية وما تتضمنه من اتفاقيات خاصة حول تسوية بعض الموضوعات التى تحتاج إلى إعداد كنتيجة لانتقال السيادة.

٤- تبادل المراسلات بشأن بعض المسائل المنفصلة.

وخلاصة القول فإن اتفاقية المائدة المستديرة قد نقلت السيادة إلى إندونيسيا دون قيد أو شرط. وأصبحت جمهورية الولايات المتحدة الإندونيسية فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩ تتكون من ست عشرة ولاية بما فى ذلك الجمهورية الإندونيسية السابقة، وأصبح الاتحاد الإندونيسى الهولندى تحت تاج هولنده يمثل المصالح المشتركة للطرفين وخصوصا فى ميدان السياسة الخارجية والدفاع.

وقد عرضت قرارات مؤتمر المائدة المستديرة على مجلس الأمن، فاظهر ارتياحه إلى نجاح الطرفين فى الوصول إلى اتفاق فيما بينهما. وطالب من لجنة الوساطة الاستمرار فى عملها لتنفيذ ما ورد بنصوص الاتفاقية وموافاته بتقارير دورية عن سير التنفيذ.

وقد حازت اتفاقية المائدة المستديرة موافقة أعضاء المجلس فيما عدا خمسة أصوات يمثلون دول شرق أوروبا، فقد عارضتها ووصفت الاتفاقية بأنها شكل جديد من الاستعمار الهولندوى الذى تؤيده الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا، واتهمت زعماء الحكومة الجمهورية بالخيانة. كما عارضها الاتحاد السوفيتى إلى حد استخدام حق الفيتو عند عرضها فى مجلس. ولكن رغم هذا ظلت الاتفاقية سارية المفعول.

وفى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٩ وافقت حكومات الولايات المتحدة الإندونيسية الستة عشر على اتفاقية المائدة المستديرة، وبذلك تنتقل السيادة إليها بصفة رسمية.

وفى أغسطس عام ١٩٥٠ تغير اسم الدولة الجديدة إلى " جمهورية إندونيسيا" وبوصول الطرفين إلى هذا الاتفاق تنتهى المشاكل المعلقة بين الطرفين فيما عدا مشكلة واحدة ظلت دون حل. وهى مشكلة غنيا الجديدة New Guinea أو "أيريان الغربية" كما يسميها الإندونيسيون أنفسهم.

ولكن مصير هذا الجزء من الجزيرة لم يهمله المفاوضون الإندونيسيون، بل كان موضع عنايتهم طوال المفاوضات. ونصت المادة الثانية من اتفاقية المائدة المستديرة على بقاء هذه المنطقة على حالتها الراهنة، على أن يدخل الطرفان الإندونيسى والهولندى فى مفاوضات بشأن تقرير مصيرها بعد عام واحد من انتقال السيادة إلى جمهورية الولايات المتحدة الإندونيسية.

وأيريان الغربية هى إحدى جزر إندونيسيا وتقع فى شمال شرق جاوة وشمال استراليا. وتبلغ مساحتها ٨٥٠ ألف كيلو متر مربع. وتنقسم إلى قسمين: القسم الشرقى تحت وصاية استراليا منذ انتزاعه من ألمانيا عام ١٩١٨. والقسم الغربى فيها ويقع فى قبضة هولنده ورغم كبر مساحته التى تقرب من ربع مساحة إندونيسيا كلها فأن عدد سكانه لا يزيد عن مليون نسمة فى حالة تأخر وانحطاط شديدين.

فالجزيرة إذن من هذه الناحية تعتبر المجال الحيوى بالنسبة للشعب الإندونيسى، وبالنسبة لزيادة عدد سكان الجزر الإندونيسية الأخرى، وخصوصا جاوة

التى يزيد عدد سكانها عن أثنين وخمسين مليونا رغم أن مساحتها تعادل ثلث مساحة إيريان الغربية.

فالجزيرة ليست على درجة كبيرة من الأهمية من الناحية الاقتصادية بالنسبة لهولنده فإنتاجها قليل نظراً لأن معظم أراضيها تغطيها المستنقعات والأحراش وتنتشر فيها الملاريا انتشارا كبيرا. ولكنها من الناحية الإستراتيجية تعتبر ذات أهمية بالغة بالنسبة للدفاع عن استراليا وبالنظر إلى مشروعات الغرب الدفاعية فى جنوب شرقى آسيا.

هذا من وجهة، ومن جهة أخرى فهى تعتبر نقطة ارتكاز للنفوذ الهولندى فى إندونيسيا. فهولنده لها مصالح حيوية فى إندونيسيا تتمثل فى مزارع المطاط والشركات الهولندية العديدة. فوجودها فى أيريان الغربية يضمن لها تلك المصالح. وفى نفس الوقت ييسر لها مهمة التجسس على أعمال الحكومة الوطنية، ويجعلها فى مركز المتحفز للوثوب على إندونيسيا إذا ما لاحت لها فرصة مناسبة.

كما أن إيريان الغربية تعتبر الملجأ الوحيد للرعايا الهولنديين فى إندونيسيا إذا ما طردتهم حكومة الجمهورية الإندونيسية. فهولنده لن تستطيع إرجاعهم إلى بلادهم الأصلية هولنده، نظرا لازدحامها الشديد بالسكان.

بدأت مفاوضات تمهيدية بين الطرفي عقب توقيع اتفاقية المائدة المستديرة وقبل أن تكتمل فترة العام المنصوص عليها. وتقدمت إندونيسيا بمقترحات إلى هولنده تتضمن الاعتراف بالسيادة الإندونيسية على أيريان الغربية، على أن تنتقل أدارتها إلى إندونيسيا بعد الاتفاق بين الطرفين. على أن تضمن حكومة الجمهورية الإندونيسية مصالح هولنده فى الجزيرة، ودفع التعويضات عما تكبدته من نفقات.

ولكن هولنده رفضت هذا العرض وقدمت مقترحات جديدة تتلخص فى الاعتراف بالسيادة للاتحاد الإندونيسى الهولندى، مع احتفاظها بإدارة الجزيرة والسماح لعدد معين من الأعضاء الإندونيسيين بدخول مجلس إيريان الغربية، فلم تسلم إندونيسيا بهذا الحل.

وأستؤنفت المفاوضات من جديد في ديسمبر سنة ١٩٥١ ولكنها لم تسفر عن أية نتيجة. فطالبت هولنده بعرض النزاع على محكمة العدل الدولية، وأرادت هولندا بذلك أن تخرج المسالة عن طبيعتها السياسية الصرفه.

ولم تكن الحكومة الهولندية جادة في مفاوضاتها مع إندونيسيا، خصوصا بعد أن ظهر زيت البترول في الجزيرة، وبعد أن أخذ النفوذ الغربي يتداعى في جنوب شرقي آسيا، ونظراً لاهتمامهم الغرب بمشروعات الدفاع عن المنطقة وانتهاج إندونيسيا لسياسة الحياد الإيجابي وعدم التحيز للغرب أو قبول مشروعاته الدفاعية. ونتيجة لهذه العوامل المتعددة أقدمت هولنده على اتخاذ قرار خطير ينم عن نواياها في إصرارها على التمسك بأيريان الغربية، وذلك بتعديل الدستور الهولندي في عام ١٩٥٢ بحيث ينص على جعل أيريان الغربية جزء من مملكة الأراضي المنخفضة.

وبهذا التعديل الجديد زادت المشكلة تعقيداً، وأصبحت مثار نزاع بين الفريقين. وتتجه السياسة الهولندية إلى التعاون مع جارتها الشرقية في الجزيرة وهي استراليا لتنسيق سياستهما الدفاعية إزاء الجزيرة.

وإذا كانت إندونيسيا قد وجدت تعضيدا من قبل حكومتي الولايات المتحدة الأمريكية في نزاعها مع هولندا بشأن الاستقلال، فإنما كان يرجع ذلك إلى رغبة هاتين الدولتين في أن تصبح الجمهورية الإندونيسية الجديدة من الدول التي تدور في فلك السياسة الغربية والتي تحبذ مشروعات الغرب الدفاعية التي تهتم بها الولايات المتحدة الأمريكية أيما اهتمام. ولكن بعد أن اتضحت سياسة إندونيسيا منذ انعقاد مؤتمر باندونج في أبريل عام ١٩٥٤، تلك السياسة القائمة على الحياد الإيجابي وعدم التحيز لكلا المعسكرين الشرقي والغربي، فإن الجمهورية الإندونيسية لتجد تعضيداً من قبل هاتين الدولتين فيما يتعلق بمشكلة إيريان الغربية.

وقد عرضت هذه المشكلة على الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة مرات منذ أغسطس ١٩٥٤ ولكن مناورات الدول الغربية كانت تحول في كل مرة بين

حلها. ثم أعلنت هولنده فى آخر الأمر أنها لن تدخل فى مفاوضات مع إندونيسيا وأنها ستستمر فى حكم الجزيرة إلى أن يتمكن السكان من تقرير مصيرهم بأنفسهم. وتمسكت باعتبار النزاع مسالة قانونية يجب عرضها على محكمة العدل الدولية.

وكان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٥٧ قاسيا بالنسبة لإندونيسيا إذ أنه أغلق باب المفاوضات بين الطرفين، وجعل إندونيسيا أمام أمرين لا ثالث لهما: أما قبول الأمر الواقع، وأما إرغام هولنده وضع حد لتلك المشكلة، وقد رأت إندونيسيا بعد أن استنفذت كل محاولاتها السلمية لدى الأمم المتحدة لحل المشكلة، أن تختار الأمر الثانى. فأجتمع فى جاكارتا فى ١٨ نوفمبر ١٩٥٧ مؤتمر شعبى حضره ما يزيد عن المليون نسمة. وقرر بأنه فى حالة فشل قضية أيريان الغربية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، فأن المؤتمر يرى أن تتخذ الحكومة خطوات حازمة إزاء تعنت هولنده، تتلخص فى تأميم الشركات الهولندية، وترحيل جميع الرعايا الهولنديين خارج البلاد، وتحريم دخول إندونيسيا على الهولنديين وإنشاء فرقة مسلحة هدفها تخليص أيريان الغربية وإنشاء صندوق لتمويل حركة التحرير فى الجزيرة.

وقد لبت الحكومة هذه الدعوة بعد فشل القضية، فأممت الشركات الهولندية وأمرت بترحيل الهولنديين إلى بلادهم واستولت على المصانع ومزارع المطاط ومختلف المنشئات الهولندية وبهذا الإجراء الحاسم فقدت هولنده كل ما تمتلكه من رؤوس أموال تقدر بنحو ٧٠ ٪ من الاقتصاد الإندونيسى. بل أن ما يستثمره الرعايا الهولنديون وحدهم يقدر بنحو ١٢٠٠ مليون دولار. ولن تستطيع الدول الاستعمارية من الصمود أمام حركات التحرير التى اجتاحت آسيا وأفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، وأن تشبث الاستعمار بما بقى لديه من مناطق قليلة، هو من قبيل إرضاء النزعة الاستعمارية التى أصبحت لا تتفق ومقومات الحياة فى النصف الثانى من القرن العشرين.

الحضارة الإسلامية فى إندونيسيا:-

فى هذا المجال يشكل تطبيق الشريعة فصلاً متميزا، فالمذهب الشافعى هو السائد فى المنطقة، حسب المفاهيم الإسلامية للشريعة. على أن هذه الهيمنة لا تعنى الشئ الكثير بالنسبة لقوة تأثير الشريعة الإسلامية. فمنذ اللحظة الأولى وحتى اليوم كانت الشريعة الإسلامية على خلاف مع أنظمة عديدة متنوعة وإن تكن مترابطة من القانون العرفى، وتلك هى الأنظمة التى كان معمولا بها عند مجئ الإسلام، والتى لا تزال ذات مكانة هامة جدا فى أغراض عديدة وفى أجزاء متعددة من الإرخبيل. وفوق كل هذا فقد تعرضت الشريعة الإسلامية لمنافسة غير متكافئة ومنظمة من جانب الأحكام القانونية والقضائية الفعالة، التى سنها الحكم الاستعمارى، وهى الإحكام التى ما ازل الكثير منها باقياً حتى اليوم: فقد سار انتشار الإسلام والحكم الاستعمارى فى مسارين متوازيين تقريبا لمدة طويلة من الزمن. وكانت النتيجة أن تطبيق الشريعة الإسلامية فى إندونيسيا كان أميل إلى أن يكون محدوداً جداً، واقتصر فى معظم الأحيان على قانون الأسرة.

وهنالك مسالة أخرى تتصل بالمسالة السابقة، هى موضوع المؤسسات الإسلامية. فعملية إرساء المؤسسات الإسلامية لم تتجاوز، تقليديا، أكثر من إقامة مزيج من الترتيبات التنظيمية مثل وظائف القضاة ذات التنظيم المتفاوت، ومركز العلماء المستقلين فى مؤسساتهم العلمية (وكانوا يشغلون من حين لاخر وظيفة المفتى دون أن يقلدوا هذا المنصب بصورة رسمية) والأوصياء على الأوقاف واللجان والموظفين المتعلقين بالمساجد المتعددة والمصليات أو الزوايا فإن الحكام المحليين، فى الأزمنة السابقة للعهد الاستعمارى وفى العهد الاستعمارى أيضا، كانوا يتصرفون بحيث يجعلون موافقة الإسلام على تصرفاتهم مجرد مسالة شكلية، إن لم تكن زائدة، فى معظم الحالات. وكان الاستثناء البارز الوحيد لهذا النمط هو الدور الذى كان يمارسه أثناء المراحل الأولى للتحول الإسلامى أولئك العلماء الذين صنف بعضهم فيما بعد بين الاولياء والدعاة إلى الإسلام، وأعنى به دورهم فى تأييد الامراء الذين تحولوا إلى الإسلام مؤخراً. ولقد كان الحكم

الاستعمارى بصورة عامة حذراً من الإسلام، ولم يتغير هذا الوضع تغييرا حقيقيا حتى حين رسمت سياسة استعمارية كان يوجهها شخص مثل س. سنوك هروغرونية C. Snouch Hurgronje، وهو أحد مؤسسى الدراسات الإسلامية الحديثة فى الغرب. فكان الاستعمار يراقب المسلمين بعين يقظة. وقد أنشئت لهذه الرقابة، مع مرور الزمن مؤسسة خاصة إذا أصبح لها مكتب خاص وأن يكن صغيرا. وفى هذه الأثناء كان العنصر الإسلامى فى الحركة الوطنية الوليدة قد بدأ بالمقابل يبحث عن أشكال تنظيمية، كوسيلة للتعبير عن نفسه بصورة أوضح فى الحياة العامة وكذلك من أجل اكتساب القوة. وقد أدى الاحتلال اليابانى، وخصوصا فى جاوا، إلى تطوير لمكتب الشئون الإسلامية لم يلحظ الإندونيسيون وجهه المزدوج إلا ببطء: إذ أضحى شبكة من الأجهزة كان من المفروض أن تحافظ على اتصال وثيق مع الجماعات المسلمة، ولكنها كانت فى الواقع أداة للدعاية، تمارس ضغطا سياسيا يصاغ صياغة دينية. ولقد أعيد تشكيل هذا الجهاز إلى حد كبير منذ عهد الاستقلال، وأصبح مركزه وزارة الدين. وهذه الوزارة تقوم على وضع غير مستقر نوعا ما، إذ يفترض فيها من جهة أن تسهر على مصالح جميع الفئات الدينية، ولكن معظم موظفيها من جهة أخرى هم من المسلمين كما ينتظر الكثيرون فى الجماعات المسلمة أن يملؤا فجواتها التنظيمية. وهنالك بضعة أحزاب سياسية إسلامية ومنظمات أخرى ذات وجود منفصل.

كان الإسلام لفترة طويلة وفى أجزاء كبيرة من الأرخبيل فى وضع يمكنه معه أن يقدم معظم إن لم يكن كل أنماط التجمعات والأنظمة التربوية. وكان النظام التربوى، الذى لم يأخذ شكلا منظماً إلا بعد أن فات أوان المحافظة على التراث، يشمل جميع مستويات التعليم من الابتدائى حتى الجامعى. (وعلى كل من يرغب فى التعليم الأعلى أن يذهب إلى مكة أو القاهرة). وقد تعرض هذا النظام التربوى لانتكاسات قاسية بتأثير النظام التربوى الاستعمارى الذى كان يماثل نظام البلد الام فى أوروبا تماثلا تاما. ويبدو أنه من غير المحتمل أن يعود النظام الإسلامى مرة أخرى فى ظل الاستقلال الوطنى، أو على الأقل أن يعود

بدون إصلاح رئيسي. وهنالك سمة بارزة في التعليم الإسلامي التقليدي في إندونيسيا هي أنه لم يكن يعتمد على المسجد كمركز لنشاطه.

فقد كان للتعليم المتوسط والعالي بصورة خاصة مراكزه الخاصة. وهذه المراكز، رغم إطلاق الاسم العربي عليها، وهو (مدرسة)، تذكرنا بمثيلاتها الهندية (الاشرام ashram) أو ربما بمراكز الفرق الصوفية الإيرانية أو التركية، أكثر مما تذكرنا بالمسجد – الجامعة الإسلامي.

أما في الفنون فلا يمكن اعتبار إندونيسيا تفرعا لتراث توطد في أماكن أخرى في العالم الإسلامي، سواء في الشرق الأدنى أو في شبه القارة الهندية. فلإندونيسيا تراثان فنيان أساسيان على الأقل. وهما غنيان جدا، أحدهما ينتمي إلى الأصل الوثني القديم والآخر تأثر بالهندوسية والبوذية. وكلاهما يشمل فنونا عديدة مثل الموسيقى والنحت وفن العمارة والأدب (وهو أحيانا تراث شفوي، وأحيانا أخرى أدب مكتوب). ويمكن أن نضيف إلى ما سبق، التدوين التاريخي، سواء أتخذ الشكل الخرافي أو الأسطوري أم شكل السرد الزمني للأحداث. ويتخذ تأثير الإسلام – أو على الاصح تاثير عملية التحول إلى الإسلام – طابع العامل الذي يخفف من اثر أنواع التراث هذه في معظم الحالات. فلم يجلب الإسلام إلى هذه الفنون سوى تعديلات فعلية طفيفة نسبيا، كما أن تاثيره كقوة دافعة جديدة كان أقل حتى من ذلك. صحيح أن شكل قبور المسلمين يطابق النمط الإسلامي العام المعروف، وكذلك الحال بالنسبة للقبور الأكثر تعقيدا، والخاصة بالأولياء، ولكن المسجد إندونيسي الطابع تماما من حيث هندسة عمارته في الحالات النموذجية: إذ نجد فيه سقفا عالية ذا طبقات، كما نجده بدون مئذنة في معظم الأحيان. (ويؤذن للصلاة بقرع طبل ضخم يسمى (بدوغ) bedug).

وأما في ميدان اللغة فبما أن اللغة العربية هي لغة القران ولغة الأدب الإسلامي الأساسي كله، وبما أن الإسلام – بما فيه الحج – عبارة عن شبكة من الاتصالات مع الخارج، وبما أنه كانت توجد مستعمرات للعرب الجنوبيين (الحضارمة) في أجزاء من الارخبيل، فقد كان من الطبيعي لبعض اللغات

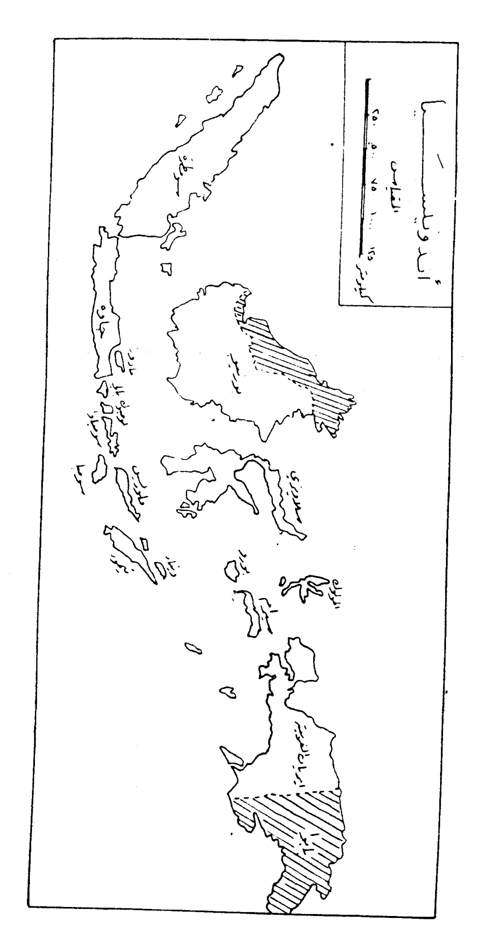
الإندونيسية على الأقل أن تعبر عن تحول متكلميها إلى الإسلام من خلال قدر من التعرب اللغوى. ويتمثل ذلك بصورة خاصة فى بعض لغات سومطرة، كالاتشهنييزية Achelnese. فقد استعملت هذه اللغات الأبجدية العربية، وربما كان ذلك خلال تحولها من تراث شفوى إلى تراث مكتوب. ثم أنها أخذت إلى حد ما مفردات عربية عديدة. وكان من الطبيعى أن يقع الاختيار على المصطلحات الفنية المتعلقة بالفقة والفلسفة والدين، وكذلك الحال بالنسبة للكلمات الدالة على بعض المفاهيم المجردة. كما تسللت بعض الألفاظ العامة، ومن الجائز أن الغرض الوحيد من استخدام بعضها كان مجرد التفاخر والمباهاة، وذلك نظراً لوجود مرادفات كافيه فى اللغة المعنية. والذى حدث هو أن اللغة الملايوية كانت، نسبيا، من أكثر اللغات تأثرا، وهذه اللغة هى التى أصبحت اللغة المشتركة فى جميع المناطق الساحلية. وقد كان ذلك فى البدء من أجل غايات تجاريه ثم فى النهاية من أجل التعبير السياسى أيضا. وتحت اسم اللغة الإندونيسية أصبحت الآن هى اللغة الرسمية للبلاد. وقد وضعت على سندان الوطنية وطوعت لتصبح الأداة المناسبة للتعبير عن جميع الأغراض، بما فى ذلك الأدب. على أن تحقيقها لهذه المكانة قد اقترن بالإقلال من العنصر العربى فيها. فقد توقف استعمال الأبجدية العربية خلافا للأبجدية الجاوية مثلا – فى جميع اللغات التى كانت تكتب بها، واستبدلت بها الأبجدية اللاتينية.

وبالنسبة للأدب فيجب أن تفترض أن براعم الأدب الإسلامى فى إندونيسيا قد ملأت إلى حد ما فراغ الحاجة إلى المعلومات، وهى الحاجة التى نشأت عن التحول إلى الإسلام. ومن جهة أخرى كان لابد للأدب الإسلامى أن يشق لنفسه مكانا عن طريق الحلول محل الأشكال الأدبية السابقة فى تلك المناطق التى سيطر فيها باعتباره الظاهرة الثقافية الرئيسية وتظهر أوضح حالات التأثر التام بالأدب الإسلامى، مرة أخرى فى اللغتين الاتشهينيزية والمالايوية. ففى هذه اللغات جميعا ازدهر تراث مكتوب، على شكل مخطوطات، خلال ثلاثة قرون على الأقل، منذ أوائل القرن السابع عشر حتى أوائل القرن العشرين. هذا التراث،

الذى بدأه المتصوفة من الإندونيسيين الهنود، كما بدأه واحد على الأقل من المتحمسين لمناهضة الصوفية. كان من أصل هندى - هذا التراث كانت أصوله ترجع إلى الطريقة التى كان العلماء الأوائل يبثون بها الإسلام فى عقول تلاميذهم. وتظهر طريقة عرضهم للموضوع، وهى طريقة توفيقية بالضرورة، فى مخطوطات ممتلئة بملاحظات مبعثرة هنا وهناك، مأخوذة أثناء المحاضرات، ومختلطة بجمل مجتزأة، وكثيراً ما كانت تبدأ وتنهى بصورة فجائية، وهى مخطوطات لابد أنها نسخت من أصول نفسها دخلت نصوص أساسية فى التفسير والكلام والفقه فى نطاق الاستعمالات اللغوية الإندونيسية. وبصورة عامة فأن هذا التراث من المخطوطات لا يمكن أن يكون قد ترك مجالا كبيرا للأصالة الإندونيسية فى الأمور المتعلقة بالفكر الدينى. وحتى فى الأمور المتعلقة بالتفضيل الظاهر لبعض المؤلفين على بعضهم الآخر فربما يجب الامتناع عن إصدار أحكام حول ما يفضله الإندونيسيون. فلا يمكن البت فى مسالة كون هذه التفصيلات القائمة هى ناجمة عن اختيار واع أو أنها تعود إلى هذه المصادر التى توافرت بالصدفة فى الأيام القديمة. وفى أواخر القرن التاسع عشر أخذت الكتب المطبوعة تحل مكان المخطوطات. وقد أنتجت المطابع فى إندونيسيا والتى تستخدم الأحرف اللاتينية، منذ بداية القرن العشرين، أعدادا متزايدة من الكراريس والكتيبات الصغيرة، وأحيانا من الكتب الكبيرة، المتعلقة بالمواضيع الإسلامية. وكان العامل الرئيسى فى هذا المجال استجابة إندونيسيا إلى ما يسمى بحركة التحديث على النمط المصرى - السورى وخصوصا الهندى، وهنالك عامل أخر يتجلى فى ظهور الأحزاب السياسية الإسلامية وغيرها من المنظمات، وكل منها يؤدى إلى توسيع سوق الطلب على المعلومات. ولو نظرنا إلى هذا الإنتاج المتزايد من الناحية الكيفية فقد لا نجد فيه الكثير مما يمكن أن يعتبر مساويا لكتابات الكتاب الرئيسيين فى الشرق الأدنى أو فى الهند والباكستان. لكن ثمة من جهة أخرى أوجها للمقارنة بالنسبة للطريقة التى يعرضها بها الكتاب القضايا المألوفة ويناقشونها.

إن لانتشار الإسلام فى أنحاء إندونيسيا جانبا تجاريا كان سابقا على الجانب السياسى الذى أكتسبه من جراء تفاقم الاستعمار الأوروبى إلى حد بعيد. ويمكن أن يقال بأن الإسلام وصل إلى إندونيسيا، وبدأ ينتشر فى إندونيسيا، على جناحي التجارة.

إن أعداد المسلمين فى إندونيسيا كبيرة إلى درجة أن الإندونيسيين يستطيعون بحق أن يفخروا بأنهم من أكبر الأمم الإسلامية فى العالم. وهو قول نادراً ما يخالفهم فيه أحد مخالفة صريحة وهناك بعض الفئات من الاندونيسيين الذين يظهرون، بلباسهم (الأبيض) وسلوكهم العام، نماذج حية للتقوى الإسلامية، وهؤلاء يعرفون فى جاوا باسم (ونج بوتيهان Wong Putihan) أى الناس البيض. على أنه بصورة عامة لا فرق بين الإندونيسيين وغيرهم من مسلمى البلاد الأخرى من حيث أداء الشعائر الدينية، ولكنهم يتميزون بحماس ملحوظ للحج إلى مكة. وربما يعود ذلك إلى شعورهم بالمسافة، المادية والروحية، التى تفصلهم عن المراكز الحقيقية الإسلام. فالإسلام فى إندونيسيا طابع إندونيسى مميز، لكن هذا الطابع يتفاوت بدرجات وعلى أنحاء كثيرة حسب المكان. ففى جاوا الوسطى حيث كان تأثير الهندوسية والبوذية عميقا جداً، يظهر الإسلام كطبقة خارجية رقيقه تغطى نمطاً ثقافياً سابقا مستمرا، على أن هذا لا يمنع أفرادا من الناس من أن يكونوا مسلمين مخلصين. ومن جهة أخرى ففى منطقة هولو سونفاى فى شمال شرق بنجر ماسين إلى جنوب كلمنتان، لا نستطيع أن نتبين أية ثقافة محلية محددة لأن معظم السكان من الوافدين الجدد نسبيا والقادمين من أماكن مختلفة، وفى هذه المنطقة يملأ الإسلام الفراغ الثقافى بطريقة تبدو عشوائية إلا أنه من الواضح أنها تفى بالغرض.



خريطه رقم (١) نقلاً عن : محمود شاكر - المسلمون فى أندونيسيا



الفصل الثالث

المسلمون فى شبه القارة الهندية



وصل المسلمون إلى الهند في ثلاث موجات مميزة، فقد وصل العرب المسلمون إلى السواحل جنوبي الهند كدعاة للدين وتجار كما فعل أسلافهم الوثنيون قبلهم، ورغم أنهم جاءوا بأعداد قليلة فقد استمر تواجدهم حتى القرن الخامس عشر.

ومازالت المستوطنات التي أقامها هؤلاء الوافدين المسلمين مثل مستوطنة الموبلا موجودة على ساحل مالابار.

كان بعض القادة في جيش عمر بن الخطاب قد خططوا لفتح الجزء ومن الهند الذي يعرف الآن بالسند (في الجزء الأسفل من نهر السند) ولكنه لم يشجع ذلك. ثم نظم الحجاج ابن يوسف حملة ناجحة في عهد الأمويين، قادها محمد بن القاسم في عام ٧١١، وقد نتج عن هذه الحملة ضم السند (مع جزء من البنجاب السفلي) إلى الخلافة الأموية.

ثم انتقل هذا الإقليم إلى الاسماعيليين الذين احتفظوا به حتى هزمهم محمد بن سام الغوري عام ١١٧٥ وبعد ذلك اصبح ذلك الإقليم جزءا من سلطنة دلهي وبذا إنضم إلى التيار الرئيسي للقوة الإسلامية في الهند.

كانت بلاد السند الإقليم الوحيد الذي حكمه العرب مباشرة ورغم أنه كان إقليما بعيداً عن الخلافة فقد كان الطريق الرئيسي الذي انتقلت من خلاله العلوم الهندية إلى بغداد.

وقد زار السند العربية جغرافيون مسلمون كالمسعودي (ت٩٥٦) وابن حوقل والإسطخري وتركوا أوصافاً طريفة لهذا الإقليم.

وسلكت الموجة الثالثة والأخيرة والمستمرة للفتح الإسلامي للهند والهجرة إليها طريق ممرات أفغانستان الشمالية الشرقية. وقد بدأت بغزوات محمود الغزنوي (٩٩٨-١٠٣٠) وتأسيس السلطنة الغزنوية في البنجاب. وفي عهد الغزنويين أصبحت لاهور قاعدة أمامية للثقافة الإسلامية في الهند. وأخذ مسلمو البنجاب الغزنويون يتكلمون لغة مشابهة للبنجابية الحديثة وأغنوها بخليط قوي من الكلمات الفارسية. وقد تطورت هذه اللغة فيما بعد لتصبح اللغة الأردية التي أصبحت اللغة الرئيسية

الرابعة للعالم الإسلامي بعد العربية والفارسية والتركية. ويعترف المؤرخون الغربيون بأن محمود الغزنوي لم يكن فاتحاً غازيا عالي المكانة من الناحية العسكرية فقط، بل أنه كان سلطانا عاقلاً أديباً كيساً جامعاً بين دولتي السيف والقلم، وقد ضم بلاطه الفارابي والفردوسي والبيروني، وقد كان السلطان محمود هو الذي اقترح على الفردوسي نظم الشاهنامة ووعده بأن يكافئه على كل بيتين قطعة من الذهب، وقد نبغ في أيامه بديع الزمان الهمزاني وكان عامله على هراة، وأبو بكر الخوارزمي. وتلا الغزنوبيين الغوريون، فقد أنهى محمد بن سام الغوري حكم الغزنوبيين في البنجاب عام ١١٨٦ واحتل هو وقواده في سلسلة من الغزوات القسم الأكبر من شمال الهند وأسس دولة إسلامية هناك هي سلطنة دلهي (٦٠٢-٩٦٢هـ) (١٢٠٦-١٢١٠م).

(دولة المماليك)

أقتصر حكم الدولة الغورية للهند على عهد غياث الدين وأخيه شهاب الدين الذي تولى فتح الهند، وبعد مقتله شغل الغوريون بالخلافات والحروب بينهم بينما كان قطب الدين أيبك قائما في الهند بشأن الحكم فيها، مستقلا بأمورها بعد أن وافق الملك الغوري الذي خلف شهاب الدين على اطلاعه بالحكم فيها.

وبذلك أتيح لقطب الدين أيبك (١٢٠٦ - ١٢١٠-) وهو من مماليك محمد بن سام أول حاكم في سلالة "السلاطين المماليك" وهو من أصل تركي وثقافه فارسيه. وبذلك أتيح لقطب الدين أن ينشئ دولة مستقلة في الهند يتولاها المماليك من أسرته أو ممن يقوى منهم على انتزاع الحكم لنفسه بأي أسلوب يوصله إليه، كما كان الحال مع المماليك في مصر.

وقد انصرف قطب الدين (اشتهر باسم لك بخشي) ببعض الإصلاحات وبناء بعض المساجد مثل المسجد الكبير في دلهي والذي اشتهرت منارته باسم (قطب مينار) أي منارة قطب.

بعد وفاة قطب الدين تولى شمس الدين التتمش السلطنة (١٢١١-١٢٣٦) واصبح بلاطه في دلهي مركزا مزدهرا للثقافة الإسلامية. ولقد كانت لألتتمش

نزعات دينية وصوفية قوية، وبتشجيع منـه توطدت الصوفية كقوة روحية بـارزة فـى الهند خلال العصور الوسطى، وكانت تمثلها طريقتان صوفيتان:

الطريقـة السـهروردية والطريقـة الجشتيـة اللتـان سـيطرتا بأفكارهـا علـى المذاهب الدينية فى الإسلام فى الهند.

وكان آخر حاكم بين السلاطين المماليك هو بلبان (١٢٦٦-١٢٨٧) الذى وقف فى وجه المغول على الحدود الهندية بعد أن دمروا بغداد عام ١٢٥٨، بالرغم من أن سلالته لم تدم طويلا بعده، فإن السلطنة نفسها كانت وطيدة الجذور فى التربة الهندية عند موته.

السلاطين الخلجية: (١٢٩٠م-١٣٢٠م)

وكانت الأسرة الحاكمة التاليه هى أسرة الخلجبين (١٢٩٠ - ١٢٩٦م).

وهى من أصل أفغانى، وقـد حـول عـلاء الديـن (١٢٩٦-١٣١٦) أقـوى حكامها السلطنة إلى إمبراطورية، إذا استولى على شبة القارة الهندية كلها تقريباً.

ورغم أنه كان أمياً فقد فرض التقيـد بـالمذهب الحنفـى علـى اتباعـه المسلمين. وفى ذلك الوقت وصل تأثير صوفيه ابن عربى التوحيدية إلى الهند، ووصلت إلى حلول وسط مع بعض العناصر المحلية ذات الأصل الهندوسى. ووصل الشعر الهندى - الفارسى إلى قمته فى أعمال أمير خسرو الذى تبدأ معه أيضا عملية التماذج بين الموسيقى الإسلامية والهندية.

الدولة الطغلقية (غياث الدين طغلق شاه):

(٧٢١هـ : ١٣٢١م - ٧٢٥هـ : ١٣٢٥م)

كانت أسرة "طغلق" الحاكمة تركية لكنها اكتسبت الصبغة الهندية بصوره جزئية، وقد سعى محمد بن تغلق لدى المستكفى العباسى فى القاهرة للحصول على الولايـة، وحصل عليها عام ١٣٤٣، وحاول أن يقيم علاقات مع حكام العالم الإسلامى الآخرين، لكنه خسر القسم الأكبر من الإمبراطورية فى الهند على يد الحكام المتناحرين الذين أقاموا ممالك إقليمية، كما استولت مملكة فجينا غاز

الهندوسية على الجزء الجنوبي من هضبة الدكن. وكان محمد بن تغلق غير متوازن، غريب الطباع، بل شديد القسوة بطبعه، لكنه كان على جانب كبير من الثقافة ويهتم بالعقلانية ولا يثق بالصوفية. وقد زار الرحالة المغربي ابن بطوطة الهند أثناء حكمه وأعطى مناصب عليا في الدولة. وقد ترك لنا وصفاً هاماً للهند في ذلك العصر.[1]

وكان الحاكم الذي جاء من بعده وهو فيروز تغلق متدينا، حكم الدولة حسب الشريعة الدينية، واصدر قانونا يهدف إلى إلغاء العقوبات الجسدية المخالفة للشريعة ورعى الدراسات الدينية. وفي عهد خليفة محمد بن فيروز (٧٥٢هـ - ١٣٥١م - ٧٩٠هـ : ١٣٨٨) صنف مؤلفان هامان في الشريعة الإسلامية في الهند هما: "فقه فيروز شاهي" "وفتاوى تاتا رخاني".

على أن غزو تيمورلنك (١٣٩٨) اضعف سلطنه دلهي إلى حد كبير. وكانت الإقاليم قد بدأت تنفصل عنها، ونشأت في الإقاليم ممالك إقليمية كان لبعضها سمات ثقافية مميزة. وكانت البنغال، وهي من الإقاليم البعيدة، قد استقلت من قبل وحكمها عدة أسر حاكمه، منها واحدة إفريقية وأخرى عربية.

وتطور الأدب البنغالي المحلي في عهد سلاطين البنغال في تيارين: أحدهما هندوسي والآخر إسلامي، وكثيرا ما كانا يلتقيان وظهرت هندسه معمارية متناسبة مع المناخ الرطب والممطر للمنطقة. وقد لقي نشر الإسلام نجاحا في البنغال أكثر من أي مكان آخر من شبه القارة باستثناء الشمال الغربي. لكن البنغاليين ظلوا أقرب إلى أصلهم الهندوسي من الناحية الثقافية.

أما في أقصى الشمال الغربي فقد جاء تأسيس شاه ميرزا سواتي لدولة إسلامية عام ١٣٤٦ واعتناق القسم الأكبر من سكان كشمير للإسلام تدريجيا، نتيجة جهود ليست لها صلة بسلطنة دلهي، ومن بين سلاطين كشمير، عرف سكندر "محطم الأوثان" بعدم التسامح، لكن ابن زين العابدين (١٤٢٠-١٤٧٠) يذكر لا من أجل

---

[1] ابن بطوطة - رحلة ٤ مجلدات.

تسامحه فقط بل لتشجيعه للآداب وللمحاولات الأولى التى قام بها لإيجاد تفاهم فكرى بين الحضارتين الاسلامية والهندوسية.

وقد تطورت فى كشمير فى ظل سلاطينها، أساليب دقيقة للحرف اليدوية وخصوصا نسيج الشالات والسجاد والأعمال الخشبية والتطريز.

وقد استمرت دولة كوجرات البحرية من ١٣٩١ إلى ١٥٨١، وكانت لها مع بقية العالم الإسلامى علامات تجارية وعرقية أوثق من أية دولة إقليمية أخرى فى الهند.

وحين تعرضت للخطر البرتغالى، كانت مستعدة لقتال البرتغاليين فى البحر بالتعاون مع فصائل بحرية تابعة للأشرف قانصوه الغورى المملوكى (١٥٠١-١٥١٧). ثم للسلطان العثمانى سليمان القانونى (١٥٢٠-١٥٦٦) من بعده.

وقد أقامت كوجرات نشاطات تجارية مزدهرة مع البلاد البحرية الإسلامية إلى أن بسط البرتغاليون سيطرتهم على المحيط الهندى.

وحكمت أسرة "شرقى" المالكة جاونبور[1] فى وادى نهر "الكنج" من ١٣٩٤ إلى ١٤٧٩، حين عادت إلى الاندماج فى سلطنة دلهى، وكان حكامها يشجعون الفنون وخاصة الموسيقى، فى حين أن عمارة المسجد اكتسبت طابعاً خاصا بها، بإعطاء الأهمية الكبرى للمقصورة.

كذلك نجد سلطنة "مالوا" (١٤١٠-١٥٣٠) فى وسط الهند، التى حكمتها أسرتان متعاقبتان، شيدت آثاراً معمارية رائعة.

---

[1] أسس هذه السلالة خواجة جهان وزير السلطان محمود التغلقى فى بهارواود وقنوج وبرائج، وحكمهت من بعده اولاده حكما ناجحا، وتركوا فيها أثاراً ما تزال موجوده. وقد حكمت الأسرة من ١٣٩٤-١٥٠٠ حتى دخلت فى اتحاد مع سلاطين ملاوه.

وفي جنوبي الهند، المنطقة المعروفة باسم الدكن. نشا نمط مميز من الثقافة الهندية الإسلامية في ظل البهما نيين[1] (١٣٤٧-١٥٢٧).

وفي دولهم الخمس التي خلفتهم وهي: غولكوندا وبيجابور واحمد نكر وبرار وبيرار[2].

وكانت الأسر الحاكمة الثلاث الأولى وبعض السلاطين البهمانيين من الشيعة، وأن كانوا قد فشلوا في جعل اتباعهم المسلمين يعتنقون المذهب الشيعي.

وكانت الحضارة الإسلامية الدكنية التي انفصلت مدة طويلة عن شمال الهند، أكثر تسامحا مع الهندوس، وأكثر تجاوباً مع التاثيرات اللغوية والاجتماعية المحلية.

وكانت في مراحلها الأخيرة مرتبطة عاطفيا بفارس الصفوية، وربما كانت أقل رقيا من حضارة الشمال لكنها كانت أكثر لينا منها. وكان إنجازها الثقافي الرئيسي، بخلاف عمارتها المحلية، يتمثل في تطوير اللهجة الدكنية لغة الأوردية التي أنتجت أدباً غنياً وسليما من النثر والشعر قبل مدة طويلة من تحويل الهند الشمالية إلى الأوردية كلغة أدبية.

وقد نقلت العلاقات التجارية تأثير العمارة البهمانيه إلى المسلمين على الساحل الشرقي لإفريقيا.

---

[1] أسس هذه السلطنة حسن كانكو علاء الدين ظفر خان الأفغاني. بعد أن تزعم الثورة ضد آخر بني تغلق واخرج قواتهم من الدكن.

[2] هذه الامارات قامت بها أسر عديدة:

-العماد شاهيون ١٤٨٤-١٥٧٢ في برار.

- النظام شاهيون ١٤٩٠-١٥٩٥ في احمد نكر.

- البريد شاهيون ١٤٩٢-١٦٠٩ في بيرار.

- العادل شاهيون ١٤٨٩-١٦٦٨ في بيجابور.

- القطب شاهيون ١٥١٢-١٦٨٧ في علكندد.

وكان انقراضها جميعا تقريبا على يد أباطرة المغول.

دولة المغول الإسلامية (الدولة التيمورية) فى الهند:

(٩٣٢هـ - ١٥٢٦م إلى ١٢٧٣هـ - ١٨٥٧م)

تأسست الإمبراطورية المغولية، التى تمثل أعلى ما وصلت إليه الهند الإسلامية، من روعة وسلطة سياسية وازدهار ثقافى على[1]يد بابر (١٥٢٦ - ١٥٣٠)، وهودن أتراك تيمورلنك فى عام ١٥٢٦ وخلال حكمه وحكم خليفته همايون (١٥٣٠ - ١٥٤٠، ١٥٥٥-١٥٥٦).

كانت اللغتان التركية والفارسية تتنافسان لتصبحا اللغة الاردية فى الهند. ولكن الغلبة كانت للفارسيه. ونجد فى مذكرات بابر التركية أرقى نموذج من النثر التركى الشاغاتى[2].

وقد تعرض حكم همايون فى الهند إلى تمرد قام به الباتان (الأفغان) وخلال فترة الانقطاع هذه (١٥٤٠-١٥٥٥) وضع "شير شاه سورى" أسس نظام عوائد الأراضى ونظام المواصلات الذى كانت عليه الإدارة المغولية.

وقد وسع جلال الدين أكبر (١٥٥٦-١٦٠٥)، وهو شخصية فريدة من عدة نواحى فى الهند الإسلامية، حدود الإمبراطورية بحيث ضم كل شمال ووسط

---

[1] هو جلال الدين محمد أكبر بن همايون بن بابر التيمورى.

[2] اللغة الأردية أعظم لغات شبه القارة الهندية وهى لغة آريه وضع قواعدها ونحوها علماء المسلمين وكلمه "أوردو" معناها العسكر والمقصود هنا معسكر أسرى المغول والترك والمسلمين حول دلهى حيث نشأت هذه اللغة وألفاظها مزيج من العربية والفارسية والتركية والسنسكريتية. وتكتب بالحروف العربية مع الإضافات الفارسية. وهى اليوم لغة باكستان الأولى . وأما السنسكريتية فهى أشهر لغات الهند الآرية القديمة واعرقها وهى اليوم لغة جمهورية الهند الحديثة.

الهند[1] وادخل "الراجبوت" الهندوسيين العسكريين الذين كانوا حتى ذلك الوقت معاديين للحكم الإسلامى فى جيشه وإدارته وكانت إمبراطوريته تضم عند وفاته سنة ١٦٠٥ الولايات الخمس عشرة: كابل (بمافيها كشمير) ولاهور وملتان (بما فيها السند) ودلهى، وأوده، وآكرا، وأجمبر، واحمد أباد، ومالوا والله آباد، وبهار والبنغال وخاندش وبرار واحمد نكر.

إصلاحيات الاجتماعية:

منع الزواج قبل الرشد، وأباح للأرامل الهندوسيات الزواج وكن لا يتزوجن، كما منع المرأة من إحراق نفسها أذامات وزجها، وامتنع عن جعل اسارى الحرب عبيداً، وشجع العلماء الهندوس على تعلم اللغة السنسكريتية.

ومن أوامره لحكامه: أن يحيطوا علماً بأحوال رعيتهم ويعاملوا الناس معاملة حسنة ويحسنوا إلى الفقراء، وإلا يعفوا عن المجرمين، ولا يقبلوا الهدايا، ولا يعترضوا على المخالفين لهم فى الدين، فهم وأن كانوا على الحق فلا يصح الاعتراض عليهم، وأن كانوا على الباطل فهم مرضى يجب الرفق بهم، ثم عليهم أن يلاحظوا دخل الناس وخرجهم حتى إذا زاد خرجهم كان ذلك دليلاً على اكتساب حرام، ومنع اغتسال النساء والرجال فى الأنهار سوياً. كما منع شرب الخمر وعصرها، ومشى النساء كاشفات وجوههن. ومنع جبر أحد على الإسلام، ومن أجبر فله الخيار، وجعل للناس الحرية التامة فى اعتناق أى دين يريدون. وإلغائه للجزية

---

[1] اضاف أكبر إلى املاكه بين سنتى ١٦٥٢ و١٥٧٦: مالوا ١٥٦٢ مملكة كارها - كتانكا الفوندية سصنة ١٥٦٤ وجبهيتورنة ١٥٦٨ ورتنبهور سنة ١٥٦٩ وكلنجر ١٥٦٩ وكجرات سنة ١٧٥٣. وقد جعله ضم البنغال سنة ١٥٧٦ سيدا على شمالى الهند جميعا فيما عدا السند الأدنى. وتشمير ١٥٨٦ والسند ١٥٩١ وجزء من أوروبا ١٥٩٢ دبلوجستان ومكران سنة ١٥٩٤ وقندرهار ١٥٩٥ واسفرت مملاته على الدكن عن ضم برار وخاندش وجزء من احمد نكر ما بين سنتى ١٥٩٥.

وللضريبة التى كانت تجبى من قبل من الحجاج الهندوس. مستهدفا ضمان ولاء رعاياه الهندوس الذين كانوا هم قوام السكان.

ولقد حكم إبنه جامنجير (١٦٠٥-١٦٢٧) وحفيده شاه جهان (١٦٢٨-١٦٥٨) إمبراطورية مزدهرة ذات روعة لا تضاهى. غير عاصمه حكمه من لاهور إلى أكرا وفى بداية عهده أنشأ الإنجليز أول محطة تجارية فى سورات ميناء للحجاج المسلمين الذاهبين لمكه وذلك قبل إنشاء ميناء بمباى. وكان جاهنجير ذواقة يتمتع بحس فنى رفيع وقد كتب ترجمة ذاتية لحياته تشكل أثرا هاما فى الأدب التاريخى الرائع للعصر المغولى، وتجمع بين تراث الكتابة التاريخية فى سلطنه دلهى وتراث الكتابة التاريخية فى العصر التيمورى.

أما شاه جهان فكان بناء من الطراز الأول، شيد بعضا من أروع الآثار المعمارية فى العالم من بينها تاج محل (ضريح لزوجة شاه جهان) الذى يعد من عجائب الدنيا.

اختلف عن جده أكبر، أمر بهدم جميع الكنائس التى أقيمت فى أجرا ولاهور، وقام بمواجهة مركز البرتغاليين عند مصب نهر الجانج. فقد أرسل جيشا كبيرا إلى مدينة هوجلى وحاصرها مدة ثلاثة أشهر ثم استولى عليها وطرد البرتغاليين. وعامل الهندوس المسيحيين فيها بكل قسوة..

أورانجزيب (١٦٥٨-١٧٠٧)

ارتقى العرش بعد حرب تنازع فيها على العرش مع اخواته فأزاليهم وخلع والده وفى حكمه أصبحت شبه القارة كلها تقريبا تحت السيطرة المغولية. ولكن ظهرت أيضا بدايات التدهور، إذ أنه لم يستطيع أن يصد تمرد "المارثيين" الغزاة إلا بصورة مؤقتة.

(محيى الدين محمد اورانجزيب) كان على عكس بابر وأكبر شديد التمسك بالإسلام وقواعده الأولى دون أن ينهج طريق التوفيق ودون أن ينظرا إلى الاعتبارات الخاصة التى جعلت بابر وهمايون وأكبر وجها نجير اتباع سياسة التسامح الدينى.

فبدأ حكمه بتطهير العقيدة الإسلامية من البدع والشرك والنساء، وحرم شرب الخمر وطرد رجال اللهو من الموسيقيين والممثلين والرسامين. وأعاد فرض الجزية على غير المسلمين.

وأصبحت دلهى فى عصره مركزاً من أهم مراكز العالم الإسلامى التى يفد إليها الزوار من كافة الأرجاء.

وقد ألفت "الفتاوى الهندية" وهى مؤلف شامل للشريعة الحنفية، تحت رعايته. ولقد شاعت طريقتان صوفيتان، الطريقة النقشبندية والطريقة القادرية فى عهد المغول الكبار. فقد جاء الشيخ احمد سرهندى النقشبندى بمذهب توحيدى مفارق، كان بمثابة رد فعل ضد مذهب: وحدة الوجود Pantheistic الذى يقول به المذهب التوحيدى الأنثولوجى Onthological Monism كما عرضه الصوفى العربى الأندلسى ابن عربى (المتوفى عام ٦٣٧هـ/١٢٤٠م).

ولكن الحركة النقشبندية ركزت اهتمامها على الجماعة الإسلامية وحدها، وأصبحت هذه سياسةللدولة فى عهد أورانجزيب.

أما الصوفية القادرية التى ازدهرت فى ظل شاه جهان، فكانت اقرب نسبياً إلى الطابع التوفيقى. وانتشرت الدعوة الشيعية فى الهند وخاصة فى مناطق الدكن. وبدأت حركات انفصالية شيعية فى تلك الجهات، رأى فيها الإمبراطور اورانجزيب خطراً شديداً على دولته.

كما سار اورانجزيب على منهج أبيه فى هدم معابد الهندوس فى نبارس التى تعد معقل الهندوسيين واكبر مدنها المقدسة، وهدم معبداً آخر فى ماثورا ولما كان اسم مدينة ماثورا يرتبط بعبادة الإله كرشنا ألغاه وأطلق على المدينة اسم "إسلام آباد" وطرد كثير من الهندوس الذين كانوا يشغلون مناصب فى الدولة ولم يبق منهم إلا القليل وفرض عليهم الضرائب الباهظة.

قامت ثورات فى البنجاب عام ١٦٧٢ على يد جماعة من السيخ، وهم محاربون أشداء ورغم ذلك فإن اورانجزيب لم يعمل على إرضاء الراجبوت بل زاد كرهه لهم، حيث أنه لم ينس أنهم وقفوا إلى جانب أخيه دار شيكوه من قبل. وفى

سنة ١٦٧٨ توفى مهراجا إحدى الولايات الهندوكية وهو ماروار فاستولى اورانجزيب على الولاية بالقوة وهدم معابدها، فأثارت هذه الأعمال غضب الراجبوت فقاموا بثورة واسعة النطاق، ولما تقدمت جيوش السلطان نحوهم هجروا المدن ولجاءوا إلى الغابات والجبال ودخلوا في حرب عصابات طال أمدها وزادت من خسائر الجانبين.

عزم اورانجزيب على إخضاع جنوب الهند كلها، والقضاء على المراثا، ولكنهم ظلوا يكافحون اورانجزيب بحرب عصابات طال أمدها (ربع قرن) فأصيبت البلاد بالدمار ونضبت خزينة الدولة ودب التحلل في الإمبراطورية المغولية في الهند، في الوقت الذى كانت فيه القوى الشمالية الأفغانية والفارسية تتطلع للسيطرة على هذه البلاد المفككة. وهنت قوى السلطان اورانجزيب - بعد أن بلغ ٨٨ عاماً - فانسحب ولم يواصل قتال المراثا وتوفى عام ١٧٠٧.

علاقات الدولة المغولية الخارجية:

أقام سلاطين المغول علاقات واسعة مع الصفويين والعثمانيين والاوزبيك دون أن تكون هذه العلاقات مقترنة بطموح أو نزعات طائفية.

وقد تدفقت عليهم الكفايات الإدارية والفكرية من فارس وآسيا الوسطى، وهذه الكفايات هي التي جعلت الهند الإسلامية تبقى ضمن التيار الرئيسي للثقافة الإسلامية.

وقد ازدهر الشعر، الذى لم يكن يشجعه الصفويون، وفي البلاط المغولي، وفي هذه الفترة إتضحت السمات المميزة لمدرسة شعرية: هندية - فارسية هي "السابكي الهندي" وأن كانت أصولها تعود إلى بنجاب الغزنويين. وفي فن إنشاء الرسائل الدبلوماسية والإدارية أو شخصية كان كتبه البلاطات المغولية والعثمانية والصوفية يتنافسون فيما بينهم.

الإمبراطورية المغولية بعد أورانجزيب:

بموت اورانجزيب[1] عام ١٧٠٧ بدأ الانحطاط الملحوظ للإمبراطورية المغولية الإسلامية في الهند بشكل فجائي. فبرزت جماعات غير مسلمة متعددة، واقتطعت لنفسها قطعاً كبيرة من الإمبراطورية. المراثيون في الدكن والسبخ في البنجاب والراجبوت في أراضيهم والجات في وادي الجمنه. وأصبح الحكام المسلمون للمقاطعات الأخرى مستقلين، فلم يعترفوا إلا اسميا بسلطة إمبراطور دلهي الذي انحصر نفوذه بدلهي والمناطق المحيط بها. وكان خلفاء أورانجزيب مجرد ألعوبة بيد صانعي الملوك الشيعيين وهم:"آسيا دبرها Barha" وجلبت الغزوات الآتية من الشمال الغربي والتي قام بها نادر شاه الفارس في سنة ١٧٣٩ واحمد شاه عبدلي الأفغاني بين سنتي ١٧٤٧ و١٧٦١ كوارث أشد على المغول.

ولم تكن غزوة نادر شاه غزوة حضارية للهند مثل بقية الغزوات التي كانت تأسيسها من الشمال، أنما كانت تهدف إلى أن تصبح الهند مصدر ثراء لفارس، ورغم أن نادر شاه كان قائدا عسكريا ناجحا إلا أنه لم يكن على مستوى من الإدارة التي تكمن من بناء دولة له في الهند. فضاعت فُتوحات في الهند كما سقطت آسرته في فارس في أعقاب وفاته، وتفكك جيشه وضاعت آخر فرصته لإنقاذ الهند من القوى الأوربية المتربصة بها.

أسباب انهيار إمبراطورية المغول في الهند:

كان المغول عنصرا أجنبيا لا تربطه بالهند رابطة قوية. كذلك قضت سياسة اورانجيب التوسعية، على كل الصلات التي كانت بين المسلمين والهندوس، تلك العلاقة التي كانت تمثل العمود الفقري للتاريخ الإسلامي في الهند.

أضف إلى ذلك تلك الحروب التي استنزفت مصادر الثروة وأضعفت الدولة مما عرضها لغارات المراتا والراجبوت وغيرهم. كذلك الانقسامات التي وقعت بين أفراد الأسرة الحاكمة وما صاحبها من تنافس وحروب بين الأخوة، أو بين الابن

---

[1] يكتب الاسم أيضا: اورانكزيب.

وأبيه كما حدث بين أكبر وابنه سليم (جها نجير). وبين الإمبراطور شاه جيهان وابنه اورانجزيب. وانغماس السلاطين والأمراء فى الترف وفساد الإدارة المركزية وانحلال الروح المعنوية بين سكان الهند الذين كان ولاؤهم للقبائل والطوائف والجماعات الدينية.

أضف إلى ذلك أن نظم الحكم والإدارة والإنتاج واتجاهات السياسة الخارجية لم تكن على مستوى العصر. كما أن القدرات العسكرية فى داخل الهند لدى المسلمين والهندوس على السواء كانت تنتمى إلى العصور الوسطى. ولم يتجه المسلمون والهندوكيون إلى القوة البحرية. فظلت متاخرة فى عصر اصبحت فيه القوة البحرية هى أداة الحرب والتوسع. وكانت هناك على الشواطى الهندية الغربية قوتان كبيرتان اصطدمتا بالبرتغاليين فى وقت مبكر وهما: أمارة كجورات فى شمال غربى الهند، وأمارة كاليكوت (قاليقوط).

الهند والتنافس الاستعمارى الأوربى:

شهد القرن الخامس عشر حركة الكشوف الجغرافيا، بدأتها البرتغال وأسبانيا فى محاولة لكشف الطريق البحرى للهند. وكانت وراء هذه الحركة دوافع سياسية واقتصادية ودينية.[1]

يمكن تقسيم عملية كشف الطريق البحرى إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى خمس مراحل:

المرحلة الأولى (١٤١٥-١٤٣٤م):

وهى مرحلة تمهيدية تبدأ من رحلة الأمير هنرى إلى سبته فى عام ١٤١٥ وتنتهى فى عام ١٤٣٤ عندما تمكن من الدوران حول رأس بوجادور.

---

[1] لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع للمؤلف كتاب: فضل المسلمين فى كشف الطريق البحرى إلى الهند (١٤١٥-١٤٩٨). الهيئة المصرية العامه للكتاب - المكتبة الثقافية العدد رقم ٥١٢. القاهرة ١٩٩٥.

ولقد أدرك هنرى أن الخطوة الأولى لنجاح الحملة الموجهة إلى الشرق هو ارتياد الشاطئ الإفريقي وكشفه. وكانت المنطقة الواقعة جنوب رأس بوجادور لم يمر خلالها أي ملاح أوربى قبل ذلك. وتميزت هذه المرحلة بكثرة رحلات البرتغاليين إلى سواحل غرب أفريقيا والجزر المجاورة لهذا الساحل.

المرحلة الثانية (١٤٣٤-١٤٦٢):

تم فيها الوصول إلى الرأس الأخضر (Cape Verde) ١٤٤٥ وكشف جزر ماديرا عام ١٤٢٠ وجزر كنارى وجزر آزور فيما بين عامى (١٤٣١-١٤٤٤) وتتميز هذه المرحلة بأسر العديد من الأفارقة ومبادلتهم مقابل أشياء عديدة من منتجاتهم الوطنية والذهب وبيض النعام، وقد بلغ عدد الأسرى في إحدى الرحلات ٢٣٥ أسيرا. وازدادت تجارة الرقيق فى البلاد.

المرحلة الثالثة (١٤٧٠-١٤٨٤):

تم كشف الجزء المتبقى من ساحل غانة ثم تم الوصول إلى رأس كاترين Cape Catherine ثم ساحل العاج وساحل الذهب ورأس سانت كاترين الواقع جنوب خط الاستواء.

المرحلة الرابعة (١٤٨٢-١٤٩٧):

تمت فى عهد الملك يوحنا الثالث والذى أصدر مرسوما يقضى بإغراق أو أسر أى سفينة أجنبية تقترب من خليج غينيا وذلك بهدف حماية التجارة البرتغالية من هجمات الوطنيين الأفارقة.

وتميزت هذه المرحلة برحلتين هامتين قام بهما على التوالى كل من: دييجو كام Diego Cam وبارثليميودياز Partholomeu Dias .

استطاع الأول من الوصول إلى كل من رأس مونت نجرو Cape Mont Negro ورأس كروس وتمكن الثانى من الوصول إلى خليج والفش Walfish وخليج موصل Mosel ووصل إلى رأس الرجاء الصالح ١٤٨٨ فعاد للوطن.

المرحلة الخامسة (١٤٩٧-١٤٩٨):

بقيادة فاسكودى جاما واستغرقت عامين ونجح فى نهاية الأمر إلى الوصول لميناء قاليقوط على الشاطئ الجنوبى الغربى للهند (شاطئ ملبار) يوم ٢٧ مايو ١٤٩٨.

ويعتبر ذلك نقطة تحول هامة فى تاريخ الهند وأوربا وتاريخ السيطرة الأوربية على آسيا والهند.

الصراع البحرى فى المحيط الهندى فى بحر العرب والبحر الأحمر:

كان المحيط الهندى من أقدم العصور مجالا عظيما للتجارة، وكانت السفن الهندية تبحر عباب بحر العرب إلى ثغور البحر الأحمر ولها علاقات تجارية بمصر وفلسطين وغيرها من بلاد الشرق الأدنى، وقد أبحرت السفن الهندية شرقا حتى بورنيو، وكان للهند مستودعات تجارية فى الملايو وجزائر إندونيسيا وكامبوديا وشواطئ الصين الجنوبية، وكانت الهند بلاد الفلفل أو القرنفل وجوزة الطيب وأمثالها من التوابل والأفاوية الثمينة فكانت تأتى من إندونيسيا وظل الهنود متفوقين فى هذه التجارة حتى ظهور العرب فى بواكير عهد الخلفاء، ولكن العرب والهندوس كانا يتنافسان فى التجارة وحرية البحار مكفولة، وكانت فكرة السيادة على البحار فى غير المضايق بعيدة عن عقلية الآسيويين، وكان الحكام الهنود الذين يملكون الأساطيل الضخمة مثل أباطرة كولا والزامورين لا يستعملون أساطيلهم إلا لحماية الشواطئ ومطاردة القراصنة، ونقل الجيوش وحراستها فى البحار.

والحرب البحرية على نطاق واسع لم تكن معروفة فى الهند قبل قدوم البرتغاليين، ولذلك لم تكن السند الهندية معدة للحرب فى البحار النائية.

وعندما وصل البرتغاليون إلى بحار الهند كانت إمبراطورية فيجايا ناجار مبسوطة السلطان فى جنوب الهند، وكان أباطرة هذه الدولة يشاركون البرتغاليين فى كراهيتهم الشديدة للإسلام، وكانوا مثل البرتغاليين يرون فى اقتراب المسلمين

من حدودهم ما يهدد سلامتهم وكان ذلك من عوامل توطيد البرتغاليين أقدامهم فى جوا التى ظلت فى حوزتهم فترة طويلة.

وكان حاكم المنطقة الملاصقة لشاطئ ملبار هو زامورين كاليكوت، والى عاصمته جاء فاسكودى جاما مع سفنه الأربعة (٢٧ مايو ١٤٩٨) كما سبق وذكرنا، ولم يكن للزامورين دولة واسعة الأرجاء ولكنه كان ملكا قوياً، وكانت مدينة كاليكوت (قاليقوط) مركزاً هاماً لتجارة التوابل والأفاوية، وكانت تأتى إليها التوابل من جزائر الباسفيكى ومن شواطئ ملبار وتحمل إلى أوروبا، وكان لتجار كاليكوت مستودعات فى القاهرة والإسكندرية وفارس، ولما كانت معظم البيوتات التجارية القائمة بهذه التجارة من العرب، لذلك كانت هناك صلات قوية بين التجار المسلمين وهذا الحاكم الهندوسى، وقد قوى هذه العلاقات أن المسلمين لم يكن لهم أطماع سياسة فى المنطقة التى يحكمها الزامورين، وكان الزامورين على بينة من سياسة البرتغاليين، وقد تلقى المعلومات الكافية عنهم من التجار المسلمين، وسرعان ما تنبه للخطر المستتر وراء مجئ الاسطول البرتغالى إلى كاليكوت، وكان للزامورين أسطول قوى يفرض به سلطانه على شاطئ الهند الغربى.

وبدأ الأسطول البرتغالى يُهاجم الأسطول الهندى، وأدرك الزامورين أن سفنه لا قبل لها بمقاومة سفن البرتغاليين المزودة بالمدافع، فطلب المساعدة من سلطان مصر السلطان قانصوه الغورى، وكان على علاقات حسنة معه، فأبحر إلى بحر العرب أسطول مصرى مزود بأحدث الأسلحة ويحمل ١٥٠٠ رجل ويقوده الأمير حسين فى أوائل ١٥٠٧م وكان يهدف جزيرة ديو ليتخذها قاعدة له ويهاجم الأسطول البرتغالى بعد أن تنضم إليه سفن الأسطول الهندى.

وانضمت سفن الزامورين إلى سفن الأمير حسين، وتحرك الأسطولان المتحالفان إلى الجنوب لملاقاة الأسطول البرتغالى وكان يقوده لورنسوادا الميدا (ابن نائب ملك البرتغال)، وتقدم الأسطول البرتغالى من قاعدته فى كوشان وتلاقى الأسطولان وبعد معركة دامت يومين فر الأسطول البرتغالى بعد أن أصيبت سفينة قائده وقتل.

وواجهت الكارثة البرتغاليين، وقد جاءهم من مصر أسطول مزود بأسلحة كأسلحتهم ويستطيع مقاومتهم، ولكن دون فرانشيسكودا الميدا لم يفقد الأمل. وجمع كل ما يستطيع جمعه من العتاد وأبحر إلى الشمال لمهاجمة العدو، وكانت قوته ١٨ سفينة تحمل ١٢٠٠ من الرجال ووصل إلى ديو في يوم ٢ فبراير ١٥٠٩، وترقب الأسطول المصرى الهندى، وهنا نفعته الخيانة، فقد كان حاكم ديو من قبل ملك جوجرات مرتدا من أصل أوربى، فانضم سراً للبرتغاليين، ومنع التموين عن الأمير حسين واضطر الأمير حسن أن يعتمد في تموين أسطوله على الأسطول الهندى الذى أرسله الزامورين وبالرغم من ذلك فقد صمم على منازلة الاسطول البرتغالى وتلاقى الأسطولان في ٣ فبراير ١٥٠٩ قريبا من ديو ولم تأت المعركة بنتيجة، وضايقت خيانة سلطان جوجيرات للأسطول المصرى، فانسحب من مياه المحيط الهندى بعد قليل.

وبانسحاب الأسطول المصرى من الميدان سنة ١٥٠٩ أصبح نفوذ البرتغاليين سائداً في المحيط الهندى. وقد جعل ذلك التجارة الهندية لمدة قرن ونصف تحت رحمتهم. واستولى البرتغاليون على جوا واتخذوها قاعدة لهم، ولم يتيسر لهم ذلك إلا بمساعدة "تولاجى" الزعيم الهندى في تلك المنطقة بعد انضمامه إلى البرتغاليين لإضعاف سلطة عادل شاهي السلطان الذى كانت أملاكه تجاور هذه المنطقة.

وكان البوكيرك قد قتل جميع المغاربة الذين صادفهم في جوا وهذه الكراهية كان يضمرها البرتغاليون للإسلام والمسلمين مدة مائة وسبعين سنة.

واستولى (القائد البرتغالى) البوكيرك بعد ذلك على ملقا وشيد فيها حصنا وكذلك على جزيرة سقطرى وهرمز وعدن.

وعندما أعلن أن أضعاف الإسلام هو الهدف الرئيسى الكبير، فإن من المهم أن نلحظ، كما قال البوكيرك في خطابه الذى ألقاه على جنده بملقا، أن إبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هو الوسيلة التى يرجو بها البرتغاليون أضعاف قوة الإسلام.

الهند وهولندا وإنجلترا وفرنسا:

انفرد البرتغاليون بخطوط الملاحة العالمية المؤدية للهند حوالى قرن من الزمان إلا أن إمبراطوريتهم البحرية انهارت تحت ضربات القوى البحرية الأوربية الصاعدة، والتى نزلت إلى ميدان الفتح والاستعمار، مثل هولندا وفرنسا وبريطانيا. فقد نجحت الشركات الإنجليزية والهولندية والفرنسية التى كانت أساطيلها الحربية والتجارية، قادرة على التصدى للأساطيل البرتغالية. ومن أشهر هذه الشركات، "شركة الهند الشرقية البريطانية" التى ظهرت فى مطلع القرن السابع عشر. وكانت هذه الشركة تنشئ وكالات فى أول الأمر على السواحل الهندية، وكان يحصل عليها الانجليز فى مقابل أموال يدفعونها إلى السلطات الحاكمة المحلية. وكانت بمباى وسورات ومدراس وكلكتا أهم المناطق التى أنشأ فيها الإنجليز وكالات لهم. ولم يشعر المغول بخطورة هذه الوكالات الصغيرة عليهم ولم يدركوا ما وراء هذه الوكالات شركة بحرية كبيرة ذات أسطول قوى يستطيع أن يضرب حصارا شديدا على الهند.

وبدأ التنافس البريطانى الفرنسى بعد كسر شوكة البرتغاليين فى الهند، واحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت أقدامهم عند بعض شواطئ الهند.

وكان الفرنسيون قد بلغوا بتدبير دوبليكس – مدير الشركة الفرنسية الهندية – ودهائه إلى مزيد من النفوذ فى الدكن، وجنوب الهند. فقد استطاع هذا الداهية الفرنسى تدريب بعض جنود امارة "حيد آباد" الدكنية وفريقا من قوات جنوب الهند على أساليب القتال الحديثة، حتى صار الحاكم الفعلى لكافة الأراضى الواقعة إلى الجنوب من نركشونا، والموجه لدفة الحكم فيها، من وراء ستار. وعندما نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠، وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانيون بأوربا، بادر دوبليكس بالهند إلى اجتياح مدراس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطئ الشرقية، ومالبث البريطانيون أن استردوا مراكزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب فقد أفلحوا بدسائسهم بالعاصمة الفرنسية فى حمل لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس، وبهذا خلالهم الطريق حتى قضوا على كل نفوذ فرنسى بالهند، وانتزعوا كل أراضيهم، ماعدا ميناء بوندشرى وبعض

أماكن أخرى صغيرة متفرقة فى الهند. واصطنع البريطانيون طرائق دوبليكس الاستعمارية، وما لبثوا أن ثبتوا أقدامهم بالبنغال على أثر انتصارهم الحاسم فى معركتى: بلاسى (Plassy) سنة ١٧٥٧ وبوكسر (Buxar) عام ١٧٦٤. وأبرم البريطانيون عام ١٧٦٦ معاهدة مع نظام حيدر أباد، تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض أحد منهما للعدوان. وحصل كلايف فى السنة التالية من الإمبراطور على حق الأشراف المالى على البنغال وبيهار. وكان فى استطاعة كلايف أن يعلن السيادة الإنجليزية على البنغال ولكنه آثر أن يتجنب إثارة المشكلات فى البرلمان الإنجليزى، وإشعال غضب فرنسا وهولندا واختار حاكماً هندياً للبنغال ليكون ألعوبة فى يده ووزع التبعات. وبرح كلايف الهند سنة ١٧٦٧، وخلفه ورن هستنجز وكان هذفه تثبيت مركز انجلترا فى الأراضى التى بسطوا عليها نفوذهم. وكان الخطر الذى يهدده كامناً فى الجنوب، حيث استطاع حيدر على أن يوجد حكومة قوية فى ميسور، وكانت جماعة المهراتا قد استعادت جانبا من قوتها ونشاطها وحاولت من جديد غزو شمال الهند.

ونجحت السياسة الفرنسية فى إغراء حيدر على وحيدر آباد والمهراتا بالتحالف ضد الإنجليز، ولكن ورن هستنجز ثبت وتماسك وقاوم حتى دب الخلاف بين المتحالفين. ولما غادر الهند فى سنة ١٧٨٥ ترك الشركة (شركة الهند الشرقية) قوية الجانب ولها سياسة مرسومة ويعد من الإنجليز الذين مهدوا الإقامة الإمبراطورية البريطانية الهندية.

تمكن البريطانيون من بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب وعملوا على تأمين طريقهم إلى الهند فاستولوا على جزيرة سيلان ١٧٩٧ من الهولنديين، كذلك رأس الرجاء الصالح بعد أن تم لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر ١٨٠١، تلك الحملة التى كان نابليون يبغى من ورائها الوصول إلى الهند وإخراج البريطانيين منها، وأحبطوا كل خطط الفرنسيين والروس الذين هدفوا من ورائها عزل بريطانيا عن الهند وانتزاعها من أيديهم. ولم يلبث الإنجليز أن توسعوا بسرعة فى الهند ليضعوها تحت سيطرتهم بعد قضائهم على مقاومة المهراتا والسيخ والإمارات الإسلامية الباقية.

ثورة السيبوى Sipoy[1] ونتائجها (١٨٥٧):

قامت سلسلة من الوقائع الحربية بين السيخ والشركة من سنة ١٨٤٥ إلى سنة ١٨٤٩، وانتهت هذه الحرب بانتصار الشركة، وضمت البنجاب إلى أملاكها، وأصبحت حدود أملاك الإنجليز في الهند متاخمة الجبال مما يسهل مهمة الدفاع عنها.

وهكذا استطاعت الشركة في مدة قرن أن تبسط سلطانها على الهند وتتولى حراسة حدودها، وقد نجح الإنجليز في الاستيلاء على الهند لأنهم فهمو خطة البرتغاليين في السيطرة على البحار الهندية، وأخذوا بها ولأنهم استعملوا طريقة الفرنسيين في التغلب على المقاومة الهندية باتباع طرائق الحرب البرية الحديثة. وقد سهل الصراع بين الأمراء وتنافس الحكام الإنجليز سبيل التدخل في شئون الهند، كما أن وجود الأوروبيين على الشواطئ الهندية ساعد على ظهور طبقة من الرأسماليين الهنود لها صلات قوية بهؤلاء التجار الأجانب وتستمد منهم أرباحًا طائلة، وارتبط وجود هذه الطبقة الرأسمالية الناشئة التي اقترنت مصالحها بمصالح التجار الأجانب وكانت هذه الطبقة ناقمة على الحكم الإسلامي بوجه خاص.

وكانت هذه الطبقة عاملا مهمًا في تاريخ الهند، وهي التي ناصرت الإنجليز في معركة بلاسي وجعلت قوات سراج الدولة يغدرون به وينضمون إلى الإنجليز في أول مجيئهم إلى الهند ويحلمون بأنهم سيظفرون بهذا الملك العريض، ولم يكن لهم خطة مرسومة للاستيلاء على الهند كلها، ولكن سير الحوادث وقدرتهم على اغتنام الفرص ومصابرة الناس والأحوال ساعدتهم كثيرًا. وكانت السلطات البريطانية في انجلترا توالي تحذيرها حكام الهند من الرغبة في التوسع وضم ولايات جديدة إلى أملاك الشركة، ولكن الخوف كان له أثره في إغرائهم بالاعتداء ودفعهم إلى سياسة التوسع، فالخوف من الفرنسيين ومن أمير ميسور ومن جماعة المهراتا ومن السيخ ومن

---

[1] كلمة انجليزية محرفة عن الفارسية وتعني السباهيه أي الفرسان ويتجنب البريطانيون استخدام كلمة ثورة، وإنما يستخدمون كلمة "التمرد" Mutiny ولكنه كانت في الحقيقة ثورة ضد الاستعمار البريطاني. عرفت باسم ثورة السيبوى.

روسيا، هو الذى حمل الشركة على إخضاع أمراء الهند، حتى وصل نفوذ الشركة حدود جبال الهيمالايا، وكانت الشركة تعلم أن بقاءها فى الهند متوقف على جيوشها. والعجيب أن نسبة الجنود البريطانيين فى تلك الجيوش لم تكن كبيرة، وإنما كان معظم جنود تلك الجيوش من الهنود الوطنيين، ونجح الإنجليز فى اتباع تلك السياسة لأنهم كانوا يدفعون لهؤلاء الجنود ما يسد حاجتهم بطريقة منتظمة،وهى حالة لم تكن معهودة بين منافسى الشركة، وقد يسر لهم ذلك نجاحهم فى التنظيم المالى والإدارى. وقد وجدت الشركة أن حكمها للهند يكلفها مصروفات أكثر من الدخل الذى تحصله، وكانت تسد العجز من الأرباح التى تأتيها من تجارة الشركة مع الصين. ويذكر ول ديورانت فى كتابه "قصة الحضارة".[1]

"كانت شركة الهند الشرقية قد تأسست فى لندن عام ١٦٠٠ لتشترى منتجات الهند وجزر الهند الشرقية بأثمان بخسه وتبيعها بأثمان مرتفعة بأوروبا، وقد أعلنت الشركة عام ١٦٨٦ عزمها على إقامة مستعمرة انجليزية واسعة فى الهند بحيث تكون متينة الدعائم فتدوم إلى الأبد، وانشأت مراكز تجارية فى مدراس وكلتا وبمباى وحصنتها وجاءت إليها بجنود، وخاضت معارك القتال، ورشت وارتشت، ومارست غير ذلك من مهام الحكومة، ولم يتردد كلايف فى قبول الهدايا التى بلغت قيمتها أحيانًا مائة وسبعين ألفًا من الريالات قدمها له الحكام الهنود المعتمدون على نيران مدافعه، كما ظفر منهم بالإضافة إلى تلك الهدايا بجزيه سنويه تعادل مائة وأربعين ألفًا من الريالات وعين الأمير جعفر حاكما على البنغال لقاء مبلغ يعادل ستة ملايين ريال وراح يضرب كل أمير وطنى بالآخر ويضم أملاكهم إلى حظيرة شركة الهند الشرقية شيئًا فشيئًا، وأدمن أكل الأفيون، وأتهمه البرلمان وبرأه وأزهق روحه بيده سنة ١٧٧٤، وأما وارن هستنجز فقد جمع من الأمراء الوطنيين مبلغًا كبيرًا قدرة ربع مليون ريال ضريبة عليهم سددوها لخزينة الشركة .."

---

[1] ول ديورانت – قصة الحضارة – الهند وجيرانها – الجزء الثالث – ترجمة د. زكى نجيب محمود ص٤٠.

فما جاءت سنة ١٨٥٧ حتى كانت جرائم الشركة قد أفقرت الجزء الشمالى الشرقى من الهند أفقارًا أوغر صدور الأهالى فشقوا عصا الطاعة فى ثورة يائسة ثورة السيبوى وعندئذ تدخلت الحكومة البريطانية، وقمعت العصيان وتولت هى الحكومة فى الأراضى التى سيطرت عليها واعتبرتها مستعمرة للتاج، ودفعت عن ذلك تعويضًا سخيًا للشركة، وأضافت ثمن الشراء هذا إلى الدين العام فى الهند. وتعتبر هذه الثورة نهاية عهد الشركة وبداية عهد جديد من الاستعمار البريطانى المباشر ومن تطور الفكر القومى فى الهند. وكانت هذه الثورة آخر محاولة قامت بها البقية الباقية من أمراء المهراتا وزعماء المغول لطرد البريطانيين، وقد أخمدت بقسوة بعد ثمانية عشر شهرًا وانتهى وجود الشركة فى عام ١٨٥٨ وتسلمت الحكومة البريطانية زمام الحكم فى الهند.

ومنذ اخماد الثورة فى سنة ١٨٥٨ وانهزام بهادر شاه وارث عرش المغول ومحاكمته ونفيه إلى رانجون حتى سنة ١٩١٩ لم يكن هناك أى تهديد خطير للحكم البريطانى فى الهند، وقد ظلت بريطانيا صاحبة السيادة فى الهند حتى سنة ١٩٤٧. انتقلت السلطة بعد ١٨٥٨ من الشركة إلى يد البرلمان البريطانى وكان هذا البرلمان يشرف على شئون حكومة الهند ويوجهها عن طريق وزير مسئول، وظلت الهند خاضعة لمجلس الوزراء البريطانى وآلة فى يده حتى عام ١٩٤٩ وكانت حكومة لندن هى التى تتولى الفصل فى جميع المسائل الهامة. وكان لحاكم الهند العام مركز سام ولكن معظم السلطة كانت فى يد وزير الهند.

ويمكن إيجاز أسباب هذه الثورة فى الآتى:

١- ظهر بوضوح أطماع الحكم الإنجليزى، أمام شعب الهند كلهم مسلمون وهندوس، بعد أن تغلب على الإمارات الإسلامية الواحدة تلو الأخرى وعلى القوى الهندوكية المختلفة واحدة واحدة.

٢- كان المسلمون يعيشون جنباً إلى جنب مع الهندوكيين فى وئام يؤدون شعائرهم الدينية، ولكن انحياز الإنجليز إلى الهندوس وتحريضهم لهم ضد المسلمين، يسخرون من دينهم ويسومونهم سوء العذاب، وكان السك والمهراتا بالذات

شديدى الوطأة على المسلمين. وكانت هناك كثير من المذابح التى راح ضحيتها آلاف من المسلمين بسيوف السك والمهراتا، ودون أن يجد المسلمون من الإنجليز محاولات واضحة لوضع حد لهذا التقتيل الذى لا مبرر له. وأدرك كثيرمن علماء المسلمين أن هناك اتفاقًا غير مكتوب بين الانجليز والسك لإفناء المسلمين بالمذابح.

٣- تعمد الإنجليز تقويض دعائم الإسلام فى الهند وتحويل المسلمين عن دينهم، فلم يهتم الإنجليز بتعليم أبناء المسلمين أو حتى الإبقاء على أساليب التعليم التقليدية ماضية فى طريقها فحسب، بل عمدوا إلى تعطيل التعليم الإسلامى فى الكتاتيب والمساجد والمدارس. كما استولى الإنجليز على جميع الأوقاف الخيرية الإسلامية التى كانت تعتبر الممول الوحيد لتلك الكتاتيب والمدارس، وفى نفس الوقت فتحوا أبواب التعليم أمام الهندوس على أسس انجليزية، ونتيجة لذلك ظهر العديد من الهندوس القادرين على المشاركه فى الدواوين الحكومية جنباً لجنب مع الانجليز. هذه السياسة التى برعت فيها بريطانيا وهى "فرق تسد".

٤- أدى اضطهاد البريطانيين للمسلمين إلى ضرورة عملهم على توحيد صفوفهم وتقوية دينهم والتمسك بأهدابه والتكاتف ضدقوى الإبادة المسلطة عليهم.

وشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر قيام سيد أحمد خان (المشهور بالشهيد) الذى طالب بالجهاد ضد قوى الوثنية وضد الحرب الصليبية التى شنها الإنجليز على الشعب المسلم بالهند. وكان سيد أحمد خان متفقهًا فى الدين وكان مؤمناً بالعودة إلى نقاء الدين الإسلامى ونبذ ما طرأ على المذاهب الإسلامية من بدع أبعدت المؤمنين عن حقيقة الدين وأهدافه الأولى.

وسعى إلى توحيد قوى المسلمين ضد العدوان الإنجليزى وعدوان السيخ، وخاض سلسلة من المعارك الكبرى ضد السيخ (السك) حتى خفف كثيرًا من ضغطهم على المسلمين. ولكن الجبهة الإسلامية كانت مفككة.

٥- الواقع الاقتصادى الأليم الذى وصلت إليه البلاد من جراء الحروب والمجاعات والغزاة الإنجليز قد حطموا ودمروا المغازل الهندية وبدأت انجلترا بطرد

منسوجات القطن الهندية من أسواق أوروبا، ثم شرعت تصدر الخيوط القطنية إلى الهند، واستخدام الآلة البخارية من قبل الإنجليز في كل أرجاء الهند دمر الرابطة بين الزراعة والصناعة الحرفية في الهند.

٦- ارغام الضباط الانجليز للجنود المسلمين والهندوس المعسكرين في ثكناتهم في "ميرت" على أن يقطعوا بأسنانهم قطعًا من دهن مركب من دهون الخنازير والبقر لتشحيم بنادقهم وكان ذلك احتقار لمشاعرهم الدينية، فانقض الجنود على ضباطهم الإنجليز وقتلوهم وانطلقوا إلى دلهي معلنين الثورةوسرعان ما انتشرت الثورة بسرعة كبيرة في دلهي والمناطق الشمالية. ولكنها اخفقت.

ولقد تطور الحكم البريطاني للهند حتى قسمت البلاد إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى:

عبارة عن أقاليم خضعت للحكم البريطاني المباشر، فكان لكل أقليم منها حاكماً بريطانياً يستمد سلطانه من نائب الملك الذى كان يقيم في كلكتا ثم انتقل منها إلى دلهي الجديدة، وشملت هذه الأقاليم مقاطعات الحدود الشمالية الغربية والبنجاب والبنغال والسند وبلوخستان والولايات الشمالية المتحدة ومدراس وبمباى والولايات الوسطى وبيهار وارسيا في الجنوب.

أما المجموعة الثانية:

فتشمل الولايات التى تنازلت الحكومة البريطانية عن حكمها لأمراء شبه مستقلين ونظمت صلاتها بهؤلاء وفق الآتى:

أ - أمراء يستمدون سلطاتهم من نائب الملك رأسًا (٣) أميرًا ومنهم إمارات: حيدر أباد والدكن وبهوبال ورامبو ويحكمها أمراء من المسلمين، وميسور، وترافاكور وكشمير وجواليور وجيبور وبيكانير ويحكمها أمراء من الهندوس:

ب- وكان يلى ذلك مئات من الإمارات أقل منها شأنًا ويستمد معظم أمرائها سلطاتهم من الحاكم العام للمقاطعة المتاخمة.

تطور الحركة الوطنية وظهور دولة باكستان:

ساعدت السيطرة الغربية على تفتح أذهان الهند على أسس وقيم الحضارة الغربية فبدأت الأفكار الحرة تنتقل إلى المثقفين الهنود بعد اطلاعهم على الحضارة الأوروبية، مثل مؤلفات شكسبير وديكنز ولوك وكارنيل وكبار فلاسفة التحرر. واكتشف الهندى المسلم والهندوسي أن للهند مقومات حضارية تمكنها من الارتفاع إلى مصاف الدول المتقدمة. وكان الهدف الأول الذى سعى إليه الهنود هو المطالبة بالحكم الذاتى.

كان كثير من الطلاب الهندوس وقليل من المسلمين الذين تعلموا فى مدارس الحكومة بالهند، قد أتموا تعليمهم فى انجلترا، وما لبث الشباب المثقف بالثقافة البريطانية، والذى اطلع على مجريات الأمور الدستورية فى بريطانيا وغيرها من الدول التى أخذت بأسلوب الحياة النيابية الحديثة، أن يقارن بين سياسة الإنجليز في بلادهم وبين ما يفعلونه فى الهند من بطش واستبداد. وهكذا ظهرت الحركات الإجتماعية بهدف النهوض بحالة الهند سياسياً واقتصادياً وعلمياً، فتأسست الجمعيات الإصلاحية فى بمباى وكلكتا ومدراس. وكانت المظاهرات الشعبية الصاخبة التى احتجت للحصول على حرية الصحافة الناشئة.

وأمام هذا الضغط الشعبى رأى المستعمرون الانجليز إلهاء الشعب بلعبة ينفس بها عن نفسه تحت إشرافهم، فعملوا على تأسيس جمعية وطنية من أبناء الهند يحمل أعضاءها المظالم إلى الحاكم وينظمونها حين عرضها حتى يمكن البحث فيها، فكانت هذه الجمعية هى نواة "حزب المؤتمر الوطنى" الذى ظهر عام (١٨٨٥)، والذى أصبح اللسان الناطق باسم الحركة الوطنية التحريرية فى الهند. وكان يتبادل رئاسته مسلم وهندوسى.

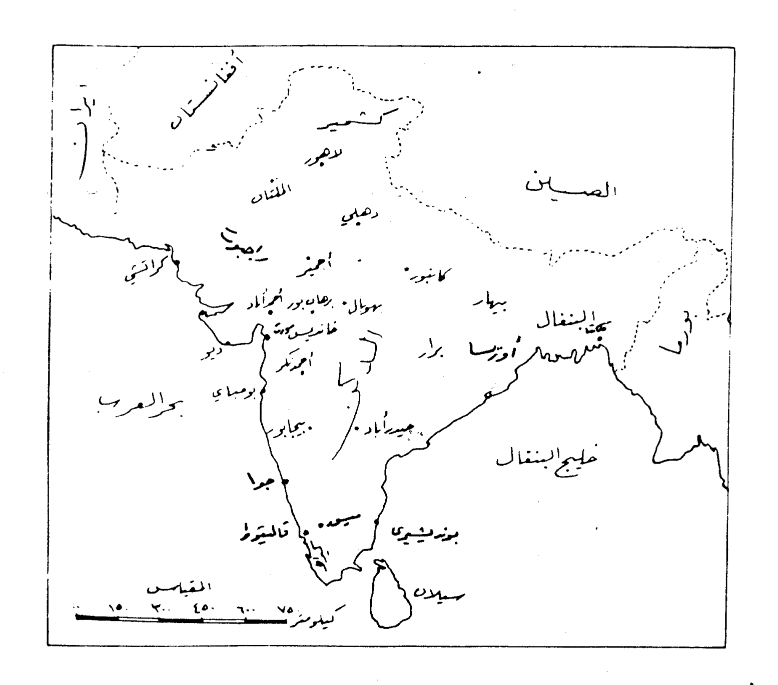
وكان تأسيس هذا الحزب بدعم من الانجليز بهدف امتصاص الطاقات التحررية من جهة ومعرفة أعدائها من أصدقائها فى التيارات الوطنية الهندية. وعلى أية حال فإن هذا الحزب قد ساعد على ظهور شخصيات لها أهميتها فى تاريخ الحركة الوطنية الهندية أمثال غاندى ومحمد على جناح اللذين كرها التعصب بين الهندوس والمسلمين.

وكان المؤتمر الوطنى بمثابة الخطوة الأولى فى سبيل تكوين برلمان وطنى، وعُقد المؤتمر فى بونا برئاسة بونارجى (BONARJEE) بناء على ترشيح هيوم له. وأعلن بونارجى أن بريطانيا قد فعلت الكثير لخير الهند وصالحها وأطرى على ما قامت به من جهود فى سبيل إقرار النظام وتحسين المواصلات وادخال التعليم الغربى فى الهند. وسعد الانجليز بمثل هذه التصريحات. وقد حرص الذين اصطنعوا حزب المؤتمر على أن يجعلوا فيه ممثلين للمسلمين حتى يأخذ الصبغة العامة للبلاد وسكانها.

وعقدت الجلسة الثانية للمؤتمر فى كلكتا عام ١٨٨٦ برئاسة بونارجى و٤٣٦ عضواً منهم ٨٣ مسلماً وفى الجلسة الثالثة التى عقدت فى مدراس برئاسة "بدر الدين طيب" زاد عدد الأعضاء إلى ٦٠٤ عضوا وأعلن المؤتمر عن أهدافه وهى:

تنمية علاقات الود والصداقة بين زعماء الهند وتقوية روح الوحدة الوطنية والقضاء على كل العصبيات الدينية والجنسية والإقليمية، وتسجيل الآراء الناضجة للطبقات المتعلمة فى الهند عن مشاكل البلاد.

وعلى أية حال فقد اتضح من أهداف حزب المؤتمر أنها لم تخدم مصالح المسلمين المشروعة، وظلت بريطانيا تعمل على إثارة النفوس والأحقاد بين الهندوس والمسلمين، فى الوقت الذى اضطهدت فيه المسلمين وأذلوهم - خوفاً منهم - باعتبارهم الحكام السابقون للهند، فيستردوا ملكهم المسلوب. هذا علاوة على أن الإنجليز لجأوا أيضاً إلى تقسيم المسلمين إلى فرق متعددة. ومن ناحية أخرى قام الهندوس بحركة قوية للقضاء على اللغة الأوردية التى أوجدها المسلمون فى الهند. وتعتبر لغتهم ولغة ثقافتهم بجانب اللغة الفارسية. وطالب الهندوس بإحلال اللغة الهندية محلها مع حذف الكلمات العربية والفارسية، وتنقية اللغة الهندية منها باعتبارها آثاراً بغيضة من آثار الحكام السابقين. كل ذلك بهدف الرجوع بالهند إلى عصر "ما قبل حكم المسلمين"، وإقامة حكم هندوسى وطنى يلغى وجود "من عدا الهندوس" ولا سيما المسلمين الذين اعتبروهم غزاة فاتحين. وتزعم هذه الدعوة هندوسى متعصب هو "تيلاك" (١٨٥٦ - ١٩٦٠)، فحتى عام ١٩٠٥ تركز نشاطه الأساسى فى تذكير الهندوس بمجدهم وتراثهم السابق وكفاحهم البطولى ضد حكامهم الأجانب من المسلمين والانجليز من بعدهم.



(خريطة رقم ٢)

أهم إمارات وبلدان الهند

نقلا عن: محمود شاكر، الإسلام فى الهند

الرابطة الإسلامية ١٩٠٦:

بعد ادخال ليبرالية جلادستون فى الهند، وتأسيس المؤتمر الوطنى الهندى (فى عام ١٨٨٥) والذى كان يغلب عليه العنصر الهندوسى، شعر أحمد خان بالخطر الاقتصادى والسياسى الذى يتهدد الأقلية الإسلامية فى الهند من قبل الأكثرية الهندوسية الطاغية. فأعطى السياسة الإسلامية فى الهند وجهة مؤلفة من عنصرين: الاحتراس من الهندوس والولاء للبريطانيين. وفى التطور اللاحق للسياسة الإسلامية نجد أنه قد تعمق الجزء الأول ونبذ الجزء الثانى. وعندما توفى سيد أحمد خان عام ١٨٩٨ ترك وراءه جماعة إسلامية واعية سياسيا وتسير من الناحية التربوية فى خطوات أولية نحو العصرية، تتمتع بمراكز اقتصادية أفضل من أوضاعها فى القرن السابق.

نظر فريق من المسلمين إلى المؤتمر الوطنى الهندى نظرة مريبة، ورأوا أنه بكثرته الهندوسية واتجاهه الذى يغلب عليه الطابع الهندوسى يمثل طغيان الأكثرية على الأقلية ويمكن أن يعمل على إقامة حكم هندوسى خالص يلغى فيه وجود المسلمين. من أجل ذلك حاربوا المؤتمر ودعوا لمقاطعته، بينما كان هناك فريق آخر من المسلمين يرون فى تكتلهم مع المؤتمر مصلحة وطنية عليا، ولكن هؤلاء لم يكونوا كثيرين.

كذلك شن كثير من مفكرى المسلمين حملة على المؤتمر وأهدافه الهندوسية كذلك قيام جماعة أخرى ذات مظهر إسلامى فى كلية "عليكره" بتشجيع من المدير الانجليزى مستر "بيك" وسميت جماعة "أحباء الوطن" نادت بالانضمام إليها. وأصدروا فتاوى فى عام ١٨٨٨ تؤكد أن اشتراك المسلمين فى المؤتمر حرام. بينما نادت جماعة مسلمة أخرى بأن الانضمام لحزب المؤتمر حلال. وقد أدى ذلك إلى إضعاف جماعة "أحباء الوطن". ولكن مستر بيك ومن معه لم ييأسوا ففى عام ١٨٩٣ ألفوا جماعة إسلامية أخرى اشترك فيها المسلمون والإنجليز معا وسموها "الجماعة المحمدية الإنجليزية" من أهدافها: حفظ حقوق المسلمين السياسية من طغيان الهندوس، وتهدئة نفوس المسلمين السياسية ومنعهم من التمرد ضد الإنجليز وعدم الاشتراك فى الثورات.

عمل الإنجليز على إنشاء فرق ضالة تدّعى الإسلام فى سبيل هدم العقيدة، فقد شجعت مرزا غلام أحمد القاد يانى على إحياء ما دعا إليه الملك المغولى (أكبر شاه) فأنشأ القاديانيه وكتب البراهين الأحمدية وادعى عام (١٣٢٢هـ) أنه المهدى المنتظر وأعلن أن الإنجليز هم أولو الأمر فيجب طاعتهم ولا يصح الخروج عليهم كما لا يصح الجهاد ضدهم وعمل على التوفيق بين الأديان. فادعى أنه يتقمص روح السيد المسيح عليه السلام وروح الإله (كرشنا) رب الخير عند الهندوس. وتوفى مرزا غلام أحمد عام ١٣٢٦هـ.

وانقسمت جماعته لقسمين:

أ - **الأحمدية**: وتدعى أنه كان رجلاً مصلحاً.

ب- **القاديانيه**: وتقول بنبوته، وكلاهما كاذب ودعمه الإنجليز بكل امكاناتهم.

لقد ركز الإنجليز سهامهم على المسلمين فى كل أنحاء الهند، حتى تركوهم جسداً بلا روح وعزلوهم تماماً عن تيار الحياة بجميع أنواعها، فلا سلطان ولا غنى ولا نفوذ ولا وظائف ولا تعليم، وأصبح ملوك الأمس وسادته أذلة فقراء وأصبحت قصورهم العامرة خراباً.

من هذا يتضح أن سياسة الإنجليز "فرق تسد" تمثلت فى خلق هذه التفرقة بين الشعب الهندى حتى لا يتلاقى المسلمون مع الهندوس ويتفقوا فتكون نهاية الاستعمار البريطانى للهند.

ويذكر بانيكار[1] أن هناك وثائق مكتوبة تثبت حقيقة أن هذا التفريق بين المسلمين والهندوس، كان خطة مقصودة، وكان يقضى هذا النظام الانتخابى بألا يمثل المسلمون سوى مسلم ينتخبه المسلمون وألا يمثل الهندوس فى الانتخابات مسلم والعكس بالعكس، وبهذه الطريقة أصبح للمسلمين بالهند من رأس كومورين إلى كشمير وحدة سياسية منفصلة وفى خلاف دائم مع الهندوس. ذلك أن

---

[1] بانيكار، آسيا والهند الغربية ص١٥٥.

إقامة الانتخابات على أساس دينى كان مدعاة للتشدد فى الدين وبث روح التعصب وتوهين وحدة الدولة.

الصراع فى الهند:

عندما أحس الهندوس بضعف المسلمين، بعد أن زالت سلطتهم، وأصبحت القوة بيد المستعمرين البريطانيين، الذين يعملون على اضعاف المسلمين ويقربون الهندوس فى سبيل هذه الغاية، عندئذ أعلن الهندوس حربهم على المسلمين، فعندما قام حزب سياسى إسلامى فى مدينة لكنو عام ١٣١٩هـ (١٩٠١) قاومه الهنود فانتهى. كما تمثلت هذه العداوة فيما نشره أحد الثوريين الهندوس ويدعى (هارديال) فى إحدى صحف لاهور أيام الحكم البريطانى، ذاكراً أن مستقبل الجنس الهندى وهندستان وبنجاب يقوم على أربعة دعائم هى:

١- الوحدة (سانكاثان).

٢- الراجا: أى الإله الهند "رام راجا" ومعناه وحدة العقيدة وإجبار السكان كلهم عليها.

٣- شوذى: أى ارجاع المسلمين الهنود إلى عقيدة الهندوس.

٤- دخول أفغانستان ومناطق الحدود ورّد أهلها عن الإسلام.

غير أن بعض قادة الهندوس ومنهم غاندى[1] كانوا يخشون من المسلمين لما يعرفونه عنهم من قوة وشجاعة وتضحية لإيمانهم العميق بالإسلام، لذا كان غاندى

---

[1] غاندى: موهانداس كاراشاد غاندى ولد فى عام ١٨٦٩م ببلده بورمندار كان أبوه من رجال الإدارة أوفده إلى انجلترا حيث درس القانون بجامعة لندن ورجع إلى الهند سنة ١٨٩١ وبعد عامين انتقل إلى جنوبى أفريقيا واشتغل بالمحاماة فى مدينة جوهانسبرج، ثم وقف ضد التفرقة العنصرية، وأثناء حرب البوير نظم فرقة من الهنود هناك للعمل مع الصليب الأحمر، وفى عام ١٩١١م نظم مظاهرات ضد القوانين التعسفية، وسافر إلى لندن عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، حيث نظم وحدة اسعاف هندية ورجع إلى الهند سنة ١٩١٥، وبعد الحرب قام بحركة عدم تعاون وسيّر المظاهرات، ثم مقاطعة البضائع واحراقها فى بمباى، ثم تنظيم

يمثل الجانب المعتدل، ويؤيد بعض مطالب المسلمين، ليحصل على تأييدهم، ويقوى مركزه. وقد تمكن غاندى من إيجاد تفاهم أحيانًا بين الطرفين (الهندوسى والمسلم).

وقد حاول محمد على جناح[1] التوفيق بين حزبى الرابطة الإسلامية والمؤتمر الوطنى الهندى إذ دعا إلى عقد مؤتمر الرابطة السنوى فى مدينة لكنو عام ١٣٣٥هـ(١٩١٦م). وكان محمد على جناح فى حزب المؤتمر، وبقى فيه مدة بعد تأسيس حزب الرابطة الإسلامية وتولى زعامتها ولم يكن ملتزما بالإسلام وإن كان ينتمى إليه. وهنا تكمن المصلحة إذ من الضرورة بمكان عند الانجليز أن يتولى أمر الرابطة مسلم غير ملتزم خوفا من أن تسير فى طريق الجهاد ضد الانجليز.

فقد كان من مصلحة الانجليز فى خلق التفرقة بين الشعب الهندى حتى لا يتلاقى المسلمون مع الهندوس ويتفقوا فتكون نهاية الاستعمار. وتطبيقا لهذه السياسة اتجه الانجليز نحو تقوية الجبهة الإسلامية وإرضائها، فقد قرر اللورد كيرزون CURZON عام ١٩٠٥. بتقسيم البنغال بين المسلمين والهندوس. وفرح المسلمون بهذا التقسيم واعتبروه مقدمة لإنشاء ولاية خاصة بهم يحكمونها بأنفسهم، بينما ثار الهندوس ورأوا فى ذلك تشجيعًا للمسلمين لكى يقطعوا بعض المناطق منهم وهم

(=)العصيان المدنى وحكم عليه ١٩٢٢م بالسجن فى أحمد أباد مدة ست سنوات، وفى عام ١٩٣٠ قاد مظاهرة كبرى إلى البحر لمعارضة قانون احتكار الملح، فسجن عاما وخرج ليشترك فى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن عام ١٩٣٠ ثم قاد العصيان المدنى فسجن مدة سنتين، ثم أخذ يوجه سياسة حزب المؤتمر. واغتاله أحد غلاة الهندوس فى دلهى ١٩٤٨.

[1] رأس البعثة الهندية التى قصدت لندن لشرح القضية الهندية عام ١٩١٦، كما رأس اللجنة التى شكلتها الرابطة الإسلامية بالاشتراك مع حزب المؤتمر للمطالبة بالحكم الذاتى للهند وشارك فى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن ١٩٣٠ وتولى رئاسة حزب الرابطة الإسلامية ١٩٣٦ حتى تولى رئاسة دولة باكستان. توفى عام ١٩٤٨.

يجاهدون على أن تعود الهند هندوسية. وعارض حزب المؤتمر بشدة هذا التقسيم، ورأى فيه خطراً شديداً على مستقبل الهند.

والخطوة الثانية التى خطاها الإنجليز تملقًا لعواطف المسلمين وسعيًا وراء التفرقة بينهم وبين الهندوس، فكانت استجابتهم لمطالب المسلمين الخاصة بتجديد مقاعد خاصة بهم فى الانتخابات المحلية حتى لا تطغى الكثرة الهندوسةي عليهم لو أجريت الانتخابات بطريق التصويت العام فيحرم المسلمون من التمثيل. وكانت هذه المطالب بإيعاز من الانجليز.

ونتيجة لذلك قام كبار المسلمين بكتابة عرائض وفى أوائل أكتوبر ١٩٠٦ توجه وفد مكون من ٣٦ عضوًا لمقابلة نائب الملك فى "سمة" وقدموا له العرائض. وألفوا بعد ذلك جماعة خاصة تنطق باسم المسلمين وترعى حقوقهم، فأصدر نواب "داكا" خان بياناً بهذا الغرض فى ١٩٠٦/١٢/٣٠ بتأسيس جماعة أطلقوا عليها اسم "الرابطة الإسلامية" من أهم أهدافها.

١- جماعة حقوق المسلمين والتقدم بمطالبهم للحكومة.

٢- تقريب وجهة النظر بينهم وبين المستعمر وإزالة الفجوة التى كانت قائمة من قبل، ليتمكن المسلمون من الحصول على حقوقهم، وعدم التحرش بالطوائف الأخرى وأن تسود المودة وحسن التفاهم بينهما.

وبعد الحرب العالمية الأولى قويت الدعوات المطالبة باستقلال الشعوب، خاصة بعد صدور مبادئ ولسون، واتجهت الحركة الوطنية بزعامة غاندى إلى الضغط بقوة على بريطانيا من أجل استقلال الهند وكذلك نادى المسلمون الهنود بتحرير الهند وإلى انقاذ الخلافة العثمانية (الإسلامية) من براثن الإنجليز، فقد تعاطف المسلمون الهنود مع اخوانهم المسلمين فى كل أنحاء العالم، فى الدولة العثمانية، والمسلمين فى هولندا (ضد المعاملة الوحشية من جانب الهولنديين هناك)، كما تعاطفوا مع الفلسطينيين والعرب بصفة عامة ومع الحركة العرابية فى مصر، وعندما نفى الإنجليز أحمد عرابى إلى جزيرة سرنديب (سيلان) هرع المسلمون الهنود إلى منفاه يسألون عن مصر وأوضاعها وعن المهدية وأوضاع السودان. كما قام المسلمون

فى الهند بمظاهرات عنيفة عام ١٣٣٠هـ (١٩١٢م). ينددون باحتلال إيطاليا لليبيا، وجمعوا التبرعات، رغم فقرهم، وارسلوا البعثات الطبية، وبدأت دعوة التطوع للذهاب إلى ليبيا لمجاهدة الطليان. كما أعلنوا استياءهم من موقف بريطانيا ضد الدولة العثمانية فى حرب البلقان. كذلك قامت مظاهرات فى أرجاء الهند كلها احتجاجًا على نقض بريطانيا لعهودها التى قطعتها للعرب أثناء الحرب العالمية الأولى. وكذلك عندما الغى مصطفى كمال اتاتورك الخلافة الإسلامية (١٩٢٤) ومن الذين قادوا تلك الحركات محمد اقبال (الشاعر المعروف) وأبو الكلام أزاد، ومحمد على جناح.

كانت هناك فرق متباينة وخلافات فى التوجهات الدينية للمسلمين. فهناك السنة والشيعة الرافضة، والاسماعيلية من الفرق الباطنية الضالة، وهناك القاديانيه الجديدة البعيدة كل البعد عن الإسلام، وفوق هذه الفرق المتباينة كانت هناك الخلافات فى التوجهات السياسية مثل:

١- المسلمون الذى يرون الدعوة للوحدة الوطنية والوقوف فى وجه المستعمرين الانجليز وتأسيس دولة واحدة تضم الهندوس والمسلمين. وقد رأى هؤلاء أنه من المصلحة الإنضمام إلى حزب المؤتمر الوطنى لتوحيد الجهود وبذل المساعى لنيل الاستقلال والخلاص من المستعمرين، وأن المتطرفين الهندوس قلة لا يجب أن يعبأ بهم. من أشهر هؤلاء جمعية العلماء ومؤتمر الشيعة ومؤتمر المؤمنين الهنود ومن الزعماء حسين ذاكر[1] الذى تسلم فيما بعد رئاسة الجمهورية، وأبو الكلام أزاد الذى تسلم منصب وزارة المعارف بعد الاستقلال.

٢- المسلمون الذين يرون بقاء المسلمين والهندوس ضمن دولة واحدة مع ضرورة تشكيل جمعية إسلامية قوية تعمل على نشر الإسلام بين الهندوس، كما تعمل

---

[1] ولد فى حيدر أباد الدكن عام ١٨٩٧م وتخرج من الكلية الإسلامية فى عليكره وتابع دراسته فى برلين حيث حصل على الدكتوراه (١٩٢٣م) وعين حاكما لولاية بيهار عام ١٩٥٧ ثم نائبا لرئيس جمهورية الهند (رادكريشنان) ثم خلفه فى الرئاسة بعد وفاته فى ١٩٦٧م. وتوفى حسين ذاكر فى ٣ سبتمبر ١٩٦٩.

للحكم حسب الشريعة الإسلامية، ومن أبرز أصحاب هذا الرأى أبا الاعلى المودودى[1] .. طالب المسلمون أن تكون لهم السيادة فى المقاطعات ذات الأكثرية المسلمة فرفض حزب المؤتمر. وأصدر حزب المؤتمر قراراً بترك لغة "الأوردو" التى هى لغة المسلمين واللغة الرسمية فى البلاد وجعل اللغة الهندوسية لغة رسمية رغم أن غالبية السكان لا يفهمونها. ولما رأى المسلمون حرب الهندوس لهم صراحة، قرروا العودة إلى فكرة باكستان وتقسيم بلاد الهند. وطالبوا الحكومة الإنجليزية بالبقاء فى الهند حتى يتم التقسيم كى لا يستأثر الهندوس بالحكم، ويطبقوا ما يريدون. والغريب أن المسلمين كأنهم قد غفلوا عن موقف الانجليز منهم ووقوفهم إلى جانب الهندوس علناً وهذا ما ظهر أثناء التقسيم بكل وضوح.

كذلك عارض "نهرو" – تلميذ غاندى – فكرة التقسيم، وكان يخالف أستاذه "غاندى" فى مجاملة المسلمين، وعارضه فى موقفه من تأييد حركة الخلافة.

وطالب المنبوذون بالاستقلال، وعددهم مائة مليون، وهددوا باعتناق الإسلام، فأغراهم غاندى، وطلب منهم السكوت فى هذه الظروف، وأن لهم ما يريدون فى المستقبل.

التقسيـــــم:

اندلعت الحرب العالمية الثانية ودخلت حكومة الهند الحرب واقتربت اليابان من حدود الهند فأعلنت انجلترا أنها ستعطى الهند الاستقلال بعد الحرب مباشرة ورحب حزب المؤتمر بهذا الإعلان، وطالب باستلام الحكم.

---

[1] عمل المودودى صحفيا فى جبل بور ودلهى وحيدر أباد وانتقل إلى البنجـــاب ١٩٣٨ بدعوة من محمد اقبال ثم انتقل إلى لاهور وفى عام ١٩٤١ شكل الجماعة الإسلامية وانتخبوا أبا الأعلى المودودى كأول أمير لها. أثرى المكتبة الإسلامية بالعديد مـــن مؤلفاته. توفى سنة ١٩٧٩.

بينما قطع المسلمون كل أمل في إمكانية الاتحاد مع الهندوس في دولة واحدة، وأنه لا ضمان لهم على لغتهم وثقافتهم ودينهم بل وحتى على حقوقهم الاولية إن بقى الحكم في يد الهندوس، وأن الانجليز سيقفون إلى جانب الهندوس. لذا لابد من الانفصال عنهم. وكان هذا رأى حزب الرابطة الإسلامية وكثير من أعيان الهند. بينما رأى بعض العلماء ضرورة البقاء من الهنود في إطار واحد لمصلحة الدعوة والأقلية المسلمة. وكثرت الاقتراحات حول مستقبل المسلمين في الهند.

مؤتمر لاهور:

كان محمد اقبال قد دعا إلى تشكيل دولة باكستان والانفصال عن الهندوس (١٩٣٧) وتوفى محمد اقبال (١٩٣٨) وعقد مؤتمر السند الإقليمي للرابطة الإسلامية في كراتشي برئاسة محمد على جناح وقرر في ١٦ شعبان ١٣٥٧هـ (١٠ أكتوبر ١٩٣٨) القرار الآتي:

"إن مؤتمر السند الاقليمي للرابطة الإسلامية يعتبر أن من الضروري كلية من أجل سلام دائم في القارة الهندية الشاسعة، ومن أجل تطور ثقافي ليس له ما يعوقه، ومن أجل الرقى الاقتصادي والإجتماعي وتقرير المصير السياسي للأمتين المعروفتين باسمي الهندوس والمسلمين، أن تقسم الهند إلى اتحادين، على أن يكون ثمة اتحاد للدول الإسلامية واتحاد للدول غير الإسلامية. وعلى هذا فإن المؤتمر يتقدم بتوصية إلى الرابطة الإسلامية لعموم الهند، أن تعدّ مشروع دستور يمكن بموجبه للأقاليم ذات الأغلبية الإسلامية، وللدول الإسلامية الوطنية وللمناطق التي تقطنها أغلبية إسلامية أن تحصل على الاستقلال الكامل في صورة اتحاد قاصر عليها، مع امكانية انضمام أية دولة إسلامية خارج حدود الهند إلى هذا الاتحاد. وأن يكفل الدستور ضمانات للأقليات غير المسلمة مماثلة للضمانات التي يقرّ بها للأقليات الإسلامية في الاتحاد الهندي غير الإسلامي".[1]

---

[1] نشأة باكستان. شريف الدين بيرزادة.

وعقد حزب الرابطة مؤتمراً في مدينة "لاهور" ١٩٣٩ وقرر معارضة مشروع الاتحاد الذي تضمنه قرار حكومة الهند العام ١٩٣٥. وإيجاد بديل مناسب يحفظ مصالح المسلمين والأقليات الأخرى فإن رئيس الرابطة يعيّن بالإتفاق مع اللجنة العاملة لجنة مؤلفة من ٨ أشخاص (برئاسة محمد على جناح).

وعقدت اجتماعات في مطلع عام ١٩٤٠ في دهلى وجرت دراسة جادة لمسألة تخصيص موطن منفصل للمسلمين وتقرر اقتراح ذلك رسميًا في الدورة المفتوحة المقرر عقدها في مارس ١٩٤٠م، جاء فيه أن المسلمين أمة وحدهم حسب أي تعريف للأمة، ولابد أن يكون لهم موطنهم وأراضيهم ودولتهم.

وهكذا اتخذت الرابطة الإسلامية قراراً يطلب إقامة دولة إسلامية ذات سيادة في المناطق التي توجد فيها أغلبية مسلمة في الشمال الغربي وفي البنغال، وقد طالب هذا القرار بالفعل "بالباكستان" وهو اسم مؤلف من حروف موجودة في أسماء مناطق الأغلبية الإسلامية في الشمال الغربي: البنجاب والأفغان وكشمير والسند وبلوخستان.

وقد استاء الهندوس من فكرة الباكستان. ولكن عندما قويت الحركة لقيت قبولاً لدى الحكومة البريطانية وبعض السياسيين الهندوس.

وبعد الحرب العالمية الثانية قررت الحكومة العمالية البريطانية أن تسلم مقاليد السلطة إلى الهنود وجرى تقسيم شبه القارة عام ١٩٤٧ بعد كثير من المرارة.

وجدت الهوية الإسلامية في شبه القارة فرصة جديدة للحياة مع تأسيس الباكستان. ولكن كان على الدولة الجديدة منذ البداية أن تواجه تحديات هائلة: فهناك مسافة ١٠٠٠ ميل تفصل بين جناحيها في الغرب والشرق (ذلك بالطبع قبل انفصال باكستان الأخير سنة ١٩٧٤ إلى دولتي باكستان وبنجلاديش) حيث توجد خلفيات مختلفة عرقيًا ولغويًا وثقافيًا، لا يجمع بينها إلا الدين والخوف من الهند، كما كان عليها أن تواجه أعمال الشغب في الهند والباكستان عام ١٩٤٧؛ التي نجم عنها انتقال وإعادة توطين ملايين الأشخاص، والموت الفجائي لزعيميها المؤسسين، محمد على جناح في ١٩٤٨ ولياقات على خان في ١٩٥١، وعدم كفاءة القيادة

السياسية التى أوصلت الدولة إلى حافة الفوضى بين ١٩٥١ و١٩٥٨. وأخيراً خلافاتها مع الهند، وأهمها مسألة ضم دولة كشمير ذات الأغلبية العظمى المسلمه وهى مشكلة أدت إلى حربين بين الهند والباكستان فى ١٩٤٨ و١٩٦٥.

حصلت البلاد على استقرار كبير من جراء الثورة العسكرية التى قامت ١٩٥٨ والجمهورية الثانية التى جاءت إلى الوجود عام ١٩٦٢ بقيادة محمد أيوب خان بحيث أنه بحلول عام ١٩٦٨ كانت باكستان تتقدم اقتصاديا أسرع من أية دولة نامية فى العالم.

إن أهية الباكستان فى التاريخ الإسلامى الحديث تكمن فى كونها تجد هويتها فى الإسلام وفى تسميتها لنفسها دولة إسلامية. ولقد كان مؤسسو الباكستان من ذوى التفكير العلمانى مهتمين بصورة أولية بحماية المصالح الإسلامية والسياسية والاقتصادية التى كانوا يرونها مهددة فى الهند إذ ظلت غير مقسمه، ولذلك كانوا يدينون لفكرة إنشاء الباكستان بولاء لفظى فقط، وكان علماء ديوباند، وهم على النقيض الدينى المحافظ لعلماء عليكرة منذ أواخر القرن التاسع عشر، مناهضين لفكرة الباكستان. ولكن بعد قيام الدولة الجديدة اتخذها كثير من العلماء المحافظين موطناً لهم، وكان أكثرهم نفوذاً هو أبو العلاء المودودى الذى يدين بالمذهب الحرفى الظاهرى (Fundamentalist externalist). وقد انضم العلماء إلى السياسيين وأوجدوا فئة ضاغطة تناضل ضد مفهوم الديموقراطية العلمانية ذات المظهر الإسلامى الأسمى، التى تنادى بها الصفوة الحاكمة المتأثرة بالغرب.

هذا الصراع بين الآراء الدينية التقليدية والآراء العصرية ينعكس فى سلسلة الحلول الوسط التى ظهرت فى الوثائق الدستورية للباكستان والتى تعلن بوجه الإجمال أن السيادة لله ويمارسها شعب الباكستان "ضمن الحدود التى يرسمها الله تعالى". وهذه الوثائق من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٦٣ كانت تقر المبدأ القائل بأن قانون البلاد يجب ألا يتعارض مع القرآن والسنة. على أن العصريين المحافظين الدينيين قد اختلفوا فى تفسير هذه النصوص. فقد اعتبرها الفريق الأول بصورة صيغًا نظرية فى المحل الأول، لا ينبغى أن تترجم إلى الواقع إلا بأكبر قدر ممكن من

التحفظ والمقاومة، في حين أن الفريق الآخر، وخصوصًا المودودي وجماعته. فسرها ووسعها بهدف جعل البلاد دولة دينية كاملة.

ولا زال الصراع بين الاتجاهات العصرية والاتجاهات الدينية التقليدية قائمة بغير حل، في الباكستان. ومن ناحية أخرى فإن تقسيم شبه القارة الهندية، قد ترك الأقلية الإسلامية في جمهورية الهند، التي تشكل ١٠٪ من مجموع سكانها، في وضع غير آمن. فهم غير موثوق بهم سياسيًا، ومرفوضون ومهملون اقتصاديًا، ومتخلفون تعليميًا، لذا فإن مستقبلهم قاتم.[1]

لقد واجه الإسلام في شبه القارة الهندية تحديين خارجيين هددا هويته وهما: التحدي الهندوسي والتحدي الغربي. فالحضارة الهندوسية رغم بنيتها الطبقية. أقدر على استيعاب العناصر الغريبة وتمثلها أكثر من أية حضارة أخرى. ولقد كان الإسلام وحده هو الذي استطاع بفضل توحيده الصارم وعزلته الطائفية. أن يقاوم قوة الجذب التمثيلية الهندوسية، ولكن الاتصال والصراع بين الديانتين والحضارتين أديا إلى نشوء جماعات هامشية ضئيلة الحجم مثل البراهميين الحسينين الذين تأثروا بالفئتين الاسماعيليتين الرئيسيتين في الهند، البهرة والخوجيين، كما أديا ضمن الهندوسية إلى نشوء حركة البهاكتي الصوفية التوفيقية في القرن الثالث عشر، وإلى تشكيل ديانة السيخ التي أصبحت فيما بعد عدوًا لدودًا للإسلام. والواقع أن قدرًا كبيرًا من الصراع السياسي بين الهندوس والمسلمين في العصور الحديثة إنما هو إرث الصراع الديني والثقافي الذي نشب في التاريخ الوسيط وأوائل التاريخ الحديث.

---

(1) A bed Husein, The destiny of Indian Muslems. London 1965. P.120

مشكلة كمشير:

الموقـــع:

تقع كشمير فى أقصى الطرف الشمالى الغربى من شبه القارة الهندية وتحيط بها الصين من الناحيتين الشرقية والشمالية، وتحيط بها باكستان من الناحيتين الغربية والشمالية الغربية. وتطل عليها الهند من الناحية الجنوبية.

السكان:

يعود سكان باكستان وكشمير إلى أصل واحد وهو العرق الأبيض، ٧٥٪ من السكان مسلمين. وقدر عدد السكان فى كشمير عام ١٩٩٢ بخمسة ملايين (مسلمون وهندوس وسيخ وبوذيون).

الجغرافيا:

تعد أودية جمو وكشمير تتمة للسهول الباكستانية، وأن أنهار السند وجهلم وشتاب ورانى تنبع من ولاية كشمير، وهى الأنهار الرئيسية فى باكستان وتبلغ مساحة كشمير حوالى ٨٣,٤٨٣كم٢.

الاقتصـــاد:

ينقل الكشميريون أخشابهم بواسطة الأنهار لتباع فى أسواق (جهلم) و(وزير أباد) فالأنهار وسيلة نقل باكستانية والأسواق باكستانية وتشكل الأخشاب ٢١٪ من صادرات ولاية كشمير. وكذلك تباع الفاكهة الكشميرية فى مدن باكستان الرئيسية (روالبندى) و(كراتش). والطرق فى كشمير تُساير مجارى الأنهار وتصل إلى باكستان، وليس هناك أى طريق تصلها بالهند، سوى طريق جديدة فتحت لأغراض عسكرية فتحها الجيش الهندى. وكل واردات كشمير من الملح والقمح والصوف والزيوت تستورد من باكستان هذا بالإضافة إلى النفط الذى يصل إليها من حقول نفط (أتوك) الباكستانية. ويعد ميناء كراتشى الباكستانى أقرب الموانى إلى ولاية كشمير. ويجد العمال الكشميريون مجال عملهم فى فصل الشتاء البارد فى باكستان. كما اشتهرت

كشمير فى فترة الاستعمار البريطانى بأنها ملجأ للموظفين البريطانيين لقضاء إجازتهم صيفا من الحر.

- منذ سنة ١٩٤٨ وكشمير تنقسم إلى قسمين: القسم الأول والذى يشغل حوالى ثلثى مساحة كشمير ويخضع للهند، أما القسم الثانى، فيمثل الثلث من مساحة كشمير يخضع لباكستان. هذا فى الوقت الذى أعلنت الهند أن كشمير كلها ولاية هندية لاحق لباكستان فى شبر من أرضها.

طبيعة المشكلة الكشميرية:

جدير بالذكر معرفة مدى أهمية كشمير لكل من الهند وباكستان:

تقع بين الهند والصين وباكستان والاتحاد السوفيتى، ويوجد بها ممر كركورم الذى يعتبر أهم طريق يوصل بين الهند وأواسط آسيا وبلاد التركستان.

أضف إلى ذلك وفرة خيراتها الزراعية وبساتينها، خاصة وادى جيلوم الذى تقع فيه عاصمة كشمير سرينجار. كذلك توجد مناطق جبلية فى اقليم جامو تتميز بالدفء شتاءاً. كما تشتهر كشمير وجامو بالأصداف والشيلان الكشميرية المصنوعة من الحرير.

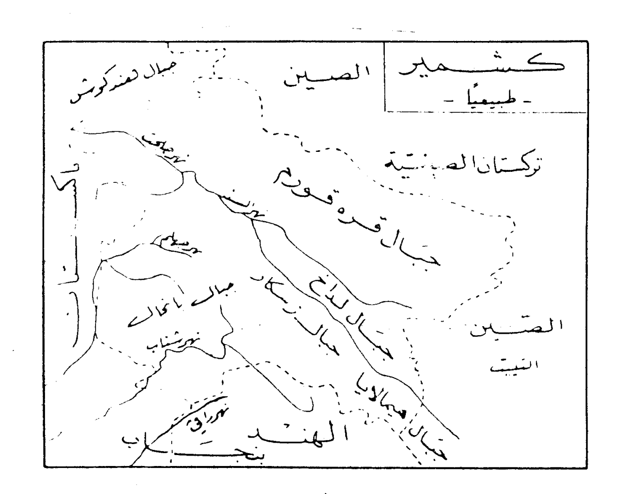
دخل الإسلام إلى كشمير عن طريق داعيه إسلامى يدعى (بلبل شاه) تمكن من اقناع حاكم كشمير الهندوكى باعتناق الإسلام، وسمى هذا الحاكم باسم صدر الدين، وأخذ بعد ذلك ينتشر الإسلام فى الهند. ثم أصبحت كشمير جزءا من الامبراطورية المغولية الهندية منذ عهد السلطان أكبر ١٥٨٦، وبعد مائتى سنة استولى عليها الأفغان وبقيت تابعه لهم، ويرجع ذلك للضعف الذى أصاب الدولة المغولية الهندية وبعد سنة ١٨١٩ عادت إلى الهند تحت حكم أمراء من الهندوس، ومن المعروف أن بريطانيا فى سيطرتها على الهند، احكمت قبضتها على الولايات، أما الإمارات فتمتعت بالحكم الذاتى وظلت تحت سيطرة حكامها الذين كانوا يدفعون فى مقابل ذلك جزيه للحاكم الإنجليزى، ولقد زاد الاستعمار الانجليزى من المشكلة عندما وضع حاكما غير مسلم على اقليم كشمير، رغم أن غالبية سكانها من المسلمين. وظل حكم كشمير وراثيا فى أسرة "سنك" حتى عام ١٩٤٧، وهى السنة التى أعلن فيها المهراجا هارى سنك انضمام كشمير إلى الهند، وبهذا العمل جعل كشمير منطقة

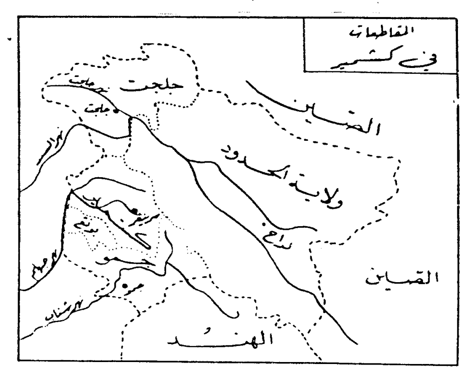
من مناطق الانفجار السياسى والعسكرى فى العالم. فقد نشب صراع مسلح بين الهند وباكستان. فارسلت الهند جيشها إلى كشمير وحدثت معركة بين جيش الهند وبين المسلمين الذين استمدوا العون من جانب باكستان، ثم تدخلت الأمم المتحدة وأوقفت القتال. وتحديد خط وقف إطلاق النار بمعرفة مجلس الأمن فى عام ١٩٤٨، وعند هذا الحد كانت الهند تسيطر على ثلثى مساحة كشمير.

وسعت إلى اتخاذ خطوات تدريجية بهدف دمج كشمير فى الإتحاد الهندى، حيث أصبح حاكم كشمير مجرد محافظ من قبل الحكومة المركزية بنيو دلهى، ورئيس الوزراء مجرد سكرتير محافظ ولحل هذه المشكلة أشارت الأمم المتحدة بضرورة إجراء استفتاء يقرر بمقتضاه سكان كشمر ومصيرهم، إما بالانضمام إلى الهند أو إلى باكستان.

وفى عام ١٩٥٧ كلفت الأمم المتحدة.(جونار يارنج) السكرتير العام للأمم المتحدة، بتسوية النزاع، إلا أن الهند أعلنت ضم الجزء الذى سيطرت عليه رسمياً، مما أدى إلى تعقيد المشكلة. واستغلت الصين هذه المشكلة لتحقيق مكاسب خاصة بها، ففاوضت باكستان سنة ١٩٦٣ بشأن الحدود وعقدت اتفاقية مع باكستان فى ٢ مارس ١٩٦٣ تنازلت باكستان بمقتضاها للصين عن مساحة واسعة من الحدود الأفغانية فى الغرب وممر كركوم فى الشرق، إلا أن الهند احتجت على هذه الاتفاقية على اعتبار أن كشمير كلها ولاية هندية – وفق إعلانها السابق بضمها إليها – وأنه ليس من حق باكستان التنازل عن تلك المساحة.

واشتركت الولايات المتحدة وانجلترا فى دعوة الهند وباكستان لإجراء مفاوضات جديدة استمرت حتى مايو ١٩٦٣، ولم يصل الطرفان المتنازعان إلى حل وفى عام ١٩٦٤ عاد مجلس الأمن لبحث مشكلة كشمير، إلا أن أحد الطرفين لم يتنازل عن موقفه، فاقترحت بعض الدول قيام يوثانت (سكرتير عام الأمم المتحدة) بالتوسط بين الطرفين. وقام الشيخ محمد عبد الله الكشميرى، بتكوين وفد من أهل كشمير وسافر إلى دلهى ثم إلى روالبندى، وقدم اقتراح جديد بتكوين حكم ثنائى لكشمير المتحدة، ولكن هذا الاقتراح لم ينل موافقة أحد الطرفين وبقيت مشكلة كشمير على حالها.





(خريطة رقم ٣ ، ٤)

نقلا عن: محمود شاكر، الإسلام فى الهند

ومن أسباب فشل جهود التسوية أن كلا الدولتين تدعيان حقوقًا لهما، استناداً إلى أسس اقتصادية وسياسية وتاريخية.

وتستند كل من باكستان والهند فى مطالبهما بضم كشمير إلى عدة عوامل.

فمثلا باكستان ترى:

١ - أن معظم سكان كشمير من المسلمين.

٢- فى حالة ضم كشمير إلى الهند، فإنها سوف تتحكم فى مياه نهر السند، الذى تعتمد عليه باكستان فى الرى وتوليد الكهرباء، وأن الحياة فى باكستان تتوقف على مياه نهر السند.

٣- ارتباط كشمير تجارياً بباكستان.

٤- أن ضم الهند لكشمير معناه تهديد الأمن القومى فى باكستان وذلك لعدم وجود حواجز طبيعية جنوبى كشمير وباكستان.

٥- أن ضم كشمير لباكستان مهم حتى لا تنفصل قبائل الباتان.

أما الهند فتستند فى ضم كشمير إلى ادعاءات منها:

١ - أن حكومة كشمير "هارى سنك" هى التى طلبت تدخل الهند رسميا فى ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧ واستنجدت بالقوات المسلحة الهندية.

٢- أنفقت الهند (منذ سنة ١٩٤٧) العديد من رؤوس الأموال فى المشروعات العديدة، لتنمية كشمير، فأنشأت العديد من طرق المواصلات البرية التى تربطها بالهند.

٣- حماية مصالح الهندوس الذين يعيشون فى جنوبى جامو.

المقترحات المختلفة التى طرحت لحل مشكلة كشمير:

أ - عمل استفتاء يشمل كل سكان كشمير، حتى يكون هذا الاستفتاء معبراً عن الرغبة الحقيقية لسكان كشمير، ودون أن يكون هناك تأثير على رغبات السكان، ويتم انسحاب القوات الهندية وكذلك الباكستانية من كشمير، إلا أن هذا الحل ويرفض باستمرار من جانب الهند.

ب- أن تضم الاجزاء ذات الغالبية الهندوسية والبوذيه إلى الهند والباقي إلى باكستان.

جـ - اتخاذ وقت اطلاق النار فاصلاً وتسيطر كل دولة على ما استولت عليه.

د - إعلان استقلال كشمير عن كلا الجانبين، وهذا الاقتراح لا يمكن الأخذ به، حتى لا ينشأ فراغ في المنطقة.

الفصل الرابع

المسلمون فى فارس



كانت فارس[1]، منذ هبت العاصفة المغولية الكاسحة، أشبه شئ بالكرة يتنازعها جماعة من أمراء القبائل المتنافسين يرجع بعضهم إلى اصل تركى، وينتسب بعضهم الآخر إلى المغول. ولقد وفق لأزوزن حسن التركمانى، رأس قبائل آق قيونلى، إلى التغلب على منافسه جهان شاه، رأس قبائل قره قيونلى، ليبسط سلطانه بعد ذلك فى سنة ١٤٦٩، على آذربيجان وارمينية وإيران حتى خراسان - حيث كانت السلطة ما تزال بيد التيموريين - وعلى الجزيرة الفراتية؛ وكذلك النزاع الذى نشب بينه وبين العثمانيين، والذى أيدته فيه مدينة البندقية، وكيف اضطر بعد إلى النكوص على عقبيه. حتى إذا قضى نحبه خلفه ابنه خليل، فى يناير سنة ١٤٧٨. ولكن أخاه يعقوب، ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة، ما لبث أن هزمه ليستولى على ممتلكات أبيه، بعد مصرع خليل فى ميدان القتال.

دولة أردبيل الصوفية:

وفى عهده ظهرت دولة أردبيل الصوفية والتى قيض لها أن تصبح، بعد نواة لدولة فارسية راسخة الأصول، قوية الدعائم. وحوالى سنة ١٣٣٤ توفى فى أردبيل الشيخ اسحق صفى الدين - وكان صوفياً ينتسب إلى رجل من العلويين هاجر فى ما يظهر من بلاد العرب الجنوبية، وإنما تقع أردبيل هذه فى آذربيجان الشرقية، على مسيرة [٣٥ ميلاً] من الساحل الجنوبى الغربى من بحر الخزر (قزوين). وكان قد تزوج من أبنة شيخه زاهد الجيلانى - وجيلان مقاطعة تقع على الساحل الجنوبى من بحر قزوين - وحظى بمقام كبير عند رشيد الدين وزير الايلخان فى فارس. وقنع الشيخ اسحق، شأن أعقابه حتى الجيل الثالث، بالشهرة التى تمت له كولىّ من الأولياء، فلم يسع بسبيل الحصول على أيما سلطة سياسية. والواقع أن حفيده، خوجا على، بلغ من ذيوع الصيت مبلغًا حدا بتيمور لنك، بعد انتصاره على با يزيد، إلى أن يجعل اردبيل، وضواحيها وقفاً عليه وعلى أعقابه. وهكذا

---

[1] سميت إيران فى عام ١٩٣٥.

انتهت ملكية هذا الوقف إلى أن تكون أرثاً يؤول إلى أعقاب الشيخ المؤسس. كمشيخة الطريقة سواء بسواء. بيد أن هذا الإرث لم يكن من حق الأرشد، بل من حق من يختاره الشيخ من أولاده. وكان يمثل الشيخ، لدى اتباعه المقيمين خارج أردبيل، "خليفة" ينوب منابة، شأنه في ذلك شأن مشايخ الطرق الأخرى جميعاً.

الشيخ جنيد وأبنه حيدر:

وما هي إلا فترة حتى لفت المتعصبون من اتباع هذه الطريقة، وكانوا يعتنقون العقيدة الشيعية في حماسة تتزايد مع الأيام، أنظار الحكام المدنيين المجاورين. وكان الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفي الدين قد زُج في السجن، في يوم ما من أيام سنة ١٣٦٠، بأمر من حاكم آذربيجان المغولي في ذلك الحين. وفي سنة ١٤٤٧ نشب النزاع بين الشيخ جنيد - وكان لا يزال دون سن الرشد - وبين عمه جعفر الوصي عليه، فحرص هذا الأخير حما أبنه جهان شاه خان القرة قيونلي، على إبعاد جنيد من البلاد، ففعل. وهكذا اضطر جنيد إلى أن يحيا فترة من الزمان، في آسية الصغرى، حياة المغامرة والترحل من مكان إلى مكان، حتى وجد، آخر الأمر، معتصماً في جبل أرسوس على خليج الأسكندرونة، حيث جمع أتباعه في قلعة قديمة من قلاع الصليبيين. ولكن مؤامراته الشيعية أوقعت الشك في نفس جقمق، سلطان المماليك، فرغب في اعتقاله؛ فلم يكن منه إلا أن فر إلى جانيق، على البحر الأسود. وهناك وفق جنيد إلى أن يجمع حوله عدداً كبيراً من الأتباع، أيضا. ثم إنه أعلن الجهاد ضد مملكة طرابزون، ولكن السلطان محمد الثاني العثماني حرمه ثمرة نصره بأن الحق طرابزون بإمبراطوريته. ومهما يكن من شئ، فقد لقي جنيد حفاوة بالغة في حمى اوزون حسن، خصم السلطان العثماني. بديار بكر. والواقع أنه استطاع أن ينشر طريقته في البلاد الواقعة في حوزة اوزون من غير أن يلقى معارضة ما، حتى إذا وافت سنة ١٤٥٩ انقلب إلى وطنه بعد أن تزوج من أبنة اوزون حسن. ولكي يتلافى النفي مرة أخرى على يد خان القره قيونلي، أعلن الجهاد ضد الجراكسة. ثم أنه تقدم في أراضي شرْوَان شاه فتصدى له هذا الأخير؛

وفى ٤ مارس سنة ١٤٦٠ سقط قتيلا فى معركة دارت رحاها بوادى قره صو (بالفرات الغربى).

وفى أمد وضعت زوج جنيد، بعد انقضاء شهر على وفاته، غلاماً اسمه حيدر. ونشأ حيدر فى كنف اوزون حسن ورعايته، حتى إذا كانت سنة ١٤٧٠ أعاده إلى أردبيل ليخلف أباه فى حكمها. وإما بلغ سن الرشد، وانتهت وصاية عمه جعفر عليه، زوّجه اوزون حسن كبرى بناته من دَسْبينه خاتون، أميرة طرابزون. فرزق فى ١٧ يوليو سنة ١٤٨٧ ثانى أولاده، إسماعيل، الذى قيض له أن ينشئ فى ما بعد السلالة الصفوية. والواقع أن حيدر – وكان قد اصبح، على الجملة، مستقلا فى أموره بعد وفاة جده – أعاد تنظيم طريقته على أسس جديدة رامزاً إلى ذلك. جريا على العادة فى الشرق، باستحداث لباس للرأس جديد، هو "تاج حيدر" الاحمر ذو الأثنتى عشرة ذؤابة، كنايةً عن الأثنى عشر إماماً. ومن هنا دعا العثمانيون مصطنعى لباس الرأس هذا الجديد "قزل باش" أى "الرؤوس الحمراء". وكان أتباع حيدر ينتسبون إلى مختلف القبائل التركية؛ ولقد احتل أبناء أسرى الحرب الأناضوليين الذين كان قد تركهم تيمورلنك [عبيداً] لخوجا على مركزاً ممتازا بينهم. وفى سنة ١٤٨٣ افتتح حيدر حملاته الحربية بغزوة ناجحة ضدّ الجراكسة أجاز له شروان شاه أثناءها عبور الأراضى الواقعة فى حوزته. ولكن حيدر كان يطلب عند هذا الأخير ثأر أبيه. فلما وافت سنة ١٤٨٨ أخذ شروان شاه على غرّة، بعد أن تظاهر بالرغبة فى شن حملة جديدة على الجراكسة، وحاصره فى قلعة كلستان. بيد أن الأمراء التابعين لشروان شاه ما لبثوا أن وجهوا إليه النجدات فاضطر حيدر إلى الانسحاب، ونجا شروان شاه بنفسه. ومهما يكن من شئ فقد تعيّن على شروان شاه أن يفر فى الحال إلى قلعة أخرى بعد أن هزم حيدر جيوشه من جديد. وفى هذه الأثناء وجه السلطان يعقوب التركمانى، ابن عم حيدر، جيشاً لمقاتلة نسيبه هذا بينما كان ملقياً الحصار على قلعة دربند (باب الابواب). وفى ٩ يوليو سنة ١٤٨٨ دارت بين القزل باش والتركمان، عند سفح جبل ألبُرْز رحى معركة سقط فيها حيدر قتيلا. وحمل يعقوب أولاد نسيبه القتيل، ومعهم أمهم، من أردبيل إلى إصطخر فى مقاطعة فارس.

وتوفى يعقوب فى نهاية عام ١٤٩٠، فنشبت الحروب بين أبنائه المتنازعين على خلافته. وفي غمرة من هذا الصراع أطلق أولاد حيدر من السجن ليدعوا أتباعهم إلى نصرة رستم، حفيد دسبينه، على بايسنقر بن يعقوب. وفى سنة ١٤٩٣ وفق السلطان على، أكبر أولاد حيدر، وجنوده القزل باش. إلى أن ينزل الهزيمة بجند بايسنقر. ثم تابع تقدمه، ليتولى زعامة الدولة الصوفية فى أردبيل. ولم يكد يبلغ قرية قريبة من وطنه حتى تصدى له رستم. وفيما كانت رحى المعركة دائرة، سقط على فى النهر فغرق.

أما إسماعيل وإبراهيم، أخوا السلطان على، فقد حجبهما أتباعهما فى أردبيل عن أعين المكلفين بتعقبهما. ثم إن إسماعيل حمل إلى مأمن فى جيلان، وكان حاكمها على صلات حسنة بأسرته، رغم تبعيته للآق قيونلى. وهناك عاش متخفيا إلى أن فقد رستم عرشه وحياته سنة ١٤٩٧، على يد أبن عمه أحمد.

إسماعيل يخضع بلاد الفرس (١٥٠١-١٥٢٤):-[1]

كان إسماعيل فى الثالثة عشرة عندما خرج مطالبا بإرث أبيه، وليس معه، كما تزعم الروايات، غير سبعة نفر من أتباعه. ولكن سلطان التركمان، على بك جاقرلى، ما لبث أن أخرجه من أردبيل فأنكفأ إلى آستاره على بحر قزوين. وهناك جمع حوله، من بلاد الأناضول وسورية بخاصة، عصبة من الأتراك تكاثر افراها مع الأيام تكاثرا كبيرا؛ فما وافى ربيع سنة ١٥٠٠ حتى آنس من نفسه القدرة على إعلان الجهاد ضد النصارى فى بلاد الكرج (جوجيا). والواقع أنه أتخذ من ذلك ذريعة إلى الانتقام لأبيه من شروان شاه. وفى معركة دارت رحاها عند كلستان قتل فر خشاه، فانتهت بموته سلالته التى كانت تعتبر نفسها منحدرة من كسرى انو شروان الساسانى، ثم إن إسماعيل احتل باكو، لينقلب بعد لقتال الوند، خان الآق قيونلى فى آذربيجان. والواقع أن انتصاره على الوند هذا مهد أمامه السبيل إلى تبريز حيث توج ملكا (شاه) على بلاد فارس.

---

[1] مؤسس أسرة الصفاويد الحاكمة (١٥٠١-١٧٣٦).

ومع أن علماء الشيعة التبريزيين اعلموه بأن ثلثي سكان المدينة على الأقل، وكانت تضم ثلاثمائة ألف، من أهل السنة، فقد سارع إلى جعل التشيع مذهب الدولة الرسمي، ثم أردف ذلك بإكراه رعاياه جميعًا على سب أبي بكر وعمر وعثمان.

وبعد أن أنزل هزيمة جديدة بجند ألوند انقلب لقتال مراد، أخي ألوند، فوفق إلى أن ينتزع منه، سنة ١٥٠٣، السلطة على شيراز، ويبسط سلطانه حتى استراباد و"يزد". ثم أنه فتح الجزيرة الفراتية والعراق، في سهولة ويسر، وهكذا انتهت إليه السيادة على المدينتين الشيعيتين المقدستين: النجف وكربلاء. وكانت قد ظهرت في ذلك العهد، في بلدة الحُوَيْزة، فرقة شيعية غالية الهّت علياً وادعى زعماؤها الألوهية لانفسهم. فناصب هؤلاء الزنادقة العداء، وكان قاسيا عليهم كمثل قسوته على أهل السنة.

إخضاع الأوزبك في خراسان:-

فلما تم لإسماعيل إخضاع بلاد الفرس كلها بهذه الطريقة، لم يبق أمامه من عدو غير العثمانيين في الغرب والأوزبك في الشرق. أما قبيلة الأوزبك التركية فكانت قد استولت على تركستان بزعامة الخان [محمد] شيباني، الذي تمرس بفن القتال في الحروب التي نشبت بين أمراء المغول في تلك البلاد. وفي سنة ١٤٩٤ قضت هذه القبيلة على بقايا التيموريين في خراسان وهراة، لتصبح بذلك متاخمة للدولة الفارسية. والسبب المباشر الذي أدى إلى نشوب الحرب بينهما هو غزو الأوزبك لمقاطعة كرمان الفارسية. وفي سنة ١٥١٠ جرد إسماعيل، ابتغاء الانتقام، حملة على الشرق أتاحت له في الوقت نفسه زيارة ثاني الأماكن المقدسة الكبرى عند الشيعة، أعني ضريح الأمام على الرضا في مدينة مشهد. فلما كان اليوم الأول، أو اليوم الثاني، من شهر ديسمبر التقى جمعاهما عند طاهر آباد قرب مَرْو فدارت الدائرة على شيباني وسقط صريعاً. ومن الجدير بالذكر أن إسماعيل بعث بجثته محنطة إلى السلطان بايزيد في حين وضع جمجمته في غشاء من الذهب ليتخذ منها كأساً للشراب. ولكن هذه الهزيمة لم تقض على قوة الأوزبك، فتقطعت

مدة طويلة وهم يهددون حدود إيران الشرقية تهدداً متواصلا. وبعد اندحار إسماعيل في معركة جالدران - أمام السلطان سليم - عقد مع العثمانيين صلحاً، ولم يجرؤ على الحرب مرة أخرى والقيام بحملة جديدة ضد نصارى مملكة الكرج إلا بعد وفاة السلطان سليم. ثم إن إسماعيل توفي بعد ذلك بقليل - وكان يزور أردبيل - في سنة ١٥٢٤، وليس له من العمر غير ثمان وثلاثين.

طهماسب بن إسماعيل (١٥٢٤-١٥٧٦):-

وخلف طهماسب أباه إسماعيل وهو في العاشرة، واستطالت مدته حتى لقد استغرقت أثنين وخمسين عاماً ونصف حفلت بالحروب المتصلة ضد أعدائه: الأوزبك في الشرق، والعثمانيين في الغرب. والواقع أن عبيد خان بن شيباني خان شنّ ما لا يقل عن سبع حملات، على بلاد الفرس، ابتداء من سنة ١٥٢٥ حتى وفاته سنة ١٥٤٠. وكان من نصيب هراة أن تعاني أكثر من أيما مدينة أخرى، باستثناء "مشهد" المقدسة، غارات آهل السنة المتعصبين الذين اضطهدوا الشيعة اضطهاداً متواصلاً. إن طهماسب كان يفيد من فترات السلم المتعرضة ما بين حروبه ضد أهل السنة فيغزو نصارى الكرج. والحق ان عدة غزواته ضد هؤلاء بلغت سبعاً، ولكنه لم يوفق فيها إلى انتصارات دائمة، على الرغم من أن كثيراً من الكرج دخلوا في خدمته في ما بعد. وليس من شك في أن عهد طهماسب هذا، الذي سعى إلى المجد من طريق الأتباع الدقيق، إلى أقصى الحدود، لجميع التعاليم الشيعية، مهما تكن ثانوية، والذي حبس نفسه طوال السنوات الأخيرة من حكمه حبساً يكاد يكون كليا في قصره، أقول ليس من شك في أن هذا العهد الطويل لم يكن، بالضبط، نعمة على البلاد الفارسية، لاسيما وأن عصابات اللصوص كانت تعكر صفو السلامة العامة تعكيراً متواصلا بسبب من الاضطرابات الحربية المستمرة.

وتوفي طهماسب في سنة ١٥٧٦ من غير أن يسمي خليفة. وكان أبنه البكر محمد خدابنده الذي أقام في هراة من سنة ١٥٣٦ إلى سنة ١٥٥٦ بوصفه حاكما عليها، والذي اضطر إلى أن يتخلى عن مركزه هذا ويستعيض عنه بحكم شيراز بسبب من نزاع نشب بينه وبين أحد الموظفين الكبار - كان أبنه البكر هذا

قد فقد البصر، أو كاد منذ وقت طويل، فأقصى عن خلافة أبيه جرياً على العادة الغالبة فى بلاد الشرق. أما أبنه الثانى، إسماعيل، الذى كان على نقيض والده وأخيه، مفعما بالعزيمة العسكرية محبباً بالتالى إلى نفوس القزل باش، فقد سبق أن لمع نجمه فى الحروب التى خاضها قومه ضد العثمانيين، وفى العمل الجرئ الناجح الذى قام به ضد حاكم أرضروم إسكندر باشا، سنة ١٤٤٢، بخاصة؛ حتى إذا عهد إليه سنة ١٥٥٦ فى الولاية على خراسان، خلفاً لأخيه الأكبر، استثار شكوك أبيه بما أظهره من استقلال فى العمل العسكرى وتفرّد فى رسم الخطة له؛ فأمر بحبسه سنة ١٥٥٧، فى قلعة قهقهه فى جبل سَوَلان بين أردبيل وتبريز. وكان للشاه سبعة أولاد آخرين، أحبهم إليه إبنه حيدر؛ وكان قد أمر سفيره لدى الباب العالى بأن يقنع الدولة العثمانية بألا تعارض فى ارتقاء حيدر العرش. وإنما أيده فريق الكرج فى البلاط، وقبيلة أستاجلو من بين القزل باش؛ وحظى فوق ذلك بتأييد رعاياه الفرس من غير شك. ولكن أنصار إسماعيل وفقوا، بقيادة أخته لأمه، بيرى خان خانم إلى أن يستولوا على القصر، فى العاصمة قزوين، ويفتكوا بحيدر، قبل أن ينجو إسماعيل من محبسه بقلعة قهقهه.

إسماعيل الثانى:-

سار إسماعيل إلى العاصمة، بعد أن حرّره جلاده لدن تسامع بمصرع حيدر، فدخلها ليرتقى آخر الأمر عرش آبائه. والواقع أن الشاه الجديد، وكان قد خُولط فى عقله من جراء مقامه الطويل فى السجن، لم يلبث أن دعّم سلطانه والتمكين له. ولم تمض فترة وجيزة حتى كان قد قتل جميع أخوته، ما عدا محمد خدابنده، وجميع أولاده باستثناء أكبرهم، حسين، الذى قتل مع من قتل. أما عباس، أخو حسين هذا، الذى ارتقى العرش بعد، فلم ينج إلا بأعجوبة. ثم أن الشاه الجديد أحفظ القزل باش، وهم دعامة بيته، بما أظهره من كراهية علنية للمذهب الشيعى؛ فقد اغفل ذكر شعارهم على ما ضرب من نقود، وحظر سب الخلفاء الثلاثة الأولين من على المنابر.

وبعد مدة وجيزة من مولد أبنه البكر، قضى إسماعيل نحبه. مسموما على الأرجح (سنة ١٥٧٧). وكانت أخته لأمه طموحاً، وقد سبق لها أن فكرت بأن تتولى الوصاية الإمبراطورية باسم أبنه الصغير. ولكن شيوخ القزل باش رفعوا محمد خدابنده، وكان كما رأينا نصف أعمى، إلى العرش ولكن الدولة كانت قد أخذت في الضعف، بدليل أن شيخاً من مشايخ الطريقة القلندرية ما لبث أن ظهر في مقاطعة لورستان الكردية مدعياً أنه الشاه القتيل، فعمرت سلطته هناك حتى سنة ١٥٨٢.

وسارع محمد خدابنده، عقب توليه العرش، إلى التخلص من أخته لامه. بيرى خان خانم، ومن أبن إسماعيل القاصر. والواقع أن زوجته - وكانت ابنة سيد مر عشى من مازندران - هى التى تولت شئون الدولة بالنيابة عنه إلى أن قتلها أحد زعماء القزل باش. وإذ كان أعداء الدولة يستغلون، من كل جانب، ما انتهت إليه من ضعف، فقد عزم عباس - ثانى أولاد الشاه، وكان حتى ذلك الحين حاكما لخراسان - على التدخل فى شئون الحكومة المركزية فى العاصمة. بعد مصرع أخيه الأكبر وفى سنة ١٥٨٧ أكره أباه على التنازل عن العرش، وسمل عيون آخوية الأصغرين وحبسَهُما فى ألمَوْت.

والحق أن السنوات الثلاث والأربعين التى استغرقها عهد عباس "الكبير" (١٥٨٧-١٦٢٩) انتهت بفارس إلى ذروة قوتها، فلم يكد الشاه يرتقى العرش، وليس له من العمر غير سبع عشرة سنة، حتى سعى إلى أن يضمن لنفسه حرية العمل، فأصدر أمره بقتل مرشد قولى خان الذى سبق أن تعهده بالعناية، أثناء ولايته على خراسان، والذى ساعده على ارتقاء العرش. ثم أن عباساً ألقى نظرة حكيمة على مملكته فألفاها فى وضع خطر. فما كان منه إلا أن سارع إلى عقد صلح ذليل مع العثمانيين الذين ما أنفكوا منذ وفاة إسماعيل الثانى، يهاجمون فارس مرة بعد مرة. وبمقتضى هذا الصلح تنازل عباس للعثمانيين عن آذربيجان، والكرج (جورجيا)، وجزء من لورستان، وكانوا قد احتلوا هذه الولايات كلها، وتعهد بالكف عن سب الخلفاء الثلاثة الأولين فى أراضى مملكته، وبأن يبعث بابن عمه حيدر ميرزا رهينة

إلى استانبول. ومن ذلك الحين فرغ عباس لإقرار الأمن في داخل مملكته ووقايتها من عدوان الأوزبك الذين غزوا خراسان غير مرة، حتى إذا كانت سنة ١٥٩٨ توفي زعيمهم الخان عبد المؤمن، فصار في ميسور عباس أن يطردهم من البلاد. وما هي إلا فترة وجيزة حتى ظهر في بلاطه مغامران انجليزيان - السير انطوني والسير روبرت شيرلي - مكناه، آخر الأمر، بمساعدة صانع مختص بصناعة المدافع كان يصحبهما، من أن يسلح الجيش الفارسي بسلاح المدفعية الذي كان يعوزه من قبل والذي كان الفرس عاجزين، بسبب من فقدانه، عن مضاهاة الأتراك في الميدان. ولكي يتحرر من سلطة القزل باش الذين أعنتوا أسلافه وأزعجوهم أعظم الإزعاج، أنشأ على غرار الانكشارية جيشاً من الكرج والأرمن الداخلين حديثا في الإسلام، وحرساً تركياً جديداً، سمي "شاه سون". وفي أواخر عهد السلطان محمد الثالث، وكانت الإمبراطورية العثمانية منهمكة في حرب مستمرة مع النمسا، وفي إخماد الثورة التي قامت بها الطريقة الجلالية في آسية الصغرى، أعلن عباس الحرب على العثمانيين، سنة ١٦٠٢، فتمكن بجيشه الجديد من استرداد تبريز، بل تمكن من استرداد شروان وبغداد أيضا؛ وأن تكن هذه الأخيرة (بغداد) قد سقطت بعد، عدة مرات، في أيدي العثمانيين، على عهد عباس نفسه. كذلك مكن للسلطة الفارسية في بلاد القبق (القوقاز) أيضا، وعزز الحدود في الشرق حتى مرو وبلخ. وفي سنة ١٦٢٢ انتزع، بمساعدة بعض السفن الحربية الإنكليزية، جزيرة هرمز في الخليج العربي من أيدي البرتغاليين وإنشاء قاعدة تجارية جديدة في ثغر كمرون خلع عليها اسم بندر عباس.

ونقل عباس عاصمته إلى إصفهان، بعد أن تحملت العاصمة القديمة، قزوين، من الأرزاء ما سلبها بهجتها ورونقها. وهناك على ضفاف نهر آراس أنزل أرمن جلفه (جولاهه) الذين خلعوا اسم موطنهم القديم على الضاحية التي استقروا فيها [بالقرب من إصفهان]. وزين عباس إصفهان نفسها بالمباني الفخمة، مثل الجامع الكبير وقصر الأعمدة الأربعين (جهل ستون) والجسر الكبير القائم على نهر زندرود بالبساتين الأربعة. وكما سبق له في معاهدة الصلح مع العثمانيين أن خفف من

غلواء المعتقدات الشيعية فقد قاده تسامحه الآن إلى حد الترخيص للآباء الكرمليين بالإقامة فى إصفهان. وفى عهده الطويل ازدهرت الحياة الفكرية، فى فارس، من جديد وكان محمد باقر بن محمد داماد أشهر الشموس اللامعة فى البلاط، فاحترمه الشاه نفسه وكرمه. والحق أنه عنى بالفلسفة والعلوم الطبيعية فضلاً عن الفقه فأجرى بنفسه بعض التجارب العملية فى النحل بيد أن هذا العاهل الذى فاق أسلافه وسما عليهم سمواً كبيراً لم يتورع عن قتل ولده البكر صفى ميزرا، بعد أن أوجس خيفَة منه بسبب من الشعبية التى تمت له بين الناس. حتى إذا توفى ربيع سنة ١٦٢٩، فى مقره الصفى فى فرح آباد من الأعمال مازندران خلفه حفيده سام ميرزا الذى تسمى باسم أبيه، صفى، عند ارتقائه العرش.

والواقع أن عهد "سام ميرزا" هذا كان من اتعس العهود التى عرفتها الآمة الفارسية فى تاريخها الحافل بالأرزاء والآلام. ذلك بأنه سعى، بوصفه طاغيةً عاجزاً، إلى أن يمكن لسلطته فى الداخل من طريق الإعمال الوحشية المتكررة. وأما فى الخارج فقد وفق إلى صد غارات التركمان فى خراسان، ولكنه أضاع قندهار - التى فتحت فى عهد طهماسب واستردت فى عهد عباس، والتى تقع اليوم فى أفغانستان - ليستولى عليها شاه جهان صاحب دلهى، كما أضاع بغداد ليستولى عليها العثمانيون.

ولكن فارس ما لبث أن عرفت، عهد عباس الثانى، الذى خلف أباه سنى ١٦٤٢ وهو فى سن العاشرة، فترة أخرى قصيرة من الازدهار وحسن الطالع. فقد استرد قنهار؛ وكان عليه فى ماعدا ذلك أن يخمد ثورة قام بها الكرج بقيادة طهمورث خان سنة ١٦٥٩. والواقع أنه اصطنع العدل فى معاملة رعاياه جميعا بصرف النظر عن معتقداتهم، حتى لقد تمتع النصارى أيضا بالحرية الدينية الكاملة فى عهده. وعلى الرغم من أنه حاول أن يحظر شرب الخمرة، نزولا عند إلحاح رجال الدين، فقد تردى هو نفسه، بعد، فى مهاوى الإدمان الذى ذهب بنضرته وعجل وفاته.

وواصل صفى - الذى تسمى بسليمان عند ارتقائه العرش سنة ١٦٦٧ - سياسة التسامح التى وضعها أبوه ولكنه كان كأبيه مدمنا على الخمر، وكان فى ساعات سكره كثيرا ما ينزلق إلى أعمال همجية يصب جامها على أفراد حاشيته. أما أبنه السلطان حسين، الذى خلفه سنة ١٦٩٤ فكان منحطا ضعيفا. ولقد وكل شئون الدولة كلها إلى رجال الدين من الشيعة فأساءوا اصطناع السلطة وأمعنوا فى التنكيل فى مواطنيهم من أهل السنة. وكان الملا محمد باقر مجلسى أشد رجال الدين هؤلاء على الصوفية، فاضطهدهم بشدة عمياء. وسنرى بعد كيف أدى ذلك إلى سقوط السلالة الحاكمة، وانتقال السلطة إلى الأفغانيين.

وفى عام ١٧٠٩ تمرد الأفغان السنيون وتمكنوا من إلحاق الهزيمة أكثر من مرة بالقوات الفارسية الرديئة القيادة التى أرسلت لقمعهم. بل ونجحوا فى الاستيلاء على إصفهان وأرغموا الشاه على الفرار والهرب. وسيطر الأفغان على جزء من البلاط فقط واستمرت الغالبية العظمى من الشعب تدين بالولاء للصفاويد.

وأصبحت بلاد فارس فى حالة من الضعف الشديد. وكان بيتر الأكبر قيصر روسيا يسعى منذ فترة طويلة إلى إنشاء طريق تجارى يؤدى إلى الهند عبر بحر قزوين Caspian Sea والأراضى الواقعة وراءه. فقام بغزو بلاد فارس فى عام ١٧٢٢ زاعما أن هجمات قد وقعت على بعض التجار الروس فى شمال الفرس أثناء تمرد قبلى. وقد أدى هذا الأجراء إلى إثارة ذعر الأتراك العثمانيين فبادروا على الفور إلى غزوْ بلاد الفارس بهدف منع روسيا من الاستيلاء على أراضى تقع على حدودهم. وتم تجنب نشوب الحرب بين روسيا وتركيا من خلال التسوية التى تمت فى عام ١٧٢٤ والتى وافق الطرفان بمقتضاهما على تقسيم الأماكن الشمالية والغربية لبلاد فارس بينهما وترك باقى الأراضى للمغتصبين الأفغان المتواجدين فى أواسط البلاد وترك الأماكن المتواجدة فى الشرق للصفاويد. ولذلك كانت الضغوط الروسية من الملامح الدائمة المتعلقة بالتواجد الفارسى.

وفى عام ١٧٢٩ تم إعادة الصفاويد إلى العرش. ولم يتم ذلك الا من خلال المساعدة التى قدمها نادر قولى بيج Nadir Beg quil وهو حد أعضاء

قبيلة Asfar. وكان فيما سبق زعيما لعصابة من اللصوص ولكنه أصبح بعد ذلك جنرالاً عسكرياً عبقرياً. وفي عام ١٧٣٦ أطاح بالشاب شاه عباس الثالث منهياً بذلك فترة حكم أسرة الصفاويد. وتربع على عرش البلاد ومنح نفسه لقب: نادر شاه.

وقبل أن يصعد نادر شاه إلى العرش فإنه كان قد نجح من خلال مهاراته العسكرية في إرغام الأتراك العثمانيين والروس على التخلي عن الأراضي التي سبق أن استولوا عليها بقوة. كما تمكن من استعادة كانداهار من الأفغان. وبذلك يكون قد استعاد كافة الحدود السابقة لبلاد الفرس. ولكن هذا الرجل الشديد الطموح لم يقنع بكل هذه الإنجازات الهائلة. فتحول بجيوشه إلى جهة الشرق لكي يغزو الهند التي كانت تحكمها أسرة المغول Magul الحاكمة والتي كانت غارقة في الفساد والاضمحلال ولكنها كانت لا تزال شاسعة الثراء والغنى وتمكن من عبور ممر خيبر الحصين وألحق الهزيمة بالإمبراطور المغولي محمد شاه. وفي مارس ١٧٣٩ دخل دلهي في انتصار. وكانت الغنائم على نطاق هائل. ولقد أشار مؤرخ هندي إلى "أن الثروات المتراكمة على مدى ٣٤٨ عاما انتقلت ملكيتها في لحظات" وكان من بين الغنائم التي تم الاستيلاء عليها عرش الطاووس الذي نقله نادر إلى بلاد الفرس حيث استخدم في تتويج الحكام الذين حصلوا على لقب الشاه في المستقبل.

لقد نجح نادر في إنجاز الأمور التي فشل في تحقيقها الاسكندر الأكبر من قبل. ولكنه لم يحاول الاحتفاظ بالهند حيث أعاد معظم أراضي محمد شاه إليه واحتفظ فقط بالأقاليم الواقعة على الضفاف الجنوبية لنهر الهندوس والتي كانت تابعة للإمبراطورية الفارسية في عهد داريوس الأكبر.

وظل يموج بالرغبة الشديدة في تحقيق المزيد من الفتح والغزو. فتحول إلى الولايات الأربكستانية بإقليم التركستان الواقعة في الشمال الشرقي واستولى على سمرقند وبخارى. وتوغل في القوقاز لكي يوقف زحف الروس المتقدمين. وبحلول عام ١٧٤٠ نجد أنه قد استعاد حدود بلاد الفرس وتوسع فيها بل وتمكن من تدعيم بلاده عسكريا وخلق منها قوة حربية هائلة. إلا أن عبقريته كانت تقتصر على النواحي العسكرية فقط حيث لم يهتم بخلق شئون اداريه بالإمبراطورية تتسم

بالكفاءة والعدالة. إذ كان بونابرت فارسى بدون دستور نابليونى. وكان يتصف بالقسوة والخشونة وكان يموج بالشكوك والهواجس مما جعل رعاياه يشعرون بالكراهية نحوه. وعندما اغتيل فى عام ١٧٤٧ على أيدى مجموعة من الضباط التابعين له لم يحزن عليه سوى عدد قليل للغاية. وشهدت البلاد حوالى خمسين عاما من الفوضى النسبية بسبب التنازع على العرش بين عدد من المتنافسين المطالبين به. وفى عام ١٧٩٤ تمكن أغا محمد زعيم قبائل القاجار qajar من إلحاق الهزيمة بأعدائه وجعل من نفسه شاهاً على البلاد. وعلى الرغم من أنه كان خصيا [حيث تم تحويله إلى خصى عندما وقع فى الأسر أثناء شبابه] إلا أنه أصبح مؤسس أسرة القاجار الحاكمة التى استمرت فى الحكم حتى عام ١٩٢٥. وأتخذ من مدينة طهران عاصمة له عقب الاستيلاء عليها. وبعد أن تم اغتياله فى عام ١٧٩٧ صعد إلى الحكم فتح على Fath Aly ابن أخيه الذى ظل يحكم البلاد حتى عام ١٨٣٤.

وبحلول بداية القرن التاسع عشر كانت عزلة الفرس الطويلة عن الغرب قد انتهت. لأن الإمبراطورية العثمانية التى كانت بمثابة حاجز لحماية الفرس من الغرب رغم مشاعرها العدائية إزاء الفرس قد أصبحت فى حالة من التدهور الشديد الذى يتعذر إيقافه. وكانت بريطانيا مستحوذة على الهند وكان أسطولها البحرى مسيطراً على مياه الخليج الفارسى. كما أن الإمبراطورية الروسية كانت مستمرة فى توسعاتها الاستعمارية الكبيرة نحو الشرق فى داخل آسيا وهى التوسعات التى كانت قد بدأت فى عهد بطرس الأكبر. وأصبحت الفرس طوال فترات القرن التاسع عشر واقعة تحت الضغوط الشبيهة بالكماشة التى تمارسها هاتان الدولتان الكبيرتان.

إلا أن فرنسا - وخاصة الطموحات الكبيرة لنابليون بونابرت - هى التى كان لها تأثير كبير فى إدخال الفرس فى فلك السياسات الأوربية. فبعد أن فشل نابليون فى محاولته الرامية إلى استخدام مصر كنقطة انطلاق للهجوم على البريطانيين فى الهند نجد أنه وضع خطة فى عام ١٨٠٠ لغزو الهند عن طريق أفغانستان من خلال التحالف مع بول قيصر روسيا. وعلى الرغم من أن هذه الخطة

لم تكن متسمه بالطابع العملى إلا أنها أثارت الذعر الشديد بين الحكام البريطانيين فى الهند. وتعرضت هذه الخطة للإجهاض بسبب اغتيال القيصر بول فى عام ١٨٠١. إلا أن التهديد الفرنسى ظل قائما ومستمرا. وعندما تمكن الروس الزاحفون من ضم مقاطعتين من جورجيا ثم أعلنوا الحرب على الفرس فى عام ١٨٠٥ وتمكنوا من الاستيلاء على دربنت Derbent وباكو Baku استغاث فتح بفرنسا لكى تقدم له يد العون والمساعدة. وتم التوقيع على معاهدة فنكنشتاين Finken stein الفرنكو / فارسية فى عام ١٨٠٧ والتى تنص على تعهد بونابرت باستعادة الأراضى التى استولت عليها روسيا. ولكن بونابرت بادر على الفور إلى عقد اتفاقية سلام مع القيصر الكساندر. وبذلك تركت بلاد الفرس لكى تواجه روسيا بمفردها.

وبمقتضى اتفاقية جولستان لعام ١٨١٣ والتى أنهت حربا مينوسا منها تنازلت الفرس عن جورجيا وباكو وأراضى أخرى لصالح روسيا. ورغم ذلك لم يتوقف الصراع: إذ ظل النزاع قائما بشأن ثلاثة مناطق واقعة على الحدود. وعندما قامت روسيا باحتلال تلك المناطق فى ظلم واستبداد فى عام ١٨٢٧ اضطر شاه إيران تحت ضغوط الرأى العام المتفجر بالغضب لإعلان الحرب على روسيا. وحقق الفرس سلسلة من الانتصارات فى بادئ الأمر ولكن الحرب انتهت على نحو مأساوى فى حجم الكارثة بالنسبة لبلاد الفرس. وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو أن الشاه رفض إعطاء الرواتب الشهرية لجنوده أثناء فصل الشتاء. وبمقتضى معاهدة تركمان لعام ١٨٢٨ المتسمة بالإذلال تخلت الفرس عن كافة مطالبها فى جورجيا وغيرها من الأراضى الأخرى التى فقدت فى الحرب السابقة. بل والتزمت بتسديد تعويضات مالية هائلة علاوة على موافقتها على منح حقوق وامتيازات خارجية فى نطاق التشريع الوطنى [شبيهة بالامتيازات العثمانية] للمواطنين الروس المقيمين فى الأراضى الفارسية. وكانت هذه المعاهدة بالإضافة إلى معاهدة تجارية أبرمت فى نفس الوقت وتنص على حرية التجارة بين روسيا والفرس بمثابة الأساس الذى ارتكزت عليه العلاقات المستقبلية بين فارس ودول أوربية أخرى.

وكان الاهتمام الرئيسى لبريطانيا فى هذه المنطقة فى أوائل القرن التاسع عشر هو الإبقاء على أفغانستان من حيث هى حاجز أمام الطموحات الفرنسية والروسية المتجهة نحو الهند. وفى عام ١٨٠٠ أرسلت بريطانيا بعثة إلى بلاد الفرس وهى أول بعثة منذ عهد الملك تشارلز الثانى. وكانت هذه البعثة برئاسة شاب إسكتلندى وهو الكابتن مالكول. وكانت تهدف إلى إقناع الشاه بالسيطرة على أمير كابول الأفغانى الطموح بهدف إحباط أية مخططات يقوم بها الفرنسيون أو الروس علاوة على إبرام معاهدة سياسية وتجارية مع الفرس. وحققت هذه البعثة نجاحا كبيراً. ولكن المعاهدة ألغيت فى عام ١٨٠٧ عندما رفضت بريطانيا تقديم يد العون والمساعدة ضد العدوان الروسى على الحدود الشمالية الغربية لبلاد الفرس إلا أن الاهتمامات البريطانية ظلت باقية. ففى عام ١٨١٤ تم التوقيع على معاهدة أخرى وافق بمقتضاها الشاه على عدم التوقيع على معاهدات أو التعاون عسكريا مع دول معادية لبريطانيا وفى مقابل ذلك تحصل بلاد الفرس على إعانه مالية حكومية قدرها ١٥٠ ألف جنيه إسترلينى سنوياً وبشرط أن تلغى هذه الإعانة بالفعل فى عام ١٨٢٧ عندما اتضح أن الفرس هى التى شنت العدوان من الناحية الفنية فى حربها المهلكة الثانية مع روسيا.

وعندما انتقل فتح على إلى رحمة اله صعد إلى العرش حفيده محمد شاه [١٨٣٤-١٨٤٨] . وكان هذا الشاه الشاب مصمما على احراز الشهرة من خلال استعادة بعض الأراضى التى سبق أن فقدها الفرس. وكان يتسم بالحكمة والاتزان لأنه أدرك أنه ليس بمقدوره أن يفعل أى شئ إزاء إيقاف موجة الاستعمار الروسية المتوغلة فى أرجاء التركستان والتى توقفت بصفة مؤقتة بسبب نشوب حرب القرم ثم استؤنفت فى قسوة بالغة خلال منتصف القرن التاسع عشر. ولذلك نجد أنه - وبتشجيع من روسيا - قد تحول نحو الشرق بهدف محاولة فتح إقليم حيرات الذى يقع فى شمال غرب أفغانستان والأراضى الواقعة وراءه. شعرت بريطانيا بالقلق والذعر. ففرنسا لم تعد تشكل خطورة على الهند ولكن سياسة روسيا التوسعية هى التى أصبحت تشكل تهديداً خطيراً للغاية. وكانت المعاهدة الروسية / الفارسية لعام

١٨٢٨ قد أعطت للروس الحق فى تعيين قناصل فى جميع أرجاء الأراضى الفارسية. وقامت بريطانيا بتقديم المساعدة لحكام حيرات. ومارست ضغوطا على الشاه من خلال احتلال جزيرة خرج Kharq بالخليج العربى. فاضطر محمد شاه إلى إلغاء الحصار المفروض على حيرات.

واتبع ناصر الدين شاه الذى تولى الحكم بعد والده محمد فى عام ١٨٤٨، وهو فى سن السابعة عشرة والذى ظل يحكم البلاد على مدى ٤٨ عاما نفس السياسة الرامية إلى محاولة استعادة الأراضى الواقعة فى جهة الشرق بتشجيع من الروس. فاحتجت بريطانيا وفرضت معاهدة على الفرس تعهد الشاه بمقتضاها الابتعاد عن التدخل فى شئون أفغانستان. وعندما تمكن ناصر الدين فى عام ١٨٥٦ – على الرغم من النصوص الواردة فى المعاهدة – من السيطرة على حيرات من خلال تعيين حاكم أفغانى موالى له على حيرات قامت بريطانيا على الفور بالاستيلاء على جزيرة خرج ثم أنزلت قوات عسكرية بالقرب من بوشير Bushire وتقدمت هذه القوات فى الأراضى الداخلية وهزمت جيشاً فارسياً قوياً. ثم انسحب البريطانيون بعد ذلك وأبحروا فى الممر المائى لشط العرب عند رأس الخليج لكى يستولوا على ميناء محمرية Mohammereh. والانسحاب من حيرات والاعتراف رسمياً بمملكة أفغانستان.

وفى خلال السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر استكملت روسيا غزوها لأواسط آسيا وأصبحت لها حدود مشتركة مع بلاد الفرس من الجهة الشمالية الشرقية والجهة الشمالية. وكانت الحدود المشتركة التى يبلغ طولها ١٢٠٠ ميل تمتد من جبل أرارات وحول بحر قزوين إلى الحدود مع أفغانستان. ونظراً لأن بلاد الفرس كانت تدرك جيداً أنها ضعيفة وعاجزة أمام القوى الروسية فإن وسيلتها الوحيدة فى مقاومة الضغوط الروسية كانت تتمثل فى السعى للحصول على المساندة من بريطانيا وقد تطلب هذا منح مجموعة متتالية من التنازلات لصالح الشئون التجارية البريطانية.

وطوال القرن التاسع عشر كان الحكام الفرس يمارسون حكما مطلقا استبدادياً مع قدر قليل من التحكم في النفوذ الشخصي الخاص بهم. وكانت القبائل البدوية والتي تشكل حوالي ربع العدد الإجمالي للسكان وتسكن في المناطق الجبلية الواقعة على طول الحدود الشرقية والغربية لبلاد فارس هي فقط التي تحتفظ بدرجة من الاستقلال وتنظر إلى النظام الملكي في شئ من الاحتقار والازدراء. وكانت الغالبية العظمى من باقي السكان يتألفون من فلاحين أميين يعشون في مستوى معيشي منخفض للغاية في قرى صغيرة مليئة بالأكواخ المصنوعة من الطين. وعلى الرغم من أنهم كانوا أحراراً من الناحية القانونية إلا أنهم من الناحية العملية كانوا مرتبطين بالأرض. وكان معظم كبار ملاك الأراضي الإقطاعيين [والذين كانوا يقيسون ثرواتهم بعدد القرى التي يمتلكونها] يعيشون بعيداً عن الأماكن الريفية ويسكنون في المدن الكبيرة ويكلفون مندوبا عنهم لكي يدير شئون القرى التابعة لهم. وعلى الرغم من ثرواتهم الهائلة ونفوذهم الكبير بين طبقات الفلاحين فإنهم لم يشكلوا طبقة اجتماعية إقطاعية متماسكة بحيث تكون قادرة على تحدي الحكم المطلق للعرش. ونظراً لأن الشاه يعتبر هو المالك الحقيقي لكافة الأراضي فإنه لم يكن يتردد في مصادرة ممتلكات أي إقطاعي عندما يكون في حاجة للحصول على أموال.

ولم يكن يوجد في بلاد فارس طبقة برجوازية أو مهنية على غرار الطراز الأوربي. وفي بلاد فارس الشيعية نجد أن طبقة رجال الدين التي تتألف من الملا وتضم مجموعة من المجتهدين المتفقهين في الشريعة الإسلامية، كانت أكبر حجما من طبقة العلماء الدينيين المتواجدة في الإسلام السني. ولكن على الرغم من نفوذها بين جماهير الشعب فإنها نادراً ما كانت تتحدى السلطة المتربعة على العرش. أما الطبقة التي تعتبر أقرب ما تكون إلى الطبقة المتوسطة فكانت تتألف من البازاريين أو التجار الذين يتراوحون ابتداء من الباعة الجائلين إلى مصدري السجاجيد والأقمشة الأغنياء حيث كانت السجاجيد والأقمشة بمثابة البضائع

الوحيدة المصنعة عند الفرس. ولكن نظراً لأن هذه الطبقة كانت غير متحدة وغير متماسكة فإن نفوذها السياسى كان محدوداً للغاية.

وكانت أخطر التحديات للشيه [جمع شاه] تجئ من زعماء الطوائف الدينية. ففى الأربعينات من القرن التاسع عشر تفجرت ثورة بقيادة أغان خان الزعيم الروحى للطائفة الإسماعيلية ثم تفجرت ثورة أخرى على أيدى حركة بابى Babi التى أنشأها ميرزا على محمد الذى هو نجل تاجر شيرازى والذى أعلن عن نفسه – عقب تأديته فريضة الحج فى مكة – أنه الباب المؤدى إلى الحقيقة الإلهية. وانتشرت حركته وأصبحت قوية للغاية حتى أن ناصر الدين وشاه قد اضطر فى عام ١٨٥٠ إلى إصدار أوامره بإعدامه. وبعد مرور عامين حدثت بابية لاغتيال الشاه فأدى ذلك إلى الاضطهاد الشديد لهذه الطائفة مما جعل معظم المتبقين على قيد الحياة يهربون إلى خارج البلاد. إلا أن فرعاً من ذرية البابيين – وهم البهائيون – استمروا فى التواجد فى داخل بلاد الفرس. ولم يكن البهائيون يشكلون أى تهديد على أى شاه فى بلاد الفرس إلا أن الشكوك والهواجس كانت تحوم دائما حولهم.

وكانت أقرب حركة شبيهة بحركة إصلاح فى بلاد الفرس. ولم يكن البهائيون يشكلون أى تهديد على أى شاه فى بلاد الفرس فى القرن التاسع عشر هى تلك التى أنشأها ميرزا تقى خان Mirza Taqi Khan الوزير القدير الأمين الذى عينه الشاب ناصر الدين لدى صعوده إلى العرش فى البلاد. وكن ميرزا معجباً بإصلاحات "التنظيمات" التى طبقت فى تركيا العثمانية فقام بإقناع الشاه بإعادة تنظيم وتدعيم القوات المسلحة والحرص على دفع رواتب الجنود بطريقة سليمة والكف عن بيع الألقاب والناصب الكبيرة وغير ذلك من المفاسد الأخرى المختلفة. وكان هو المسئول أيضاً عن إنشاء دار الفنون فى طهران وتأسيس أول جريدة فارسية. إلا أن الإصلاحات لم تستمر سوى لفترة قصيرة. إذ قامت الأم الرهيبة للشاه بإقناعه بأن تقى خان قد اصبح متمتعاً بنفوذ هائل للغاية وعندئذ أصدر الشاه ناصر الدين أوامره بإعدامه.

وعلى الرغم من تصرفات الشاه المتسمة بالقسوة إلا أنه كان بوجه عام حاكماً متسماً بالطابع الإنساني. ولكن ميوله الليبرالية والإصلاحية والتي كان يشجعه عليها تقي خان لم تستمر. إذ بدأ يقع تحت تأثير فشل الحركة الدستورية في تركيا العثمانية وعودة عبد الحميد الثاني بسرعة إلى الحكم الأوتوقراطي في عام ١٨٨٧. وفي السنوات الأخيرة من حكمه كان يحكم بنفس الطابع الاستبدادي الذي كان يسير عليه الحكام السابقون عليه. وكانت أهم إنجازاته تتمثل في ترسيخ الأمن والأمان في جميع أرجاء الإمبراطورية الفارسية. وكان يوجد هناك قدر ضئيل للغاية من التحديث المتمثل في الطرق المرصوفة والتلغراف الكهربائي [الذي تم إنشاؤه بمعرفة شركة التلغراف الهندية / الأوربية التي كانت تعمل نيابة عن الحكومة البريطانية في الهند لصالح خدمة الأغراض الإمبريالية]. وكانت دار الفنون بطهران تدرس العلوم والهندسة وفق المناهج الحديثة. وكما كان هناك بعض التقدم في طبع ونشر الصحف والجرائد والكتب. ولكن بوجه عام كانت أنظمة الشئون الإدارية والتعليم والعدالة [والتي كانت تطبق كلا من قوانين الشريعة الإسلامية والقوانين العرفية التي كانت سائدة في بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام] مازالت متسمة بطابع العصور الوسطى. وكان الشاه يستمتع بالسفر في رحلات إلى لأوربا ولكنه كان يمنع تعليم أبناء الطبقة العليا الفارسية في الخارج لكي لا يتأثروا بعدوى من الأفكار والآراء الغربية.

وكان الشاه وأفراد حاشيته متسمين بالتبذير وكثرة المطالب. ولكي يحمي الشاه عرشه فإنه كان يحتفظ بعدد كبير من القوات المسلحة الرئيسية التي كانت باهظة التكاليف على الرغم من أنها كانت تحصل على مرتبات منخفضة للغاية بالإضافة إلى أنها كانت فاسدة وعديمة الكفاءة. ونظراً لأنه لم يكن يوجد هناك سوى قدر ضئيل للغاية من النمو أو التنمية الاقتصادية كما كانت العائدات من وراء بيع المناصب الحكومية ضئيلة فإن الدخل الحكومي كان يصل إلى مستوى الحد الأدنى.، ولذلك بدأ الشاه في اللجوء إلى منح الامتيازات للمصالح الأجنبية. وكان أشهر تلك الامتيازات هو ذلك الامتياز الذي منح للبارون جوليوس دي رويتر وهو

من الرعايا الحاصلين على الجنسية البريطانية فى عام ١٨٧٣. وكان ذلك الامتياز يغطى كل مساحة بلاد الفرس. وكان ينص على منح البارون احتكاراً لمدة سبعين عاماً فى مجال إنشاء وتشغيل كافة السكك الحديدية الفارسية وكافة (الترام واى) بالشوارع الفارسية علاوة على استغلال كافة الموارد المعدنية والغابات الحكومية بما فى ذلك الأراضى غير المستصلحة بالإضافة إلى منحة حرية الاختيار فيما يتعلق بالمشروعات المستقبلية المرتبطة بإنشاء الطرق البرية والتلغرافات والمطاحين والمصانع والورش والأشغال العمومية على اختلاف أنواعها وأشكالها. وكذلك منحه الحق فى تحصيل كافة الرسوم الجمركية الفارسية على مدى ٢٥ عاما. وفى مقابل ذلك يتعين على دى رويتر أن يسدد للحكومة الفارسية ٢٠٪ من أرباح السكك الحديدية + ١٥٪ من أرباح كافة الموارد الأخرى. ولقد أشار اللورد كورزون Curzon إلى أن ذلك الامتياز يعتبر بمثابة "تسليم كامل وغير طبيعى للغاية لكافة الموارد الصناعية فى دولة ملكية إلى أيدى أجنبية على نحو يفوق كافة التخيلات وعلى نحو لم يحدث فى تاريخ البشرية من قبل ".

وفى سذاجة اعتقد الشاه أنه قد ضمن بذلك الحصول على بعض العائدات علاوة على تكليف بريطانيا بمهمة تنشيط الاقتصاد فى بلاده. وصدرت عن روسيا ردود فعل غاضبة للغاية فاضطر الشاه إلى إلغاء ذلك الامتياز، إلا أن الضغوط البريطانية أرغمته فى عام ١٨٩٩ على أن يمنح امتيازاً محدوداً بعض الشئ مما أدى إلى تمكين دى رويتر من إنشاء البنك الإمبريالى الفارسى مع إعطاء ذلك البنك الحق فى إصدار أوراق البنكنوت الخاصة به علاوة على الحق فى التنقيب عن البترول.

وبسبب رغبة ناصر الدين فى إخضاع موارد بلاده للرهن بهذه الطريقة المخزية فإنه فقد شعبيته فى سنواته الأخيرة. وبدأت تظهر فى الأفق حركة إصلاحية ليبرالية. وعلى الرغم من أن بلاد الفرس كانت منعزلة عن الغرب أكثر من تركيا العثمانية إلا أنه كان هناك بعض تغلغل للأفكار والطرائق الغربية من خلال البعثات العسكرية الأجنبية موظفى القنصليات والبنوك ومن خلال البعثات التبشيرية

المسيحية التى سمح لها بإنشاء المدارس والمستشفيات، وكان لحركة الإصلاح حافز آخر أكثر قوة وفعالية قادم من مصدر آخر: إلا وهو المصلح الاجتماعى المروج لأفكار نظرية الجامعة الإسلامية الشاملة Pan-Islam جمال الدين الإفغانى. وكان الشاه شديد الإعجاب بالمقالات التى يكتبها الإفغانى أثناء تواجده فى المنفى بباريس. فقام فى عام ١٨٨٦ بتوجيه الدعوة له للمجيئ إلى فارس حيث أصبح عضواً مبجلاً فى المجلس الملكى الفارسى. ولكن الإفغانى سرعان ما شرع فى إلقاء الخطب والمواعظ المليئة بالأفكار الثورية مما أدى إلى شعور الشاه ووزرائه بالذعر والانزعاج. وفى عام ١٨٩٠ قاد الإفغانى الاستنكار الشعبى الذى يشجب منح امتياز للتبغ لمجموعة من رجال الأعمال البريطانيين فأدى ذلك إلى نفيه وإبعاده عن فارس. ولكن حركة جمال الدين الإفغانى ظلت ضاربة بجذورها فى المجتمع الفارسى. وفى عام ١٨٩٦ قام أحد تلاميذ الإفغانى باغتيال ناصر الدين.

وتعاظمت حركة الإصلاح أثناء فترة حكم الإبن المريض الضعيف لناصر الدين والذى يسمى مظفر الدين والذى كان يفوق والده فى الإسراف والتبذير. وظهر زعيم إصلاحى جديد وهو مالكوم خان السفير الفارسى لدى لندن الذى قاد حملة ضد رئيس وزراء الشاه. وعندما طرد من منصبه قام بإصدار جريدة "القانون" ودعا إلى شن مجموعة من القوانين المحددة وتشكيل برلمان. وعلى الرغم من فرض حظر على هذه الجريدة فى داخل بلاد فارس فإنها كانت تتداول على نطاق واسع فى جميع أرجاء البلاد.

وفى عام ١٩٠٣ قام الشاه بتعيين زوج أبنته الأمير عين الدولة الذى يتميز بالكفاءة العالية رغم أنه رجعى للغاية لكى يضطلع بمهمة الإشراف على الشئون الحكومية. فأثارت تصرفاته وأعماله المزيد فى المعارضة ووصلت الأمور إلى ذروتها فى عام ١٩٠٥. إذ اعتصم فى إحدى مساجد طهران مجموعة من التجار الساخطين بسبب التبذير والإسراف والفساد المستشرى فى البلاط الملكى وبسبب غرق الدولة فى المزيد من الديون مما دفع الحكومة إلى إدخال تعريفات جمركية جديدة مرهقة. وكانوا يهدفون من وراء اعتصامهم بالمسجد إلى التعبير عن احتجاجاتهم

وفقا للأسلوب القديم المتبع في مثل هذه الأحوال. ثم أنضم إليهم بعض كبار الشخصيات الدينية البارزة [الملا] وعندما وعد الشاه بتلبية بعض مطالبهم ثم راوغ بعد ذلك ولجأ إلى تشديد القمع والكبت اعتصمت مجموعة أكبر تضم العديد من الوجهاء والتجار وأصحاب البنوك ورجال الدين في ساحة دار المفوضية البريطانية للتعبير عن إصرارهم على ضرورة وضع مجموعة قوانين تشريعية بل والمطالبة لأول مرة بوضع دستور للبلاد. وفي أكتوبر ١٩٠٦ أذعن الشاه واستجاب لهذه المطالب على مضض شديد بعد أن أصبح في حالة صحية متدهورة للغاية. وتم توجيه الدعوة إلى عقد اجتماع للبرلمان وتم إعداد مشروع للقانون الأساسي للدستور.

وسميت هذه الحركة بـ "الثورة الدستورية". وتلقت التأييد من الأمة كلها وأصبحت من الأحداث البالغة الأهمية في التاريخ الفارسي. وحاول الملوك الذين جاءوا بعد ذلك إبطال الدستور. ولكن لم يحرز أي واحد منهم أي نجاح كامل. ولذلك ظل شكل ما من أشكال الحكومة الدستورية النيابية قائماً ومتواجدًا حتى يومنا هذا.

وحصل الدستوريون على بعض الإلهام من المحاولة التي قام بها نظراؤهم الروس في عام ١٩٠٥ لإنهاء الحكم الأوتوقراطي للقيصر. كما جاء حافز من نوع مختلف من الحرب الروسية / اليابانية التي تفجرت في نفس تلك السنة والتي تمكنت فيها لأول مرة دولة آسيوية متخذة الطرائق العصرية من إلحاق الهزيمة بإحدى الدول الأوربية العظمى إلا وهي روسيا القيصرية. [وكانت تلك الحرب أيضا بمثابة الهام للزعيم الوطني المصري مصطفى كامل في نفس تلك الفترة]. ولكن حركة الإصلاح كان لها طابع فارسي قوي متميز وذلك من خلال اتسامها بالمزج بين النواحي الدينية والعلمانية.

وصعد إلى العرش بعد مظفر الدين - في عام ١٩٠٧ - أبنه محمد على الذي حكم البلاد لمدة سنتين فقط وسط قلاقل واضطرابات مستمرة. وأعطى وعودا متكررة - مثل والده تماما - بالموافقة على الإصلاحات ولكنه تجاهل الالتزام بوعوده. وبذل محاولات من أجل حل المجلس [البرلمان] ولكنه فشل

في ذلك. فاضطر إلى قصف مبنى البرلمان بالقنابل مما أدى إلى سقوط العديد من النواب بين قتيل وجريح. وأدى هذا الحدث الخطير إلى تفجر ثورة هائلة في تبريز. وعجزت قواته عن إخماد تلك الثورة. وتدخلت القوات الروسية على رغم أنها تهدف إلى حماية رعاياها الروس المتواجدين في بلاد الفرس. واستجمعت القوات الوطنية قواها وزحفت على طهران. ولم يتمكن الشاه من مقاومة الثورة. وهرب إلى دار المفوضية الروسية. وبعد أن ذهب إلى المنفى في روسيا اتخذ المجلس [البرلمان] قراراً بأن يحل محله أكبر أبنائه أحمد ميرزا البالغ من العمر أحد عشر عاما. وكانت المشاعر الشعبية قد أثيرت ليس فقط بسبب تصرفات الشاه وأعماله ولكن أيضا بسبب الاتفاقية الأنجلو / روسية المبرمة في أغسطس ١٩٠٧ والتي تهدف إلى تسوية كافة نقاط الخلاف الرئيسية بين روسيا وبريطانيا فيما يتعلق بفارس وأفغانستان. حيث كانت روسيا وبريطانيا تتوقعان الدخول في صراع مرتقب مع ألمانيا الإمبريالية وتتوقعان دخول تركيا العثمانية في تحالف مع ألمانيا. وقد نصت تلك الاتفاقية على تقسيم بلاد فارس إلى مناطق نفوذ روسية وبريطانية بحيث تأخذ روسيا الأماكن الشمالية والوسطى وتأخذ بريطانيا المناطق الواقعة في الجنوب الشرقي مع الإبقاء على المنطقة المتبقية بالجنوب الغربي لتكون منطقة "محايدة". وتفجر الرأي العام الفارسي في ثورة غاضبة عندما تم الإعلان عن نصوص هذه المعاهدة. وكان هناك اعتقاد سائد بأن بريطانيا بصفة خاصة قد تعاطفت مع الثورة الدستورية الفارسية. ثم اتضح أن المصالح الإستراتيجية للدول الكبرى الأوربية لا تهتم على الإطلاق بالشعب الفارسي. وبدأ الشعب الفارسي ينظر إلى روسيا وبريطانيا على أنهما دولتان استعماريتان تسعيان إلى تدمير واستقلال بلاد الفرس.

وقد يقال أن مكاسب بريطانيا من وراء اتفاقية عام ١٩٠٧ تعتبر ضئيلة للغاية نظرا لأن المناطق الجنوبية الشرقية من فارس تتألف معظمها من أراض صحراوية. ولكن المصالح البريطانية في فارس كانت بصدد الحصول على تشجيع وعون هائل. وصحيح أن دي رويتر قد ألغي امتياز التعدين الخاص به عقب مرور سنتين

نظراً لفشله فى العثور على البترول. ولكن فى عام ١٩٠١ قام الشاه مظفر الدين بمنح الإنجليزى وليام كنوكسى دارسى امتيازاً للبترول والغاز لمدة ستين عاما يغطى كافة أرجاء الإمبراطورية الفارسية، وكانت الحكومة البريطانية قد حاولت أن تكسب التأييد لصالح دارسى من خلال دار المفوضية بطهران. والتزم رئيس الوزراء الفارسى الذى نجح البريطانيون فى كسبه لصفهم بإخفاء أنباء هذه الصفقة عن الروس إلى أن تم التوقيع عليها.

وراح دارسى يبحث عن البترول على مدى سنوات عديدة بدون أن يتمكن من إحراز أى نجاح إلى أن قاربت اعتماداته المالية على النفاذ. فبدأ يجوب العالم بحثاً عن مستثمرين جدد. وفى هذه المرحلة تدخلت امارة البحر البريطانية. وكان أمير البحر الديناميكى المتفتح الذهن الأميرال جون فيشر قد منذ فترة طويلة بأنه ينبغى أن تحول البحرية البريطانية سفنها من استخدام الفحم إلى استخدام البترول. لأن ذلك من شأنه أن يزيد من كفاءاتها القتالية بنسبة ٥٠٪ إلا أن ٩٠٪ من بترول العالم فى ذلك الوقت كان يتم إنتاجه فى أمريكا وروسيا والباقى كان مغطى بالفعل من خلال الامتيازات والحقوق الممنوحة. وكان سوق البترول العالمى واقعاً تحت سيطرة شركة ستاندر أويل وشركة شل الهولندية الملكية. وكان من الضرورة للغاية العثور على مورد مستقل تحت السيطرة البريطانية. وفى عام ١٩٠٥ قامت إمارة البحر بإقناع شركة بورماه البريطانية للبترول بأن تتحد مع دارسى وتقدم اعتمادات مالية جديدة. وفى عام ١٩٠٨ وبينما كان المهندسون التابعون لدارسى على وشك الكف عن التنقيب بسبب اليأس من العثور على البترول فإنهم بدءوا فى التنقيب فى واحد من أكبر آبار البترول فى العالم فى منطقة مسجد سليمان الواقعة فى جنوب غرب بلاد الفرس . وتكونت شركة البترول الانجلو / فارسية. وبيعت أسهم وأنصبة للجماهير الفارسية المتفجرة بالحماس.

ولكن كانت لا تزال هناك بعض المشاكل. فحقول البترول لم تكن واقعة ضمن منطقة النفوذ البريطانية وإنما كانت واقعة فى المنطقة المحايدة. وكان

الشيخ العربى شبه المستقل الذى يحكم منطقة محمرية، يعتبر هذه المنطقة أراض خاصة به وتابعة له.

كما أن القبائل المتجولة الغازية كانت تشكل تهديداً على خطوط الأنابيب اللازمة لتصدير البترول إلى الخليج. ولذلك قامت بريطانيا بالتوقيع على اتفاقية تعترف فيها بأن الشيخ وخلفائه هم الحكام الشرعيون على منطقة محمرية فى مقابل السماح لبريطانيا بتأجير الأراضى سنويا. وتعهد الشيخ بتوفير الحماية للمنشآت البترولية.

وفى عام ١٩١١ أصبح الشاب ونستون تشرشل يشغل منصب اللورد الأول لامارة البحر فى حكومة الليبراليين ببريطانيا. وتم البدء فى برنامج ضخم للتنمية البحرية باهظ التكاليف لفترة ثلاث سنوات. وعلاوة على الأهمية الاستراتيجية الحيوية لبلاد الفرس بالنسبة للإمبراطورية البريطانية فإن البترول الفارسى كانت له أهمية عسكرية حاسمة. وفى يونيو ١٩١٤ وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى بشهرين فقط عرض تشرشل على مجلس العموم البريطانى اتفاقية تنص على أن الشركة الأنجلو / فارسية سوف تضمن إمدادات البترول على مدى عشرين عاما، بينما تقوم الحكومة البريطانية بشراء حصة أسهم فى الشركة [سميت الشركة فيما بعد باسم شركة البترول الأنجلو / إيرانية ثم سميت فى نهاية الأمر باسم [شركة البترول البريطانية] فى مقابل ٢.٢ مليون جنيه إسترلينى. وعلى الرغم من شكوك بعض الأعضاء فى أن ذلك من شأنه أن يثير سخط الروس ويزيد من ضعف الحكومة الفارسية فقد تم إقرار هذه الاتفاقية بأغلبية ساحقة. وأشار تشرشل فيما بعد إلى أن الاستثمار قد جلب مدخرات قدرها ٤٠ مليون جنية إسترلينى وقدم التمويل اللازم للتوسع الهائل فى البحرية البريطانية بدون إلقاء أى عبء على كاهل دافعى الضرائب البريطانيين.

ومع صعود أحمد ميرزا البالغ من العمر أحد عشر عاما إلى العرش أصبحت الأوضاع الداخلية فى فارس تموج بالمزيد من الفوضى. وانقسم الوطنيون المنتصرون إلى حزبين – الرجعيين والمعتدلين. وأرسل الروس جنودا إلى كازفين

Kazvin باقليم طهران على رغم أنهم يرغبون فى حماية رعاياهم المقيمين فى بلاد الفرس. فاحتج البريطانيون على ذلك الاجراء. وكان نظام الحكم الجديد تنقصه الخبرة فى الشئون الادارية فظهرت الحاجة الملحة للاستعانة بمستشارين أجانب. ولكن نظراً لأن بريطانيا أو روسيا لم يكن لديهما الاستعداد للموافقة على تعيين خبراء تابعين للطرف الآخر فقد استلزم الأمر البحث عن مستشارين ليسوا من رعايا بريطانيا أو روسيا. وتم الاستعانة ببلجيكيين للإشراف على شئون الجمارك. وتم إجراء اتصالات مع الولايات المتحدة الأمريكية فرشح الرئيس تافت Taft محاميا له خبرة كبيرة فى الشئون المدنية يسمى وليام شوستر Wiliam Shuster. وتم تكليف شوستر فى عام ١٩١١ بالإشراف على الشئون المالية الفارسية مع منحه سلطات كاملة لفترة ثلاثة سنوات. وعلى الرغم من أن أمريكا لم تكن بمثابة دولة استعمارية لها طموحات فى الشرق الأوسط فى تلك الفترة إلا أن الروس أبدوا احتجاجات شديدة واستمروا فى معارضتهم بل وهددوا باحتلال طهران. وعندئذ قام الوصى على العرش ناصر الملك بانقلاب وحل المجلس [البرلمان] ووافق على مطالب الروس وقام بطرد شوستر وزملائه فى ينـاير ١٩١٢. وكانت جهود شوستر قد بدأت تظهر نتائج جيدة ولكن البلاد قد تركت بعدئذ فى مزيد من الفوضى والاضطراب.

وصدرت احتجاجات عن الحكومة الأمريكية والرأى العام الليبرالى فى بريطانيا ولكن دون جدوى - فالحاجة إلى التوصل إلى تسوية الخلافات مع روسيا فى مواجهة الحرب المتوقعة مع ألمانيا كانت أمرا حيويا للغاية من وجهة نظر الحكومة الليبرالية لبريطانيا. وعندما تفجرت الحرب بالفعل وتحالفت تركيا مع ألمانيا فإن التهديد التركى للأراضى الروسية ولحقول البترول المتواجدة فى الجنوب تسبب فى قيام روسيا وبريطانيا باحتلال جزء من بلاد الفرس على الرغم من إعلانها الوقوف على الحياد.

فارس فى الحرب العالمية الأولى:-

وفى الحرب العالمية الأولى قدر لفارس أن تكون ميدانا حربيا تقاتل فيه الأتراك والروس - عند حدودها الغربية فترة قصيرة من الزمان. ففى يناير سنة ١٩١٥ هاجم الأكراد تبريز، ولكن الروس استطاعوا إخراجهم منها فى اليوم العشرين من الشهر نفسه. وفى بحيرة وان وأرمية نشبت، فى خريف سنة ١٩١٧ معارك دامية بين الأكراد وأعدائهم القدماء، النصارى النساطرة الذين كانوا مؤيدين من الروس. وبعد انتصار كوت العمارة اجتازت الجيوش التركية الحدود، مهددة طهران؛ بيد أنها ما لبثت أن انسحبت، بأمر من حكومتها، لحاجتها الملحة إلى الإفادة منها فى ميادين الحرب الأخرى. وفى فارس الجنوبية وفق واسموس[1](القنصل الألمانى السابق فى بوشير) - وكان يتمتع باحترام كبير بين القبائل فى الأقسام الداخلية من البلاد - إلى أن يزعج البريطانيين إزعاجاً بالغاً، وإن يكن قد عجز عن بلوغ الهدف الذى تم تحقيقه لنده البريطانى، لورنس، فى بلاد العرب، أعنى أن يقود أصدقاءه بنفسه إلى ساحة القتال. كذلك لم يوفق فون نيدر ماير[2]وأعوانه فى محاولاتهم إثاره الفرس والأفغان ضد مضطهديهم القدماء - الروس والبريطانيين - على الرغم من جميع الجهود الجبارة التى قاموا بها فى سبيل ذلك. والواقع أن انهيار الجبهة الروسية مكن الفرس، فى الشمال، من التمتع بالحرية مرة أخرى، بعد أن تخلى البلاشفة عن جميع الحقوق الموروثة عن العهد القيصرى.

الروس والبريطانيون فى فارس بعد الحرب العالمية:-

كانت الفوضى تسيطر على بلاد الفرس كلها، تقريباً، بعد انقضاء الحرب العالمية الأولى. صحيح أن البلاشفة تخلوا عن جميع مكاسبهم وعن مطامع

---

(١) Wassmuss.

(٢) Von Niedermeyer.

الحكومة القيصرية في البلاد إثر معاهدة برست ليتوفسك[1] مباشرة : ولكن البريطانيين احتلوا، في الحال، المناطق التي جلت عنها الجيوش الروسية. وفي ٩ (أغسطس) سنة ١٩١٩ وفق السير برسي كوكس إلى عقد اتفاق مع فارس أخضعت بموجبه الحكومة والجيش، على غرار الحال في مصر والعراق، لسلطة "المستشارين" البريطانيين. وفي الوقت نفسه كان في باريس وفد فارسي يسعى، على غير طائل، ومن غير تعليمات كافية من حكومته، إلى أثاره انتباه الحلفاء وكسب عطفهم، في حين كان هؤلاء منهمكين في النزاع على مصير العالم.

ولكن البلاشفة أيضا ما لبثوا أن استأنفوا نشاطهم في فارس. فبعد احتلال باكو في (مايو) سنة ١٩٢٠ تعقب البلاشفة عمارة بحرية صغيرة تحت إمرة الجنرال الروسي الأبيض دنيكين[2] كانت قد فزعت إلى ثغر أنزلي الفارسي الواقع على بحر قزوين، حيث جردها الفرس من السلاح ؛ وقد قصفوا الثغر بنيرانهم وطاردوا القوة البريطانية المتقهقرة داخل البلاد حتى "روشت"، حيث أقاموا حكومة مؤقتة برئاسة كوجك خان. والواقع أنهم كانوا قد شرعوا يتهددون طهران، عندما استولت فرقة القوزاق الفارسية على رشت، لتنسحب بعد إلى ما وراء الخطوط البريطانية.

وقد عزا ضباط القوزاق الفرس هذا الإخفاق، ولعلهم لم يَعدُوا الحق، إلى رفاقهم الروس. وكان بين هؤلاء الضباط رضا خان الماز ندراني وهو ابن ضابط برتبة "سرتيب" (قومندان)، وقد ولد في سو ادخ، في ١٦ (مارس) سنة ١٨٧٨. وكان رضا خان قد اشتبك مع الروس في معركة صغيرة عندما سرّح، تنفيذاً لأوامر حكومته، ضابطاً روسياً كان قد رفض أن يتخلى عن منصبه. ليس هذا فحسب، بل لقد عدا ذلك إلى تسريح الضباط الروس جميعاً بالحزم ذاته، وإلى إنشاء حرس خاص بنفسه مخلص له كلّ الإخلاص، من أفراد كتيبة القوزاق التي استعادت بفضله مكانتها العسكرية.

---

[1] Brest - Litovsk

[2] Denikin

وبينا كان البريطانيون لا يزالون يفكرون فى التخلى نهائيا عن مراكزهم المتقلقله فى فارس كان السفير الفارسى "مشاور الممالك" يفاوض شيشرين[1] فى موسكو لعقد معاهدة تخلت روسيا، بموجبها، عن جميع ممتلكاتها فى الأراضى الفارسية، وتنازلت عن جميع حقوقها الناشئة عن الامتيازات القديمة.

رضا خان يزحف على طهران

وكانت حكومة طهران، وعلى رأسها الشاه أحمد [القاجارى]، عاجزة عن رسم خطة سياسية واضحة تتمشى عليها ؛ من أجل ذلك عزم ضباط القوزاق فى قزوين، نزولا عند رغبة رضا خان، على التدخل فى العاصمة. وحسب الضباط أن حركتهم هذه فى حاجة إلى أديب ذرب اللسان، بليغ البيان، فإذا هم يقعون على ضالتهم المنشودة فى شخص السيد ضياء الدين. وفى ٢ (فبراير) بلغ رضا خان وجنوده - وعدتهم ٢٥٠٠ رجل - أبواب العاصمة ليفرض على الشاه حكومة جديدة. وبعد معركة قصيرة مع رجال الدرك أنضم قائدهم السويدى إلى صفوف القوزاق، فلم يكن من الشاه - وكان قد بدأ يستشعر الخوف على ذاته - إلا أن وافق من غير ما معارضة على تشكيل حكومة جديدة برئاسة ضياء الدين الذى سارع إلى محاسبة الحكام السابقين الذين لم يكن لهم هم غير الإثراء على حساب الشعب، وصادر أموالهم التى جمعوها بطرق غير مشروعة وردها إلى خزينة الدولة. وعين رضا خان وزيراً للحرب وقائداً أعلى (سر دار سبه) ففرغ فى همة لا تعرف النصب، لتحويل بقايا الجيش المتفرقة فى البلاد، بالإضافة إلى كتيبته القوزاقية، إلى جيش حديث مستعد للقتال. حتى إذا أراد رئيس الوزراء، ضياء الدين، أن يفرض على هذا الجيش مدربين بريطانيين، تخلص رضا خان منه وحمل الشاه على أن يعهد فى رئاسة الحكومة إلى قوام السلطنة، أحد حكام الولايات المعتقلين.

---

(1) chicherin

النضال ضد الثوار

ولكن حكام الولايات أقاموا على رفضهم الخضوع للسلطة المركزية الجديدة. ففي جيلان كان على الحكومة أن تقضي، لا على كوجك خان الذى كان الروس قد نصبوه هنالك فحسب، بل على عدد من زعماء العصابات الآخرين المؤيدين من جانب الروسيا أيضا. وفي آذر بيجان أعلن أحد زعماء الأكراد الجمهورية، وكان الحزم يقتضي الحكومة أن تعجل في إخماد فتنته قبل أن يستشعر البلاشفة أن من مصلحتهم الوقوف إلى جانبه. وخلال سنتي ١٩٢١ و١٩٢٢ أخضع رضا خان، في حرب العصابات المدمرة التي خاضها ضد الثوار، الأجزاء الشمالية من البلاد ؛ وفي سنة ١٩٢٣ تدخل أيضا في الجنوب حيث كان البريطانيون قد قضوا على هيبة الحكومة المركزية قضاء كاملا.

وكان رضا خان لا يأبه، وهو في ميدان القتال، بما كان يدبر في العاصمة من مؤامرات أدت ثلاث مرات إلى زحزحة رئيس الحكومة من منصبه ليحل محله رجل آخر. حتى إذا اكتشف في (أكتوبر) مؤامرة كان قوام السلطنة يدبرها للقضاء على حياته هو (أي رضا خان) تولى رئاسة الوزارة بالإضافة إلى وزارة الحرب. أما الشاه الذى كان، شأن أسلافه، لا يفكر في غير مصلحته الشخصية، فقد رأى من الخير له أن يتهرب من أداء واجباته برحلة يقوم بها، في أوروبة، فترة غير محدودة من الزمان.

أزمة دستورية

والواقع أن وضع رضا خان كان يشبه وضع مصطفى كمال إلى حد بعيد حتى ليتوقع المرء منه أن يسلك مسلك زميله التركي من حيث القضاء على السلطنة وإلغاء الخلافة. ولكن رضا خان كان من الحصافة بمحل جعله لا يغالي في تقدير قوته في بلاد هي من الناحية القومية، أبعد ما تكون عن الوحدة، وهي من الناحية الدينية غير متراصة على الرغم من أن الشيعة يؤلفون كثرة سكانها. وهكذا التزم جانب الحذر عندما صدرت الدعوة إلى إعلان الجمهورية، سنة ١٩٢٤، من

جهتين: فبينا كان "حزب النهضة" الممثل فى المجلس يعتقد أن فى إمكانه حمل البرلمان فى ما بعد على تعديل الدستور بما يتفق وميوله الجمهورية. ناضل المجتهد الشيعى محمد الخالصى، الذى كان البريطانيون قد نفوه من النجف، فى سبيل إجراء انتخابات جديدة تنبثق عنها "جمهورية شعبية"، ولعله فعل ذلك تحت تأثير النفوذ البلشفى. وفى (مارس) سنة ١٩٢٤ جرت حول مسألة الدستور مناظرات عنيفة فى المجلس ترددت أصداؤها فى ضروب الشغب والإضرابات العامة. والحق أن رضا خان عالج القضية الجمهورية بحنكة وكياسة والحق ظاهرتين. فقد قصد إلى مدينة قم المقدسة حيث كلفه رجال الدين فيها - وكانوا يتمتعون باحترام عظيم فى طول البلاد وعرضها - أن يدافع عن الإسلام، بوصفه الأساس الذى تقوم عليه الدولة، ضد الثورة الحديثة. حتى إذا أصدر بياناً من هناك فلم يلق آذاناً واعية استقال من مناصبه، ورجع فى ٨ (إبريل) إلى رُوذان. عند ذلك هدد قواده بالزحف على طهران ؛ وفى الحال شخصت بعثة من المجلس نفسه مضطراً إلى إعلان ثقته به، فتقلد أزمة الحكم من جديد. وبعد أن أخضعت قواته ثورة كانت قد اندلعت فى أثناء ذلك بين اللور، أفرغ همته كلها فى سبيل إنشاء الجيش وتعزيزه، مزوداً إياه بالأسلحة الحديثة التى استوردها من المصانع الفرنسية.

وكانت خوزستان، الآهلة بكثرة من العرب، آخر الولايات خضوعاً للحكومة المركزية. وتفصيل الأمر أن بريطانية كانت قد وضعت يدها على آبار البترول فى هذه الولاية منذ سنة ١٩٠٥ عن طريق معاهدة عقدتها مع الشيخ خزعل أمير المحمرة. وكان الجيش البريطانى الهندى قد احتل جنوبى العراق، عند نشوب الحرب العالمية الأولى، صيانة لأنابيب البترول المنتهية فى عبادان، على فم شط العرب، والتى تمد السفن البريطانية العاملة فى المحيط الهندى بحاجتها من الوقود. والواقع أن حكومة طهران منحت، فى ذلك الحين، شركة الزيت البريطانية الفارسية امتيازها، ولكن بريطانية كانت قد عقدت معاهدة خاصة مع الشيخ خزعل الذى كان يحكم الضفة اليسرى من شط العرب بكاملها ومياه نهر قارون الدنيا الصالحة للملاحة ابتداء من الأهواز [حتى المحمرة فى الجنوب]،

ووعدته بمساعدة عسكرية إذا ما تعرض لأى اعتداء. ومع ذلك فقد تقاعست عن تطبيق المعاهدة عندما دعاه رضا خان إلى أداء الضرائب المتأخرة. وحاول خزعل، العجوز، تحريض قبيلة البختيارية - التى انتزعت السلطة فترة من الزمان أثناء الثورة الفارسية - على رضا خان، ولكن عبثاً. حتى إذا زحف هذا الأخير على رأس قواته إلى خوزستان لم يبق أمام الشيخ ما يستطيع أن يفعله غير الاستسلام. وعلى أثر هذه الحملة التى لم ترق فيها الدماء والتى أعادت الإمبراطورية الإيرانية إلى حدودها القديمة حج رضا خان إلى مدن الشيعة المقدسة فى العراق.

خلع الشاه أحمد

وعلى الرغم من هذه الانتصارات المؤزرة التى تمت للسردار سبه بهلوى (كما أراد رضا خان أن يدعى، منذ ذلك الحين، بعد أن اصطنع اسم أسرته القديم) فقد تعلق الشاه أحمد، المقيم فى باريس، بآمال فارغة خيلت له أنه لا يزال فى ميسور أبنه محمد حسن ميرزا، الذى بقى فى طهران، أن يجمع شمل أنصار القاجار للقيام بحملة تكون فى صالحه. ومع أن المجلس لم يؤيد اقتراحاً عرض عليه بضرورة دعوة الشاه إلى العودة فقد جرؤ فى (أكتوبر) سنة ١٩٢٥ على أن يحيط رئيس الوزراء علماً بأنه مزمع على القدوم إلى الوطن. فلم يكن من رضا خان إلا أن كتب إلى الشاه ، فى كثير من الحصافة، مرحباً بعزمه هذا، وإلا أن أذاع النبأ فى طول البلاد وعرضها عن طريق الرسائل والمنشورات. والحق أن ولاية آذربيجان هى التى تزعمت هذه المرة أيضا الحركة المناوئه للقاجار. وقد بدأت هذه الحركة، أول ما بدأت، باعتصام الثائرين فى المساجد (بست) وفقاً للمألوف عندهم فى حال الثورة. أما أنصارهم فى طهران، فقد اعتصموا فى الكلية الحربية، وأمطروا رئيس الوزراء البهلوى وابلاً من الرسائل يطلبون فيها أن يحول دون عودة الشاه البغيض. وأخيراً اجتمع المجلس فى ٢٨ (أكتوبر) للمناقشة فى اقتراح يقضى بخلع الشاه وتحويل السلطة التنفيذية إلى رئيس الوزراء ريثما تقوم جمعية وطنية جديدة بوضع دستور للبلاد جديد. وعلة الرغم من أن بطل الدستور العجوز، النائب تقى زاده، قد تدخل كرة أخرى للدفاع عن الدستور دفاعاً جريئاً، فقد أقر المجلس

الاقتراح، إثر مناقشة قصيرة. وفي اليوم نفسه أخرج رضا خان ولي العهد من قصر كلستان، مبعداً إياه إلى بغداد، عن طريق قزوين.

رضا بهلوى يتوج شاهاً على إيران

وفي سبيل الحفاظ على الشكل، تناقشت الجمعية الوطنية الجديدة طوال ستة أسابيع في الدستور الجديد الذي اصطفى رضا شاه بهلوى عاهلاً وراثياً على إيران، ريثما يقسم يمين الولاء للدستور الجديد في المجلس، في ١٥ (ديسمبر) سنة ١٩٢٥. وفي (إبريل) سنة ١٩٢٦ ارتقى رضا "عرش الطاووس" المتألق بجواهر يرجع عهدها إلى حملة نادر شاه على الهند.

وإنما كان ذلك إيذانا ببدء عهد التقدم والرقي في إيران التي استطاعت أن تعوض، في مدى عقد واحد، ما قد أهمل في قرون، فقد وفق الشاه الجديد إلى أن يداري، بحكمه، أحاسيس رجال الدين الشيعة الذين ما فتئوا يتمتعون بنفوذ كبير، كما وفق إلى أن يقود، في الوقت نفسه، الشعب الإيراني في معارج الحضارة الحديثة. والحق أن هذا الجندي المحنك أقام الدليل على أنه رجل دولة من الطراز الأول استطاع أن يضع موضع التنفيذ إصلاحات ذات فائدة في جميع ميادين الحياة السياسية. وكان "المجلس" لا يزال قائماً إسمياً، بيد أنه لم يبق له من عمل غير قبول القوانين التي يسنها الشاه. وأدرك رضا شاه، في تبصر جازم، أنّ ربط أجزاء البلاد بعضها ببعض عن طريق وسائل جديدة للمواصلات يجب أن يكون أساساً يقوم عليه كل إصلاح ؛ وهكذا نشطت الحكومة، سنة ١٩٢٥، لبناء السكك الحديدية منفقة في هذه السبيل عائداتها من الضرائب المفروضة على مادتي الاستهلاك الرئيسيتين، أعني الشاي والسكر، وهي أعظم العائدات التي تجنيها الدولة على الإطلاق. وإنما بدأت بإنشاء الخط الشمالي الجنوبي الممتد حتى بندر شاه، على بحر قزوين حتى بندر شابور على الخليج العربي، شركة ج. برجر[1] الألمانية سنة ١٩٢٩ وأتمته ابتداء من سنة ١٩٣٣ شركة كامبساكس[2]

---

(1) (J.Berger).

(2) Kampsax.

الهولندية السويدية. والحق أن هذه الإنشاءات التى تعد إحدى معجزات التقنية الحديثة استطاعت أن تذلل، خلال ثلاث سنوات، جبال الشمال بخمسة وسبعين نفقاً وعدد كبير من الجسور ؛ وفى ٥ (يونيو) سنة ١٩٣٧ صار فى الإمكان تدشين ذلك الجزء من الخط الممتد حتى طهران على مسافة ٤٦١ كيلو متراً يستغرق اجتيازها خمس عشرة ساعة. ويستطرد الخط سبيله عبر قُم وسلطان آباد مجتازا مائة وخمسين نفقاً فى جبال زاركز[1] أما الخط الذى بدى بإنشائه فى الوقت نفسه من الخليج العربى فقد ربط بالخط الشمالى فى (أغسطس) سنة ١٩٣٨.

الإصــلاح المـالــى

وفى سنة ١٩٢٧ أعيد تنظيم الحياة المالية. فعهد إلى البنك الوطنى (بنك ملى) فى إصدار الأوراق المالية بدلا من البنك الإمبراطورى المؤسس سنة ١٨٩٠ ؛ والوحدة النقدية الفارسية هى الريال، وتعادل قيمته أربعة سنتات ذهبية. وقد بلغت أوراق النقد المتداولة سنة ١٩٣٧ ثمانمائة مليون ريال. وفى (نوفمبر) سنة ١٩٣٢ نشرت الاتفاقية المعقودة مع شركة النفط البريطانية الفارسية التى تستخدم، فى خوزستان، عشرين ألف عامل إيرانى ؛ وهى فى صيغتها الجديدة تضمن للدولة نصيباً من إنتاج الشركة وعائداتها.

وفى سنة ١٩٢٨ ألغيت الامتيازات الأجنبية – التى لا تتفق وكرامة الدولة الحديثة – على الرغم من معارضة بريطانية العنيفة لذلك. وبدلا من القانون الدينى [الشريعة] الذى كان نافذاً وحده حتى ذلك الحين، وضع موضع التنفيذ قانون مدنى جديد وآخر للعقوبات ؛ وقد بنيا على الأساس الفرنسى.

وعرفت فارس، فى عهدها الجديد، عناية خاصى بالزراعة. وكان حتما على الدولة أن تحضر البدو الذين انتهى تأخرهم فى كثير من الأحيان إلى أن يكون خطراً عليها : من أجل ذلك وزعت عليهم سنة ١٩٣٧، الأراضى الأميرية الواقعة قرب بوشير (بوشهر). ونشرت المدارس الزراعية والمزارع النموذجية

---

(1) Zagros.

الواقعة قرب بوشير (بوشهر). ونشرت المدارس الزراعية والمزارع النموذجية الأساليب الحديثة في استغلال الأرض واستثمارها. وفي سنة ١٩٣٤ وزعت الحكومة مليوني نبتة شاي في البلاد. ليس هذا فحسب، بل لقد جعلت اليوم الخامس عشر من شهر (مارس) مهرجاناً للشجرة، لكي تربط الفلاحين بالأرض، برباط روحي أيضا.

وتغلب الفرس، منذ سنة ١٩٢٦، على عقبة من أصعب العقبات الحائلة دون تقدمهم، أعني تخلف المرأة عن مجاراة روح العصر، تخلفا اقتضته العادات الدينية والأخلاقية، وذلك بإلغاء ال "جادُر" وهو أشد أشكال الحجاب صرامة ؛ حتى إذا كانت سنة ١٩٣٦ بطل الحجاب نهائياً في فارس. وفي سنة ١٩٣٥ أسست الأميرة شمس بهلوي أول النوادي النسائية وأول فرق البنات الكشفية. وفي السنة نفسها أصدرت الحكومة قانوناً جديداً للزواج رفع الحد الأدنى لسن الفتيات المرشحات للحياة الزوجية إلى الخامسة عشرة، ومنح المرأة حق الطلاق إذا ما رغب بعلها في الزواج من امرأة أخرى.

ونمت الحركة التعليمية نمواً مطرداً فتى. وفي ٤ (فبراير) ١٩٣٥ افتتحت في طهران جامعة تنتظم كلية للعلوم الطبيعية ومعهداً موسيقياً (كونسر فاتوار) ؛ وقد نهض بعبء التدريس فيها، عدا الأساتذة الوطنيين، نفر من الأساتذة الأوروبيين، ليس هذا فحسب بل لقد أنشأت الحكومة، في تلك السنة نفسها، المجمع (الأكاديمية) الإيراني، "فر هنكستان" المؤلف من سبعة وثلاثين عضواً، والذي قصد منه إلى أن يعمل – شأن مجمعي دمشق والقاهرة – على تنقية اللغة قبل كل شئ. وعرف الأدب الفارسي – الذي كاد يذوي في عهد القاجار رغم عبقرية الإيرانيين – نهضة قوية في العهد الجديد، فأخرج ثمرات مُرضية وبخاصة في حقل التاريخ. والواقع أن الاعتزاز بتراث إيران الفكري الخصب كان له أبعد الأثر في تعزيز العزة القومية عند الإيرانيين ؛ وقد تجلى ذلك أوضح ما يكون في الاحتفال بالذكرى الألفية لميلاد شاعرهم الكبير الفردوسي، سنة ١٩٣٤، ولكن تاريخ البلاد السابق للإسلام كان قد اكتسب هو الآخر عناية الفرس من مهندسين وفنانين وصناع ؛ فلما

أعيد تشييد البنك الوطنى فى طهران ذهبت الجرأة بالمهندس المعمار إلى حد حاول فيه أن يحذو حذو الأفكار المعمارية التى تتمثل فى إيوان كسرى فى عاصمة الساسانيين، المدائن.

وفى صعيد السياسة الخارجية وفق رضا خان بهلوى إلى أن يعزز، بالإضافة إلى مصالح بلاده، الحياة الثقافية والدينية فى الشرقيين الأدنى والأوسط. وفى سنة ١٩٢٥ عمد، عقب تقلده أزمة الحكم مباشرة، إلى تعيين حدود بلاده تعييناً رسمياً، فى الجنوب الشرقى بمعاهدات عقدها مع البريطانيين فى بلوخستان ومع الحكومة الأفغانية. وفى (يونيو) سنى ١٩٣٧ عقدت، فى سعد آباد (مقر الشاه الصيفى، الباعدة ستة عشر كيلو متراً شمالى طهران) معاهدة مع تركية والعراق وأفغانستان، لمدة خمس سنوات، ضمنت بموجبها كل من الدول الأربع حدود الدولة الأخرى، وتعهدت بالامتناع عن كل تدخل فى شئون الدولة المجاورة الداخلية، كما تعهدت هذه الدول جميعا بأن تحل أيما خلاف قد ينشأ فى ما بينها من طريق المفاوضات السليمة، وأن لا تعقد أيما محالفات عدوانية مهما تكن مع الدول الأخرى. وشدَّ الزواج الذى مهد له الشاه بين ولى عهده والأميرة [فوزية] المصرية أواصر الصداقة بين هاتين الدولتين الإسلاميتين بعد أن استعادتا حريتهما واستقلالهما.

الفصل الخامس

المسلمون فى أفغانستان



القطر الذى يعرف الآن بأفغانستان لم يحمل هذا الاسم إلا منـذ القـرن الثامن عشر حين استتبت السيادة فيه للجنس الأفغاني، وكان من قبـل (أقـاليم مختلفة تحمل تسميات متمايزة ولكن القطر لم يكن وحدة سياسة محددة) كما أن أجزاءه لم تكن ترتبط فيما بينها بأى رباط يميزها مـن حيث الجنس واللغة. وهي تقع حالياً بين خطي عرض ٢٩° ٣٠َ و٣٨° ٣٠َ درجة شمالاً وبين خطى طـول ٦١° و٧٥َ درجة.

اللغة: البشتو وهي لغة الحديث في جنوب شرقي أفغانستان من شمالي جلال آباد إلى قندهار ومن هناك غربا إلى سيزوار ومنطقة كابل يغلب على أهلها التحدث بالفارسية وكذلك غزنه. كما يتحدث المستوطنون في شمالي أفغانستان وغربها أيضا لغة البشتو. وفي باكستان يستعمل غالبية السكان في ولاية الحدود الشمالية الغربية لغة البشتو.

والبشتو لغة إيرانية في أصلها وتركيبها وإن كانت قد استعارت بحرية من الهندية الآرية.

ينقسم سكان أفغانستان إلى المجموعات الرئيسية الآتية:-

١- الأفغان.

٢- التاجيك والإيرانيين.

٣- المغول الترك.

٤- سكان هندوكش (الهنديين الآريين). وغالبية سكان أفغانستان تقريبا من المسلمين وأغلبيتهم العظمى من أهل السنة، أما الشيعة فهم الهزارية والقزلباش وكبانية سيستأن (سجستان) وهراة وقليل من القبائل البطهانية على الحدود.

والإسلام على أهل السنة ثابت مكين في أفغانستان. والشريعة الإسلامية مرعية، ويعامل الهنود والشيعة بالتسامح، أما الأحمدية فلا يسمح لهم بدخول البلاد. كما أن بعثات التبشير المسيحية محرمه ويقدس الناس أولياء أفغانستان وقبورهم.

تاريخ أفغانستان الإسلامي حتى قيام الدولة الأفغانية الوطنية:-

إن الأراضي التي تكون أفغانستان الحديثة كانت تتبع في الألف سنة الأولى من التاريخ الإسلامي ولايات مختلفة، ومع أنها قد جرت عليها في كثير من الأحيان نفس التقلبات فإنها لم تكن في أي وقت وحدة مستقلة. وكذلك لم يقيم الأفغان دولة خاصة بهم حتى أيام ميرويس بعامة، وأيام أحمد شاه دراني بخاصة.
في أيام الفتوح الإسلامية لم تلبث الولايات التي كانت تابعه للإمبراطورية الساسانية أن اجتيحت، وقد اخترقت موجة من الفتح سجستان، ولكن المحاولات التي ظلت تبذل خلال القرون الثلاثة الأولى لغزو كابل من هذه القاعدة لم تؤد إلى نتائج باقية حتى قيام الدولة الصفارية. وقد قاومت ولاية كابل الاصطباغ بالصبغة الإسلامية مدة أطول من سائر الولايات الإسلامية الشرقية، ولم يتحقق هذا تمام التحقق إلا في عهد الغزنويين. وفي منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) انتزع ألب تكين غزنه من حاكمها السابق لويك، وغزا زابلستان وأقام إمارة مستقلة ورثها أبنه اسحق ثم ورثها مولى له هو "بلكاتكين، ثم ورثها مولى آخر هو سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية. وكان مقر هذه الدولة في غزنة، ومن هذه المدينة خرج محمود، أعظم الحكام الغزنويين، في حملات على بلاد فارس غرباً والهند شرقاً.

ومع أن الاسم "أفغان" قد ظهر لأول مرة عند المؤرخين حوالي هذا الوقت، فإن البيت الحاكم الغزنوي لم يكن بأي وجه بيتاً أفغانياً قومياً. والراجح أن الجيوش كان معظمها من الأتراك. ولما سار محمود إلى بلخ لقتال الحاكم القره خاني كان يتألف من هنود وخلج وأفغان وغزنويين.[1]

وفي سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣م) هاجم محمود أفغان سليمان كوه ونهب مغازلهم. وما أشرفت حياة محمود على النهاية حتى كان يحكم ممتلكات واسعة تشمل غربي خراسان وجزء من بلاد الجبال وطبرستان. كما يشمل في الشرق

---

[1] المقصود بالغزنويين الإيرانيين (التاجيك في ولاية غزنة).

البنجاب كله. وكان نفوذه فى ناحية الشمال يمتد إلى ما وراء نهر جيحون، بينما يتألف مركز هذه الممتلكات من جميع البلاد التى تعرف حاليا بأفغانستان وكان لشخصية هذا الفاتح العظيم أثر عميق، فقد أصبح بطلاً قومياً فى البلاد التى كانت قلب إمبراطوريته وقد اضطر بهرام شاه (٥١١-٥٥٢هـ = ١١١٨-١١٥٧م) إلى الاعتراف بسيادة السلاجقه ثم ازدادت قوة زعماء الغور شيئاً فشيئاً وطردوا الغزنويين بعد صراعات طويلة. والراجح أن البيت الحاكم الغورى كان من أصل "تاجيكى". وقد وقفت الغزوات التى شنها الغز والخوارز مشاهية فى طريق تقدم هذه الأسرة، وبذلك فقد الغوريون سلطانهم فى موطنهم هم، ولكنهم نجحوا فى إقامه إمبراطورية فى الهند ورثها مواليهم الأتراك. وقد اضطر جلال الدين منكوبرتى السليل الأخير لبيت الخوارز مشاهية أن ينسحب أمام المغول بقيادة جنكيز خان بعد مقاومة شديدة.

المغول والكرت:

غزا تولى بن جنكيز خان هراه وسيستان (سجستان) وغزا أكداى غزنه، ودخل أيضا بلاد الغور واتخذ منها قاعدة لحملاته فغزا جبال فيروز كوه وغرشستان، كما غزا سهول كرمسير وسيستان وأطيح بالملوك الغوريين ودمرت فيروز كوه عن آخرها.

وكان الأمير محمد الغرشستانى سليل الملوك الغوريين بطلا من أبطال المقاومة فى الغور.

وقد قتل فى حصن أشير سنة ٦٢٠هـ (١٢٦٣م). وكان مؤسسو بيت كرت الحاكم من سلالته - وادمج الجزء الأكبر من أفغانستان فى الإمبراطورية المغولية.

على أن زعيما تركيا فى الشرق هو سيف الدين حسن قرلغ حاول مدة من الزمن الاستيلاء على باميان وغزنه والغور، وربما كان هذا الزعيم تحالف من قبل مع جلال الدين منكوبرتى. ولا شك أنه قد مارس سلطان سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) وهى السنة التى ضرب فيها السكة باسم الخليفة الظاهر. وفى سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م)

خضع سيف الدين هذا لأكداى ووضع تحت مراقبه "شحنة" مغولي. على أنه طرد عبر وادى كرم إلى الهند.

وفي السند حكم هو وابنه ناصر عشرين سنة أخرى. وقد اتخذت غزنه ووادى كرم قاعدة شن منها المغول غاراتهم على الهند، ولم نسمع عن الأفغان في هذه الحركات، وربما كانوا لم يبلغوا بعد شمالاً وادى كرم. ولما توفي أكداى قسمت إمبراطورية المغول ووقعت أفغانستان من نصيب ايلخانية فارس. وفي ظل سلطانهم تسنمت السلطة أسرة حاكمة تاجيكية هي الأسرة الكرتية وحكمت الجزء الأكبر من البلاد ما يقرب من مائتي سنة. وكان تيمور هو الذى قضى على دولة الكرت الذين كانوا يمثلون آخر جهد بذله العنصر التاجيكي في الغور وهراة لإقامة دولة مستقلة في بلادهم ومن هذا التاريخ وحتى قيام الأفغان في القرن الثامن عشر لم تتول الحكم في أفغانستان أية أسرة وطنية.

تيمور والتيمورية:-

وقد نكبت سجستان بتخريب مروع أثناء غزوة تيمور ولم تلبث كابل وقندهار - وكان قد بدأ يكون لهما شأن - أن أخضعتا وأصبحت البلاد كلها جزءا من إمبراطورية تيمور. وفي سنة (١٣٩٧م) ولي تيمور وجهه ناحية الشرق وترك حفيده بير محمد واليا على كابل وغزنة وقندهار، وأقطع ابنه مملكة خراسان وقصبتها هراة. وهاجم بير محمد أفغان سليمان كوه ثم تقدم إلى الهند. ولما بلغ تيمور خبر المقاومة التي لقيها بير في ملتان سار هو نفسه من أندراب مخترقا جبال هندوكش ثم انثنى عند لغمان ليهاجم سياه بوش وكافرية كتور. وبعد هذه الحملة أغار على الأفغان المتمردين ثم عبر نهر السند.

ولما توفي تيمور سنة (١٤٠٥م) كان بير محمد يحكم في كابل. على أن خنيلا هو الذى استحوذ على عرش الإمبراطوريه. وقد انتهت الحرب التي أعقبت ذلك بقتل بير محمد. ولم يلبث خليل أن أقصي عن العرش وأصبح شاهرخ هو الحاكم الأعلى. وكان عهده - الذى دام أربعين سنة تقريبا - عهد سلام استطاعت فيه البلاد أن تفيق من أعمال التخريب التي حلت بها في السنوات الأخيرة.

وخلف شاهرخ ألغ بك فعبد اللطيف فعبد الله فبابر ميرزا، وحكم كل منهم مدة قصيرة، وفي سنة (١٤٥٦م) اعتلى العرش أبو سعيد، ولكن ملك خراسان وأفغانستان كان موضع نزاع بينه وبين حسين بيقرا. وقد هزم حسين سنة (١٤٦٥م)، ولكن أبا سعيد توفي بعد سنتين، ولم ينل خلفه سلطان أحمد خراسان بحال، وحكم حسين بيقرا بلا منازع من قصبته هراة، حكم خراسان وسيستان وغور وزمين داور. وقد بلغت هراة في عهدي شاهرخ وحسين. بيقرا الطويلين أوج شهرتها قاعدة للشعر والعلم والفن، وفي السنوات الأخيرة من عهد حسين بيقرا هدد حاكم من الشمال سلطان شيباني وأزابكته النامي، على حين أظهرت الأجزاء الأخرى من أفغانستان ميلا إلى الانقسام إمارات قائمة بذلتها وإن كان لا يحكمها أمراء من أهلها. ومكن بابر لنفسه في كابل وأتخذ لقب "بادشاه". وكانت كابل حتى ذلك الوقت تحت حكم أعضاء من البيت التيموري يتفاوت حظهم من الاستقلال وكان مقيم بن أرغون قد استولى عليها وشيكا حين ظهر بابر أمامها واحتلها سنة (١٥٠٥م). وظلت كابل تحت حكم بابر وخلفائه أباطرة الهند أكثر من مائتي سنة حتى فتحها نادر شاه.

بابر، أرغون، الأوزبكية، شاه إسماعيل:-

وكان قيام أسرة أرغون أعظم من ذلك خطرا على مملكة خراسان. ذلك أن مؤسسها ذا النون بك أرغون سليل الإيلخانية ووالي غوروسيستان قد تلقى أيضا بعد هزيمة قبيلتي هزارة ونيكوداري إقليمي زابلستان وكرمسير. واتخذ ذو النون قندهار قصبة له واستقل بأمر نفسه وبسط حكمه بمعاونة ابنه شاه بك جنوبا حتى ممر بولان وسيوستان، بل لقد بلغ به الأمر أن غزا هراة (١٤٩٨-١٤٩٩م) وجند جيشه من سكان غور وزمين داور وقندهار، ومن التاجيك والأفغان فيما يرجح. وغزا ابنه مقيم كابل وإن كانت غزوته لها لم تدم إلا مدة قصيرة. على أن غزوة شيباني قد أثبتت زوال سلطان ذي النون بك. فقد قتل في المعركة الأولى مع الأوزبكية، واحتل شيباني هراة سنة (١٥٠٧م).

وهنالك وقع ابنا ذى النون - شاه بك ومقيم - بين بابر وشيباني. فقد ادعى بابر، ومعه بعض الحق، أنه وريث إمبراطورية تيمور وتقدم مغيرا على قندهار، على حين تحالف أمراء أرغون على عدوهم القديم شيباني. وهزمهم بابر واستولى على قندهار، وترك عليها واليا من قبله هو أبنه ناصر ميرزا الذى لم يلبث أن هاجم شيباني. وكان بابر بشخصه فى طريقه إلى هراة لتنسيق إجراءات الدفاع ضد الأوزبكية مع سلطان حسين، وهنالك سمع بوفاة سلطان حسين، فانضم إلى أبناء سلطان في حملتهم على المرغاب، ثم زار هراة وعاد شتاء بالطريق الجبلى إلى كابل، وكانت هذه رحلة لقى فيها هو وجنوده شدائد عظيمة. عاد بابر إلى كابل (أوائل سنة ١٥٠٧م) فى عز الوقت المناسب للقضاء على مؤامرة خطيرة أفرخت بين أقربائه. ثم تابع حملته على قندهار فى الصيف، وما وافى شهر جمادى الأولى (سبتمبر سنة ١٥٠٧) حتى كان قد رجع إلى كابل ليجهز لحملة على الهند، وما إن بدأها حتى أعاده على أعقابه الخبر بأن قندهار قد سقطت وأن الأرغوتيين قد أعادهم شيباني إلى حكم. وكان بابر عندما بلغه هذا الخبر مشتبكا بالفعل فى حرب مع قبائل جكدلك وننكرهار الأفغانية، وهى قبائل كانت قد استقرت حديثا فى وادى كابل. ولقى بابر مشقة عظيمة فى الثبات فى كابل نفسها، ذلك أن سلطانه كان مهددا بفتنة وعصيان. وكان شيباني وقتذاك مستحوذا على خراسان، وسيدا على قندهار، ولكن سلطانه كان آخذا فى الاضمحلال. وعانت جيوشه بلاء شديدا أثناء حملة شنها على جبال غور، وقد هدده من الغرب ملك محارب آخر هو الشاه إسماعيل مؤسس المملكة الصفوية.وفى سنة (١٥١٠م) غزا إسماعيل خراسان وهزم شيباني وقتل بالقرب من مرو. وانتقلت هراة إلى حوزة إسماعيل وفرضت عليها مبادئ الشيعة باضطهاد شديد. وهنالك تحالف بابر مع إسماعيل واسترد إلى حين أملاكه الوراثية فى آسية الوسطى تاركا مملكة كابل لأخيه ناصر ميرزا.على أن هذا التحالف لم يقابل بالترحيب، وسخر منه الأوزبكية. ولقى بابر هزيمة منكرة بالقرب من غردوان سنة (١٥١٢م) نجا منها بجلده بشق النفس، ولم يجد آخر الأمر بدا من الارتداد منقلبا إلى كابل التى وجدها فى حالة اضطراب شديد. وكان عليه أن

يخمد عدة فتن بين جنوده من المغل وبين القبائل الأفغانية. وكان اليوسفزائى قد هبطوا من الجبال إلى وادى بشاور وطردوا أسلافهم الدلازاكية من جبال باجور وسوات وقد أخمد بابر حركهم بشدة واسترد بجور بمذبحة عظيمة. وقد اضطر بابر أيضا إلى إخماد فتن نشبت بين الهزارية ثم صرف همه إلى قندهار حيث كان شاه بك أرغون لا يزال مستتبا فى الحكم، وحاول عبثا أن يفاهم مع الشاه إسماعيل واعتقل فى هراة ولكنه هرب من أسره ومضى من وقتها يحاول أن يقيم له مملكة فى السند، وكان قد غزاها بمساعدة بعض القبائل البلوجية سنة (١٥١١م)، وقد بذل بابر محاولتين للاستيلاء على قندهار حتى نجح فى ذلك أخيرا سنة (١٥٢٢م)، وعند ذلك نقل شاه بك مقر قيادته إلى شال (كوطة) صيفا وسيبى شتاء، ومضى يتابع تنفيذ خططه فى السند، على حين ظلت ولاية قندهار كلها فى يد بابر، وهنالك أحس بابر بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يشرع فى مجموعة من التدابير انتهت بالإطاحة بمملكة الأفغان اللودية فى الهند، وكان دائما يؤثر كابل على سهول الهند، وقد دفن بغزنة حيث يقوم عمود شاهدا على قبره.

أفغانستان بيم إمبراطوريتى المغل والصفويين:-

ودخلت أفغانستان فى عهد أكثر استقرارا فى ظل سلطان إمبراطوريتى الهند وفارس العظيمتين اللتين اقتسمتاها. وقد ظلت هراة وسجستان مع فارس ولو أن أحوالهما ظلت مدة تعكر صفوها الغارات الأوزبكية، وبقيت كابل جزءا من إمبراطورية المغل على حين كانت قندهار تتبع حينا هذه الإمبراطورية وحينا تلك، وأخذ سلطان أباطرة المغل يقتصر شيئا فشيئا على جنوبى هندوكش، وإلى الشمال منها استطاع سليمان ميرزا، الذى كان قد أقامه بابر واليا على بذخشان، أن يقيم ما يشبه البيت الحاكم المستقل، وظلت بقية البلاد فى يد الشيبانيه، وتوفى إسماعيل سنة (١٥٢٤م) وبابر سنة (١٥٣٠م) وخلف بابر ابنه همايون وتولى إخوته كامران وهندال وعسكرى أمر ولايات أخرى، فقد اتحدت كابل وقندهار مع البنجاب تحت حكم كامران. أما بخصوص الجانب الفارسى فإن طهماسب خليفة إسماعيل كان قد أقام أخاه سام ميرزا واليا على هراة. وكان الصفويون يعدون

قندهار إقطاعا ملحقا بمملكة خراسان التى كانت وقتئذ فى حوزتهم. ويعتبرون احتلال أباطرة المغل لها اغتصابا، وفى سنة (١٥٣٥م) قام سام ميرزا بهجوم مفاجئ عليها، ولكنها قاومته بنجاح، وبعد ثمانية اشهر وصل كامران ورفع عنها الحصار. وفى غيبة سام غزا الأوزبكية بقيادة عبدالله خراسان، واستولى للمرة الثانية على هراة البائسة ونهبت، واستردها طهماسب وخلع سام وهاجم بنفسه قندهار وفتحها، ولكن كامران استردها. وفى هذه الأثناء فقد همايون عرشه فى الهند نتيجة لقيام الأفغان السور بقيادة السور بقيادة شيرشاه، وفى سنة (١٥٤٣م) اتخذ طريقه من السند مخترقا الصحراء الممتدة جنوبى قندهار حتى بلغ سجستان وفارس حيث أكرم وفادته الشاه طهماسب. وفى سنة (١٥٤٥م) استطاع بقيادة جيش فارسى أن يضرب الحصار حول قندهار التى كان يرده عنها أخوه عسكرى من قبل كامران، واستولى عليها بعد مقاومة طويلة. وقد نفذ همايون اتفاقه مع طهماسب فسلم المدينة للفرس، ولكن هذا الفعل منه أثار السخط بين أتباعه، فاسترد قندهار آخر الأمر من الفرس وعامل هذه الولاية معاملته جزءا من أملاكه فاغضب ذلك طهماسب غضبا شديدا. ولم يلبث همايون أن استولى على كابل واسترد ابنه الصغير أكبر الذى كان قد بلغ آنئذ الثالثة من عمره. ومضت الحرب بين الأخوة فى السنوات القليلة التالية بلا نتيجة حاسمة. فقد استرد كامران كابل مرتين ولكنه لم يستطع أن يستبقها طويلا. ويقال إنه أبرز الأمير الصغير أكبر فى أجدى المناسبات مكشوفا على الحصون. ثم قضى بعض الوقت بين قبائل مهمند وخليل الأفغانية وحرضها على سلب وادى كابل. ثم سلم آخر الأمر لهمايون سنة (١٥٥٣م) فسملت عيناه. وبذلك استولى همايون على مملكته وقندهار وأحس أنه بلغ من القوة ما يستطيع به أن يحاول معاودة غزو الهند، وانتهى ذلك بانتصاره على ملوك سور ولكنه لم يلبث أن توفى سنة (١٥٥٦م) متأثرا بحادث. وبينما كان الملك الشاب أكبر مشغولا بإتمام غزو الهند من جديد انتهز طهماسب الفرصة سنة (١٥٥٨م) واستولى على قندهار، وظلت تحت الحكم الفارسى حتى سلمها الأمير مظفر حسين لأكبر بعد ذلك بثمان وثلاثين سنة أى سنة (١٦٢١م). واستردها الشاه

عباس ولكن خلفه الشاه صفى الأول فقدها مرة أخرى، فقد سلمها واليها فى عهده علي مروان خان لشاه جهان سنة (١٦٣٧م) وكذلك أخذت كرشك بعد أن ضرب عليها حصار، واحتلت زمين داور. وفى سنة (١٦٤٨م)، قاد الملك الفارس الشاب عباس الثانى جيشا وهاجم قندهار واستولى عليها، وكانت سنه إذ ذاك ست عشرة سنة فحسب، ولم تعد هذه المدينة قط جزءا من أملاك الإمبراطورية المغلية. وقد حاولت جيوش شاه جهان عبثا أن تستردها. وشن كل من الأميرين المتنافسين أورنكزيب ودارا شكوه حملة عليها، ولاكنهما باءا هما الاثنان بالخيبة، وبفشل الحملة الأخيرة سنة ١٦٥٢م) لم تبذل فى سبيل استعادتها أيه حملات أخرى.

وإذا استثنينا التقلبات التى مرت بقندهار، فليس أمامنا من تاريخ أفغانستان أيام كانت مقسمة بين إمبراطورية المغل وإمبراطورية الصفويين إلا القليل. وكانت القبائل الأفغانية تزداد نفرا وسلطانا باطراد، والراجح أن هذه الأيام كانت هى الفترة التى انتشر فيها الأبدالية والغلزائية من جبالهم إلى الأراضى الأكثر خصوبة فى وديان قندهار وزمين داور وترنك وأرغنداب. وبتدهور مكانة وسلطان الأجناس التاجيكية التى تحملت وطأة الغزوات المغولية واحتلال معاقلها الجبلية فى غور على يد شعب شبه مغولى تهيأت الفرصة أما الجنس الأفغانى للبروز. ولم يتأثر الأفغان كثيرا فى جبالهم الشرقية بالغزاة الذين كان همهم الأول شق طريقهم عابرين الممرات لسلب الهند، كما أن حاجة السكان المعهودة إلى منفذ لعددهم المتزايد – مما حملهم على الانتشار فى سهول الهند من ناحية الشرق – قد أدت أيضا بالقبائل الرعوية إلى الانتشار غربا. وظلت القبائل الجبلية تمارس حياة تكاد تخلو من أى نظام، وكانت الحكومة المغلية فى كابل تحكم بالاسم فحسب، ولكن سلطانها الفعلى انحصر فى الوديان المكشوفة، مثال ذلك ما حدث سنة (١٦٨٦م) إذا منى جيش أكبر بهزيمة منكرة على يد يوسفزائية سوات وباجور، ولقى القائد راجا بيربل مصرعه، ثم هزم راجا مان سنغ من بعد الجبليين ولكنهم لم يغزوا فى الحق قط، وكانوا فى كثير من الأحيان يغيرون على السهول وينحازون فى بعض الأحيان إلى هذا الجانب أو ذاك من بيوت الحكم المتنازعة، مثال ذلك انتصار

اليوسفزائية لقضية الأمير شجاع المطالب بالعرش فى نزاعه مع أوزنكريب، وعندما كان شاه عالم الأول قبل جلوسه على العرش عامل أوزنكريب على كابل سنة (١٧٠٢م) حدث أن أحد قواده - وهو بردل خان، وكان أفغانيا - قد قتل هو وجميع جنده أثناء محاولته المرور من خوست إلى كابل. فاضطر أوزنكريب إلى أن يرشو القبائل ليظل الطريق مفتوحا بين كابل وبشاور.

الأبدالية والغلزائية ونادر شاه:-

وقد بذر تقلب الحكم المستمر فى قندهار بين الهند وفارس بذور الفرقة والتآمر ومكّن القبائل القوية أن تضرب إحداهما بالأخرى، ومن ثم نجح الأبدالية قرب قندهار فى الحصول على امتيازات من الشاه عباس الأكبر واعترف بزعامة "سدو" وأصبحت أسرته السدوزائية هى الأسرة الحاكمة، غير أن سوء مسلكهم أدى إلى إجلاء بعض هذه القبيلة إلى ولاية هراة، وقد أدى هذا الإبعاد إلى بسط قبيلة غلزائى نفوذها بالقرب من قندهار. وظل سلطانها يزداد حتى اعتلاء الإمبراطور شاه عالم الأول العرش، وهنالك بدأ غلزائية قندهار يتآمرون معه على الحكومة الفارسية، وانكشفت المؤامرة، وأنفذ كوركين خان الزعيم الكرجى إلى قندهار على رأس جيش، وأسر ميرويس الزعيم الغلزائى. على أن ميرويس استطاع، وهو فى الأسر، أن يكتسب ثقة ملك الفرس الشاه حسين، فسمح له بالعودة إلى قبيلته. وسرعان ما غدر بكوركين خان بأن دعاه إلى مأدبه وقتله واستولى على قندهار وأحبط كل المحاولات التى بذلت لإخضاعه، وتوفى بعد ذلك بقليل وخلفه أخوه عبد العزيز إلا أنه أظهر ميلا إلى الخضوع لفارس فقتله محمود بن ميرويس وأقام نفسه حاكما.

وفى هذا الوقت نفسه أصبح ذلك الفريق من قبيلة أبدالى الذى يقطن ولاية هراة سيدا عليها فى الواقع، وهزم هؤلاء الأبدالية جيشا قويا سير عليهم بقيادة صفى قلى خان وظلوا صامدين حتى أيام نادر شاه، بل استطاعوا أن ينتزعوا فراه من الغلزائية بعد أن غزا هؤلاء فارس. وبينما كان محمود الغلزائى يقاتل فى فارس، انتشر الأبدالية فى خراسان وضربوا الحصار على مشهد. ولم تكن الدولة

الغلزائية بحال مهيأة لحكم بلاد كفارس، ولم تكن وراءهم قوات كافية لمواجهة أية حركة قومية حقه ، بل هم كانوا قد فقدوا عون ولاية قندهار عندما خلف أشرف ابن عمه محمودا الذى كان أخوه قادرا على الاحتفاظ بقندهار.

وكذلك ظل الأبدالية مستقلين فى هراة، ولذلك فإن نادرا لما أقام نفسه زعيما لحركه قومية لم تلبث حكومة أشرف أن انهارت، ولم ينج من الغلزائية ليبلغ وطنه إلا العدد القليل. وقتل أشرف وهو هائم على وجهه فى بلوجستان سنة (١٧٢٩م)، وهنالك وجه نادر قوته إلى الأبدالية يتزعمهم ملك محمود خان الذى كان مستحوذ على مشهد سنة (١٧٢٨م) وهزمهم هزيمة منكرة وأسر منهم عددا كبيرا. على أنه قدر مواهبهم الحربية وضمن تأييدهم بردهم إلى موطنهم القديم قرب قندهار الذى أقصى منه الغلزائية عندما سنحت له الفرصة فنفاهم إلى ولاية هراة، ولكن لم يستقر فيها منهم إلا العدد القليل إن يكن قد استقر فيها أحد على الإطلاق، ولا نجد أثراً لهم الآن هناك. ولما نادى نادر شاه نفسه ملكا على فارس ضرب الحصار على قندهار فقاومته سنة ثم سقطت آخر الأمر سنة (١٧٣٨م) وتحطم سلطان الغلزائية تماما. ولكن نادر شاه اتخذ حيال القبائل الأفغانية عامة وحيال الأبدالية خاصة سياسة التراضى وجند أعدادا كبيرة منهم فى جيشه، والتجأ كثير من الغلزائية إلى ولاية كابل من ولايات الإمبراطورية الهندية، ولم يتلق نادر شاه أى رد على احتجاجاته فسار نحو كابل فسقطت فى يده لتوها سنة (١٧٣٨م)، ومن ثم اقتطعت آخر الأمر من إمبراطورية المغل. وآخر تاريخ معروف لأية سكة ضربها الإمبراطور محمود شاه فيها هو سنة (١٧٢٥م)، والظاهر أن نادر شاه لم يستعمل سكة كابل، بل ضرب سكة فى قندهار سنة (١٧٣٧م) وهى سنة غزوته. كما أن ثمة سكة أخرى ضربت فى نادر آباد (شيدت أثناء الحصار، خارج قندهار) تشير بلا شك إلى مدة الحصار، وهنالك أصبحت أفغانستان كلها فى قبضته وأتاحت له القاعدة اللازمة لغزوته للهند سنة (١٧٣٩م)، وبانتصاره على محمود شاه آلت إليه جميع الأراضى المغلية الواقعة غربى نهر السند بما فيها بشاور وديره جات وأصبحت له السيادة على "الكلهورا" - أى الحكام العباسيين للسند - والسيطرة على ولاية

كابل: ولما عاد من دلهى سنة(١٧٤٠م) عبر نهر السند أول الأمر عند "أتك" وهاجم اليوسفزائية الذين كانوا يثيرون الاضطراب ثم مضى إلى كابل، ومنها انحدر عن طريق وادى كرم وإقليم بنكش واخترق دبره جات إلى السند، ثم عاد مخترقا ممر بولان إلى قندهار ومنها إلى هراة. وظل بقية حياته يعتمد اعتمادا كبيرا على جنوده الأفغان ولم يعتمد إلا قليلا على جنوده الفارسية الذين كان يزور عنهم بحكم أنه كان سنى المذهب، وكان للأبدالية بنوع خاص الحظوة عنده، وارتقى زعيمهم الشاب إلى رتبة رفيعة فى جيشه، وتقول الروايات أن نادرا نفسه تنبأ بأن أحمد سوف يصبح ملكا بعده، ولما اغتال الفرس والقزلباش نادر شاه كان أحمد شاه فى فرقة قوية من الأبدالية على مقربة من مكان الحادث، فاغتصب قافلة محملة بالأموال ثم سار إلى قندهار حيث نادى بنفسه ملكا.

الدولة الأفغانية الوطنية

(أ) البيت السدوزائى الحاكم:-

أقام أحمد شاه نفسه ملكا على قندهار واستولى على الجانب الشرقى كله من إمبراطورية نادر حتى نهر السند، وسرعان ما سقطت هراة، وفى الفترة الهامة التى تقوضت فيها دعائم المملكة الفارسية، بسط أحمد شاه حمايته على شاهرخ حفيد نادر شاه الذى كان أعداؤه قد اسملوا عينيه، وأقام له إمارة فى خراسان، وكانت هذه الولاية فى الواقع جزءا من أملاك أحمد شاه وأبنه تيمور شاه اللذين ضرب كل منهما السكة باسمه من حين إلى حين فى مشهد، ولكن شاهرخ ظل يحكم بالاسم حتى اعتقل على يد آغا محمد قاجار بعد وفاة تيمور شاه على أن هراة عوملت معاملة الجزء القائم بنفسه من المملكة الدرالية، وظلت مملكة خراسان القديمة مقسمة بين فارس وأفغانستان.

وجعل أحمد شاه قندهار قصبة لملكه وسماها أحمد شاهى. وهو الاسم الذى ضربه هو وخلفاؤه على سكتهم ؛ واتخذ لنفسه لقب "در دران"، وأصبحت قبيلته الأبدالية تعرف باسم "درانى" وكانت أسرته منذ أمد طويل محط الأنظار. فاستطاع بفضل هذا وبفضل ما كان عليه من كياسة وعلو همة أن يوطد سلطانه.

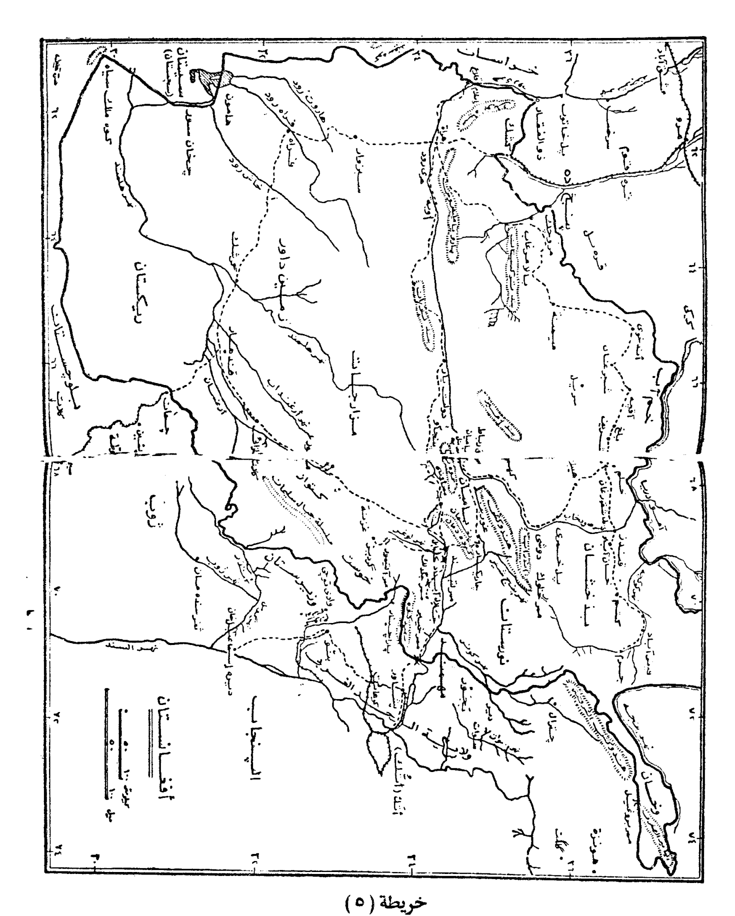
فقد عامل القبائل برفق، واعتمد في موارده على الحروب الخارجية أكثر من اعتماده على الضرائب، وكان الدرانية يفخرون به ويتبعونه عن رضا، ولكنهم لم يكونوا بالقوم الذين يسهل قيادهم، ولذلك فإن أبنه تيمور شاه نقل قصبته إلى كابل التي كان معظم سكانها من التاجيك، ولم ينافس أحمد شاه في فتوحاته الهندية نادر شاه فحسب بل بزه فيها أيضا، ومد أملاكه إلى ما وراء نهر السند بكثير، وضم إليها ولايات كشمير ولاهور وملتان، أي أنه ضم الجزء الأكبر من البنجاب وبسط سلطانه على الداود دبوتراوية في بهاولبور.

ولقد فتح أحمد الهند عدة مرات، واحتل دلهي أكثر من مرة، وكانت هزيمته للمراطها في بانبيت سنة (١٧١٦م) نقطة تحول في تاريخ الهند، ولكنه لم يضم إلى أملاكه أية ولايات تقع فيما وراء البنجاب. وكانت حروبه مع السيخ متصلة لا تنقطع وقد انتهت بفقد ولاية البنجاب، وكذلك أعلن خان كلات ناصر خان البراهوئي - وكان من أمراء أحمد المقطعين - استقلاله سنة (١٧٥٨م)؛ وحاصر أحمد شاه كلات فلم يظفر منها بطائل، فلما دعى إلى الهند قنع بخضوعها له خضوعا اسميا بحتا. على أن ناصر خان عاون أحمد شاه في حروبه بخراسان، وأسهم بقدر كبير في انتصاره على كريم خان زند سنة (١٧٦٨م)، وفي هذه الحرب انضم الأمير الأفشاري الضرير إلى كريم خان وآواه في مشهد التي قهرها أحمد بضرب الحصار عليها، وتوفى أحمد في مرغاب بالتلال القريبة من قندهار سنة (١٧٧٣م) تاركا لخلفه إمبراطورية مترامية الأطراف غير مأمونة.

وكان تيمور شاه قد تولى في حياة أبيه مناصب ذات خطر مثل (نظام) لاهور وملتان، وهو منصب تدل عليه شواهد من مجموعة متمايزة من العملة، ولما توفي أحمد شاه كان تيمور شاه في هراة، ولم يستطع أن يستولي على قندهار إلا بعد أن قبض على أخيه سليمان - الذي كان قد أقيم لمنافسته - وقتله، ولم يلبث أن نقل قصبته إلى كابل، وحكم عشرين عاما خالية من الأحداث اضمحلت فيها قوة المملكة وتزعزع استقرارها، وإن كانت أطرافها لم تنتقص. وكان سلطان الحكومة المركزية على الولايات القائمة في الأطراف واهية، وازدادت قوة السيخ واستولوا على ملتان سنة (١٧٨١م)، ولكن تيمور استردها في السنة نفسها، وفي السند أطيح بشيوخ الإقطاع الكلهوراوية وحل محلهم أمراء بلوج من قبيلة تالبر (وغلب عليهم اسم التالبرية)، وقد شن هؤلاء الأمراء الحرب على جيوش تيمور شاه

سنة (١٧٨٢-١٧٨٦م) وظلوا مستقلين على الرغم من خضوعهم له بالإسم، وهاجم تيمور أيضا أمير بخارى معصوم المنغيتى الذى كان يعتدى على ولاية التركستان وخاصة مرو، فخضع لتيمور بالاسم هو الآخر ولكنه احتفظ بجميع فتوحاته، وكانت قد شبت أيضا فتنة فى كشمير ثم أخمدت، وفى الداخل كان سلطان عشيرة باركزائى من الدرانية يتعاظم شيئا فشيئا، وتوفى تيمور شاه سنة (١٧٩٣م) وخلفه ابنه زمان شاه الذى ظل فى الملك حتى خلعه أخوه محمود شاه عام (١٨٠٠م)، وعلى قصر عهد زمان شاه فإنه استطاع أن يجمع فيه من الجرائم والحماقات ما هو كفيل بإغراق المملكة الدرانيه، وكانت المنافسة بينه وبين أخويه محمود وشجاع الملك تضعف مركزه فى الداخل، وكان القاجار يهددون ملكه فى خراسان ويتهدده الشاه مراد المنغيتى فى الشمال، ويتحداه فى الجنوب خان كلات وأمراء السند، ومع ذلك لم يحجم عن استنفاد جهده فى محاولات حمقاء لمنافسة أحمد شاه فى فتوحاته بالهند والظهور بمظهر المدافع عن الإسلام ضد السيخ والمراطها. وأدى فعله هذا إلى الاصطدام بالإنجليز الذين كان سلطانهم ينمو بسرعة حتى أصبحوا القوة الغالبة فى شمالى الهند، وفى عام (١٧٩٥م) توقفت غزوته الأولى عند حسن أبدال عندما بلغه الخبر بأن آغا محمد قاجار قد استولى على مشهد وقتل الشيخ الضرير شاهرخ. وهدأت ثائرته عندما وصلت بعثة من قبل الملك الفارسى وبدأ يقوم بغزوته الثانية للهند، غير أن انتقاض محمود فى هراة قطع هذه الغزوة. وما إن أخمد هذه الفتنة حتى غزا البنجاب، ووصل فى هذه المرة إلى لاهور وخضع له السيخ خضوعا اسميا وكان يتزعمهم آنذاك رنجيت سنغ، ولكن عدوان القاجار المتكرر فى خراسان حمله على الرجوع مرة أخرى، وفى هذه الأثناء كان محمود يتنقل فى البلاد يتآمر على أخيه مع الساخطين فى هراة وقندهار، وكان من بينهم زعيم عشيرة باركزائى "بايندە خان" الملقب "سرفراز خان" الذى كان ينفس على الوزير وفاء دار خان السلطة التى يتمتع بها. واكتشفت المؤامرة فقتل بايندە خان. وفر ابنه فتح خان لاجئا إلى محمود فى خراسان وأغراه بالارتماء فى أحضان قبيلة درانى استدرارا لعطفهما لأنها كانت تكره زمان شاه وأثبتت النتيجة صحة هذه النصيحة ؛ إذ استولى محمود على قندهار على حين كان المفتون زمان شاه يتجهز لحملة أخرى على الهند. وسار محمود إلى كابل ففر زمان شاه ولكنه لم يلبث أن اعتقل وسملت عيناه سنة (١٨٠٠م). وبينما كان محمود يرقى عرش كابل

كان شجاع الملك ينادى بنفسه ملكا فى بشاور، وقد ساعده على ذلك فتنة أثارتها الغلزائى على محمود ؛ وفى عام (١٨٠٣م) استولى شجاع الملك على كابل وسجن محمودا وأطلق سراح أخيه الشقيق زمان شاه الضرير. وظلت قندهار مدة من الزمن فى يد ابن محمود: كامران يؤيده فتح خان، ولكن فتح خان اصطلح مع شجاع على شروط مراعيا مصلحته هو وصنيعه له، غير أنه لم يرض بنصيبه ولم يلبث أن أقام ملكا منافسا لشجاع فى شخص قيصر شاه بن زمان شاه، وانقضت السنوات القليلة التالية فى مؤامرات لا تنقطع، تقلب فيها فتح خان بسرعة فى نصرته للطامعين فى الملك، فتارة يؤيد محمودا وكامران وتارة يؤيد قيصر، على حين استنفد شجاع الملك قوته فى إنفاذ الحملة تلو الحملة على السند وكشمير، وأخيرا هزم فتح خان - الذى كان يؤيد آنئذ محمودا - شجاع الملك عند "نملة" سنة (١٨٠٩م) ففر شجاع الملك إلى الهند وبذلك بدأ العهد الثانى لمحمود فى الحكم، على أن محمودا كان يعتمد اعتمادا مطلقا على فتح خان فاستفحل سلطانه، وتولى أخوه دوست محمد منصبا رفيعا، وأصبح أخ ثان له هو محمد أعظم واليا على كشمير، وأخ ثالث يدعى "كوهندل" واليا على قندهار. وكانت هراة قد غدت مستقلة تحت حكم أمير آخر فأعاد فتح خان ودوست محمد فتحها سنة (١٨١٦م)، ولم يلبث دوست محمد أن استثار عداوة كامران الذى كان قد أصبح واليا من الولاة، ذلك أنه اقتحم حريم كامران وأهان أخته.وهنالك فر إلى كشمير وأنزل كامران انتقامه بفتح خان فسمل عينيه ثم قتله بموافقة محمود، على أن الأفغان كانوا يعجبون أشد الإعجاب بفتح خان على الرغم من غدره وعدم استقامته، فلم يجد أخوه دوست محمد أية صعوبة فى تجهيز جيش قوى هزم به محمودا سنة (١٨١٨م) قرب كابل، وفقد محمود كابل ولم يستردها من بعد قط، واحتفظ بهراه حتى توفى سنة (١٨٢٩م)، وظل كامران بحكم هنالك حتى قتل سنة (١٨٤٢م).



خريطة (٥)

نقلا من : دائرة المعارف الإسلامية

(ب) البيت الباركزائي (أو المحمدزائي):

وتنتسب المحمدزائي - وهي فرع من باركزائي قندهار الدرانية - إلى محمد، وهو معاصر لملك سدو زعيم العشائر الأبدالية عاش معه بين قبيلته الصغيرة في أرغسان جنوبي شرق قندهار حوالي سنة (١٥٩١م)، واتخذ أعقابه لقب الزعيم بيم القبائل الباركزائية في فندهار وبرزوا مع حاجي جمال خان أبن حاجي يوسف بن يارو بن محمد الذي عمل في ظل أحمد شاه وتوفي سنة (١٧٧٠-١٧٧١م)، وقد أدى أبنه باينده خان خدمات جليلة لتيمور شاه في قمعه لحركات العصيان، ولكنه أعدم في قندهار سنة (١٨٠٠م) للمؤامرة التي دبرها مع محمود لشاه زمان، وقد ترك باينده عدداً من الأبناء أقيم أكبرهم فتح خان وزيراً ولقب بشاه دوست بمناسبة احتلال محمود لكابل سنة ١٢١٥هـ (١٨٠٠م)، وبازدياد سلطان المحمدزائي تعارضت أطماعهم مع أسرة سدوزائي الحاكمة وأغرق ذلك أفغانستان في نضال وإهراق للدماء حتى استطاع دوست محمد أن يطرد محموداً من كابل بعد قتل أخيه هو فتح خان سنة (١٨١٨-١٨١٩م).

وما وافى هذا الوقت حتى كان زعماء باركزائي قد سيطروا على معظم البلاد، فحكموا أول الأمر باسم ملوك شتى من أسرة سدوزائي كانوا ألعوبة في يد غيرهم، مثل أيوب وسلطان علي (اتخذ اسم سلطان محمود على سكته)، وظلت الأمور تجرى على هذا المنوال حتى سنة (١٨٣٨م) وهنالك اتخذ دوست محمد رسميا لقب "أمير كابل"، ولكن لم يلقب بالشاه أو الملك لاهو ولا أحد من خلفائه حتى جاء حبيب الله، وفي السنوات الأولى من حكمه فقدت سريعا الولايات الخارجية للإمبراطورية، فقد استولى السيخ على ملتان سنة (١٨١٣م)، وعلى كشمير سنة (١٨١٩م)، وعلى ديره غازي خان في السنة نفسها، وعلى ديره إسماعيل خان سنة (١٨٢١م)، وقاومتهم بشاور في ظل سردار سلطان محمد - أخي دوست محمد - مدة طويلة، ولكنها سقطت سنة (١٨٣٤م).

ومحا أمراء السند باستيلائهم على "شكاربور" آخر مظهر من مظاهر السيادة الأفغانية، وسقطت كذلك بلخ شمالي هندوكش وبذلك أصبح دوست محمد

حاكما لمملكة أفغانية موحدة، وساعده على دعم سلطانه فقدان الولايات الخارجية التي كانت دائما مصدر ضعف للملوك السدزائية، وكان دوست محمد لا تأخذه حمة في سبيل بلوغ غايته، ومع ذلك فقد اشتهر بالعدل وكان محبوبا بين الأفغان، وقد عاقت نجاحه المنافسات المحتومة بينه وبين إخوته، وجعل دوست كابل قصبة لمملكته، في حين احتفظ كوهندل خان بقندهار وأحبط محاولة بذلها شجاع الملك السدوزائي لاستعادتها سنة (١٨٣٤م)، واستولى الفرس على هراة بعد قتل كامران بيد وزيره يار محمد خان سنة (١٨٤٢م) ولم يستردها دوست محمد إلا سنة (١٨٦٣م) قبيل وفاته.

وبعد أن اخفق شجاع الملك في قندهار حاول الاستعانة بالبريطانيين. وأدت الحوادث السياسية إلى حصوله عليها في النهاية، وقد فشل بيرنز Alexander Burnes في مفاوضة دوست محمد لعقد معاهدة معه، وازداد نفوذ روسيا فحمل ذلك الحكومة الهندية على تأييد مطالب شجاع الملك.وفي ذلك الوقت، أي في سنة (١٨٣٧م) كان الفرس قد حاصروا هراة، ودار في الأوهام أن عملياتهم الحربية كان يوجهها الروس فتولى ضابط بريطاني الإشراف على الدفاع عنها، وبذلك بلغت الأزمة غايتها، وتقدم جيش إنكليزي هندي مخترقا السند وممر بولان إلى قندهار في نهاية (فبراير سنة ١٨٣٩) واستولى على المدينة ثم سار إلى كابل، وهرب محمد إلى بخارى وأقيم شجاع الملك على عرش كابل في (١٧ أغسطس سنة ١٨٣٩).وقام دوست محمد ببعض العمليات الحربية الفاشلة في الشمال، ثم سلم نفسه للبريطانيين في السنة التالية وحمل إلى كلكتة.

وكان عهد شجاع الملك عهد اضطراب وقلاقل. وانسحب الجيش البريطاني الهندي من كابل سنة ١٨٤١، وكاد أن يباد عن آخره في انسحابه بممر "خرد كابل"، وكان يقود هذه العمليات الحربية محمد أكبر خان بن دوست محمد، وظل البريطانيون يحتفظون بجلال آباد وقندهار، وعادوا إلى احتلال كابل في خريف عام (١٨٤٢م)، وقتل شجاع قبيل ذلك، ونادى الفوفلزائية بابنه فتح جنكك وإن كان الباركزائية عارضوهم في ذلك، ولم يلبث البريطانيون أن تركوا

أفغانستان وصحبهم فتح جنكك ومعه زمان شاه الشيخ الضرير، وكان لا يزال بعد على قيد الحياة، لأنه كان يعلم أنه لا يستطيع وحده الاحتفاظ بملكه فيها، وأعيد دوست محمد إلى أفغانستان لأنه، كان الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقيم فيها حكومة وطيدة الأركان. وأعيد أبناؤه وإخوته إلى إماراتهم، ولكن الشقاقات ظلت تمزق من حين إلى حين وحدة العشيرة، بل إن أكبر خان - الذى أصبح آنئذ وزيراً - كان على علاقات سيئة بأبيه حتى وفاته سنة (١٨٤٩-١٨٥٠م)، وحافظ دوست على علاقاته الطيبة بالبريطانيين، اللهم إلا فى الفترة التى حدثت فيها حرب السيخ عام ١٨٤٩، إذ جلبت الفرقة الأفغانية على نفسها السخرية من جراء فرارها السريع بعد معركة كجرات، زد على ذلك أن دوست محمد لم يؤيد البريطانيين أى تأييد أثناء عصيان الجيش الهندى سنة ١٨٥٧، وصرف همه إلى تقوية بلاده ففتح ما بين سنتى (١٨٥٠-١٨٥٥م) بلخ وخلم وقندز وبذخشان،وفى سنة (١٨٦٣م) وفق إلى طرد الفرس من هراة، وتوفى هناك بعد استردادها مباشرة.

وكان دوست ملكاً صالحاً على الرغم من أخطائه ولم يلبث خامس أبنائه شير على - وكان دوست قد عهد إليه - أن اشتبك فى فتنة بينه وبين أخويه الأكبرين محمد أعظم ومحمد أفضل ومع عبد الرحمن بن محمد أفضل القديرن القوى العزم وهزم شير على سنة (١٨٦٦م) وفقد كابل أول الأمر ثم قندهار وتولى الحكم أفضل ثم أعظم حتى سنة (١٨٦٨م)، ولكنهما لم يستوليا قط على هراة، إذ خرج منها محمد يعقوب بن شير على وتقدم فى هذه السنة فاسترد لأبيه قندهار وكابل، وأصبح شير على آنئذ مسيطراً على أفغانسنتان كلها، واعترفت به الحكومة الهندية، وقابل نائب الملكة لورد مايو فى أمباله سنة (١٨٦٩م)، على أنه لم يرض عن المعاملة التى عومل بها، ذلك أنه لم يستطع الحصول على وعد محدد بتأييده على الدول الأخرى وفى هذا الوقت اعتقل ابنه محمد صاحب الأطماح واستاء من محاولة نائب الملكة التدخل لصالحه وقبل أن يتولى ضابط من البريطانيين أمر التحكيم فى حدود سجستان التى كانت تنازعه فيها فارس وانتهى هذا التحكيم سنة(١٨٧٣م) بمنح فارس جزءاً كبيراً من أخصب الأراضى، وكان هذا سبباً آخر من

أسباب إستيائه، وأخيراً بدأ يفاوض الروس ورفض أن يستقبل سفارة بريطانية، وأدت هذه الأمور إلى قيام حرب السنوات ١٨٧٨-١٨٨٠م . واستولى الجيش البريطانى على كابل، وهرب شير على إلى مزار شريف حيث توفى سنة (١٨٧٩م) وقد هزم جيشه المنظم على النمط الأوربى اللورد روبرتس فى ممر بيوار.

وأطلق سراح محمد يعقوب من سجنه ونودى به أميراً بعد فرار والده (فبراير - مارس سنة ١٨٧٩)، وقد لقى القوات البريطانية المتقدمة عند "كند مك" وعقد هناك معاهدة فى (٢٦ مايو) نزل بمقتضاها للهند البريطانية عن أراض معينة بالقرب من ممر بولان ووادى كرم، ووافق على أن يستقبل بعثة بريطانية فى كابل، وبعد أشهر قلائل شبت فتنة فى كابل انتهت بذبح أعضاء هذه البعثة التى كان يرأسها السير لويس كافانيارى Sir Louis Cavagnari وأدى ذلك إلى قيام الحرب من جديد، فاستولى روبرتس على كابل مرة أخرى، ولكن جيشا قبليا يقوده محمد خان والملا مشك عالم حاصره فيها، وهزم هذا الجيش فخلع يعقوب خان ونفى من الهند، وعرض الحكم على عبد الرحمن فقامت فى قندهار حكومة مستقلة. وسار قسم من الجيش فى قندهار إلى كابل بقيادة ستيوارت تمهيداً للجلاء عن البلاد. فلما اخترق منازل الغلزائى هاجمته قوة كبيرة من أهل هذه القبيلة، ولم تنزل بها الهزيمة إلا بعد قتال مستيئس، وما إن نودى بعبد الرحمن أميرا حتى كان أبن من أبناء شير على هو أيوب قد استكمل جمع جيش فى هراة، وسار به إلى قندهار، وهزم قوة إنكليزية هندية صغيرة عند "ميسوند" وحاصر قندهار،فأسرع روبرتس من كابل وهزم أيوب، وبعد ذلك أنسحب الجيش البريطانى وولى عبد الرحمن على البلاد كلها بما فيها قندهار سنة (١٨٨٠م)، وقد حافظ عبد الرحمن على وحدة أفغانستان واستقلالها على الرغم من المشاكل التى صادفته فى الداخل والخارج فلما أدركته المنية فى (أول أكتوبر سنة ١٩٠١) سلم أبنه حبيب الله سلطانا لا ينازعه فيه منازع. وبعد اعتلاء حبيب الله العرش بقليل عقدت معاهدة بين الروس والبريطانيين أزالت المخاوف من أن تضم دولة منهما أراضى من أفغانستان أو تتدخل فى شئونها، وفى سنة (١٩٠٥م) أيد الأمير المعاهدة التى سبق

أن عقدها أبوه مع الحكومة الهند البريطانية، تلك المعاهدة التى كفلت لهذه الحكومة الإشراف على العلاقات الخارجية لأفغانستان نظير إعانة سنوية قدرها ثمانية عشر "لخ" من الروبيات (١٦٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى)، وأما فى الداخل فلم يعكر شئ تقريبا صفو السلام والأمن، وحقق التعليم بعض التقدم. والتزمت أفغانستان أثناء الحرب العالمية الأولى سياسة الحياد، وفى (٢٠ فبراير سنة ١٩١٩) أطلق الرصاص على حبيب الله خان فى معسكره بقلعة كوش فى لغمان. ونادى أخوه نصر الله بنفسه خليفة له، ولكن الابن الثالث للأمير الله قد حصل على تأييد الجيش.

ولم يلبث أمان الله خان أن فتح باب العدوات مع الهند البريطانية، ولكنه سعى بعد شهر فقط إلى عقد هدنة، اعترف رسميا باستقلال أفغانستان فى معاهدة روالبندى فى (٨ أغسطس سنة ١٨١٩) ؛ وعقدت معاهدات جديدة مع الاتحاد السوفيتى وبريطانيا العظمى سنة ١٩٢١،على أن التوتر استمر على الحد الشمالى حتى سنة ١٩٢٢، وعلى الحدود الجنوبية الشرقية حتى ١٩٢٤، وفى سنة ١٩٢٢ صدر دستور فى جمعية وطنية أعقبه سنة ١٩٢٣ قانون إدارى، وتلت ذلك سنة ١٩٢٤ إجراءات بتوفير التعليم العالى للمرأة، ولما شبت نار فتنة فى خوست بزعامة الملا عبد الكريم ألغيت الإجراءات الأخيرة وعدلت قوانين التجنيد فى مجلس وطنى آخر (يولية سنة ١٩٢٤) وأخمدت الفتنة آخر الأمر. على أن الملك أمان الله الذى اتخذ لقب الملك فى ديسمبر سنة ١٩٢٦، قد دعا فى جمعيى وطنية ثالثة بعد عودته من رحلة فى الهند وأوربا والاتحاد السوفيتى وتركية (من ديسمبر سنة ١٩٢٧ إلى يولية سنة ١٩٢٨)، إلى إصدار دستور آخر، وإعلان برنامج للإصلاحات الاجتماعية والتعليمية، ونشأ من ذلك قيام سلسلة من الفتن القبلية خرج خلالها قاطع طريق تاجيكى اسمه باجه سقو - ثم لقب من بعد بحبيب الله خان - من كوه دامن واستولى على كابل فى يناير سنة ١٩٢٩ ؛ وفر أمان الله إلى قندهار وباءت محاولاته لاستعادة كابل بالهزيمة على يد أنصار حبيب الله من الغلزانية فى أبريل - مايو سنة ١٩٢٩، وفى هذه الأثناء كانت هراة قد احتلها تاجيكى آخر يدعى عبد الرحمن.

وهنالك تبنى قضية المحمدزائية فرع بعيد من فروع القبيلة انحدر من باينده خان يتزعمه قائد جيش سابق كان يعيش في الأسر وهو نادر خان (ابن محمد يوسف خان بن يحيى خان بن سلطان محمد خان أخي دوست محمد). واستطاع نادر خان بعد عدة محاولات فاشلة أن يجند سرا جيشا من الوزيرية والمحسودية استولى بقيادة أخيه شاه ولي خان على مدينة كابل حيث نودي بنادر خان ملكا ولقب بنادر شاه في (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٩)، وسلم حبيب الله وقتل، واقتضى نشر لواء الأمن وتهدئة الخواطر في البلاد سنتين أخريين. وظل السخط يسري بين مؤيدي أمان الله السابقين، وكان أكثرهم نشاطا أسرة جرخي في لوغر، وقد أدى إعدام زعيمهما إلى قيام نزاع دموي اغتيل أثناءه الملك نادر شاه في قصر دلكشا في (٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣). ونودي بابنه محمد ظاهر الذي كان في سن التاسعة عشرة خليفة له على أخوة نادر شاه الذي ظل أكبرهم سردار محمد هاشم خان يمارس الوصاية الفعلية على العرش حتى سنة ١٩٤٦. وقد أخمدت بشدة عدة فتن قبلية اشتعلت في الأعوام التالية، ونفذ في دأب برنامج فعال للتطور العسكري والتعليمي والاقتصادي، وفي سنة ١٩٣٤ دخلت أفغانستان هيئة الأمم وأبرمت سنة ١٩٣٧ ميثاق سعد آباد مع تركية والعراق وإيران. وأجريت مفاوضات سنة ١٩٣٦ لعقد اتفاق تجاري مع الاتحاد السوفيتي، والتزمت أفغانستان في الحرب العالمية الثانية الحياد الدقيق مرة أخرى، وسويت المنازعات الباقية على الحدود سنة ١٩٤٧، فسويت مسألة الحد الشمالي مع الاتحاد السوفيتي، وسوى النزاع مع إيران على نهر هلمند بالتحكيم الأمريكي. على أنه حدث منذ قيام باكستان في السنة نفسها أن ظلت مشكلة قبائل "الحد الشمالي الغربي" المتمردة التي استمرت قرنا تعكر صفو العلاقات بين أفغانستان والهند البريطانية - تفسد الصلات كذلك بين الدولتين الإسلاميتين.

الفصل السادس

المسلمون فى اتحاد ماليزيا

تبلغ مساحة اتحاد ماليزيا ٣٣٠,٤٣٤ كيلو مترا مربعا، وهذه المساحة في منطقتين تفصل بينهما مسافة ٧٥٠ كيلو مترا. والمنطقة الأولى هي شبه جزيرة الملايو وتضم ١١ ولاية هي: [بيرليس وقدح وبينانغ وبيرق وكيلانتون وترينغانو وباهانج وسالا تغور ونيغري سمبلان وملاقا وجوهور][1] والمنطقة الثانية شمالي جزيرة بورينو حيث توجد ولايتان تبلغ مساحتهما معا ١٩٨,٨٤٧ كيلو متراً مربعا وهي ولاية صباح وولاية ساراواك.

ويبلغ عدد السكان ١٦,٧ مليون نسمة وفق تقريرات عام ١٩٩١. ولكن سكان شبة جزيرة الملايو يشكلون ٨٢ ٪ من مجموع السكان. ويتألف الشعب الماليزي من مجموعات متعددة من السكان: الملايو ويشكلون ٥٦ ٪ والصينيون ويشكلون ٣٢ ٪ والهنود ويشكلون ١٠ ٪ ومجموعات محلية ٢ ٪.

أما اللغة فهي الملايوية رسمياً ولكن تستعمل اللغة الأنجليزية على نطاق واسع، وفي شمال جزيرة لوريتو تكون اللغة الرسمية هي الإنجليزية. ويتكلم الصينيون اللغة الصينية، غير أن اللهجات فيها كثيرة نذكر منها: الهوكيانية، الكنتونية، الهاكية، التوتشية، الهانيانية. ويتكلم الهنود لغات هندية كثيرة حسب المكان الذي قدموا منه، فمثلا هناك لغات: التاميلية، التلوجية والاردو، والكوجراتية والبنجابية.

وصل الإسلام إلى ماليزيا في القرن الثالث عشر الميلادي، ومن المعروف أن علاقة شبة جزيرة الملايو كانت متينة مع الهند وخاصة مع سواحلها الغربية التي انتشر فيها الإسلام في وقت مبكر نتيجة التجارة، وانتقال السفن المستمر بينها وبين أطراف شبه جزيرة العرب التي انطلق منها الإسلام. وكانت روابط شبه جزيرة الملايو متينة مع جزيرة سومطرة المواجهة من ناحية الغرب، والتي وصل اليها الإسلام أيضا لأن أطرافها الشمالية أقرب إلى الغرب حيث كانت تبحر السفن الإسلامية، وتتحكم تلك السفن في طرق المحيط الهندي البحرية وفي موانيه

---

[1] أنظر الخريطة رقم (٦) ص ٢٠٠.

وقواعده، وينتقل المسلمون التجار والدعاة على سواحله يحملون مع بضائعهم العقيدة الإسلامية التي تتلاءم والفطرة البشرية، وتعطي معاملتهم وسلوكهم وأخلاقهم صفة تختلف عما يتصف بها بقية التجار بل كان كل تصرف ينبع من تلك العقيدة، وكثيراً ما كان الدعاة يتخذون التجارة وسيلة ليتصلوا مع السكان وليدعوهم إلى الإسلام.

ولقد وصل الإسلام إلى جزيرة سومطرة في القرن الثالث عشر الميلادي. وعندما زار الرحالة الإيطالي (ماركوبولو) المنطقة عام ١٢٩٣ وجد التجار المسلمين في ميناء (برلاك) على الساحل الشمالي للجزيرة ذات الصلة الوثيقة بالملايو. ومن سومطرة انتقل الإسلام إلى الملايو. ومن المحتمل أيضا أن يكون تجار جنوبي الهند هم الذين كان لهم الأثر الواضح في إسلام الشعب في شبه جزيرة الملايو، لأن المسلمين هناك يتبعون مذهب الإمام الشافعي، وهو المذهب المنتشر في جنوبي الهند.

ومما ساعد على انتشار الإسلام في الملايو بشكل واسع رّد الفعل لقدوم المستعمرين الأوربيين ومعاملتهم السكان معاملة سيئة.

الديانات في ماليزيا:

يلاحظ تعدد الديانات في ماليزيا، وإن كان المسلمون يشكلون الأكثرية، إلا أنها أكثرية نسبية إذ تبلغ ٥٢ ٪ من مجموع السكان، وغالباً ما ترتبط الديانات بعناصر السكان، فالملايويون غالباً مسلمون والصينيون بوذيون والهنود هنادك وإن كان بعض الصينيين والهنود مسلمون، وكذلك فإن بعض الملايو يين غير مسلمين سواء أكانوا بوذيين أم هنادك أم عبدة أرواح وهم أهل الغابات، وتبلغ نسبة النصارى في ماليزيا ٨ ٪ من مجموع السكان.

هذا وينص الدستور في البلاد على أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة.

التنافس الاستعمارى الأوربى حول ماليزيا:

انطلقت البرتغال من قاعدة جوا، على سواحل الهند الغربية – ووصلت إلى مالقا فى عام ١٥٠٩ وفشل هجومهم وبعد عامين عاودت الكرة بقيادة البوكيرك، حيث سقطت فى أيديهم عام ١٥١١ وكان اسقوط مالقا أثر كبير فى أوربا حتى استدعى الأمر إلى إقامة "قداس شكر" فى روما عام ١٥١٥، وذكر (كاميلو بوريتون) فى الخطبة التى ألقاها أما (ليو العاشر) أن هذه المعركة ستسهل استعادة القدس، وفسر كيف أن الصليب قد وصل إلى أماكن بعيده واتهم حاكم ملقا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال القدس.[1]

الاستعمار الأسبانى والهولندى:

عند وصول الأسبان إلى الشرق كان التجار المسلمون من جزيرة بورنيو يقومون بتجارة نشطة رائعة مع بقية الجزر، كما أن الدعاة إلى الإسلام كانوا يبذلون جهوداً واسعة للدعوة وللتوعية بأهداف المستعمرين وعملهم ضد الإسلام، كما أن إمارة (برونى) قد أطلقت صيحة الدعوة لإسلام جارتها، وكان مسلمو (بورنيو) يمدون يد المساعدة للمسلمين فى القسم الجنوبى من الفليبين بعد أن توقف التوسع الإسلامى فى الجزر الشمالية نتيجة احتلال الأسبان لمدينة (مانيلا). وعندما وصلت هذه المعلومات لحاكم الفليبين الأسبانى (فرنسسكودى سندى) كتب لسلطان بورنيو (سيف الرجال) يطلب منه التوقف عن إرسال الدعاة للفليبين وأولاد بورنيو وأن يقبل منصرين كاثوليك فى بورنيو، ولكن هذا الطلب قد رفض بحزم، وكان ذلك عام ١٥٧٩. ولم تستطع إسبانيا أن تقوم برد فعل لعدم توفر الإمكانات لديها وقتذاك.

هذا علاوة على تحطم أسطولها فى يوليو ١٥٨٨ على يد الأسطول البريطانى فى الموقعة المعروفة باسم الارمادا ARMADA، وهو ما ممهد الطريق لدول أخرى أن تتقدم نحو الساحة وقد خلت تقريباً، وخشيت أوربا أن تفقد ما

---

[1] محمود شاكر، الإسلام فى ماليزيا ص ٣٠٦-٣٠٧.

حصلت عليه إذا ما انطلقت حركة جهاد ضد أوربا تدعم ما يقوم به العثمانيون من توغل فى شرق أوربا، لذا أسرعت الدول البحرية الأوربية لتملأ هذا الفراغ مما أدى إلى نشوب نزاع فيما بينها لبسط نفوذها.

فكانت هولندا فى أوربا فى حرب مع الأسبان سادتها وحكامها السابقين، وأصبحت السفن الهولندية – بعد موقعة الارمادا – تتنقل فى تلك البحار دون خوف من منازع قوى، فاتجهت أربع سفن هولندية نحو الهند عام ١٥٩٥، وبعد عام وصلت إلى سومطرة وجاوة لأول مرة وحدثت اشتباكات مع الأهالى، كما حدث مع البرتغاليين من قبل، وحاول البرتغاليون التصدى للأسطول الهولندى، فأمروا سفنهم بالتحرك من ملقا وجاوه لهذا الغرض، وعدوا كل سفينة لاتتبعهم غنيمة لهم يأخذونها، ومنها السفن الإندونيسية، فاصطدم البرتغاليون مع الإندونيسيين، وعجز الأسطول البرتغالى عن تحقيق غايته، وفى الوقت نفسه اعتبر الإندونيسيون الهولنديين حلفاء لهم ضد البرتغاليين.

وهكذا بدأت البرتغال تتزحزح عن مواقعها فى تلك الجزر، وإن احتفظت بمركز ملقا مدة أربعين سنة أخرى، إلا أنها بقيت ضعيفة لا يهتم بها أحد وبدأت هولندا تسيطر على المنطقة فأسست "شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢" على غرار شركة الهند الشرقية البريطانية التى تأسست عام ١٥٩٩، عندما استولوا على مدينة (مانيلا)، وقد أطلقوا سراحه، وتنازل للشركة عن منطقة فى شمالى جزيرة (بورنيو) لتقيم عليها مركزا لتجارتها، ولكن هذا المركز كان خاسراً فلم يعوض تكاليف إقامته. وعملت الشركة بعدئذ لإقامة قاعدة لها فى شبه جزيرة الملايو، وقد تمكنت من ذلك بسهولة إذ تملك (فرنسيس لايت) باسم الشركة جزيرة (بينانغ) التى تخص لإمارة (قدح) وذلك عام ١٧٨٦، وبعد خمسة أعوام حاولت إمارة (قدح) استعادة الجزيرة، فوافقت الشركة على أن تدفع لسلطان إمارة (قدح) وخلفائه من بعده مبلغ عشرة آلف دولار ماليزى سنويا مقابل اقتطاع جزيرة (بينانغ)، وكذلك فإن الشركة تمكنت من شراء ميناء سنغافورة عام ١٨١٨.

وهكذا صار لشركة الهند الشرقية البريطانية ثلاثة مراكز تجارية في جنوب شرقي آسيا وهي: مالاقا، وبينانغ، وسنغافورة فوحدتها بعضها مع بعض عام ١٨٢٥، وألفت منها مستعمرة للأفواج القادمة من بريطانيا إلى جنوب شرقي آسيا، وأصبحت هذه المستعمرة تدار من قبل حكومة الهند. وفي عام ١٨٦٧ سلمت المستعمرة إلى وزارة المستعمرات البريطانية.

اتخذ البريطانيون طريق المكر في الإدارة فلم تتدخل أول الأمر في شئون الحكومات الملايوية المحلية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر لأن شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت لها السيطرة في بداية الأمر ولا الحكومات المتعاقبة على السلطة في بريطانيا بعد أن سلمت المستعمرة إلى وزارة المستعمرات البريطانية، غير أن السياسة قد تغيرت بعد أن استقر الوضع للبريطانيين، وغدوا دون منافسين. وأخذ الاستعمار البريطاني منذ عام (١٨٧٣م) يتوسع في شبه جزيرة الملايو، وقد توطد على شكل معاهدات مع سلاطين الولايات واستمر نشاط الشركة ووجدت الفرصة مناسبة للعمل لانشغال إنجلترا في حروبها مع الأسبان كما أن هولندا اتجهت إلى تلك المنطقة بكليتها بعد أن انهارت تجارتها مع الهند بسبب منافسة إنجلترا وفرنسا لها، وقد أحست بالثراء وضرورة الاستمرار في الاستعمار. واشتد التنافس بين هولندا وإنجلترا في المنطقة وكانت النتيجة أن اضطرت هولندا إلى إلغاء كل احتكاراتها في تلك الجهات، ولكنها كانت قد احتلت ملقا عام ١٦٤٢. وأخيرا احتلت فرنسا الأراضي الهولندية في أوربا عام ١٧٩٥ فضعف أمر هولندا وزالت واستسلمت ملقا للإنجليز. وانتهت الحرب بين هولندا وإنجلترا إبان الحروب النابليونية وبعد هزيمة بونابرت، عادت هولندا فاستولت على ممتلكات الشركة الهولندية السابقة ولم تعد إلى مركز ملقا إلا في مناسبتين لمدة محدودة في كل مرة ثم تنازلت عنها نهائيا في عام ١٨٢٤، مقابل إعطائها مركزاً في غربي جزيرة سومطرة.

الاستعمار البريطاني:

بدأت المصالح البريطانية في الملايو من الناحية التجارية أولاً، مثلماً بدأت مصالح سابقيتها (البرتغال والهولنديين) من قبل، ففي النصف الأول من القرن الثامن عشر كانت شركة الهند البريطانية الشرقية بحاجة إلى مركز لتجارتها مع الصين، وكانت أول محاولة لإقامة هذا المركز في شمالي جزيرة بورنيو، وكان هذا الجزء يتبع لسلطان (صولو). وصولو مجموعة جزر في جنوبي الفلبيين، وكان هذا السلطان قد وقع في أسر البريطانيين أو الدويلات في شبه الجزيرة كلها حيث غدوا حكاماً محليين يرتبطون بالنفوذ البريطاني ويخضعون له. وفي عام (١٨٧٦م) جرت مفاوضات بين البريطانيين وبين حكام ولاية (بيرق) وعقدت معاهدة بين الطرفين كان الهدف منها أن يأخذ سلطان (بيرق) برأي المقيم العام البريطاني، ويعمل بموجبه في كل الأمور خلا ما يمس الإسلام والعادات الملايوية، على أن العادات غالبا ما تنبع من العقيدة. وفي العام نفسه دخل سلطان (سلانغور) في معاهدة مشابهة، وقبل بالمقيم البريطاني في ولايته، وكذلك اتخذت ترتيبات مشابهة فيما بعد سلاطين (نيغري سميلان) و(باهانغ) ثم راحت بريطانيا تجمع هذه الإمارات وتقسمها كما تشاء، وكما يحلو لها وتقضيه مصلحتها الاستعمارية، ففي عام (١٨٩٤م) شكلت اتحاداً من كل من (بيرق) و(سلانغور) و(نيغري سميلان) و(باهانغ)، وأصبحت هناك الولايات الأربع ذات مقيم عام بريطاني واحد، وحكومة مركزية واحدة.

وقبلت ولاية (جوهور) الحماية البريطانية عام (١٨٨٥م). وبموجب معاهدة (بانكوك) عام (١٩٠٩م) سلمت (تايلاند) كل حقوق السيادة، والإدارة، والحماية، والسيطرة على الدول الشمالية الأربع وهي: (كيلانتون) و(ترينغانو) و(بيرليس) و(قدح) إلى البريطانيين. وعلى الرغم من أن شروط المعاهدة المعقودة مع سلاطين هذه الدول كانت مشابهة تماما لشروط المعاهدات السابقة في ولايات شبه جزيرة الملايو الأخرى فإن هذه الدول قد بقيت خارج الاتحاد السابق، وإن شكلت فيما بينها اتحاداً عرف باسم (اتحاد الملايو). وقبلت كل دولة في الوقت

نفسه مستشاراً بريطانيا لديها. ولم تصبح أية ولاية من هذه الولايات الملايوية مستعمرة بريطانية بل بقيت السيادة في كل منها إلى سلطانها رغم وجود رباط اداري بين الولايات والجاليات البريطانية المقيمة فيها. حيث كان المفوض السامي لدول الملايو حاكما لهؤلاء المقيمين.

وكانت هناك مجموعة ثالثة من دول الملايو سمتها بريطانيا (مستوطنات المضيق)، وتشمل: (بينانغ) و(مالاقا) و(ويلسلي).

وأما بقية الولايات الملايوية وهي (جوهور) فقد عقدت بريطانيا عام (١٩١٤م) معها معاهدة جديدة قبل بموجبها السلطان مستشارا عاما بريطانيا.

استقلال ماليزيا:

كانت بريطانيا قد فرضت سيطرتها التامة على الولايات الماليزية كلها سواء أكان ذلك في شبه جزيرة الملايو أم في جزيرة بورنيو، وبسطت حمايتها عليها، وجزأتها بالشكل الذي يحلو لها وحسبما تقتضيه المصلحة الاستعمارية، وقد كانت تلك الولايات مقسمة على النحو التالي:-

١- **اتحاد يضم الولايات الأربع الآتية:** بيرق، سالانغور، نيغري سمبلان باهانغ،[1] وقد قام هذا الاتحاد منذ عام (١٨٩٤م)، ولهذا الاتحاد حكومة مركزية، ويشرف عليها مقيم بريطاني واحد.

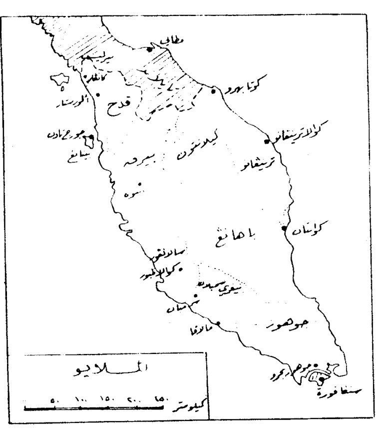
٢- **اتحاد الملايو:** ويضم الولايات الأربع الشمالية وهي: بيرليس، قدح كيلانتون. ترينغانو،[2] وقد قام هذا الاتحاد حسب معاهدة بانكوك عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م). وفي كل ولاية مستشار بريطاني، وتعد الولاية ذات سيادة، وتخضع لسلطانها. وأما الجالية البريطانية فتتبع للمفوض السامي.

٣- **مستوطنات المضيق وتشمل:** بينانغ، مالاقا، ويلسلي.

---

[1] انظر الخريطة رقم (٦) ص ٢٠٠.

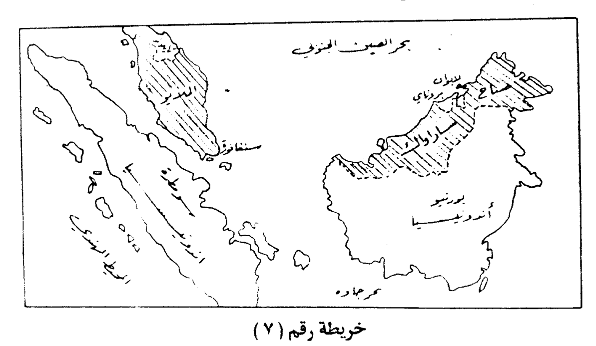
[2] انظر الخريطة رقم (٦) ص ٢٠٠.



خريطة رقم (٦)

نقلا عن: محمود شاكر المسلمون فى ماليزيا ص٣٢٠

الولايات فى شبه جزيرة الملايو



خريطة رقم (٧)

توضح الاتحاد الماليزى (المظلل بالخطوط السوداء)

نقلا عن محمود شاكر - المسلمون فى ماليزيا ص ٣٦٧

٤- محمية جوهور: وقد قبل سلطانها بجانبه مستشارا بريطانيا بعد عقد معاهدة معه عام (١٩١٤م).

٥- محمية ساراواك: وتخضع للحماية البريطانية منذ عام (١٨٨٨م).

٦- محمية بورنيو الشمالية: وتخضع للحماية البريطانية منذ عام (١٨٨٨م).

وأخذت بريطانيا تطبق سياستها الاستعمارية "فرق تسد"، فتقرب غير المسلمين من هندوس، وبوذيين، وهم ذو نسبة كبيرة نسبيا، وتقصى المسلمين من أعمال الدولة. وتضع غيرهم مكانهم، وتستولى على أملاكهم. وتضغط عليهم. وتفسح المجال على نطاق واسع للإرساليات التنصيرية، وتقدم لهذه الإرساليات كل ما تحتاج اليه. واستمر ذلك حتى الحرب العالمية الثانية.

الحرب العالمية الثانية:

دخلت اليابان الحرب إلى جانب دول المحور، واستطاعت القيام بحرب خاطفة باحتلال جنوب شرقى آسيا، وكان من بين ما احتلته جزيرة بورنيو، وشبه جزيرة الملايو بعد حملة دامت أكثر من شهرين من الزمن وذلك فى (٨ ديسمبر ١٩٤١م) كما استولت اليابان على سنغافورة معقل القوات البريطانية فى المنطقة فى (١٥ فبراير ١٩٤٢م). وقد قضى هذا الاحتلال اليابانى على فكرة تفوق الرجل الأبيض التى حاول المستعمرون الأوربيون ترويجها بين سكان المناطق.

وضعت البلاد تحت الإدارة العسكرية اليابانية فعينت هذه الإدارة رؤساء يابانيين لمختلف دوائر الدولة غير أن مهمتهم لم تكن أكثر من الإشراف، حيث كان الموظفون الملايويون يقومون بأعمال الإدارة المحلية الفعلية. وبهذا فقد تمرس السكان على القيام بالإدارة، وبرهنوا على مقدرتهم فى إشغال المراكز التى كان يشغلها البريطانيون من قبل، وشعروا بالثقة بالنفس، وأنهم فى غنى عن الدخلاء الذى يجب طردهم، وأن ما كانوا يشعرون به لم يكن سوى ضعف. ونتيجة الدعاية والتصرف الاستعمارى الذى قتل الروح المعنوية فى نفوس السكان.

وانتهت الحرب العالمية الثانية وهزمت اليابان مع دول المحور، واضطرت للإنسحاب من المناطق التى دخلتها، ومن بينها دول الملايو، ورجعت إنجلترا الى

قواعدها السابقة في الملايو ولتحل محل اليابانيين الذين غادروا المنطقة جاءت تعرض قيام وحدة ملايوية مركزية محل النظام الذى كان سائدا قبل الحرب والذى كان يتألف من دول إتحادية، كاتحاد دول الشمال، واتحاد الملايو، ومن دول غير اتحادية كمحمية جوهور، وكان من المفروض وحسب هذا المشروع فإن مالاقا، وبينانغ، وويلسلى أى مستوطنات المضيق وبقية المحميات يجب أن تكون ضمن هذا الاتحاد، ولكن بريطانيا لم تفعل ذلك، إذ قصدت بالاتحاد فقط دول اتحاد الشمال (بيرق، سالانغور، نيغرى سمبلان، باهانغ)، ودول اتحاد الملايو (بيرليس، قدح كيلانتون، ترينغانو)، ومحمية جوهور. أما مستوطنات المضيق فقد عدّتها أرضاً بريطانية، مع الوعد بإجراء انتخابات متى سمحت الأوضاع، وكانت الظروف مواتية، وهذا اصطلاح مرن يحتاج إلى مدة غير محددة. وأما سنغافورة فقد أصبحت مستعمرة منفصلة بحجة وجود المخازن والمستودعات القائمة فيها، وبسبب اقتصادها الخاص الذى يُعد حراً.

وأما ساراواك فقد رجع حاكمها إليها، واستأنف حكمه فيها بعد زوال الاحتلال اليابانى، وقد قبل أن تدخل محميته السابقة تحت سلطان التاج البريطانى، وهكذا تحولت ساراواك إلى مستعمرة بعد أن كانت محمية، بعد أن وافق مجلس المحمية على ذلك.

وفى الوقت نفسه حولت بورنيو الشمالية إلى مستعمرة بعد انتهاء حكم الإدارة العسكرية البريطانية. وبذا اقتصر مشروع الاتحاد على دول شبه جزيرة الملايو دون الجزر المحيطة بها مثل بينانغ، وسنغافورة، ودون المواقع ذات الأهمية الخاصة مثل مالاقا.

وفى (٣ مايو ١٩٤٥م) أعطت الخزانة البريطانية موافقتها على سياسة اتحاد الملايو بعد عودتها إليها بعد الحرب، كما وافقت على إرسال بعثة (ماك ميشيل).

وفى (٢١ ديسمبر ١٩٤٥م) أذعن كل السلاطين للشروط الجديدة التى فرضتها عليهم بريطانيا، وإن كان بعضهم قد أبدى بعض التحفظات غير أنهم كانوا راغبين بإظهار الإخلاص التام للبريطانيين. وألغيت كل المعاهدات السابقة التى

كان فيها البريطانيون يعترفون بها بحقوق السلاطين، وأصبح دور البريطانيين فقط مساعدة السلاطين لحكم بلادهم، وإن كان الواقع يشير إلى تلقى التوجيه، وطلب تنفيذ ما تراه الدولة التى كانت صاحبة السيادة.

ولكن مشروع الاتحاد هذا لم يوضع موضع التنفيذ نتيجة المقاومة العنيفة التى أبداها السكان ضده، حيث لم يوافقوا على الاقتراح أبدا، وخاصة ما نص منه على نقل السلطة من الحكام الملايويين، كما خاف أهل الملايو من موضوع الجنسية إذ خشوا أن يعطى الصينيون القادمون إلى البلاد جنسية البلاد. وتصبح لهم السيطرة حيث كانت بريطانيا تنوى هذا لإضعاف شان المسلمين ونسبتهم ونتيجة تلك المقاومة فقد سحب مشروع الاتحاد المقترح واستبدل بآخر. وقضى المشروع البديل الذى طرح عام (١٩٤٨م) أن تتمتع الدول والمقاطعات الملايوية المشار إليها بالمشروع السابق بشخصيتها ضمن اتحاد تديره حكومة قوية. وبقى الحكام يتمتعون بسلطتهم ضمن الاتحاد المزمع قيامه، وأخذت وسائل التنفيذ طريقها.

وضع دستور جديد للملايو عام (١٩٥٥م) حيث حولت أكثر مسؤوليات الحكومة الاتحادية إلى المجلس التمثيلى للشعب، وجرت الانتخابات العامة ففاز حزب التحالف برئاسة تنكو عبد الرحمن حيث حصل على ٥١ مقعدا من أصل ٥٢ مقعدا. وفى النصف الثانى من عام ١٩٥٥ عقد اجتماع فى لندن كان الهدف منه دراسة الطرق المؤدية لقيام حكومة محلية. ونتيجة الاجتماع تم التوقيع على اتفاق منح بموجبه اتحاد الملايو حق تأليف حكومة وطنية، وضرورة اتخاذ الترتيبات للوصول إلى الاستقلال قبل نهاية (أغسطس ١٩٥٧م).

وافق المجلس التشريعى على مشروع الدستور الذى وضع بعد التشاور بين الحكومة المحلية ممثلة لأحزابها وبين الحكومة البريطانية. ووقع الاتفاق لقيام اتحاد الملايو من قبل حكام الولايات، ونيابة عن ملكة بريطانيا وذلك فى (٢١ أغسطس ١٩٥٧م)[1] وفى نهاية الشهر أعلن استقلال البلاد (٣١ أغسطس١٩٥٧م)

[1] The New Cambridge Modern History XII. The shifting ballance of World Forces. (1898-1945) Lond 1968. P.326.

وكان دستور الدولة الجديد واحداً، إذ أصبح الاتحاد مملكة دستورية، وملكها هو "يانك دى بارتوان "وقد انتخب من قبل حكام الولايات لمدة خمس سنوات. أصبح الإسلام ديناً للدولة، وقبلت عضواً فى الأمم المتحدة فى (مايو ١٩٥٧م). وبقى شكل الحكم اتحادياً مع تشريع ازدواجى، وأصبحت الملايو ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث).

أما شمالى جزيرة بورنيو فبعد مدة قصيرة من الحكم العسكرى البريطانى الذى جاء عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعودة البريطانيين إلى المنطقة إثر هزيمة اليابان، وانسحابها من المناطق التى سبق لها أن احتلتها أصبحت مقاطعة شمالى بورنيو وجزيرة لابوان مستعمرة يحكمها بريطانى يساعده مجلس استشارى. واستمر ذلك حتى عام (١٩٥٠م) حيث وضع دستور، وانتهى المجلس الاستشارى، وأقيم مجلس تشريعى، وآخر تنفيذى. وكان الحاكم البريطانى يحكم المستعمرة بمساعدة المجلس التنفيذى الذى يسمى (المجلس الأعلى)، والمجلس التشريعى الذى يعرف باسم (مجلس الولاية). وأما مقاطعة ساراواك فقد أصبحت مستعمرة عام (١٩٤٦م) عندما تنازل الحاكم عن سلطته على الولاية إلى التاج البريطانى. وكذلك فإن سنغافورة قد أصبحت مستعمرة عام (١٩٤٦م) حتى عام ١٩٥٧ حيث وضع دستور ينص على حكومة محلية ذات استقلال ذاتى مع إبقاء مسؤوليات الدفاع والسياسة الخارجية من مهمات الحكومة البريطانية، وأجريت انتخابات على أساس هذا الدستور عام ١٩٥٩، وهى أول انتخابات جرت فى سنغافورة، وبهذا تكون سنغافورة قد حصلت على الاستقلال الذاتى.

حكم الطوارئ:

بدأ الإرهاب الشيوعى بشن حملة من الغارات على المؤسسات الاقتصادية. وقتل الناس، فى سبيل نشر الذعر، وشل حركة البناء الاقتصادى فى البلاد، فأعلنت الحكومة حالة الطوارئ، وفرضت الأحكام (العرفية، واستمر ذلك مدة اثنتى عشر سنة، وقامت الحكومة) تلاحق الشيوعيين، وتكافح وسائلهم حتى تمكنت من القضاء على الإرهاب فى (٣١ يوليو ١٩٦٠م)، وعندها رفعت حالة الطوارئ.

شمالي بورنيو:

أخذت نسبة الأعضاء غير الموظفين الرسميين تزداد في المجلسين التشريعي والتنفيذي لولاية شمالي بورنيو حتى غدوا الأغلبية، وأجريت الانتخابات لأعضاء السلطة التشريعية للدولة في (إبريل ١٩٦٣م). وفي (أغسطس ١٩٦٣م) وقبل أن تنضم إلى اتحاد ماليزيا تشكلت حكومة برئاسة رئيس للوزراء عوضاً عن الحاكم البريطاني. كما أن السلطة التشريعية كان غالبية أعضائها قد وصلوا إلى منصبهم بطريق الانتخاب، وهكذا وصلت إلى مرحلة الحكم الذاتي.

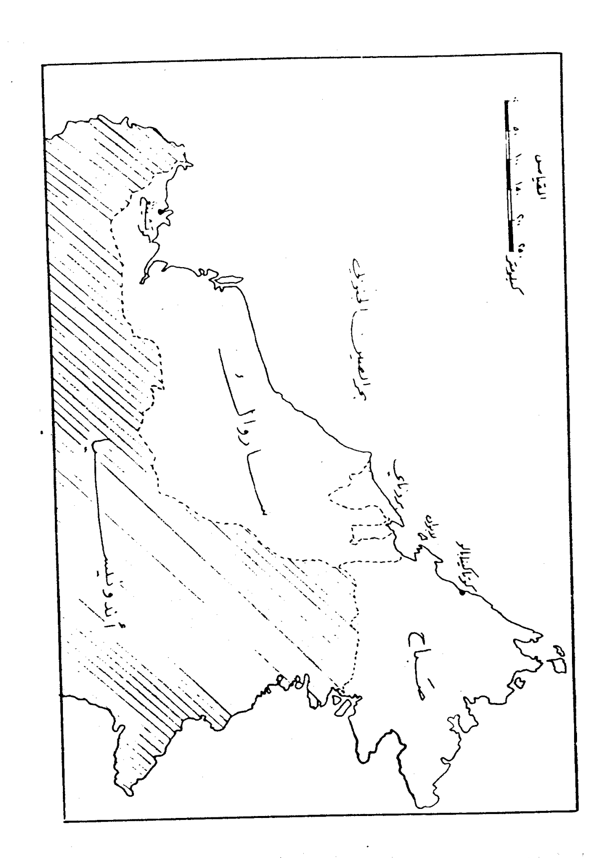
ساراواك:

وضع دستور جديد لولاية ساراواك في مطلع عام (١٩٥٦م)، وتم بموجبه انتخاب الأعضاء بالأغلبية، وبعد ثلاثة أعوام أصبح أعضاء الأقسام والمجالس الاستشارية يقومون باختيار أعضاء مجلس الولاية فيما بينهم. وفي (مارس ١٩٦٣م) قام مجلس الولاية بتعديل الدستور من أجل تحقيق الحكم الذاتي الشامل. وأجريت الانتخابات في (١٥ أغسطس ١٩٦٣م)، ونجح التحالف المؤيد لإقامة دولة اتحاد ماليزيا، وكان نجاحه كبيراً. وهكذا أصبح اتحاد الملايو مستقلا، وتتمتع كل من سنغافورة، وشمالي بورنيو، وساراواك بالاستقلال الذاتي، وأصبح من الممكن طرح فكرة الاتحاد الماليزي العام.

وأظهرت بريطانيا أنها لا ترضى عن قيام أحزاب طائفية، وخصت الإسلامية - حسب مصطلحها - ولا عن قيام أحزاب اشتراكية ما دامت تنظر إلى أمة ملايوية واحدة.

الاستقلال:-

اقترح رئيس وزراء الملايو تانكو عبد الرحمن (٢٧ مارس ١٩٦١م) العمل على توصل الملايو مع بريطانيا، وشعوب بلاد سنغافورة، وبورنيو الشمالية، وبروناي، وساراواك إلى اتفاق لوضع مخطط يهدف إلى إيجاد تعاون سياسي واقتصادي بين



خريطة رقم (٨)

ولا يتى صباح وساراواك

نقلا عن: محمود شاكر، المسلمون فى ماليزيا

هذه البلدان يؤدى إلى وحدتها ما دامت كلها تعود إلى أصل واحد. ولقد تجاوب الزعماء فى كل من سنغافورة، وبورنيو الشمالية، وساراواك مع هذا الاقتراح، وتبع ذلك محادثات بين الحكومات والممثلين الشعبيين، وأعلن الاتحاد الماليزى (UNMO) United Malays National Organisation بموجب استفتاء جرى فى (١٩٦٢م)، ولقد أيدت هذا المشروع المجالس التشريعية فى بورنيو الشمالية وساراواك، ولكن حكومة بروناى لم تقرر الدخول فى هذا الاتحاد.

عقد أخيرا اتفاق ماليزيا بين اتحاد الملايو، وسنغافورة، وساراواك، وبورنيو الشمالية وبين الحكومة البريطانية بتاريخ (٩ يوليو ١٩٦٣م)، وقد نص هذا الاتفاق على انتقال السيادة فى بورنيو الشمالية التى أصبح يطلق عليها اسم (صباح) وفى ساراواك، وسنغافورة من يد البريطانيين إلى حكومة ماليزيا بتاريخ (٣١ أغسطس ١٩٦٣م)، كما وضح الاتفاق العلاقات بين سنغافورة والاتحاد الجديد. ولكن سنغافورة عادت فانسحبت من الاتحاد، ولم يمض عامان على قيامه.

وكانت كل من إندونيسيا والفيليبين تعارض الاتحاد، فإندونيسيا ترى أن جزيرة بورنيو كلها إندونيسية، ولذا فهى لا تسمح بأن تنزع منها أجزاؤها الشمالية، وتمانع فى ضم تلك الأجزاء إلى ماليزيا أو أية دولة أخرى، وأما دولة الفيليبين فلها أطماع فى شمالى جزيرة بورنيو، وخاصة بروناى حيث يتوفر النفط. لذا فهى تعارض فى ضم تلك الأجزاء إلى ماليزيا، أو إلى إندونيسيا، أو استقلالها وإبعادها عنها.

وبعد اجتماعات متكررة أعلنت إندونيسيا والفيليبين أنهما توافقان على قيام اتحاد ماليزيا فيما إذا وافق شعبا صباح وساراواك على قيامه، حيث لا تعارضان رغبات الشعوب، ولكن تشترطان على الإبقاء على الحكم الذاتى فيهما، إذ تأمل كلتاهما بفرض عقد الاتحاد بعد مدة أو ترغبان بالإبقاء على جزء من الأمل للمستقبل. وحتى يحصل الاتحاد على موافقة إندونيسيا والفيليبين بقيامه وافق على تحقيق رغبات كلتا الدولتين، وطلب من الأمين العام للأمم المتحدة التأكد من رغبات شعبى صباح وساراواك فى قيام الاتحاد، وحمل الأمين العام المسؤولية على

عاتقه، وقام بالمهمة، (١٣ مايو ١٩٦٣م) رفع الأمين العام الأمم المتحدة تقريرا يؤكد فيه دعم شعبي صباح وساراواك لاتحاد ماليزيا الذي أصبح واقعيا في (١٦ مايو ١٩٦٣م).

ولكن إندونيسيا بالواقع لم ترض عن قيام اتحاد ماليزيا، وقد أعلن أحمد سوكارنو رئيس جمهورية إندونيسيا آنذاك عن مجابهة ماليزيا، وتدخلت الأمم المتحدة في ذلك، وشكل سوكارنو فرقا شبه عسكرية لسحق ماليزيا. غير أن هذه الفرق قد استغلتها العناصر الشيوعية في تدريبها وتسليحها، وأسرعت في إعلان ثورتها عام (١٩٦٥م)، ولكن هذه الثورة قد فشلت، ونحي سوكارنو على إثرها عن الحكم حيث اتهم بدعم تلك الثورة. وبعد سقوط سوكارنو ألغيت فكرة المجابهة. وحدث الاتفاق بين ماليزيا وإندونيسيا، وعادت إندونيسيا للأمم المتحدة، وكانت قد تركتها بسبب انتخاب ماليزيا عضوا في مجلس الأمن.

لم تكن حكومة الملايو تخشى انضمام سنغافورة إليها خوفا من طغيان العنصر الصيني الموجود في سنغافورة إضافة إلى ما هو موجود في الملايو، ولا من سيطرة الشيوعية إذ أن الأمن كان لا يزال من مهمة بريطانيا، ولكن تانكو عبد الرحمن رئيس الحكومة الملايوية كان يتوقع أن استقلال سنغافورة إذا تم فسيسيطر عليها الشيوعيون، وستتخذ قاعدة للهجوم على الملايو، لذا فأفضل حل هو دمجها مع الاتحاد الملايوي. وكانت حكومة الملايو ترى من وجهة نظر ثانية أن انضمام شمالي جزيرة بورنيو (صباح، ساراواك، بروناي) سيعيد توازن العنصر العرقي بسبب العنصر الملايوي هناك.

وفي (أوائل عام ١٩٦٢م) صوتت الفليبين ضد اتحاد ماليزيا، إذ كان رئيس الفيليبين (ماكابغال) يعد شمالي جزيرة بورنيو جزءا من الفيليبين. ويدعي أن ذلك الجزء كان عام (١٨٧٨م) يتبع جزر صولو التي هي جزء من الفيليبين، وأن انفصال شمالي بورنيو عن صولو إنما كان على صورة استنجار لا على أساس بيع، وكانت الشركة البريطانية تدفع دفعات نظامية سنوية. وفي شهري (يوليو وأغسطس ١٩٦٢م)

جرت لقاءات بين رؤساء إندونيسيا والملايو والفيليبين في مانيلا من أجل الوصول الى صيغة من التسوية، ولكن لم يتوصلوا لقرار.

وفي (مايو ١٩٦٣م) أعلن الاتحاد الماليزي، وقطعت كل إندونيسيا والفيليبين علاقتها مع دولة الاتحاد التي نشأت، وجرت اشتباكات وغارات على الحدود في بورنيو.

وفي (أواسط عام ١٩٦٥م) انتخب (ماركوس) رئيساً للفيليبين. وسقط (ماكابغال) وتبدلت السياسة العامة، وتحسنت العلاقات مع ماليزيا بعد (مايو ١٩٦٥م) وفي شهر (يونيو ١٩٦٦م) اعترفت الفيليبين باتحاد ماليزيا. وفي (أغسطس ١٩٦٦م) وقعت اتفاقية سلام بين الطرفين.

سنغافورة:

كان حزب العمل الشعبي هو صاحب النفوذ في سنغافورة. وكان رئيسه المحامي، (لي كوان يو)، وفي الانتخابات التي جرت هناك عام (١٩٦٣م) حصل الحزب على سبعة وثلاثين مقعداً من أصل واحد وخمسين مقعداً في المجلس التشريعي السنغافوري. وحصل خلاف بين هذا الحزب وبين حزب التحالف الملايوي في انتخابات شبه جزيرة الملايو، وقد نجح حزب التحالف. وحصل على تسعة وثمانين مقعدا من أصل مائة وتسعة وخمسين مقعداً في المجلس التشريعي في شبه جزيرة الملايو. وجرت محاولة للتفاهم بين الحزبين في (مايو ١٩٦٤م) ولكن من غير فائدة، فقرر بعدها حزب العمل الشعبي مخاصمة حزب التحالف أي الحكومة الماليزية. وشكل حزب العمل الشعبي حلفا ضم عددا من أحزاب المعارضة، وكان أكثر هذه التركيبة من العنصر الصيني، وهذا ما جعل الصراع عرقياً. ورأت ماليزيا أن انسحاب سنغافورة من الاتحاد إنما هو في مصلحته.

وفي (أغسطس ١٩٦٥م) استطاع ممثلو البيت الماليزي (ديوان راكات) إقرار لائحة تعديل دستوري يمكن فيها لسنغافورة الانسحاب من الحزب.

شمالي جزيرة بورنيو:

منح حزب التحالف الملايوي مدة أطول لمقاطعات شمالي بورنيو لتتمشى مع سياسة الملايو، ومنح قطعتين من الأرض لإمارة بروناي تشجيعا لدخولها في الاتحاد، ووعد قادتها بإعطائهم حكماً ذاتياً أكثر مرونة من صلاحياتهم. وخشي رئيس وزراء الاتحاد تانكو عبد الرحمن من عمل رئيس وزراء ولاية صباح على الانفصال وهو (دونالد ستيفنز) فأبعده عن منصبه وعين مكانه داتو مصطفى. وكان رئيس وزراء ولاية ساراواك (ستفن كالونغ) يعد مجموعة (الأبان) من أكبر المجموعات في الاتحاد، لذا عزل، وعين مكانه (أبان تاوي سلي) الذي يخضع لرأي كوالالمبور بصورة أفضل.

الدستور:

ماليزيا اتحاد يتألف من دول الملايو التسع: جوهور، قدح، كيلانتون، يرق، باهانغ، نيغري سمبلان، سلانغور، بيرليس، ومن المحميات البريطانية السابقة: مالالقا، بينانغ، ومن المستعمرات البريطانية السابقة: صباح، ساراواك.

وعلى الرغم من أن دساتير هذه الدول الأعضاء في الاتحاد تختلف بعضها عن بعض في بعض التفصيلات، فإن أسسها واحدة، وهي المحافظة على نظام الحكم الملكي الذي يعتمد على الحياة النيابية، وينتخب الرئيس الأعلى لماليزيا، وهو الملك، من قبل مجلس الحكام لمدة خمس سنوات.

ويتألف المجلس النيابي الاتحادي لماليزيا من مجلسين: مجلس الشيوخ، ومجلس الممثلين.

ويعين الملك رئيس مجلس الوزراء الذي يختار الوزراء الذين يجب أن يكونوا أعضاء في المجلس التمثيلي، ويوافق عليهم الملك.

ويكون رئيس الوزراء هو الرئيس التنفيذي للحكومة الاتحادية. وقد اختير أول رئيس للوزارة تانكو عبد الرحمن، أما الملك الأول فكان اليانغ دي برتوان أغونغ وهو ابن سيد حسن الجمال، وتتم الانتخابات كل خمس سنوات، والسلطة بيد تحالف يشمل معظم الأحزاب في البلاد باستثناء الحزب الإسلامي وحزب العمل الديموقراطي.

الفصل السابع

المسلمون في بروناي

بروناى دولة صغيرة تبلغ مساحتها ٥٧٦٥ كيلو مترا مربعا ويقدر عدد سكانها حسب تقديرات عام (١٩٩٢م) ٢٨٠ألفا، ويبلغ طول سواحلها١٦٠ كيلو مترا. يعتمد اقتصادها على النفط والغاز الطبيعى، وتوجد خمس آبار فى الداخل، وبئران على الساحل. ويقدر إنتاجها من النفط بسبعة ملايين طن، وما يقرب من (٧١٨,٠٠٠) طن من مشتقات النفط. أما الغاز الطبيعى فيقدر إنتاجها منه بـ ٨٦٥٤ مترا مكعبا ويعمل فى هذا الميدان ٥,٧٪ من اليد العاملة. ويشكل النفط والغاز ٩٢٪ من الدخل الوطنى.

ويعمل ٥٪ من اليد العاملة فى الزراعة والغابات وصيد الاسماك. واشهر زراعتها الأرز والموز والأناناس. وتستهلك ٦٥٪ من الصيد محليا ويصدر الباقى. ويأتى هذا الصيد من مياه المحيط والمياه العذبة الداخلية ومن نهر برونى الكبير.

ويعتبر دخل الفرد فى بروناى من المعدلات المرتفعة فهو يصل إلى (١٥٣٩٠) دولارًا أمريكيا سنويًا. والعمالة أكثرها من خارج بروناى (من ماليزيا وسرواك).

السكـــــان:

يشكل أهل الملايو ٧٪ من مجموع السكان. والصينيون يشكلون ١٩٪ من سكان البلاد. وهناك مجموعات أخرى من الفلبينيين والاندونيسيين والتايلانديين واليابانيين والأوربيين وهم يشكلون ١٠٪ من السكان.

وتعهدت بريطانيا – إبان احتلالها للبلاد – الأقليات غير المسلمة فى محاولة منها لاضعاف المسلمين. وسيطر الصينيون على قطاع التجارة الخاص فى بروناى.

ويتكلم السكان اللغة الملايويه، وهى الرسمية والشعبية. وإن كانت المراسلات كافة لا تتم إلا باللغة الإنجليزية والتى تعد شائعة، كما أن الصينيين يحافظون على لغتهم فيعلمونها فى مدارسهم، ويتكلمون بها فيما بينهم وإن كانوا يعرفون الملايويه، ويفهم أكثرهم الإنجليزية، وكذا المجموعات الأخرى من بقية الأجناس.

كانت بروناى فى الماضى دولة ذات شأن يمتدّ سلطانها على مناطق واسعة من جزيرة بورنيو بما فى ذلك المناطق الساحلية لشمال الجزيرة وهى ولايتى (صباح) و(ساراواك) حاليًا، واللتان أصبحتا فيما بعد ولايتين تتبعان ماليزيا. أخذ الإسلام ينتشر فى جنوب شرقى آسيا منذ نهاية القرن الثالث عشر، وأخذ يتوسّع نفوذ المسلمين عن طريق التجارة، وغدا من الزمن أهم عدة سلطنات فى تلك المنطقة، وفى عام ١٤٢٥ زار سلطان بروناى (أوانغ ألاك بتاتار) سلطان مالاقا المسلم محمد شاه (باراميسورا)، وأعتنق الإسلام، ورجع إلى بلاده مسلمًا فدعا شعبه، فاستمع إليه من استمع، وأخذ الإسلام ينتشر فى بروناى بسرعةٍ متزايدة.

وفى القرن السادس عشر، كان نفوذ سلطنة بروناى قد وصل إلى الأوج حيث شمل أكثر أراضى جزيرة بورنيو كما شمل جزر صولو فى جنوبى الفيليبين اليوم، وجزءاً من بقية الجزر الأخرى.

فى هذا الوقت كان الاستعمار الأوروبى قد وصل إلى المنطقة، وأخذ يتدّخل فى شؤونها، ويحتلّ أراضيها، وقد وصل المستعمرون الأسبان إلى بروناى عام ١٥٢١ وكان التجار المسلمون يجوبون سواحل جزر المنطقة كلها، ويقومون بأعمال نشطةٍ، وكانت تجارتهم رائجة على نطاقٍ واسع، ولم يكن الدعاة أقلّ نشاطًا من التجار، بل إن التجار أنفسهم كانوا دعاة.

واحتلّ الإسبان الجزر الشمالية مما يعرف اليوم باسم الفيليبين، ودخلوا مدينة مانيلا، فتوقّف نتيجة ذلك المدّ الإسلامى فى تلك الجهات، وأخذ الصراع بين الإسبان النصارى فى الشمال وبين المسلمين فى الجزر الجنوبية يشتد فى محاولة الإسبان لمدّ نفوذهم على الجزر الجنوبية وإخضاعها لسيطرتهم الصليبية. فكان سلطان بروناى يمدّ المسلمين، ويدعمهم بكل إمكاناته، فما كان من الحاكم الإسبانى للجزر الشمالية إلا أن كتب إلى السلطان يطلب منه التوقّف عن هذا الدعم. والإمتناع عن إرسال دعاة من قبله إلى الجزر الجنوبية وإلى أواسط جزيرة بورنيو بل وإلى قبول منصّرين كاثوليك فى جزيرة بورنيو، غير أن السلطان قد رفض هذا الطلب بحزم، ونقل مقرّه من بروناى إلى جزر صولو ليكون أقرب إلى الإسبان

للمواجهة من باب التحدّى والرغبة بالمنازلة، ولم تستطع إسبانيا أن تقوم بردّ فعل لضعفها آنذاك وعدم توفّر الإمكانات لديها. وذلك عام ١٥٧٩م.

ونتيجة ضعف إسبانيا والبرتغال لسيطرتهم على أجزاء واسعة لا إمكانية لهم بالسيطرة عليها بشكل قوى لذا فقد تقدّمت دول أوربية أخرى لسدّ هذا الفراغ ودعم النصرانية بقوة، هذا إضافة إلى الصراع القائم بين هذه الدول فى أوروبا، ورغبة من هذه الدول فى منافسة إسبانيا والبرتغال للحصول على خيرات المستعمرات واستغلال موارد البلاد التى وصلت إليها هاتان الدولتان أو كنوع من نقل الصراع الى هذه المناطق وتتمةً له.

دخلت هذا الصراع أو هذه المنافسة هولندا، وفرنسا، وانكلترا، وأسست كل منها شركة للاستغلال واستثمار ما تضع يديها عليه. وفى النصف الاول من القرن الثامن عشر كانت شركة الهند الشرقية البريطانية بحاجة إلى مركز لتجارتها مع الصين. وكانت أول محاولة لإقامة هذا المركز فى شمالى جزيرة بورنيو، وكان هذا الجزء يتبع سلطان (صولو)، وكان هذا السلطان قد وقع فى أسر البريطانيين عندما استولوا على مدينة مانيلا، وقد أطلقوا سراحه، فتنازل لشركة الهند الشرقية البريطانية عن منطقة فى شمالى جزيرة بورنيو لتقيم عليها مركزًا لتجارتها كفداء لفكاك أسره. وكان الهولنديون كذلك قد أقاموا مراكز تجارية لهم فى سلطنة بروناى منذ بداية القرن الحادى عشر الهجرى، ثم اقتصرت هذه المراكز على (ساراواك) وأجزاء من بورنيو الشمالية.

تدخّل المغامر البريطانى (جيمس بروك) فى عام ١٨٤٣ فى خلاف نشب بين نائب السلطان فى برونى وبين الثوار الملايويين وملاك الأراضى فكافأه السلطان على جهوده وإمكانيته على تهدئة الوضع بأن عيّنه حاكمًا على (ساراواك) عام ١٨٥٢.

وفى عام (١٨٤٧م) دخل سلطان بروناى فى اتفاقية مع بريطانيا لمقاومة القرصنة وتطوير العلاقات التجارية. وعيّن البريطانيون قنصلا لهم لدى سلطان بروناى، وتنازل لهم السلطان عن مراكز فى شمال شرقى جزيرة بورنيو نتيجة للأعمال التى قاموا بها، كما تنازل سلطان (صولو) عن مراكز أخرى لهم عام

(١٨٧٨م). ثم تأسست شركة (شمال بورنيو) البريطانية عام (١٨٨٢م)، وأخذ نفوذ بريطانيا يتوسّع، ونفوذ سلطان بروناي يتقلّص حتى وصل إلى ما هي عليه الآن من ضيق المساحة، وضعف في النفوذ. وأخيرًا توطّدت سيطرة البريطانيين على جزيرة بورنيو كلها، وقسّمت إلى أجزاء حسبما تقتضيه مصلحة بريطانيا الاستعمارية.

وفي عام (١٨٨٨م) وضعت بروناي تحت الحماية البريطانية. وكذلك وضعت بورنيو الشمالية (صباح) و(ساراواك).

وفي عام (١٩٠٦م) وقّع البريطانيون اتفاقية مع سلطان بروناي قضت بوضع مقيم بريطاني في حاشية السلطان كمستشار للأمور الإدارية. وانبثق نتيجة ذلك شكل حكومة شملت مجلس شورى استشاري. ومنذ أن اتسع النفوذ البريطاني وبروناي مسرحًا لنشاط الإرساليات التنصيرية المدعومة بقوة المستعمر ومدّه بالإمكانات الضخمة.

وظلت بروناي محمية بريطانية، السلطان صورة رمزية، وأصحاب النفوذ هم البريطانيون، يستغلّون خيراتها، ويتصرّفون بشؤونها باسم الدفاع عنها، ويجعلون أرضها مرتعًا لإرسالياتهم التنصيرية. واحتل اليابانيون بروناي في الحرب العالمية الثانية ١٩٤١م ولكن لم تلبث اليابان أن انسحبت من بروناي كما انسحبت من غيرها بعد هزيمتها، ولم يمض على بدء الاحتلال أربعة أعوام. وفي عام (١٩٤٨م) عيّن البريطانيون حاكم (ساروواك) مندوبًا ساميًا لبريطانيا في بروناي، واستمرّ هذا المنصب حتى (أيلول ١٩٥٩م) حيث دوّن الدستور لبروناي، وقد أعلنه السلطان في ٢٩ مايو ١٩٥٩م، ونصّ على قيام مجلس خاص للسلطان، ومجلس تنفيذي، وآخر تشريعي. وألغي عندها منصب المندوب السامي، وقامت في البلاد إدارة منفصلة بناء على اتفاقية وقّعت بين السلطنة والحكومة البريطانية.

وقام الإتحاد الماليزي (١٩٦٢م)، ولكن حكومة بروناي لم تقرّر الدخول فيه. ثم اندلع تمرّد في بروناي، وبورنيو الشمالية (صباح)، وأجزاء من ساراواك في ١٩٦٢م تبنّاه جيش التحرير في شمالي بورنيو، وقاده أحمد محمد الزهاري، والهدف منه معارضة الانضمام إلى الإتحد الماليزي، وأعلن المتمرّدون عن قيام دولة

"كاليمنتان الثورية" غير أن التمرّد قد أخمد بعد عشرة أيام من اندلاعه بمساعدة قوات بريطانية حملت من سنغافورة. وأعلنت حالة الطوارئ فى البلاد، وحظر نشاط حزب الشعب، ونفى أحمد محمد الزهارى إلى لملايو. وأخيرًا عقد اتفاق ماليزيا بين كل من (اتحاد الملايو) و(سنغافورة) و(ساراواك) و(بورنيو الشمالية) وبين الحكومة البريطانية بتاريخ (٩ يوليو ١٩٦٣م)، وقد نصّ هذا الاتفاق على انتقال السيادة فى (بورنيو الشمالية) التى حملت اسم (صباح) و(ساراواك) و(سنغافورة) من يد البريطانيين إلى حكومة ماليزيا بتاريخ (٣١ أغسطس١٩٦٣م)، كما وضح هذا الاتفاق العلاقات بين سنغافورة والاتحاد الجديد. وقرّر سلطان بروناى عدم الانضمام إلى هذا الاتحاد، كما عارضته الحكومتان الأندونيسية، والفيليبينية. وهكذا بقيت سلطنة بروناى وحدها، منفصلة عن اتحاد ماليزيا الذى يشمل الأراضى المحيطة بها، وبعيدة عن أندونيسيا التى تملك باقى أجزاء جزيرة بورنيو، وهى القسم الأعظم منها، والتى تعدّ دولة بروناى جزءاً صغيراً على سواحلها الشمالية لا يكاد يعادل ٧٩٪، ويملك اتحاد ماليزيا ما يقرب من ثلث الجزيرة، والباقى من نصيب إندونيسيا.

وطبّق الدستور الذى أصدره السلطان منذ عام (١٩٦٢م)، ولكن بقيت الأحكام العرفية معمولا بها بدءاً من حوادث التمرّد التى قام فى البلاد. وعدّل الدستور فى (٦ ديسمبر ١٩٦٥م) ليكون المجلس التشريعى عن طريق الانتخاب، فالمجلس التنفيذى (مجلس الوزراء) يرأسه السلطان. أما المجلس التشريعى فيضمّ واحدًا وعشرين عضوًا يؤخذ عشرة منهم بالانتخاب، وخمسة بالتعيين، وستة يدخلون المجلس بحكم وظائفهم الرسمية. ومندوب السلطان ويسمّى (منترى بيسار) أى الوزير الأكبر فيمارس السلطة التنفيذية نيابة عن السلطان، ويحضر جلسات المجلس التشريعى باسمه. وفى (٥ أكتوبر ١٩٦٧م) تنازل السلطان سيف الدين عمر على الذى كان بيده الحكم منذ عام (١٩٥٠م) عن السلطة إلى ابنه حسن البلقياح الذى لا يزيد عمره على الواحدة والعشرين سنة، وتم تتويجه فى (الأول من أغسطس ١٩٦٨م) باسم (معز الدين ودود الله)، وهو السلطان التاسع والعشرون.

وفى (١٩٧١م) منحت بريطانيا الحكم الذاتى لسلطنة بروناى.

وفي ذي الحجة (ديسمبر ١٩٧٥م) أصدر مجلس الامم المتحدة قرارا دعا فيه بريطانيا بالانسحاب من بروناى، وعودة المنفيين السياسيين، وإجراء انتخابات عامة. وتمت مفاوضات بين سلطنة بروناى وبين بريطانيا عام (١٩٧٨م)، وأعقبتها تأكيدات من اندونيسيا وماليزيا على احترام استقلال سلطنة بروناى، ووقعت اتفاقية بعد ذلك بين الطرفين في شهر (يناير ١٨٧٩م) قضت بأن تصبح بروناى دولة مستقلة خلال خمس سنوات، وفي (الأول من يناير ١٩٨٤م) أى حسب الوقت الذى نصت عليه الاتفاقية أعلن استقلال دولة بروناى. وشغل السلطان حسن إضافة إلى منصب السلطان رئاسة الوزراء، ووزارة المالية، والداخلية، وضم مجلس الوزراء ستة آخرين بينهم والده السلطان السابق، وأخوان للسلطان حسن.

استقلال بروناى

حصلت بروناى على الاستقلال في (الأول من يناير ١٩٨٤م)، غير أنها دولة صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وهى محط أنظار الكثير من الدول، وكل منها يريد السيطرة عليها لغناها بالنفط، وفي الوقت نفسه فهى بحاجة إلى الكثير من البضائع من مختلف الصناعات إذ ليس لديها أية صناعة، وإن إعطاء إنجلترا الاستقلال لها يبقيها بحاجة إليها للدفاع عنها على الأقل وردّ الأطماع التى تتجه نحوها. فالاستقلال معناه إسمى أولاً، وهذه الغاية من تقسيمات الدول الاستعمارية للدول الإسلامية ففى الوقت الذى نجد الدول تضم مساحات واسعة، وفيها أعداد كبيرة من السكان، وتملك إمكانات ضخمة للدفاع عن نفسها بل وعن غيرها، وبإمكانها أيضًا اكتساح مناطق غيرها نجد بعض القطع من الأراضى الإسلامية أشبه بدمى، وتسمى دولاً، إذ لا تشمل الواحدة منها سوى رقعة صغيرة لا تزيد أحيانًا عن مساحة مدينة واحدة، وربما لا تصل إلى مساحة بعض المدن. وسكان عدد منها قد لا يصل إلى عدد سكان مدينة متوسطة أو دون ذلك، وهذه ما تريده الدول الاستعمارية إذ تبقى هذه الدويلات بحاجة للدفاع عن نفسها، ولا تجد طلب ذلك إلا من الدول التى كانت تستعمرها، وأوصلت المسؤولين إلى السلطة. وإذا كانت هذه الدويلات غنية عاش أهلها في بحبوحة ورفاه وقد أعطت بريطانيا بروناى الاستقلال، ولكن بقيت

مسؤولة عن الدفاع عنها. حتى أن بريطانيا قد أعطت الاستقلال وربما استعملت عبارة "منحت" كأنها صاحبة حق في هذه السيطرة، ومنحت الدولة الضعيفة استقلالها.

وعادت العلاقات فتحسنت بين بروناي وبريطانيا بعد ان ساءت قليلا عام (١٩٨٣م) عندما أسست بروناي مؤسسة مالية لإصدار أوراق النقد الخاص بها بعد أن كانت مرتبطة بمؤسسة بريطانية. فأظهرت بريطانيا غضبها من ذلك لأن بروناي أقدمت على هذا العمل دون علمها، وحتى لا تقوم بعد ذلك بأي عمل دون استشارة بريطانيا. ورجعت العلاقات إلى حالتها الطبيعية عندما وافقت الحكومة البريطانية على إبقاء أفواج من قواتها التي كانت متمركزة في بروناي منذ عام (١٩٧١م)، ويجب أن تبقى في بروناي بعد الاستقلال على حساب السلطنة لحماية حقول النفط والغاز. وكان هذا مجرد تهديد من بريطانيا لبروناي حيث لم تؤكد مصير هذه القوات بعد عام (١٩٧٧م) عندما تعود (هونغ كونغ) إلى الصين، وهي موقع القاعدة الرئيسية لهذه القوات.

وتطورت علاقات بروناي إلى شكل جيد مع دول جنوب شرقي آسيا، وخاصة مع سنغافورة. وتمت زيارات ملكية إلى تايلاند وأندونيسيا عام (١٩٨٤م)، وفي الوقت نفسه أنشئت علاقات سياسية مع اليابان.

انضمت بروناي إلى الأمم المتحدة، وإلى السوق الأوروبية المشتركة، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومنظمة دول جنوب شرقي آسيا، وعقد مؤتمر وزراء خارجيتها في عاصمة بروناي في (يوليو ١٩٨٩م).

وفي (مايو ١٩٨٦م) توفي والد السلطان، وهو السلطان السابق سيف الدين محمد عمر علي. ووسع السلطان المجلس التنفيذي، وأصبح يضم أحد عشر عضوًا، وذلك عندما أعاد تنظيم الحكومة. وكذلك منح الأعيان أوراقًا تجارية كانت خاصة بأفراد الأسرة الحاكمة. وأظهرت بروناي رغبة في إقامة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وانجلترا، وأندونيسيا، وماليزيا، وفي مطلع عام (١٩٨٧م) دفع السلطان مساعدة لثوار "الكونترا" في نيكارجوا على حين كان الكونجرس الأمريكي

قد حظر أى مساعدة لهم، وقد اكتشف أمر ذلك لأن المساعدة قد أودعت بشكل خاطئ فى حساب بنك رجل الأعمال السويسرى فى شهر (مارس ١٩٨٧م).

وفى هذا الوقت بالذات (١٩٨٧م) أبدت بروناى اهتمامها للانضمام إلى اتفاقية الدفاع للدول الخمس المرتبطة ببريطانيا، وهى: ماليزيا، وسنغافورة، وأستراليا، ونيوزيلاندا. وتحسنت العلاقات مع ماليزيا بشكل واضح عندما عرضت ماليزيا مساعدة بروناى على إنشاء جيش بقوات احتياطية، وعندما زار رئيس الوزراء الماليزى بروناى للقيام بمحادثات. (١٩٨٧م) أعلن البلدان إمكانية إقامة تعاون مستقبلى بإنتاج الأجهزة الدفاعية.

كما تحسنت العلاقات مع اندونيسيا، وقد منح السلطان فى مطلع عام مايو (١٩٨٧م) اندونيسيا قرضا بمبلغ مائة مليون دولار دون فائدة لإقامة مشروعات صناعية ومواصلات، وتدفع على مدى خمس وعشرين سنة وتوطدت العلاقات كذلك مع الفليبينيين، وقامت رئيسة الفلبين كورازين أكينو بزيارة لبروناى فى أغسطس ١٩٨٨م، وعرض السلطان مبدئيا المساهمة فى المجموعة الدولية لتمويل خطط تطوير الاقتصاد الفيليبينى. وهكذا تحسنت علاقات بروناى مع دول المنطقة المجاورة، والتى كانت تقف فى وجه استقلال بروناى، وكلها تطمع فى ضمها إلى أراضيها لغناها، وما تحسنت العلاقات أيضا إلا بتقديم المساعدات أيضا، وعرض المال.

ولم تقتصر أموال هذه الدولة المسلمة على الأمصار والبلدان المجاورة، وإنما كانت تستفيد منها بريطانيا أيضا، حيث كانت تسيطر عليها فى الماضى، وتدافع عنها فى الوقت الحاضر، وترتبط معها بعلاقات وثيقة. ففى (أكتوبر ١٩٨٩م) وقعت بروناى مع بريطانيا اتفاقية تفاهم لشراء طائرات مقاتلة، وسفن دوريات، ومعدات عسكرية أخرى بما تعادل قيمتها مائتين وخمسين مليون جنيه استرلينى، والخبير المدقق فى هذه الصفقة يجد أن هذه المعدات ليست من الأسلحة المتطورة، وإنما على العكس من الأسلحة التى تريد بريطانيا أن تتخلص منها إذ لم تعد مناسبة، هكذا جرت عادة الدول الاستعمارية فيما عرف باسم "تسليح الدول النامية". والأصل المسلمة منها.

وفي مطلع عام (١٩٨٨م) جرت مناورات مشتركة بين قوات من بروناي وأخرى بريطانية. وألغيت حالة الطوارئ بعد مرور ست وعشرين سنة على تطبيقها، وعقد السلطان العزم على إجراء انتخابات عامة.

نظام الحكم في بروناي:

إن الدستور الذي أعلنه السلطان في (٢٩ مايو ١٩٥٩م) قد أعطى السلطان السلطة التنفيذية المطلقة، ويعاونه، ويعمل تحت استشارته أربعة مجالس، وهي: المجلس الديني، والشورى، ومجلس رئاسة الوزراء، ومجلس الوراثة. وعندما اندفع تمرّد رجب ١٣٨٢هـ (ديسمبر ١٩٦٢م) عُلّقت بعض أحكام الدستور. وكان الحكم يصدر بمرسوم ملكي.

المجلس الديني:

ويضمّ أعضاء يتمّ تعيينهم من قبل السلطان، ويعرض المجلس جميع المسائل الإسلامية التي تعرض عليه على السلطان بصفته رئيسًا للدين الإسلامي في بروناي.

مجلس رئاسة الوزراء:

ويرأسه السلطان، ومن اختصاصه النظر في جميع المسائل التنفيذية.

مجلس الشورى:

ويرأسه السلطان، ومن اختصاصه الإشارة على السلطان في المسائل التي تتعلّق بحقّ امتياز الرحمة الملكية، وتعديل الدستور، والترقية، ومنح ألقاب الشرف.

مجلس الوراثة:

ويخضع للدستور، ويقرّر من يتولّى العرش فيما إذا دعت الحاجة إلى ذلك بغياب السلطان فجأة.

والدولة مقسّمة إلى أربع مناطق إدارية، وعلى كل منطقة ضابط ملايوي مسؤول أمام رئيس الوزراء وأمام وزير الشئون الداخلية.

الصراع الحزبي:

تأخَّر التنظيم في بروناي، وإن كان المسلمون من السكان ينظرون إلى المستعمرين الصليبيين أنهم مغتصبون بالقوة التي يملكونها، ويعدّونهم أعداء، ويستعلون عليهم ما داموا أبناء البلاد، وأنهم على الدين الحق، وعلى أن النصرانية تقوم على عبادة مخلوق، وإن كان عبدًا من عباد الله الصالحين، وأحد أنبياء الله ورسله، فهم لا يختلفون عن الديانات التي يرون أهلها بجوارهم (عبدة الأرواح، والبوذيون، والكونفوشيون، والشنتويون، والهندوس) فكلهم يقدّسون مخلوقات، وإن تباينت هذه المخلوقات بتكريمها من خالقها. والمسلمون أكثرية.

عندما بدأ التفكير بموضوع الاتحاد الماليزي خشي بعض المسلمين من الانضمام إليه، وهم يرون أن ماليزيا مرتبطة ببريطانيا بشكل أوثق، وأن نسبة المسلمين فيها ضعيفة نسبيًا لا تتجاوز ٥٥٪ فلم يرغب بعضهم بهذا الانضمام، وكانوا أقرب إلى أندونيسيا حيث غالبية السكان من المسلمين (٩١٪) من مجموع السكان، كما أن النشاط الإسلامي كان واسعًا، وحزب ماشومي نشطًا. فتجمّع بعض المسلمين وشكّلوا حزب الرايات البرنوي، وكذلك قام حزب الشعب الذي كان له دور فعّال، وقد عملا على مقاومة هذا الانضمام، وحدثت حركة التمرّد عام (١٩٦٢م)، ولكن أخمدت خلال عشرة أيام، ونفي أعضاء حزب الرايات البروني كلهم، ومنع حزب الشعب من مزاولة النشاط.

وفي عام (١٩٨٥م) تشكّل الحزب الوطني الديمقراطي البروني (B.N.D.P) وهيكله رجال الأعمال الذين لهم ولاء للسلطان، وركّزوا سياستهم تحت شعار الإسلام، وشكّلوا مجموعة وطنية حرّة، غير أن السلطان قد حرّم على موظفي الدولة من الانضمام لهذا الحزب، وهم يشكلون ٤٠٪ من اليد العاملة، وهذا ما قلّل من القاعدة التي يعتمد عليها، ومن مجال نشاطه، كما استبعد الحزب أيضًا من الانضمام إليه الصينيين والجنسيات الأخرى غير الملايوية وبالتالي غير المسلمين. لذا بقي محدود العدد، ومع ذلك فقد ظهرت فيه تشعّبات بالآراء، واختلاف على الزعامة،

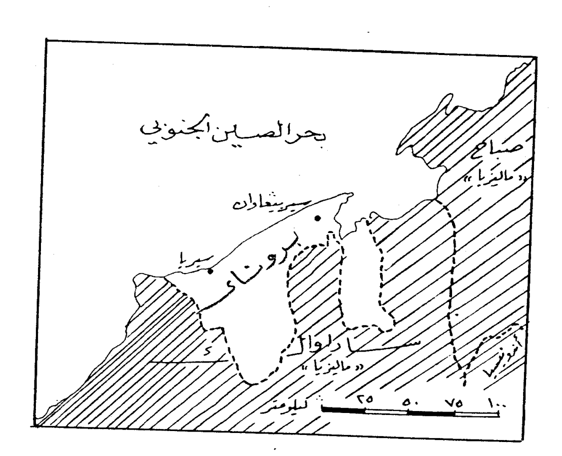
وتشكلت أجنحة، وحدث انشقاق، وفي عام (١٩٨٦م) نشأ حزب جديد. هو حزب بروناي الوطني المتحد.

لقي حزب بروناي الوطني المتحد موافقة السلطان، وركز جهده على التعاون مع الحكومة، وانفتح على المسلمين وغير المسلمين، وبعد عامين من تأسيسه صدر أمر ملكي بحله وذلك في (فبراير ١٩٨٨م) بعد أن أعطى السلطان صفة رئاسة الحكومة فقط دون ذكر رئاسة الدولة، غير أن الحكومة اتهمته بالاتصال بمؤسسات أجنبية، وألقت القبض على بعض قادته، ومنهم عبد اللطيف حامد. وعبد اللطيف شوشو. وألقتهم في السجن لغاية (١٩٨٩م).

وهناك جبهة استقلال الشعب، ولكن لم يعد لها دور أيضا.

ويشكل المسلمون أكثرية السكان إذ تبلغ نسبتهم ٧٦٪ من مجموع أهل بروناي، ويلي ذلك أتباع الديانة البوذية، وتختلط البوذية بالكونفوشية عند كثير من الصينيين، وتبلغ أتباعها ١٦٪، وأصبحت نسبة النصارى ٤٪، ومثل ذلك نسبة عبدة الأرواح.

الجماعة	العدد	النسبة
المسلمون	٢١٢,٨٠٠	٧٦٪
البوذيون	٤٤,٨٠٠	١٦٪
النصارى	١١,٢٠٠	٤٪
عبدة الأرواح	١١,٢٠٠	٤٪
	٢٨٠,٠٠٠	١٠٠٪



خريطة رقم (٩) تبين موقع بروناى

ثانيًا

المسلمون فى أوروبا:

فى ألبانيا وفى البوسنة والهرسك

مقـدمـة

سنتناول فى الفصلين التاليين: المسلمون فى ألبانيا والمسلمون فى البوسنة والهرسك كمثالين لانتشار الإسلام فى قارة أوروبا. وقبل الدراسة نود أن نشير إلى موقف الإسلام من الأديان السماوية بإيجاز للرد على الذين يحاولون تزييف عملية التحول من المسيحيه للإسلام، ومهاجمة الإسلام والمسلمين بروح عدائية صليبية.

انتشر الإسلام فى ربوع الأرض لأنه دين الفطرة، ولأنه الدين الذى يرتضيه القلب والعقل ولم ينتشر بحد السيف - كما يزعم الحاقدون - فالآية الكريمة:

"لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرّشد من الغىَ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم"[1] خير برهان على ذلك.

كما أن الإسلام اعترف بالأديان السماوية السابقة، وألزم المسلم أن يؤمن بهذه الرسالات السماوية التى نزلت قبل رسالة المصطفى ﷺ، كما قال الحق سبحانه وتعالى فى مطلع سورة البقرة "والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون".[2]

كما أن الإسلام صريح فى النص على وجوب معاملة الذميين بالحسنى. وعلى هذا فإن أى معاملة غير هذه المعاملة تعتبر حدثا شاذا ليس من الاصول الثابتة فى شئ ..

والإسلام دين الوسطية، أى التوازن العاقل بين الروحية والمادية والبعد عن التطرف. وقد تمثل ذلك فى جوهر الإسلام وذلك فى قوله تعالى "وكذلك جعلناكم أمة وسطا ..".[3]

---

[1] الآية رقم ٢٥٦ من سورة البقرة.

[2] الآية رقم ٤ من سورة البقرة.

[3] الآية رقم ١٢٣ من سورة البقرة.

كان لابد من هذه المقدمة قبل تناول موضوع انتشار الإسلام في ربوع قارة أوروبا، ذلك أن الصراع مع أوروبا في العصور الوسطى قد غطى جزر البحر المتوسط لاسيما صقلية والبليار فضلا عن الجزء الأكبر من أسبانيا وقد انحسرت هذه الجبهة مع طرد المور.

غير أن المد الإسلامي العثماني في العصر الحديث جاء كبديل وكتعويض في أقصى الشرق. فكان الإسلام في العصور الحديثة أعظم ثقلاً وأوسع انتشارًا في كل جنوب شرقي القارة الأوروبية حتى الدانوب والمجر إلى سهول جنوب أوكرانيا. ثم بدأ في الانكماش إلى أن اشتد في القرن التاسع عشر. كما سجل الإسلام انكماش أخرى حين نقل الاتحاد السوفيتي بالجملة كثيرًا من الأقليات الإسلامية في القرم والفولجا إلى سوفيتياته الآسيوية أثناء الحرب العالمية الثانية، وتقدم الألمان وإن كان قد سمح لبعضها بالعودة في الستينات من القرن العشرين. كذلك فقد أخرج كثيرًا من المسلمين من بلغاريا فاتجهوا إلى تركيا منذ عام ١٩٥٠. هذا علاوة على حرب الإبادة في الشيشان. وهذا التراجع والانكماش هو عملية زحزحة وخروج، وليس عملية ردة دينية بطبيعة الحال. فالإسلام يكاد ينفرد بين الأديان جميعًا بأنه لم يعرف أي ارتداد عقائدي، بمعنى التحول عنه لغيره.

وعند دراستنا لانتشار الإسلام في أوروبا نجده يختلف كليةً عن انتشاره في آسيا وأفريقيا، ذلك أن شعوب آسيا وإفريقيا كانت تدين بالوثنية وتعبد آلهة متعددة وليس لهم دين موحى به، ولذا فهم مهيأون للدخول في الإسلام. ففي الشرق كان يبدو أنه لا يوجد أي حد حقيقي لتوسع الإسلام، وكانت العملية مستمرة وغير قابلة للنكوص، وكان كل تقدم جديد يأتي بموارد جديده، بشرية ومادية، من أجل التهيئة للتقدم التالي.

أما في الغرب فقد كان الموقف مختلف تمام الاختلاف. السكان المسيحيين في البلاد المفتوحة كان يشد أرزهم إدراكهم لوجود عالم مسيحي حر وراء الحدود، لذا فقد تمكنوا من الصمود أكثر من الفرس أمام شدائد الفتح، فكانت عملية التحول إلى الإسلام في هذه البلاد أبطأ. ثم إن الأهم من ذلك هو الخطر والتحدي اللذان

كانت تشكلهما الأمبراطورية المسيحية تجاه الإسلام نفسه. هذا الاختلاف فى النوعية بين الحرب ضد العالم المسيحى والحروب على الجبهات الأخرى كانت مجرد مراحل فى عملية تحويل الشعوب الوثنية إلى الإسلام، بينما كانت الحروب ضد العالم المسيحى كفاحًا ضد نظام دينى وسياسى معاد، كان ينكر من الأساس دور الإسلام العالم.

ففى الكتابات الإسلامية يصبح العالم المسيحى دار الحرب بالمعنى الصحيح - والحرب ضد العالم المسيحى هى النمط النموذجى والأصلى للجهاد.

نقطة أخرى أود أن أشير إليها وهى محاولة بعض مفكرى الغرب المسيحى - غير المنصفين - وكذلك البابوية فى روما والصهيونية العالمية وغيرها من الدول الضالعة معها، التشهير بالدولة العثمانية، واستهدفت هذه الحملات التشهيرية النيل من الدولة؛ سلطانًا مسلمًا وحكومة إسلامية ورعايا مسلمين، وأسهم فى هذه الحملات رجال الحكم والسياسة والدين والمؤرخين والباحثون وغيرهم فى أوروبا. وردد عدد من أقرانهم العرب جوانب كثيرة من هذه الحملات، بحيث استقرت فى أذهان الكثيرين مفاهيم خاطئة عن الدولة العثمانية وترجع أسباب هذه الحملة الظالمة إلى أن الدولة العثمانية كانت أول دولة إسلامية فى التاريخ - استطاعت فتح الجزء الجنوبى الشرقى فى أوروبا بعد أن عبرت جيوشها البحر إلى أوروبا، وانتقلت من نصر إلى نصر تكتسح الأقاليم الأوروبية وتنساب - غربًا فى سهول المجر وتدخل عاصمتها بودابست وتقترب من مشارف فينا عاصمة النمسا.

ومن هنا نظر بعض الأوربيين إلى الدولة على أنها دولة إسلامية حربية، من الطراز الأول تروم تحويل دار الحرب إلى دار الإسلام، ومن هنا نبتت حملات التشهير بالدولة سواء وهى فى أوج مجدها أو فى عصر اضمحلالها أو بعد زوالها.[1]

---

[1] راجع د. عبد العزيز محمد الشناوى، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليـــها. ٤مجلدات. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. عن هذا الموضوع بالتفصيل.

وعلى أى حال فنحن إذا نظرنا إلى انتشار الإسلام فى أوروبا. نجد أن المسلمون يتركزون غالبيتهم فى البلقان، على هوامشها الحوضية فى غرب يوغوسلافيا وألبانيا، وعندما نتجه جنوبا إلى اليونان نجد الإسلام يعنى توا منطقة سالونيك التى كانت من مناطق الارتكاز التركى التقليدية فى العصر العثمانى. ويرتبط باليونان نواة أخرى من المسلمين فى قبرص ولكنها من أصل تركى خالص. ولا يرتكز المسلون فى قبرص فى قطاع بعينه، ولكنهم أدنى إلى الانتشار فى كل أجزائها بصفة عامة.

وبالنسبة للبلقان، يستمر الوجود الإسلامى على ساحلها الايجى فى تراقيا، ثم فى تركيا الأوروبية، ومع ساحل البحر الأسود فى شرق بلغاريا يستكمل الإسلام نمطه الحلقى، فنجد جزيرة إسلامية تستمر عبر الدوبرجه برومانيا حتى مصب الدانوب. وتتعداه فى صورة أبسط إلى مشارف بسارابيا. وللمسلمين فى بلغاريا تقدير رسمى وضع فى عام ١٩٤٩م يدور حول ثلاثة أرباع المليون من مجموع كلى قدره ٧.٦ مليون نسمة.

وقد اخترت فقط نموذجين للشعوب الإسلامية فى البلقان وهما: ألبانيا والبوسنة.

الفصل الثامن

المسلمون فى ألبانيا

لم يكشف بعد على وجه التحقيق الأصل الذى انحدر الأرناؤط[1] منه، ويقال إنهم انحدروا مباشرة من الإلليريين الذين كانوا يقطنون المنطقة الواقعة بين إشقومبى ونهر الدانوب كما كانوا يقطنون الساو وإقليم البندقية، بل ربما كانوا - أول جماعة منهم على الأقل - يمتون بصلة القرابة الوثيقة للأبيروت القدماء الذين كانوا ينتشرون فى الشرق إلى سترايمون، بل إن التشابه الموجود بين مظاهر حضارتهم يؤيد من أن الأرناؤط قد انحدروا من هذين الجنسين، على أننا إذا تركنا أهل مقدونية جانبًا فإننا نجد أن الأبيروت والإلليريين انقسموا إلى عشائر صغيرة، وأنهم لم يقيموا نظامًا سياسيًا قائمًا بذاته إلا مرتين اثنتين فى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد عبر الأبيروت بزعامة بيروس Pyrhos إلى إيطاليا، وأضافت حملة إيمليوس وانتصاره على الملك المقدونى برسيوس (١٦٨ قبل الميلاد) إلى الدولة الرومانية زيادة على مقدونية، إلليرية وإبيروس. وفى عهد إسترابون كان "أمبرقيوس سينوس" يفصل بين اليونان وبين الأبيروت، كما كان الإشقومبى يفصل بين هؤلاء وبين الإلليريين. وكانت أهم مدن الإقليم فى العهد الرومانى المتأخر تسمى باسم هذا النهر وكانت تقع فى جوار المدينة المعروفة الآن باسم إيلبصان. ونحن نلتقى لأول مرة بقوم "ألبانوى" وعاصمتهم ألبانوبوليس ونجد هنا أن الصقالبة هم أول من أثروا أثرًا باقيًا بغزواتهم المخربة. وقد ارتد المقدونيون إلى الجبال الألبانية أمام تقدم الصقالبة نحو الجنوب، وهو التقدم الذى بدأ فى القرن الثالث الميلادى، واندمجوا فى سكان هذه الجبال الذين كانوا يمتون لهم بصلة القرابة. وفى القرن السابع الميلادى غزا الصربيون شمالى ألبانيا، وظل هذا القسم إقليمًا صربيًا حتى عام ١٣٦٠م، وانفصل انفصالا تامًا عن الجزء الجنوبى. وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى نجد أن الترك البلغار الذين كانوا قد تأثروا بغزو مقدونية، وساعدهم الحظ فأصبحوا فى

---

[1] شعب من الجنس الآرى يعرف عند الأوروبيين بإسم الألبان. وأرناؤطلق: هو الاسم التركى العثمانى لألبانيا.

أمد قصير سادة الأنحاء الوسطى والجنوبية من ألبانيا إلى خليج أمبراقيوس. ونجح الإمبراطور البيزنطى بلغاركتونوس آخر الأمر (عام ١٠١٨ - ١٠١٩م) فى إعادة غربى الروملى إلى سلطانه، ولكنه ترك للبلغار أملاكهم. ومن هذه الوجهة نجد التسمية الحديثة ملائمة من كل وجه إذا عرفنا أنه لم يكن أمامنا مدة ألف عام على التقريب الا الاكتفاء بأسمى إبيروس والليرية اللذين ورثناهما عن القدماء. ذلك لأن مدينة ألبانن كانت قصبة الجزء التابع لبيزنطة، وكانت آخذة فى الازدهار ومن ثم سمى الإقليم طوال خضوعه للبيزنطيين كله باسم هذه المدينة ولما ثار نقفور الذى خلف برينيوس على ولاية دورس فى وجه الإمبراطور البيزنطى وخرج مارا بأوخرى ووصل إلى سالونيك جمع فى جيشه "الأربانيلاى" إلى جانب النرمنديين والبلغار واليونان. ومنذ ذلك الحين نجدهم يشتركون فى جميع المعارك التى نشبت غربى شبه جزيرة البلقان. وكانوا أحيانا يسمون الأربانوى. وبعد أن غزا اللاتين القسطنطينية والجزء الأكبر من الدولة الرومانية عام ١٢٠٤م أقام سليل للأسرة الإمبراطورية المنفية دولة حاكم أبيروس المستبد التى كانت تشمل أيضا إيتوليا وأكرنانيا ومن أهم مدنها لبنتو (بالتركية ابنه بختى) وآرته ويانينا. وإذا أغفلنا هذه الأقاليم التى تقع نحو الجنوب والتى كانت فى ذلك الحين مستقلة فإننا نجد ألبانيا مصدر النزاع بين الدول الأجنبية وخاصة الصرب والبلغار، حتى أن أساقفة ألبانيا من اليونان الأورثوذكسى لم يروا وسيلة للخلاص إلا بالتمذهب بمذهب اللاتين (حوالى ١٢٥٠م).

وأخذت دولة طاغية إبيروس يقل شأنها طيلة القرنين الثامن والتاسع الميلاديين من جراء النزاع على العرش مما لم يدع فرصة معقولة لتقدم البلاد. وفى هذا العهد ساءت علاقة الألبان بالترك لأول مرة، وكان عدد هؤلاء يبلغ ألفين من رعايا الأمير أومور بك حاكم آيدين الذين انضموا عام ١٣٢٦م إلى الإمبراطور أندرونيكوس الثالث بغية ضم دولة طاغية إيبروس إلى الإمبراطورية البيزنطية، فزادوا من هيبة أمتهم أمام أعدائها. وتعقبوا الألبان فى الجبال الوعرة المقفرة وقتلوا الرجال وغنموا عددا كبيرا من النساء والماشية. وفى هذا الوقت شن قيصر الصرب ستيفان دوشان (١٣٣١ - ١٣٥٥م) غاراته الخطيرة التى ضمت ألبانيا (حتى عام

١٣٤٠م) وشمالي مقدونية وتساليا إلى ملكه. ولقد ارتد الكثيرون من الألبان بتأثير هذه الانتصارات من الكثلكة إلى الأورثوذكسية.

وأثر النزاع الطويل على العرش وما صحبه من حروب على ضحاياه من الألبان. فنما فيهم الشعور القومي الذي كان يبشر بالنجاح الكبير، وما إن توفي دوشان وعاد واحد من أسلاف الطغاة السابقين إلى هذه الولاية الألبانية حتى قام أهلوها في وجهه قومة رجل واحد، واستطاعوا بقيادة كارل طوبيا أن يوقعوا الهزيمة بهذا المطالب بالعرش وجنوده في وقعة أشيلوس، وهلكت معه في ميدان القتال فرقة تركية استقدمت لعقاب الثائرين. وكانت قد نزلت تساليا وانضمت الى اليونان عام ١٣٨٨م. وظلت السلطة في شمالي ألبانيا قرنا من الزمان في يد أسرة طوبيا. وكانت أم كارل المنتصر في أشيلوس ابنة شرعية لروبرت دانجو ملك نابولي، حتى أن هذا القائد المفاخر بنفسه كان يستطيع أن يزهو بأنه أول واحد من الأسرة المالكة بفرنسا. وهناك أسرة من أصل صربي لا تقل عن هذه أهمية هي أسرة بلشه، ولا نجد لهم ذكرًا إلا منذ أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، ولكنا نجدهم بعد ذلك بقليل يتزعمون إشقودره، وأنتباري، ودلسنيو، وتراو، وسبنيكو، أما أسرة كاستريوت فلم تذكر إلا بعد ذلك بعشرة أعوام، ولم يذكر جدهم الصربي برانيلو إلا في حوادث عام ١٣٦٨م.

واستطاعت فرقة من الأتراك لا نعرف أهي عثمانية أم غير عثمانية بزعامة ألباني دخل في الدين الإسلامي يدعى شاهين أن تحكم يانينا وإقليمها باسم صاحبها الملك الصربي الطاغية توماس. وبعد أن مهد الطريق للعثمانيين تمكن قائدهم العظيم تيمور طاش باشا من أن يمد فتوحاته إلى آرته. ولكنه سرعان ما عاد، ولم يجد السكان التعساء أمامهم في هذا الموقف إلا الفزع. وفي نفس الوقت هزم الأمير بلشه الثاني وخرّ في ميدان القتال أمام الصدر الأعظم في وقعة سورة على نهر فيوسه (إليوسه). ولما تقدم تيمور طاش باشا عام ١٣٨٧م نحو إقليم برليه ومناستير لم يجد ملك يانينا إلا التسليم والذهاب إلى بلاط السلطان مراد الأول لتقديم فروض الطاعة والولاء. وأخذ الترك في التقدم من مناستير متجهين نحو البحر الأدرياتي

وهددوا مدى عامين ما جاور دورس (دوراتزو) من المناطق والبقاع. وهذه هى المرة الأولى التى نصبوا فيها أعلامهم على شمالى ألبانيا، إلا أنهم اضطروا آخر الأمر إلى جمع قواتهم كلها والانسحاب لمواجهة الصرب. ومهما حدثتنا الروايات الروملية التى تميل إلى مناصرة العثمانيين عن الدور الذى لعبه الألبان فى وقعة قوصوه عام ١٣٨٩م فليس ثمة شك فى أنهم حاربوا فى صفوف أعداء الترك وكانوا بمثابة الجيش الاحتياطى لأمراء الصقالبة المتحالفين الذين تداعت قوتهم أمامهم تساند المسلمين. وبعد هذه الحادثة التى تعتبر من الحوادث الهامة فى تاريخ أوروبا لم يستطع الترك فى بداية الأمر أن يجدوا من الفراغ ما يمكنهم من التوسع فى ألبانيا ويكون لتوسعهم خاتمة حسنة. ولم يتمكنوا بعد ذلك من تحقيق هذا الغرض لتداعى قواتهم أمام هجمات تيمور لنك (١٤٠٢م)، على أن الأرناؤط أزيح عنهم كابوس أعدائهم ما يقرب من الثلاثين عاما. ولكنهم لم يستغلوا هذه الفرصة لجمع شملهم. وقد كان الألبان فى كثير من الأقاليم قد فقدوا منذ أمد طويل الأمل فى المستقبل وهجروا بيوتهم ووطنهم وأخذوا يضربون فى الأرض سعيا وراء مستقبل مجهول. كما أنهم لم يستطيعوا احتمال وطأة ستيفان دوشان فهربوا إلى البيلوبونيز، وهناك نسمع بعد هذا لأول مرة أنهم كانوا جنودا مرتزقة فى جيش الطاغية الشاب مانويل كانتا كوزينوس الذى استخدمهم فى الحد من سلطة القضاة الذين كانوا يثورون فى وجهه وإعادتهم إلى طاعة مولاهم الذى كان يعانى من المصاعب الفادحة ما يعانى.

وليس لدينا معلومات عما حدث فى جبال ألبانيا فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى؛ وكل ما نعرفه أنه لما توفى بلشه عام ١٤٢١م سقطت أهم مدنه وهى ريفاستو وأنتبارى ودلسنيو وألشيو وبدوا فى حوزة جمهورية البندقية التى كانت قد احتلت قبل ذلك دورس، وبهذا سيطرت تمام السيطرة على الشاطئ بأجمعه. وكان شمالى فيوسة حتى زنته فما يظن – وبهذا الاسم عرف إقليم الجبل الأسود قبل أن يقع فى يد العثمانيين – فى ذلك الحين فى حوزة أسرة كاستربوت التى قفزت إلى السلطة فجأة. أما جنوبى فيوسه حتى خليج أمبركيوس فقد كان خاضعا للأسرة القوية المعروفة بالأريانيتية الذين كانوا يفاخرون بلقبهم "كومنان" الذى أخذوه عن أمهم.

وقد أطلق معاصرو طوبيا الأريانيتي عليه لقب العظيم اعترافا بالشجاعة التي أبداها في حربه ضد الترك. ولم تكن لهذا الأمير صلة بأوروبا ومن ثم لم يسجل التاريخ أعمال هذا البطل الوطني الذي أعد مواطنيه لتبوؤ المركز الممتاز الذي استطاعوا أن يصلوا إليه فيما بعد. ولم نسمع بحملة عثمانية أخرى حتى عام ١٤٢٣م عندما غزا عيسى بك بن أورنوس هذه البلاد وأرغم الأريانيت وجون كاستريوت على الاعتراف بسيادة السلطان. وسمح لجون كاستريوت بالعودة إلى وطنه بعد أن أعطى الأتراك أولاده الأربعة رهينة وفيهم الابن الأصغر جورج والأريانيت الذين كانوا دائبين على تدبير الخطط الخطيرة لفك الأغلال التي كانوا يرسفون فيها، والهرب لإستنفار أبناء وطنهم لقتال الترك الذين يستعبدونهم، فأعملوا في الترك الذبح بصورة وحشية، كما أعملوا السيف وبثوا الإرهاب في أنحاء البلاد العثمانية. ولم يستطع السلطان مراد الذي كان يهدده أعداؤه من كل جانب – من آسية ومن أوروبا – أن يفرغ للألبان إلا بعد عشر سنوات، فأنفذ لهؤلاء الناس الذين كانوا لا يعدلون بالحرية شيئا قوة كبيرة بقيادة على بك عام ١٤٣٨م. على أن نجاح هذه الحملة كان موقوتا لأنها ما إن غادرت البلاد حتى هب الثوار من جديد، وكاد العثمانيون الذين احتموا بمدينة إركرى الحصينة يهلكون لولا أن خف لنجدتهم في منتصف الشتاء طرخان (١٤٣٥ – ١٤٣٦م). وكان السلطان في ذلك الوقت يشعر بالأمن والطمأنينة لأنه إذ انتزعت كل حقوقه ادعى لنفسه السيادة على آقجه حصار التي كانت تابعة في الواقع لجورج كاستريوت المسمى بإسكندر بك. واستيقظ هذا الأمير من غفلته ولم يطق الصبر على الهوان ففر من صفوف الجيش الإسلامي عند هزيمة العثمانيين في نيش (١٤٤٣) واستنفر ألبانيا كلها للذود عن حريتها. ولسنا في مجال الخوض في أعماله، وحسبنا أن نقول إنه ما من وقعة خاضها الألبان إلا وملأوا ساحتها بأشلاء آلاف القتلى من أعدائهم. ولكن ظهر – حتى في حياة إسكندر بك – أن روح هذا الأمير الغلابة لم تستطع الوقوف في وجه الجموع الحاشدة، وما إن توفي عام ١٤٧٦م حتى قامت

جمهورية البندقية بحماية الجبال الألبانية بحكم تسلطها على البحر الإدرياتي. ولما سقطت آقجه حصار اضطر الدوج[1] إلى السعي في الصلح. وقبل عام ١٤٧٨م أن يعترف بسيادة السلطان على داخلية البلاد وخاصة آقجه حصار واشقودره في مقابل اعتراف السلطان بسيادة البندقية على بلاد الشاطئ.

وفي عام ١٥٥٠م استطاع جبليو شمالي ألبانيا أن يطمئنوا، لأنهم بقبولهم التجنيد الإجباري في حالة الحرب ردّت إليهم حقوقهم المغتصبة من الحكم الذاتي وأعفوا من الضرائب. ولم يمتد ملك آل عثمان على شاطئ البحر الإدرياتي إلا في القرن السادس عشر عندما وضعوا أيديهم على أنتباري Antivari (بالتركية بار) ودلسنيو (١٥٧١م) قبل يوم لبنتو المشهود بقليل. وقد روج بعض مندوبي البندقية الرسميين إشاعة فحواها أن الألبان اعتزموا القيام في وجه الترك. ومع ذلك لم يجرؤ الألبان على القيام بهذا الأمر، على الرغم من أن الحرب لم تنته في صالح العثمانيين. وكان الإنقضاض على السلطة المركزية صادرًا في الأغلب من قليمنتي سكان الجبال المسلحين بالحراب والدروع والخناجر، فأقيمت عام ١٦١٢م قلعة بالقرب من غوسينه لردع هؤلاء المحاربين، وحاول البابا في ذلك العهد من جديد إبقاء السكان على مذهبهم القديم، وأرسلت أول بعثة فرنسسكانية أمدّت بالمال اللازم إلى عام ١٦٢٤م. إن النزاع الجديد الذى استحكمت حلقاته مع السلطات التركية، وتأديب دوجه باشا لهؤلاء الثائرين حدثا عام ١٦٢٤م. ولم يسوّئ فتح البنادقة للمورة عام ١٦٨٧م علاقة العثمانيين بالألبان الكاثوليك. وعندما أغارت مدينة السواحل البحرية في ذلك الوقت على دلسنيو التي تقع قبالتها انضم الهوتّي إلى المسلمين، وقد أظهر هؤلاء شجاعة نادرة في الدفاع الموفق عن هذه القلعة من جهة البحر، حتى اعترف لها بالتفوق على جميع القبائل الكاثوليكية ما عدا الميرديته.

ولم يجرؤ الألبان من اليونان الأرثوذكسي مدى قرون على رفع صوتهم في وجه الحكم التركي، ولم يحولوا أنظارهم نحو الشمال والغرب إلا عندما أحيت

---

[1] الحاكم الأعلى للبندقية.

الأعمال الباهرة التى قامت بها النمساميت الآمال فى قلوب العالم المسيحى فى القرن السابع عشر. وبعد أن استأنف الخليفة الحرب مع البندقية عام ١٧١٥م وما أعقب ذلك من حربه مع إمبراطور ألمانيا، ذلك أن كبير أساقفة أوخرى الأرثوذكسى أهاب مرارًا باسمه واسم الأساقفة الآخرين والمطارنة بالأمير يوجين ده سافوى الذى كان على رأس الجيش الإمبراطورى أن ينفذ لتحرير البلاد (١٧١٦). على أن هؤلاء الثائرين لم يجدوا بدًا من أن يخلدوا إلى السكون فى أول الأمر، لأن البنادقة كانوا قد اعتزموا (١٧١٦م) على النزول إلى البر فى عدة مواقع ولكنهم أخفقوا عند بوتر نتوبرفيزة وفينيتسه (بالتركية فونيجه) فى جنوبى ألبانيا. كما خاب أيضًا حصار البنادقة لأنتبارى (١٧١٧ - ١٧١٨) وحصارهم البحرى لدلسنيو عام ١٧٢٢م.

ولقد انتهز محمد بك البوشاتى (نسبة إلى بوشات وهى قرية بالقرب من إشقودره) اكفهرار الجو السياسى وجعل لنفسه مكانة عظيمة فى منتصف القرن الثامن عشر، حتى أن الباب العالى كان مضطرًا - رضى أو سخط - إلى إقامته واليًا على مسقط رأسه. وحرض هذا الوالى الأسر النبيلة ذات النفوذ على التنابذ والتطاحن. واستطاع بذلك أن يصبح السيد النافذ الكلمة فى شمالى ألبانيا. ولما رفض محاربة كاترين الثانية أمر الباب العالى بقتله، وخلفه على الولاية ابناه مصطفى ومحمود، وقد ضم هذان إقليم ليش وتيرانا وإيلبصان ودوقاجين بأسرها. وأصبحت كلمتهما نافذة فى ديبره وماط؛ وإبان الحرب الأولى التى نشبت بين الباب العالى وكاترين الثانية ثار التوسق من أهل الموره على الباب العالى ولم يلزموا حدهم إلا عندما أنفذ الترك إليهم عام ١٧٧٠م ٣٠٠٠ من الغيغه بقيادة مصطفى باشا، وكان هواهم مع الترك، فعبروا مضيق كورنثه إلى البيلوبونيز. إلا أن التوسق والغيغة لم يلبثوا أن تحالفوا وعملوا على إثارة الفتن إلى أن أذلهم الغازى حسن باشا فى وقعة عظيمة، وكان هذا هو الرجل الوحيد الذى تتجمع فيه قوة الدولة العثمانية.

وحوالى الوقت الذى كانت فيه بكوات بوشات تحكم شمال البلاد، كان على التبيلانى - وكان لأسرته شأن عظيم من سنوات عدة - قد استحوز على السلطان فى جنوب إلبانيا، ولكنه ارتد فى أول الأمر أمام حكام الشمال. وفى عام

١٧٨٥ أطلق محمود باشا الإشقودرى لنفسه الطموح عنانها فقام بغزوة لأراضى البندقية كان لها صدى عظيم فى ذلك الوقت. ثم تقدم نحو قورد باشا الايلبصان الذى كان قد عهد إليه إخضاع الثائر على التبيلانى فتمكن بتحالفه مع علىَ من إلحاق الهزيمة بقورد باشا (١٧٨٨) ثم أعمل القتل بعد ذلك فى الجيوش العثمانية التى كانت قد وجهت لمحاربته فى سهل توصوه، ولم ير أمامه بعد ذلك، إلا أن يرتمى فى أحضان النمسا ووعده الإمبراطور يوسف الثانى بملك ألبانيا بمجرد اعتناقه المذهب الكاثوليكى، وقد جعل محمود الذى كان يظهر ميلا كثيرًا إلى الكثلكة، النصارى والمسلمين يقسمون بالإنجيل والقرآن على أن يبذلوا آخر نسمة من حياتهم فى سبيل تحرير ألبانيا من نير أعدائها، ولما أعلن شيخ الإسلام تكفير محمود ثارت ثائرته واشتدت حفيظته على الأتراك حتى أنه ألحق بالجيوش التركية التى وجهت إليه الهزيمة مرة أخرى. وقد منحه الإمبراطور يوسف صليبًا ذهبيًا قبيل إعلان النمسا الحرب على الباب العالى، أرسله إليه فى ألفين وستمائة جندى، وأقام محمود مأدبة فاخرة لمبعوثى الإمبراطور وقضى عليهم فيها. واستغل محمود هذه المخاطرة لصالحه لدى الباب العالى،حتى أن السلطان الذى كان مهددًا بالحرب من أعدائه فى الشمال رضى بالصفح عنه عام ١٧٨٧. وبعد ذلك بعام كان على باشا هو الذى يرغب فى المفاوضة لأنه كان قد أصبح فى ذلك الوقت أميرًا على ألبانيا. ولكن المفاوضات فى ذلك الحين دارت مع بوتمكين Potemkin كبير قواد الروس. وبعد ذلك بقليل قام ألبان سولى المسيحيون بما يشبه هذه الدسائس، وكانوا منذ قرن يعيشون عيشة مستقلة فى إقليمهم الوعر المجدب. ففى أبريل عام ١٧٩٠ انضموا إلى مبعوثى الجزائر اليونانية إلى سانت بطرسبرغ ليرجوا الإمبراطورة كاترين تنصيب حاكم على بلادهم التى حلت بها الفوضى. ولم ينجح على باشا التبيلانى فى إخراج أهل سولى من البلاد إلا عام ١٨٠٣.

نقترب الآن من العهد الذى بدأ فيه العنصر اليونانى القديم يثور ضد العثمانيين. ويجب أن نتحدث هنا عن الأرناؤط الذين استقروا فى بلاد اليونان وكان لهم فى هذه الحروب شأن عظيم. وقد استمرت هجرة التوسق الألبان إلى بلاد

اليونان عدة قرون دون أن توقفها الحروب الدامية التى نشبت مع قبودان باشا غازى حسن عام ١٨٧٩م. وكان من نتائج هذه الهجرة أن أصبح الأرناؤط قبيل بداية القرن التاسع عشر خمس سكان بلاد اليونان، وبلغ عددهم نحو ٢٠٠ ألف نسمة. وكانوا يسكنون عادة فى جماعات كثيرة الجزء الأكبر من بيوتيا Beotie وأتيكا Attica وميغارا وكورنثه وسلامين وأركاديا وآخيا كلها تقريبا. وكانوا يؤثرون سكنى الجبال والأغوار، بينما كان اليونان يقطنون المدن ويولعون بالتجارة والصناعة. وكان جميع سكان جزائر بوروس وهدرا من الألبان، وكانوا ملاحين مهرة، يرضون بالكفاف، وقد جمعوا ثروة عظيمة فى عشرات معدودة من السنين. وكان سكان جزيرتى هدرا وسبيتزا يقدمون عددا من رجالهم للعمل فى البحرية التركية ويقومون بأودهم طوال مدة خدمتهم.

وكان من أثر الروح الحربية التى يتميز بها الألبان من مسلمين ونصارى أن ناصروا اليونان فى قوة وثبات، فأعانوهم كثيرا فى الحرب التى أثاروها للتحرر من حكم الترك. وكان على والى باتينا (ضرب لأوروبا خلال أكثر من نصف قرن من الزمان مثلا للثائر العنيف) قد بدأ يشعر مع مرور الأيام بتهديد مركزه. فقد شجعته، وهو الألبانى المسلم، الوعود الكاذبة التى وعده بها ثوار اليونان الذين كانوا فى رومانيا، فأشعل نار الثورة فى "المورة". وكان نصارى الألبان فى مولى أولى من ثار فى وجه الحكم العثمانى وطالب بالحرية (ديسمبر ١٨٢٠) فكان هذا تمهيدا لحرب استقلال اليونان التى شب أوارها بعد ذلك بأربعة أشهر. وقد كانت مقاومة على فى حصنه بيانينا حتى فبراير عام ١٨٢٢ سببا فى نجاح خطط قادة هذه الحركة الاستقلالية.

وبينما تورط التوسق تورطا كبيرا فى الحوادث اليونانية، فقد دفع تقلقل الأحوال بالغيغه أيضا إلى العطف على تلك الحركة.

ودمر الأسطول التجارى الذى كان يملكه أهل مدينة دلسنيو تدميرًا يكاد يكون تامًا فى وقعة غير متكافئة ضد اليونان المتحمسين. وزيادة على ذلك استغل مصطفى البوشاتى فرصة ارتباك الباب العالى أثناء ثورة الإنكشارية عام ١٨٢٦ فأسرف فى مطالبه الغالية. وفى عام ١٨٢٨ تلكأ فى الاشتراك فى الحرب الروسية التركية،

حتى إذا تهادن الجيشان عمل على إثارة العداء من جديد. وبعد عقد الصلح نجح في جذب بعض باشاوات الروملي للانضمام إلى جيشه. واضطر الباب العالي إلى تجريد حملة لمقاتلته بقيادة أعظم قواد الدولة الصدر الأعظم محمد رشيد باشا (١٨٣٠م) فهزم مصطفى في وقعة برلبه (١٨٣١م) هزيمة منكرة وأرغمه على التسليم في إشقودره عام ١٨٣٣م وانتهى عهد الحكام الألبانيين بتلك الهزيمة التي منى بها مصطفى.

وكان للجهود التي بذلها على هو ووجوه بوشات أثر كبير في التطور الإجتماعي بألبانيا، فقد قضوا بقدر ما في استطاعتهم على ما ألفه الألبان من أن يجعلوا من كل مدينة دولة خاصة ومن كل منزل حصنًا، وبذلك قضوا على تلك الحالة التي كانت عليها ألبانيا في العصور الوسطى.

وقضى الصدر الأعظم محمد رشيد باشا القضاء الأخير على بقايا الاستقلال المحلي في ألبانيا الوسطى. وكان قضاؤه عليه قويًا شاملا حتى إن كل بدعة حدثت خلال عشرات السنين من بعده كانت تنسب إليه.

وكان حلول القرن التاسع عشر فاتحة عهد سعيد لنصارى ألبانيا، فقد كان من يسكن منهم المدن أو ما يجاورها يئنون من فداحة المظالم. وكان قساوستهم يشنقون أحيانًا لأقل مخالفة لقوانين الدولة أو لأحكام الإسلام، حتى إذا جاء القرن الثامن عشر وبدأت الحكومة التركية في مستهله تدخل إصلاحات تنهض على مبادئ إنسانية، أخذ نصارى الألبان يستمتعون بشئ من الحرية. وبذا بدأ التقارب بين أهل العقيدتين. ولم يكن اعتماد وجوه بوشات وعلى التبيلاني على النصارى أقل من اعتمادهم على المسلمين في الدفاع عن سلطاتهم، ومع هذا لم تكن هذه الحوادث إلا تمهيدًا للمساواة بين الأديان التي استقرت منذ القضاء على الإنكشارية. وبعد هزيمة على ومصطفى البوشاتي لم يعد المسلمون يدفعون من الضرائب أقل مما يدفع النصارى. وكان للنصارى منذ عام ١٨٣٢م مركز ممتاز، إذ أعفوا بلا استثناء تقريبًا من الخدمة العسكرية، وكانت شاقة عنيفة لكثرة الحروب، ولم يكن في الإمكان أن تنفذ في الحال الإصلاحات أو جباية الضرائب على المسلمين

والنصارى من سكان الجبال، لأنه كان لهم حتى ذلك الحين شئ من الاستقلال فى تلك البلاد الجبلية الوعرة؛ وظل النزاع بين السلطات وبين القبائل عشرات من السنين. وقام المسلمون بفتن متعددة وخاصة فى أعوام ١٨٣٥، ١٨٤٣ - ١٨٤٤، ١٨٤٧. وفى عام ١٨٥٤ نشبت معارك دامية على حدود الجبل الأسود مع قبيلة فسوفج التى تسكن الجنوب بسبب الضرائب انتهت بهزيمة هذه القبيلة و خضوعها لقانون البلاد خضوعا تاما.

وفى خلال الحرب الروسية التركية (١٨٧٧ - ١٨٧٨م) رفض الكاثوليك والأرثوذكس من سكان الجبال أن يرفعوا سيوفهم فى وجه السلطان بالرغم من تحريض الروس لهم، فثأرت الروسيا منهم على حساب الترك فى مؤتمر برلين بأن منحت الصرب المنتصرين وكذلك أهل الجبل الأسود الذين أسعدهم الحظ فى الحرب: أقاليم صقلبية وألبانية، فأخذت الصرب إيفرانيه وقور شونلى ولسكوفاج وأخذ الجبل الأسود أقاليم فاسوفج وهوتى وقليمنتى وإشقريلى.

وبذلك نجد لأول مرة قبائل نصرانية ومسلمة تجمع على المطالبة بوحدة وطنهم وبقومية لا تتجزأ. واحتفظت الصرب نهائيًا بهذه الأقاليم الثلاثة. أما الجبل الأسود الذى كان فى حوزته أيضًا بود كورتزه وأنتبارى فقد عوض عما فقده بإعطائه الجزء الأكبر من دلسنيو الإسلامية. ولم يرض الألبان عن تقسيم بلادهم إلا بعد أن هزموا على يد درويش باشا فى عامى ١٨٨٠ و١٨٨١م.

وفى العهد الأخير، أدى تغيير نظام الضرائب عدة مرات إلى خلافات خطيرة مع الباب العالى، وقد تمكن شمسى باشا عام ١٩٠٢ من إقرار النظام فى جاقووه بعد جهد عنيف.

ألبانيا بعد ١٩٠٢: ألبانيا المستقلة:

بقى الألبان على حالة من الانقسام إلى عشائر وتعلق شديد بعاداتهم ونظمهم، ولم تتجه آمالهم القومية نحو غايات وطنية تعلو على غايات الفرد أو العشيرة حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عندما أخذت الدولة العثمانية تفقد سريعًا

المميزات التى ألفها الألبان أجيالا، وتتخذ الطريق القصير نحو المركزية وتدعيم سلطان الحكومة فى أرجاء الدولة، وعندما تأكد انفصال الأمم البلقانية عن السلطنة.

أرغم هذا التطور الخطير الألبان على النظر فى أمرهم، ولولاه لبقوا حيث كانوا فى الماضى. ولا يصعب على المتأمل فى أحوال هذه الأمة أن يقدر عظم ملاءمة النظم العثمانية القديمة للألبان. فالألبانى - وبخاصة الألبانى المسلم - كان راضيًا تمام الرضا عن عثمانيته. فإنه إذا بقى فى بلاده مكنّه كونه مسلما من الاحتفاظ بسلاحه وأرضه ومن الوصول فى خدمة السلطان إلى وظائف النفوذ فى قومه؛ وإذا خرج من بلاده إلى ولايات السلطان الأخرى مكنه كونه عثمانيًا من تولى وظائف الحرب والحكم فى دولة شاسعة الأطراف لا يعرف نظامها قيود الجنس والحسب.

تغير الأمر لما قامت لأمم البلقان دول مستقلة: لليونان ولأهل الجبل الأسود وللصربيين، ولكل منها تطلع نحو أرض الألبان، ولم يقتصر الحال على ذلك، فالإمبراطورية النمساوية من ناحية وإيطاليا من ناحية أخرى تهتمان اهتماما خاصا بما يجرى فى ألبانيا وبما يجرى عليها.

كان من أثر ذلك تنبه الألبان لحرج موقفهم؛ فقاموا بإنشاء "الحلف الألبانى" فى ١٨٧٨ يجمع بين النصارى من الألبان والمسلمين على الدفاع عن وحدة وطنهم. وكان من أثره أيضًا ما رأينا من محاولة الألبان منع حكومة السلطان من تناول ما اعتادوه من النظم بالتغيير. ثم تأتى سنة ١٩٠٨: سنة الدستور. وفى حوادث هذا الانقلاب كان للجنة الألبان أثرها فى انتصار الحركة الدستورية وسقوط عبد الحميد. وقد جاشت صدور الألبان - كغيرهم من الأمم العثمانية - بالأمل المتدفق فى نهضة الدولة وفى حياة قوامها الحرية والعدالة والمساواة. ولكن سرعان ما خابت هذه الآمال، إذ أعلنت الإمبراطورية النمساوية ضم ولايتى البوسنة والهرسك وخلعت بلغاريا عن نفسها بقايا التبعية للسلطان، ونادى أهل كريت بالانضمام للحظيرة اليونانية وادعت الحكومة اليونانية بحقوقها على ألبانيا الجنوبية.
أثارت كل هذه الحوادث الشك فى تمكن رجال الدولة من التغلب على الأخطار المحدقة بهم، وهم من ناحيتهم زادوا الأمر حرجًا باتخاذ نهج جديد فى سياسة

الدولة يرمى إلى سن نظم عامة واحدة للتجنيد والضرائب والإدارة فى مختلف الولايات، ولهم فى هذا كله غاية واحدة هى تغليب "التركية" على القوميات المختلفة وبخاصة الألبانية منها والعربية. وكان من ذلك أنه من مايو ١٩٠٩ إلى نشوب الحرب البلقانية الأولى فى ١٩١٢ والألبان فى عصيان عنيف ورجال الدولة فى محاولة إخماد الفتن بالسيف.

ثم قامت الحرب البلقانية، وفى أثنائها اتخذ الزعماء الألبان خطة الوقوف على الحياد بين العثمانيين وأعدائهم من البلقانيين والسعى لنيل اعتراف الدول الأوروبية باستقلال بلادهم. وقد أيدتهم فى هذا السعى الحكومة النمساوية، إذ هى تفضله على وقوع الأرض الألبانية فى حوزة صقالبة البلقان أو الإيطاليين، وذهبت فى ذلك أيضًا إلى أن سهلت على الزعيم الألبانى إسماعيل كمال بك الوصول إلى ألبانيا حيث اجتمع بعدد كبير من رؤساء مواطنيه فى مؤتمر فى آولونيه: وفى هذا المؤتمر أعلن المجتمعون فى نوفمبر ١٩١٢ استقلال ألبانيا ونشروا علم إسكندر بك وأقاموا حكومة مؤقتة على رأسها كمال، وإن كان نفوذ هذه الحكومة لم يتعد آولونيه لوقوع البلاد فى أيدى الصرب وأهل الجبل الأسود.

وكانت الدولة تعمل فى أثناء ذلك على وقف الحرب البلقانية، وتمكنت فيما يتعلق بألبانيا من حمل الصرب وأهل الجبل الأسود على التخلى عما فتحوه من أرضها، وفى معاهدة لندن (مايو ١٩١٣) تقرر مبدأ استقلال ألبانيا، وفيها أيضًا احتفظت الدول العظمى بحقها فى تسوية أمرها، فاختارت لها أميرًا أجنبيًا هو وليم دى فيد، وكلفت هولاندة تنظيم قوة من الشرطة يستتب بها الأمن، وبعثت لألبانيا ثلاث لجان: واحدة منها للإشراف على الحكم ووضع نظم له، والثانية لتعيين الحدود الجنوبية للإمارة الجديدة، والثالثة للحدود الشمالية.

وقد رسمت هاتان اللجنتان حدود ألبانيا رسما ترك مالا يقل عن نصف مليون ألبانى خارج الإمارة تحت حكم الصرب أو حكم أهل الجبل الأسود. ومكن اليونان من نيل جزء كبير من الأبيروس ومدينة يانينا. أما عن المسائل الأخرى فإنا لا

نجد للجنة التى ألفت لوضع نظم الحكم عملا يؤثر، ولا نجد الأمير وليم قادرا على حكم البلاد فغادرها فى سبتمبر ١٩١٤ بعد إقامة لا تزيد على سبعة شهور.

وقد صادف قيام الإمارة الألبانية المستقلة نشوب الحرب العالمية الكبرى، فاختلت أمور ألبانيا اختلالا كبيرا وأصبحت أرضها نهبا للناهبين. فاحتلت الجيوش النمساوية شمالها ووسطها واستولى الإيطاليون على آولونيه. وفى معاهدة لندن السرية (أبريل ١٩١٥) التى عقدت بين إيطاليا والروسيا وفرنسا وإنجلترة نص على امتلاك إيطاليا لآولونيه وعلى أن إيطاليا تسلم بتقسيم شمالى وجنوبى ألبانيا واليونان والصرب والجبل الأسود، بشرط أن تنال إيطاليا ما يرضيها من الولايات النمساوية على سواحل البحر الأدرياتى وبشرط أن يبقى للألبان وطن مستقل ضئيل تهيمن إيطاليا على علاقاته الخارجية.

إلا أن الحوادث لم تجر على ما قدره ذلك الاتفاق، وانجلى الاضطراب الألبانى عن قيام حكومة ألبانيا قوية فى تيرانا تمكنت من لم شعث البلاد ومن إقامة ألبانيا مستقلة، حدودها تطابق حدود إمارة ١٩١٢ ماعدا الجبهتين الشمالية والشمالية الشرقية. وقد تأيد هذا الاستقلال بقبول البانيا فى عصبة الأمم فى ديسمبر سنة ١٩٢٠.

الحضارة الإسلامية فى البانيا:

١ – اللغـــة:

اللغة الألبانية التى يقال إنها انحدرت من لغة الفلاسكه Pelasgian لغة هندية أوروبية من الفرع الساتمى[1] مثلها مثل الأرمنية والهندية الإيرانية والصقلبية. وليس بين أيدينا سجلات مكتوبة بهذه اللغة قبل عام ١٤٩٦م، ولكننا إذا استندنا إلى أسماء الأشخاص والأماكن فإننا يمكن أن نقول إن اللغة الإلليرية القديمة هى الأصل فى لغة الغيغة الألبانية (فى الشمال) كما أن اللغة الإبيرونية القديمة هى

[1] نسبة إلى كلمة ساتم فى الأفستية، وهى الفرع العام الثانى من اللغات الهندية الأوروبية. أما الفرع العام الأول فينسب إلى Centurn وينطق فى اللاتينية كنتم.

الأصل فى لغة التوسقة الألبانية فى الجنوب. فالكلمات الليرية "مانتوا" و"مانتيا" بمعنى العوسج، و"كروسا" بمعنى الملف هى الكلمات الألبانية: "ماند" و"مانزى" و"كرسى". واللغات المقدونية والتراقية والداشية هى لغات من طراز اللغة الألبانية.

واللغة الألبانية التى تعرف باسم "شكيب" فى ألبانيا و"أربيرش" فى المستعمرات الألبانية، وقد بقيت من هذه اللغة صورة عتيقة فى الجزيرتين اليونانيتين هيدرا وسبتسا، وكذلك فى صقلية وكالبريا جلبها إلى التوسق الذين أقصتهم الغزوات التركية. وقد أفقر اللغة الألبانية توالى قرون أهملت فيها فأصبحت مفرداتها الأصلية قليلة ومفرداتها المستعارة كثيرة. ومن ثم فإن العجلة والعربة والمحراث أصبحت كلمات مستعارة، واختفت الألفاظ الهندية الأوروبية المألوفة الدالة على القرابة. وعبّر عن الحياة المدنية وإنشاء الطرق وفلاحة البساتين والعلاقات الأسرية بألفاظ لاتينية مستعارة غشاها إلى حد كبير انحطاط فى النطق. أما المصطلحات المستخدمة فى الطقوس الدينية الأرثوذكسية فيونانية. وانتقلت إلى اللغة الألبانية عن التركية أسماء الأطباق المعدة والملبوسات وأدوات المنزل وكذلك المصطلحات الإسلامية.

٢- الأدب:

احتفظت الكنيسة الرومانية منذ القرن الثالث الميلادى بأسقفية بإشقودرة فى شمالى ألبانيا، وأصبحت هذه الأسقفية أول مركز ثقافى. وشاهد ذلك "الطقوس الدينية" للأسقف يوحنا بوزوك (سنة ١٥٥٥) والكتب الدينية التى كتبها فى القرن السابع عشر بودى، وباردى وبوكدانى. وقد سمح الترك بالنشاط الأدبى فى الشمال الكاثوليكى، ولكن هذا النشاط قمع فى المركز الإسلامى وفى الجنوب الأرثوذكسى. وإن كان قد تمكّن بين الجاليات المنفية فى صقلية وكالابريا. وقداستن ماترا نكه، سليل المنفيين، سنة أدبية تقوم على كتابة التراتيل (١٥٩٢) ومضى فى ذلك برانكاتو (١٦٧٥ - ١٧٤١) وفاريبوبا الكالابرى المولود سنة ١٧٢٥، وتغيرت طبيعة هذه الحركة فانقلبت من دينية إلى دنيوية بفضل الأغانى الشعبية والمتنوعات التى كتبها ده رادا (١٨١٣ - ١٩٠٣) الداعية المتحمس لتحرير ألبانيا، والتى استمر فيها حتى

دخل بها القرن العشرين زف سكيرو (١٨٦٥ - ١٩٢٧)، وهو كاتب صقلى المولد لملحمتين رمزيتين ومجموعة من الأغانى الشعبية.

وقد أوحت آثار ده رادا إلى ثلاثة إخوة وطنيين من التوسق هم عبديل وسامى ونعيم فراشرى بأن يعقدوا حلفًا فى بريزرند سنة ١٨٧٨. وقد سعوا مدفوعين بالتسوية التى تمت فى سان استيفانو إلى الحصول على الاستقلال الذاتى لألبانيا وتحقيق الحرية الأدبية: وقضوا عدة سنوات يمارسون فيها نشاطهم باستانبول حيث انضم إليهم الفقيه اللغوى ومترجم الكتاب المقدس كريستوفوريدى (١٨٢٧ - ١٨٩٥) ثم أجبروا على مغادرة البلاد إلى المنفى. وفى بوخارست أنشا عبديل رجل السياسة، وسامى المربى، ونعيم الشاعر البكتاشى الغنائى الذى عبر عن الشوق إلى الوطن ألبانيا، جمعية أدبية ونشروا كتبًا ألبانية من سنة ١٨٨٥ فصاعدًا. أما شيمى مثيكو وسبيرو دينه اللذان كانا منفيين فى مصر، فقد جمعا أغانى شعبية من الجالية الأرمنية. وفى صوفيا نشر مدحت فراشرى بن عبديل تقويمًا ومجموعة أشعار وصحيفة، وكتب مقالات تهذيبية وقصصًا قصيرة ذات مغزى وكانت الكتب المطبوعة فى المنفى تهرب إلى ألبانيا بالقوافل وكان الافتقار إلى مركز أدبى والحاجة إلى أبجدية موحدة يعرقلان الحركة. وقد استبدلت بطريقة سامى العسيرة فى النطق بالأصوات طريقة تقوم على الرسم تشبه تلك التى اصطنعها. سانتورى الكالابرى واللغوى كامارده (١٨٢١ - ١٨٨٢) الصقلى. وبعد الاستقلال الذى تحقق فى نوفمبر سنة ١٩١٢ التأمت التيارات الأدبية المختلفة. واستمر درينوفا الشاعر الغنائى التوسقى (ولد سنة ١٨٧٢) وبوبانى، ول. بوراديسى المولود سنة ١٨٩٩ على سنة مدرسة بوخارست. وكان لبوراديسى أسلوب خاص به تقليدى. وكان يمثل الشمال الكاثوليكى ف. شيروكا (١٨٤٧ - ١٩١٧) الذى يفيض شوقًا إلى الوطن، وا. دزانونى (١٨٦٣ - ١٩١٥) ون. مجدا (١٨٦٦ - ١٩٣٧). وألساخر ك. فشته (١٨٧١ - ١٩٤٠) والشاعر الشعبى صاحب المراثى ف. بريئونشى (١٨٨٥ - ١٩٤٦) وكاتب القصص القصيرة أ. كوكيكى المولود سنة ١٩٠٣. أما فوكيون بوستولى، وم. كرأمينو (١٨٧٢ - ١٩٣١) كاتبا المسرح التوسقيان، وكريستو فلوكى الكاتب المسرحى المولود سنة

١٨٧٣، وف. كونيتزه (١٨٧٥ - ١٩٤٣) فقد نقلوا نشاطهم إلى بوسطن من أعمال الولايات المتحدة الأمريكية حيث تأسست سنة ١٩١٢ جمعية أدبية هي فاتره، وجريدة هي: ديلّى (الشمس).

وقد اجتذب النظام الفاشستى القصير الأمد (١٩٣٩ - ١٩٤٣) كتابًا قلائل هواهم مع إيطاليا. ويشجع للحزب الشيوعى والنضال الطبقى والموضوعات الخاصة بالعمل والسلام. والكتب المدرسية تنهج نهج الكتب المدرسية الروسية. وثمة ثلاثة مسارح ناشطة واتحاد للكتاب. وهذا النشاط يقابله نشاط آخر فى قوصوه - متوهيجه، حيث تصطبغ الموضوعات الشيوعية بصبغة مذهب تيتو.

أوائل الشعراء المسلمين بألبانيا

لقد ألقى كثير من الضوء على تأثير الأدب العربى والفارسى والتركى على ألبانياو والألبان على المستوى الشعبى والأدبى. ونشرت بألبانيا بعض من أحدث الدراسات، ونشر بعضها الآخر خارجها (وخاصة بكوسوفا) وفى دول الغرب. وقد نوقشت المخطوطات الألبانية المدونة بالخط العربى فى المؤتمرات وفى أعمال منشورة ومن أهمها كتابات حسن كاليشى. ففى مقاله 'Orientalische Einflusse in den albanischen Volkserzahlungen' (التأثيرات الشرقية فى القصص الشعبى الألبانى) حذفت بعض عناصر الموضوعات والحكايات والقصص الشعبية والأشعار العامية التى تزخر بالاستعارات الشرقية. وهناك دراسة أحداث لمحمد موفاكو عن الحكايات الشعبية الألبانية ومصادرها الشرقية نشرت فى حولية المعرفة السورية تلفت بصورة خاصة إلى المصادر العربية لموضوعاتها وأساليبها الإنشائية.

وفى القرن الخامس عشر بذلت أول محاولة للتدوين باللغة الألبانية. وأقدم نص كتب بها هو الوصفة المعمدانية لعام ١٤٦٢ ودونها الأسقف بال إنجيل بالتعاون مع جورج كاستريوتى اسكندر بك؛ وهى تشير إلى التعميد المنزلى بدون جرن أو قس. ولا شك أنه كان هناك أدب عامى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر؛ ويشير مارين بارليتى Marin Barleti فى كتابه Siege of Shkedra (حصار اشكودرا) إلى السجلات التى حصل عليها والتى ظهرت فيها متفرقات من حكاية

روس وأخيها فا مؤسس اشكودرا (اشكودير). وفى الوقت نفسه بدأت الألفاظ التركية العثمانية فى دخول اللغة الألبانية بعد الغزو العثمانى عام ١٤٧٠. ويحتوى كتاب الزمن لجون بوزوكو والمدون عام ١٥٥٥ لمساعدة القساوسة على استخدام اللغة الألبانية فى الصلوات على تسعة ألفاظ تركية. وفى القرن التالى، تطورت الكتابة واتخذت العامية شكلا أدبيًا فى الكتب التعليمية والمعاجم وكتب الأذكار التى وضعها كل من بودى (١٦٢١) وباردى (١٦٨٩). وبدأ تدريس القرآن بعد الغزو مباشرة ووجدت الحكاية الشرقية طريقها من حيث الموضوع والأسلوب على السواء إلى سرد القصص الشعبى. وكان للنماذج التركية والفارسية والعربية - وخاصة الأخيرة - أثرها على الغزل والشعر العاطفى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ومع أن البعض قد يرجح كفة الشاعر مسيحى الذى ولد فى برشتينا وتوفى بالقسطنطينية عام ١٥١٢ وترجمت قصيدة الربيع التى نظمها إلى اللاتينية على يد جونز إلا أن أحد أشهر الشعراء الألبان الأوائل والذى يعرف بتناوله للموضوعات الشرقية هو يحيى بك من مدينة طاشليجة (بمنطقة بريفليه بشمال الجبل الأسود) وكان ضابطًا بالجيش العثمانى (سباهى) ومديرًا للأوقاف، وقد توفى بالبوسنة حوالى عام ١٥٧٥. وكان يدعى أنه سليل عائلة دوكاجان الأرستقراطية بالقرب من اشكودير من نسل مغامر نورمانى. وفى أشعاره العثمانية لا يجد غضاضة فى الإعلان عن أصله الأرناؤوطى، ويشبّه قومه بالنسور والصقور التى تسكن الجبال كالجواهر. ومع أن أقوى عواطفه كانت موجهة لوطنه فإنه بميوله الرومانسية يبين عن قدرة على دمج الشرق والغرب فى إنجاز خلاق؛ وهو ما نجده فى مثنوياته، ومنها شاه وكدا (الملك والمتسول)، يوسف وزليخا، يوسف، سليمانى (النبى سليمان)، حضرت خضر (الخضر)، حضرت آدمى وخاخيما هوخيب (آدم ويأجوج ومأجوج)، وهى منظومات تجد قبولا كبيرًا عند الألبان سواء عند الأدباء أو فى الحكايات الشعبية. كما نجد يوسف وقصته فى القصص الشعبى أيضًا. ومن السمات المميزة لأشعاره الحس الصوفى والنصح الأخلاقى.

تصور حكاية "الملك والمتسول" (شاه وكدا) شابًا يدعى أحمد ويلقب بالملك لشدة وسامته، وكان يلتقى أصدقاءه بمضمار القسطنطينية. وهناك شخص حكيم لكنه يتسول من روملية يرى أحمد فى المنام ويفتن به ويبحث عنه فى كل مكان مع أنه لا يلقى منه إلا الصد. ويكاد المتسول يصاب باليأس لولا أن يناديه هاتف يحذره من تفاهة الحب البشرى. ويرى أليسو بومباتشى أن تأثير أحد شعراء هرات – وهو خليلى الذى نظم شعرًا بالفارسية ضمن جماعة عليشير – يبدو واضحًا فى أشعار يحيى ولو أن الحبيب والمحبوب – وكلاهما من الذكور – لقيا استنكارًا شديدًا فى سيرة بابر الذى اعتبر خليلى حالة استثنائية. على أية حال فإن معالجة يحيى للموضوع تتسم بالذوق الرفيع. وعلى الرغم من جعل الجمال ملكًا فإن قصة السعى إلى "جمال الدنيا" و"جمال البحر" و"جمال السماء" تعد من أكثر التيمات شيوعًا وقدمًا فى الحكايات والملاحم الشعبية الألبانية. وبعض الحكايات الألبانية مستعارة بصورة مباشرة من ألف ليلة وليلة، ويلفتنا محمد موفاكو إلى موضوع حكاية "على بابا والأربعين حرامى" باعتبارها أصل حكاية سيزان تشيلوسيزان إمبيلو. وقد ظهرت هذه المصادر الشعبية وغيرها فى أعمال الشعراء والأدباء الألبان فى العصر العثمانى وما بعد العثمانى حتى القرن العشرين.

٣- السكـــان:

بلغ عدد سكان ألبانيا فى تعداد سنة ١٩٥٥: ١,٣٩٤,٣١٠ نسمة (كان سنة ١٩٣٠: ١,٠٠٣,٠٩٧ نسمة) وفى خارج ألبانيا ألبان فى يوغوسلافيا (٧٥٠٠٠٠ بحسب التعداد اليوغوسلافى سنة ١٩٤٨)، وفى اليونان (قدّر عددهم ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠)، وفى إيطاليا (قدّر عددهم مابين ١٥٠,٠٠٠ و ٢٥٠,٠٠٠) ويقدر عدد الألبانيين مولدًا فى جميع أنحاء العالم (١٩٥٥) بثلاثة ملايين ألبانى أما ألبانيا حاليا حسب تقديرات ١٩٨٥ فبلغ ٣,٠٥ مليون نسمة (انظر الفصل الأول)

والألبان سلالتان أساسيتان: الغيغة إلى الشمال من نهر إشقومبى والتوسق إلى الجنوب. ويطلق الأتراك على هذين الإقليميين الغيغة لق والتوسقة لق. ولا يختلف الغيغة عن التوسق فى لهجاتهم فحسب بل يختلفون عنهم أيضا فى المظهر

وفى السلوك الإجتماعى. ويتميز الغيغة عن التوسق بأن خصائصهم القومية أنقى من التوسق.

وجبال ألبانيا القاحلة لا تزود عدد السكان النامى إلا بأقل القليل من أسباب المعاش، وخاصة إذا تفشى وباء فى ماشيتهم، فإن القوم لا يملكون فى هذه الحالة إلا الهجرة إلى السهول المجاورة، وقد جرى الأمر بأن يخرجوا من ديارهم جنوداً مرتزقة أو رعاة أو مزارعين.

وحوالى منتصف القرن الرابع عشر هجر الألبان ديارهم واستقروا فى أبيروس وتساليا والمورة بل فى جزائر بحر إيجه مدفوعين بضغط الصربيين عليهم أو عاملين جنوداً مرتزقة لدى أرباب الإقطاع فى بلاد اليونان. وهناك تأغرق معظم الألبان شيئاً فشيئاً أو هاجروا إلى جنوبى إيطاليا بضغط العثمانيين عليهم فيما بعد. على أنه كان قد بقى بعد فى تساليا حوالى سنة ١٤٦٦ أحياء ألبانية فى المدن، كما كان ثمة ٢٤ "قاطونه" فى لباديا و٣٤ إستفه. وكانت لهذه القاطونات فى عهد العثمانيين مراكز خاصة، وقد عرفت فيما بعد باسم الـ "أرماطول".

ولما توفى "إسكندر بك سنة ١٤٦٨ لجأ عدد من الألبان الذين تورطوا فى نزاعه مع العثمانيين إلى الجبال أو هاجروا إلى مملكة نابلى. وفى سنوات ١٤٧٨، ١٤٨١، ١٤٩٢ هاجر عدد أكبر من الألبان إلى جنوبى إيطاليا وصقلية حيث احتفظوا بلغتهم وعاداتهم حتى اليوم.

وفى القرن الخامس عشر نقلت الحكومة العثمانية بعض أصحاب التيمارات من الأسر الإقطاعية الألبانية (مازراكى وهيكل) إلى طرابزون.

ولم يسجل التاريخ استقرار عدد كبير من الترك فى ألبانيا. والذى حدث أن عدداً صغيراً من المنفيين من قونية - يعرفون محليًا باسم قونيجى - هم الذى استقروا بها. ونجد أيضًا يورلوق قوجه جق على الجبال التى إلى الشرق من ديبره حيث أقيموا هناك فيما يظهر لتأمين الطريق العام من الروملى إلى ألبانيا. وكذلك كان المرحلوَن (سوركون) الذين أقصوا حوالى سنة ١٤١٠ من جهات من الأناضول مثل صاروخان وقوجه إيلى وجانيق قليلى العدد.

وكان التوسع المشهود الثانى للألبان في الروملى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، فقد قاموا للاستقرار فى سهول جافوفه (يافوفه) وبرزرن وإيبك (بج) وقلقا ندلدن (تيتوفو) وقوصوه، وخاصة بعد الهجرة الجماعية للصرب من هذه البقاع سنة ١٦٩٠. ويبدو أن استقرار الألبان هذا كان نتيجة لنظام "المقاطعة" الذى كان سائدا هناك وقتذاك. ذلك أن الألبان قدموا لاستئجار قطع صغيرة من أرباب "المقاطعة" الكبيرة فى هذه السهول الخصبة واستقروا هناك مؤاجرين استقرارًا.

أما الفلاج فى ألبانيا فقد عاشوا عيشة الرعاة على جبال شمالى ألبانيا بجوار الألبان منذ الغزوة السلافية فى القرن السابع، واشتركوا بنصيب فى التوسع الألبانى منذ القرن الحادى عشر. ونحن نجد الفلاج فى السجل العثمانى لسنة ٨٣٥هـ (١٤٣١م) هم وقواطينهم (أفلاق قاطونه) بجنوبى ألبانيا وخاصة فى الإقليم الذى إلى الشرق من كانينا.

وتسمى القبائل الألبانية التى تقيم إلى الشمال من نهر درين بالإسم العام "ملج سور" أى أهل الجبال. وكانت تنتمى إلى هذه الجماعة حوالى سنة ١٨٨١ تسع عشرة قبيلة عددها ٣٥,٠٠٠ من الروم الكاثوليك و١٥,٠٠٠ من المسلمين و٢٢٠ من الروم الأرثوذكسى. وكانت أشهر قبائلهم الهوتّى والقليمنتى والشقريلى والقاسطراتى والقوجاج والبولاتى وتعيش على الجبال التى إلى الشرق من إشقودره.

والظاهر أن العشائر المتمردة قد اضطرت مرة أخرى إلى الاعتصام بأوعر نواحى الجبال أثناء الغزو التركى لألبانيا من سنة ١٣٨٥ حتى نهاية القرن الخامس عشر. وكانت عودتهم إلى الظهور فى السهول قد اقترنت فيما بعد بضعف السيطرة العثمانية على الولايات فى القرن السابع عشر، ثم أصبحوا من بعد مصدر الرعب للروملّى.

ولم تجد الحكومة العثمانية من أول الأمر مناصًا من أن تحترم التنظيم القبلى لهذه القبائل واستقلالها الذاتى، وقد وجدت هذه الحكومة أنهم يسيطرون بالفعل على الممرات الجبلية الهامة من الروملّى إلى ألبانيا فعهدت إليهم حراسة هذه الممرات وأعفتهم نظير ذلك من الضرائب. وقد صدرت سنة ١٤٩٦ لائحة تنص على

ما يلي: "يتبع ناحية قليمنتى خمس قرى يؤدى سكانها من النصارى ألف آقجه من الخراج وألف آقجه من "الإسبنجه" للسنجق بكى، وهم معفون من العشر والـ "عوارض ديوانى" وغيرهما من الضرائب ولكنهم قد أقيموا حراسًا (دربندجى) (على الممرات) على الطريق من إشقودرة إلى أرض بتريشبان إلى آلتون إيلى وكذلك على الطريق من ميدون إلى قوجه إلى بلوته": وقد حدث بعد ذلك. أى فى القرن السابع عشر" أن أثارت قبائل قليمنى اضطرابات بما أحدثوه من أعمال السلب والنهب فى الروملّى وتعاونهم مع قبائل الجبل الأسود (قره داغ) المتمردة.

وكانت قبيلة مرديته تعيش إلى الجنوب من نهر درين وبلغ عددها ٣٢،٠٠٠ نسمة (سنة ١٨٨١) كلهم من الروم الكاثوليك. وكانت هذه القبيلة خمس عشائر تعرف بالبيارق، هى الأوروشى، والفاندى، والاسباشى، والكوشنى والديبرى. وقد أبلى الهوتّى البلاء الحسن فى خدمة الأتراك فى حربهم مع البنادقة سنة ١٦٩٦ فرفعوا إلى المرتبة الأولى بين هذه العشائر، وتقدم بيرقهم على جميع البيارق. ولكن الشاله هى زعيمة القبائل اليوم. وكان للألبان مكانة بارزة بين الطبقة الحاكمة للامبراطورية العثمانية. ويمكننا أن نخص ثلاثين صدرًا أعظم على الأقل من أصل ألبانى، منهم كديك بك، وقوجه داود، ودقاكين زاده أحمد، ولطفى، وقره مراد وطارخونجى أحمد، وكان الألبان أيضًا ممثلين بأعداد كبيرة فى جيش قابى قولى. وثمة سبب واضح لذلك هو أن نظام الدوشرمه كان يمارس على نظام واسع جدًا فى ألبانيا. كما كان الشأن فى البوسنة.

والمعلوم فى الرواية القبلية أن الأصل فى هذه البيارق يرجع إلى العثمانيين، والحق إن النظام العثمانى كان يمنح الزعماء العسكريين بيرقًا أو سنجقًا رمزًا لسلطانهم، وكان على كل عشيرة "بيرقدار" أى حامل علم هو زعيمها الوراثى. وكانت العشائر الخمس تعقد اجتماعها السنوى فى أوروش لمناقشة أمورها العامة. وكان الوالى العثمانى يقيم "بولوك باشى" لتدبير كل ما يعن من مختلف الأمور بين الحكومة والعشائر. وكان زعماء العشائر الخمس للمرديته يردون نسبهم إلى ليكه دقاكين الذى كان له شأن بارز فى صراع إسكندر بك مع العثمانيين. ويعتقد أن ليكه

هذا هو الذى رتب القانون العرفى الذى تمارسه القبائل ويسمى "قانون ليكه دقاكينيت".

وقد جرت هذه القبائل على أن تمد الجيش العثمانى بقوة مساعدة قوامها رجل من أهل كل بيت وفقًا للسنة العثمانية التى كانت تطبق أيضًا على اليوروق والأكراد. ولما احتاجت الإمبراطورية العثمانية منذ نهاية القرن السادس عشر إلى عدد أكبر من الجنود للوفاء بأعباء الحروب الطويلة التى كانت تخوضها أصبح لهؤلاء الجنود الألبان المساعدين شأن متزايد الخطر. فقد كانوا يستخدمون بصفة خاصة فى الحروب المحلية ضد أهل الجبل الأسود، وقد كان المرديته يعدون أشجع جنود الرملّى، على أن هكارد H. Hequard (سنة ١٨٥٥) قد نعتهم بلقب "أعظم النهابين فى العالم". وحاول القائمون على "التنظيمات" سنة ١٨٥٥ أن يجردوهم من سلاحهم ويدخلوهم فى سلك الجيش القائم فتمردوا وعاثوا فساداً فى منطقة زدريمه فلم تجد الحكومة فى العام التالى مناصًا من العدول عن هذه المحاولة. ثم حدث بعد ذلك أن لعب الزعيم المرديتى برنك بيب دوده دورًا هامًا فى حركة الاستقلال الألبانى سنة ١٩٠٨؛ وأقيمت "جمهورية مرديته" تحت الرعاية اليوغوسلافية سنة ١٩٢١، ولكنها انهارت فى العام التالى.

٤- الدين:

جاء فى الإحصائيات الإيطالية التى أجريت سنة ١٩٤٢ أن مجموع السكان بلغ ١,١٢٨,١٤٣ نسمة منهم ٧٧٩٤١٧ مسلمون[1] و٢٣٢,٣٢٠ من الأرثوذكسى و١١٦,٢٥٩ من الكاثوليك. والجماعة الكاثوليكية الوحيدة ذات الشأن تقيم فى ناحية إشقودره (إسكوتارى) على حين تعيش جماعات كبيرة من الأرثوذكسى فى نواحى كنوكاستير (أركيركاسترو) وكورجه، وبرات، وفلورة (آولونه). أما المسلمون فمنتشرون فى جميع أنحاء البلاد، ومعظمهم فى ألبانيا الوسطى.

---

[1] تبلغ النسبة ٦٩% وهى تماثل النسبة فى عام ١٩٨٥ أى ٧٠% انظر الفصل الأول.

وألبانيا - التى كانت قد أصبحت تابعة لبطريركية القسطنطينية سنة ٧٣٢م - تقاسمتها سنة ١٠٥٤ رومة والقسطنطينية، وانضوى الجزء الشمالى منها تحت تبعية رومة. وقد دعم النورمان والأنجفيون مركز الكاثوليكية فى البلاد: وكانت أنتيفارى مقر أسقفية ألبانية ودوراتزو مقر أسقفية مقدونية.

وكانت ألبانيا الأرثوذكسية تعتمد مباشرة على أبرشية أو خريدة. وكان العثمانيون، حتى قبل إعادتهم لبطريركية القسطنطينية سنة ١٤٥٤، يناصرون الأرثوذكسية على الكاثوليكية بوصفهم حماة للكنيسة الأرثوذكسية. على أن الباب العالى قد سمح بقيام الكنيسة الكاثوليكية فى ألبانيا لأغراض سياسية. وكان أشراف ألبانيا يتأرجحون بين الشرق والغرب تبعًا للظروف السياسية. وكان للمهاجرين الألبان الأرثوذكس فى جنوبى إيطاليا كنيستهم الخاصة الموحدة التى تعترف بسيادة البابا. وقد جاء بالكتاب السنوى العثمانى عن سنة ١٨٩٥ أنه كان فى ولاية يانيا (أبيروس وألبانيا جنوبى نهر ديفول): ٢٢٣,٨٨٥ مسلم، و١١٨,٠٣٣ من اليونان، و١٢٩,٥١٧ من الألبان الأرثوذكسى، و٣,٥١٧ من اليهود، و٣٩ شخصًا فقط من الروم الكاثوليك. ويجب أن نضيف إلى ذلك أن فريقًا من اليونان كانوا فى الأصل من الألبان الأرثوذكس ثم تأغرقوا على يد المؤسسات اليونانية الدينية والتربوية التى أقبل القوم فى غيرة على إقامتها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. ولما استقلت ألبانيا اعترفت البطريركية نهائيا بقيام كنيسة أروذكسية فى ألبانيا مستقلة عنها (سنة ١٩٣٧). وكان أول من اعتنقوا الإسلام هم أرباب الإقطاع الألبان الذين منحهم العثمانيون التيمارات. ولم يكن الدخول فى الإسلام شرطًا لازمًا للاحتفاظ بأراضى التيمارات، وهذا هو عكس الرأى الذى ذهب إليه جمهور القائلين. ذلك أن الولاء للدولة العثمانية كان كافيًا لتلقى التيمارات. وكان المسيحيون يمنحون تيمارات خلال القرن الخامس عشر. ومع ذلك فإنه ما وافت نهاية هذا القرن حتى لم يبق من أرباب التيمارات من المسيحيين إلا القليل، والسبب فى ذلك أنهم كانوا يدخلون فى الإسلام باختيارهم. وأصبحت إيلبصان التى أنشأها محمد الفاتح سنة ٨٧٠هـ (١٤٦٦م) مركزًا إسلاميًا من البداية، كما كان شأن يكيشهر فى تساليا. على أن الإسلام

كان لا ينضم اليه وقتذاك فيما يظهر الا افراد قليلون من عامة الناس اى الرعايا. وكان فى اربعة سناجق بالبانيا فى بداية القرن السادس عشر (وهى إيلبصان وأوخرى وأولونيه واسكندريه) حوالى ثلاثة آلاف مسلم من أسر الرعايا. وقد قدّرت المصادر الكاثوليكية التى كتبت حوالى عام ١٦٢٢ أن عدد المسلمين فى ألبانيا بلغوا واحدا من ثلاثين من سكانها. وحاول البنادقه والنمساويون أثناء القرن السابع عشر أن يثيروا الفتن بين الالبان الكاثوليك والعرب الارثوذكس الدين كانت تساورهم مشاعر العداء نحو الحكومة لما أدخلته من زيادة على الجرية. وقد قرر وجوه الكنيسة بقوحى فى اجتماع لهم سنة ١٦١٤ أن يستنجدوا بالبابا. وحوالى سنة ١٦٢٢ ظهرت اولى البعثات التبشيريه الفرانسسكانية فى البانيا وجنوبى الصرب. وتعاون الالبان الكاثوليك والصربيون مع البنادقة سنة ١٦٤٩ ومع النمساويين سنة ١٦٨٩ - ١٦٩٠ مما حمل الباب العالى على أن يقرر الإلتجاء إلى إجراءات رادعة. وتفاديا لذلك عمد السكان النصارى - فى سهول بج وبرزرن وجاقووه وقوصوه - الذين كان فريق منهم من الألبان، إلى الهجرة جماعة أو الدخول فى الإسلام. ولكن كثيرين منهم ظلوا نصارى فى الخفاء، وقد عرفوا محليًا باسم "لره مانه" (أى المتعددى اللون). وقد سار صبغ هذه السهول بالصبغة الألبانية جنبًا إلى جنب مع طبعها بطابع الإسلام فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وطرأ دافع جديد إلى الدخول فى الإسلام بفضل البوشتلية وعلى باشا التبه ده لنلى. والمعتقد أن على باشا هذا كان هو نفسه بكتاشيًا. قد تعلقت بها طائفة كبيرة من المسلمين، ولم تصبح البكتاشيه ذات مكانة ممتازة هناك الا بعد القضاء على الانكشارية، فالناس جميعًا فى تيرانا وآقجه حصار يأخذون بهذه الطريقه وقد شجع انتشار هذه الطريقة فى أول الأمر لتثبيت أقدام الإسلام، ويدل اعتناق السكان لهذه الطريقة المشوبه بالزندقه على روحهم الاسقلالية التى استحالت عندهم دينا. إلا أن هذه الروح كانت ظاهرية فقط، لأن البكتاشيه من الألبان يعتبرون من أخلص أتباع الحكومة التركية ومركزم الدينى هو آقجه حصار. وطابع المذهب الشيعى ظاهر كل الظهور فى الطريقة البكتاشيه الألبانيه. فهم لا يقسمون بالقرآن ويعتبرون الجنة والنار

من بدع رجال الدين ولا يصومون إلا ثلاثة أيام من رمضان وحسبهم الأيام التسعة الأولى من المحرم. وهم يبجلون عليًا أكثر مما يبجله الترك وأركان عقيدتهم هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي وليّ الله. وقد قدر عدد أتباعها في عهد الملك زوغ بحوالي ٢٠٠,٠٠٠ نفس؛ وأصبح لها شأن في ألبانيا بفضل تكاياها الزاهرة في تيران وآقجه حصار (وهي المركز القديم للبكتاشية) وبرات، وعلى جبل طومور. وكذلك تكيتها الرئيسية في القصبة. وسعى البكتاشية في مؤتمر كورجه سنة ١٩١٩ إلى إقامة جماعة خاصة بهم مستقلة عن السنين، ولم يتحقق هذا إلا في ظل النظام الشيوعي سنة ١٩٤٥.

وكان للإسلام شأن جوهري في صبغ الألبان بالصبغة العثمانية. وكان الألبان النصارى في كثير من الأحوال يشيرون إلى بني وطنهم المسلمين بقولهم "الأتراك". على أن الإسلام منع الألبان من أن يندمجوا في جيرانهم اليونان أو السلاف. ويقال على سبيل التأكيد إن المعتقدات الدينية البدائية بقيت لدى الألبان - وخاصة أهل الجبال - يخفيها قناع من النصرانية والإسلام.

الفصل التاسع

المسلمون فى البوسنة والهرسك



البوسنة والهرسك

١ - إلمامة عامة

تقع البوسنة والهرسك بمجموع مساحتها البالغ قدرها ٥١،١٢٩ كيلو مترًا مربعا بين خطى عرض ٤٢° ٢٦' و٤٥° ١٥' شمالا، وخطى طول ١٥° ٤٤' و١٩° ٤١' شرقا، فهى بذلك تشغل المنطقة الغربية من يوغوسلافيا، الجبلية فى معظمها والغنية بمواردها المعدنية وقوتها المائية وأحراجها. وهى تنقسم الى وحدتين جغرافيتين تاريخيتين متميزتين: البوسنة والهرسك. ويشير اسم البوسنة إلى الجزء الأكبر الشمالى، بينما يضم الهرسك النواحى الجنوبية مع حوض نهر نيرتفا Neretva. والاسم البوسنة مشتق من نهر البوسنة. وهو يجرى فى الجزء الأوسط من البلاد، وقد وجدت حول منبع هذا النهر وحوضه الأعلى بقايا آثار ناحية تعرف بالبوسنة. وكان يسكنها مستوطنون أوائل من أفراد قبائل صقلبية: وبعد أن عانى الإقليم الكثير من تقلبات الأحوال التى جرها عليه تعاقب الحكام من أجانب ووطنيين. أصبح جزءًا متكاملا فى دولة جديدة بهذا الاسم تحت حكم الملك تفرتكو الأول Tvertko (١٣٥٣ - ١٣٩١م). ولم تشمل حدودها أراضى البوسنة والهرسك الحالية (فيما عدا ناحية صغيرة فى الشمال الغربى) فحسب، بل شملت أيضًا جزءا كبيراً من الساحل الادرياوى مع النواحى المجاورة فى الجنوب والجنوب الشرقى. وكانت البوسنة تحت الحكم التركى احدى سناجق الإمبراطورية العثمانية، واصبحت فى سنة (١٥٠٨م) إيالة تضم مساحة أكبر من مساحة البوسنة والهرسك الحالية، ولم يكن ذلك فحسب قبل فقدها الأراضى الذى منيت به فى (نهاية القرن السابع عشر الميلادى) بل بعد أن فقدت هذه الأراضى أيضًا.

ويرجع اسم الهرسك إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى عندما ثار ستيفان فوكجيش كوساجا، أحد أعضاء مجلس الأشراف، على ملك البوسنة حينئذ

ونادى بنفسه "هرسك" (أى دوق) سانت سافا. ومن ثم سميت المنطقة هرسكوفينا (أى أرض الهرسك). وهى بالتركية هرسك إيلى أو هرسك سنجقى. وتطابق رقعة الأرض التى تشملها البوسنة والهرسك الآن المساحة التى كانت تشغلها ولاية البوسنة والهرسك أيام الحكم النمسوى (١٨٧٨ - ١٩١٨م)، والتى كانت جزءا من مملكة الصرب والكروات والسلوفين (من سنة ١٩١٨م) وبقيت الحدود وامتداد الإقليم على ما هى عليه مدة الإدارة الأخيرة للملكة الجديدة (بمقتضى ما يسمونه دستور فويفودان. وبعد إلغاء الحكم النيابى فى يوغوسلافيا (١٩٢٩م) قامت مملكة مطلقة السلطة فى يوغوسلافيا مكونة من تسع وحدات إدارية كبيرة باسم "بانوفينا". وغيّر هذا التقسيم من حدود البلاد. فالوحدتان الإداريتان، (بانوفينا) اللتان كانت قاعدتاهما فى سرايفو وبنالوقة والداخلتان فى البوسنة والهرسك تضمان الآن أجزاء من الأراضى المجاورة، بحيث أصبح جزء من أراضى البوسنة والهرسك تضمان الآن أجزاء من الأراضى المجاورة، تابعًا للوحدة الإدارية (بانوفينا) التى قاعدتها إسبليت بينما دخل جزء من أرض الهرسك ضمن الأراضى التى قاعدتها فى الجبل الأسود. وتقوم فى يوغوسلافيا الحالية جمهورية شعبية للبوسنة والهرسك داخلة فى حدودها التاريخية التقليدية.

والنظام الإجتماعى والسياسى فى البوسنة والهرسك باعتبارها إحدى جمهوريات يوغوسلافيا قائم على الدستور المكتوب لجمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية الشعبية الذى أقر فى الثالث عشر من يناير سنة ١٩٤٦، ودستور جمهورية البوسنة والهرسك الشعبية المؤرخ فى الواحد والثلاثين من ديسمبر سنة ١٩٤٦، والقانون الدستورى الصادر فى ١٣ يناير سنة ١٩٥٣ الخاص بإنشاء التنظيمات الإجتماعية والشعبية لجمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية والأجهزة الفيدرالية الحكومية. والقانون الدستورى الصادر فى ٢٩ من يناير سنة ١٩٥٣ الخاص بالتنظيم الإجتماعى والسياسى لجمهورية البوسنة والهرسك الشعبية والأجهزة الجمهورية للحكومة.

ولجمهورية البوسنة والهرسك "الشعبية" - شأن جميع الجمهوريات الأخرى في يوغوسلافيا ، - جمعيتها الشعبية التشريعية بمجلسها التنفيذى، وسكرتاريتها في سراييفو قصبة البلاد. وتنقسم الجمهورية إلى اثنتى عشرة ناحية (سنة ١٩٥٨).

ويبلغ عدد سكان البوسنة والهرسك، كما يدل عليه الإحصاء الذى أجرى في سنة ١٩٥٣م: ٢,٨٤٧,٧٩٠ نسمة، واللغة الصربية الكرواتية هى لغة الحديث (باستثناء عدد قليل من المستوطنين السلوفينيين والمقدونيين وبعض أقليات وطنية). وينقسم الشعب مع هذا بحسب الجنسية، إلى: صرب (معظمهم تابع للكنيسة الأرثوذكسية والباقى مسلمون) وكروات (معظمهم تابع للكنيسة الرومانية الكاثوليكية والباقى مسلمون) وممتنعين عن أعلان جنسياتهم وغالبيتهم العظمى من المسلمين.

وكان في البوسنة والهرسك - وفقًا للنتائج التمهيدية لتعداد سنة ١٩٥٣ - ١٠,٣٪ لا ينتمون لطائفة و٣٥,١٪ من الأرثوذكس و٢١,٤٪ من الروم الكاثوليك و٣٢,٣٪ من المسلمين و٠,٩٪ من طوائف أخرى:

ورغم اللغة المشتركة والقربى السلالية الوثيقة للسكان فإنهم ينقسمون إلى ثلاث طوائف، تبعًا للمؤثرات التاريخية بعامة، واختلاف المعتقدات الدينية بخاصة، وكانت هذه هى علة قيام الفروق الوطنية بين الصرب والكروات. وجاء إسلام البوسنة والهرسك (وهى تخوم الإمبراطورية العثمانية التى دامت قرونًا طويلة والواقعة على الحدود عينها بين الشرق والغرب بمؤثراتها الخاصة بها) فأضاف عنصرًا طائفيًا ثالثًا.

وكان التصنيف الرسمى للسكان أيام حكم النمسا والمجر تبعًا لطوائفهم، باستثناء عدد قليل من المستوطنين الذين سجلت جنسياتهم طبقًا لحقيقتها، ولو أن الجزء الأكبر من السكان كان قد أصبح على وعى بجنسياته، فمثلا، أقر السكان الأرثوذكس علانية بأنهم من الصرب، وأقر الروم الكاثوليك بأنهم كروات. وكانت كل من بلغراد وزغرب، حتى الحرب العالمية الثانية. تدعى القرابة الوطنية بمسلمى البوسنة، الأمر الذى ترتب عليه أن فريقًا من المسلمين - معظمهم من مستنيرى أهل الحضر - قد جاهروا بأنهم صرب أو كروات.

وبقيت الأغلبية العظمى من مسلمى البوسنة والهرسك مع ذلك غير متأثرين. وامتنعوا عن الاعتراف بأنفسهم صربا أو كرواتا. واحترمت يوغوسلافيا الحديثة آراءهم الشخصية وشعورهم فى مسألة الجنسية كل الاحترام. وأصبح المسلمون المتكلمون باللغة الصربية الكرواتية تبعًا لذلك أحرارًا فى قيد أنفسهم صربا أو كرواتا أو عدم توضيح جنسياتهم. ومن بين الأسباب الأخرى نجد أن وجود أعداد كبيرة من المسلمين المتكلمين باللغة الصربية الكرواتية الذين لم يبت فى أمر جنسيتهم. قد اقتضى أن يكون للبوسنة والهرسك جمهورية شعبية قائمة بذاتها فى يوغوسلافيا الجديدة.

ولم تتسبب القرون الأربعة من الحكم التركى (١٤٠٣م - ١٨٧٨م) فى إسلام جانب كبير من السكان فحسب، بل تركت طابعها أيضًا على القطر بأكمله. واللغة الصربية الكرواتية فى البوسنة والهرسك يتكلم بها المسلمون وسائر السكان على حد سواء. وتأصلت تبعًا لذلك عناصر ثقافية شرقية فى أنماط الحياة وطرقها، لا بين المسلمين وحدهم بل بين سكان البوسنة والهرسك جميعًا أيضًا.

وأبطأت القرون من الحكم التركى التى مرت بالبلاد من نمو مجتمع الطبقة الوسطى فى البوسنة والهرسك، على أن السياسة الاقتصادية التى اتبعتها النمسا والمجر فى البوسنة والهرسك قد أثبتت عجزها فى تطوير واستغلال إمكانيات الإنتاج من مصادر هذا القطر. فبقيت البوسنة والهرسك، نتيجة لذلك، قطرًا متخلفًا من عدة وجوه. ولم يطرأ على هذا التخلف الموروث أى تحسن كبير نظرًا للظروف غير المواتية فى يوغوسلافيا ما قبل الحرب وسياستها الاقتصادية. ولم يحدث - إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وقيام نظام الحكم الجديد فى يوغوسلافيا بإجراءات ثورية - أن استغلت المصادر الطبيعية فى البوسنة والهرسك استغلالا تاما نتيجة لازدياد تصنيع البلاد. فقد أقيمت منذ سنة ١٩٤٥م مشروعات صناعية عديدة ومؤسسات، وتبنى محطات مائية وأخرى حرارية، صغيرة وكبيرة، لتوليد الكهرباء. وأدخلت الوسائل العصرية على صناعة التعدين، واتسعت.

وكان معدل النمو في الفروع الأخرى من الاقتصاد القومي أقل سرعة، وخاصة في الانتفاع بالأراضي الزراعية وتربية الماشية والأغنام. ولكن الميل الحديث يتجه الآن في السياسة الزراعية إلى زيادة التوكيد على فلاحة الأرض وأنماط أخرى في الزراعة. وفي سنة ١٩٥٧ كان مقدار ما في البوسنة والهرسك من الاراضي الزراعية ٢،٦١٣،٠٠٠ هكتارًا منها ٦٤،٧٪ صالحة للزراعة والباقي مراع وتلال معشوشبة ومستنقعات وآجام (٠،١٪).

أما من حيث المواصلات، فما زالت البوسنة والهرسك تعاني نتائج الأحوال المعاكسة السابقة، وبخاصة في شبكة الخطوط الحديدية. فقد كان في البلاد سنة ١٩٥٧م: ٢،١١١ كيلو مترًا من المقاس العادي و٧٢٢ كيلو مترًا من المقاس الضيق.

وما ورثه الشعب من التطور الناقص في شئون البلد الاقتصادية، ورث مثيله من التخلف في الثقافة، وخاصة في أنحاء الريف. فقد أنشأت حكومة النمسا والمجر مدارس ابتدائية تشرف عليها الدولة، ولم تلغ المدارس الطائفية. وأدخل نظام التعليم الابتدائي الإلزامي في البوسنة والهرسك سنة ١٩١١م. غير أنه في سنة ١٩١٢ – ١٩١٣ كان عدد المدارس الإبتدائية التي تشرف عليها الدولة ٣٧٤ مدرسة فقط. وكان العدد القليل من المدارس التي تشرف عليها الدولة يضاف إليه المدارس الطائفية يمكنه أن يستوعب ١٨،٥٥٪ من مجموع التلاميذ في سن التعليم ليس غير. واعترفت الحكومة الملكية اليوغوسلافية بالمدارس الإبتدائية للدولة دون غيرها، ومع هذا فلم يكن يستطيع أن يلتحق بها إلا ثلث الاطفال الذين في سن التعليم. وفي عام ١٩٣٨ – ١٩٣٩م كان عدد المدارس الابتدائية ١،٠٩٢ مدرسة فقط، وكان هو السبب في ارتفاع معدل الأمية في ذلك الوقت.

ورغم الجهود العظيمة التي بذلت بعد الحرب العالمية الثانية لزيادة عدد المدارس وخفض أمية البالغين فقد دلت إحصائيات سنة ١٩٥٣م على وجود ٢٢٥،٠٠٠ من الأميين الذكور و٦١٥،٠٠٠ من الإناث في البوسنة والهرسك من مجموع ٢،١١٦،٠٠٠ فردًا فوق سن العاشرة.

وبذلت سنة ١٩٤٥ وما بعدها جهود خاصة لرفع مستوى الإلمام بالقراءة والكتابة والتعليم فى البوسنة والهرسك، وهكذا بلغ مجموع المدارس الإبتدائية جملة واحدة ٢,٤٠٦ مدرسة (ويتضمن ذلك التعليم التكميلى ونظام الثمانى سنوات) و٣٧ معهدًا (مدرسة ثانوية تدرس فيها اللغتان اللاتينية واليونانية القديمتان) و١٥٩ مدرسة للتدريب المهنى و٥٧ من مدارس أخرى. وكان للبالغين ٢٦ مدرسة أولية على نظام السنين و١٠ مدارس ثانوية و٢٢ مدرسة صناعية للصناع و١٩ للصناع المهرة ١١ مدرسة أخرى. وأنشئت فى سراييفو بعد الحرب بزمن جامعة ذات سبع كليات وكذلك أكاديمية للموسيقى ومعاهد للعلوم. وفى البوسنة والهرسك، فوق ما ذكر، ثلاث كليات للمعلمين، وكليات عليا للتدريب المهنى وستة مسارح و٦٠ مكتبة للعلوم و٣٢٥ مكتبة عامة و١٨ متحفًا ومحطة إذاعة لا سلكية.

٢- تاريخ البوسنة والهرسك تحت الحكم العثمانى

(أ) أثناء قيام سلطان الأتراك:

كان رسوخ قدم الإسلام فى البوسنة والهرسك مقترنًا بقيام الحكم التركى وتوطد دعائمه. وقد حدث الغزو التركى الأول سنة (١٣٨٦م) فى حكم الملك تفرتكو الأول أول ملوك البوسنة (١٣٥٣م - ١٣٩١ وملك من سنة ١٣٧٧م)، عندما كان فى أوج قوته. ووقع الغزو الثانى سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) عندما هزم الفويفود فلاتكو فوكوفتش الجيش التركى. وفى السنة التالية اشترك جيش بوسنوى فى معركة قوصوه ليشد أزر لازار الدوق الصربى، وجرح السلطان مراد جرحًا مميتًا أثناء سير المعركة ومات عندما انتهت. ولكن الأمير بايزيد نجح فى استخلاص النصر، ووقع الدوق لازار أسيرًا، واعترف خلفاؤه بعد وقعة قوصوه بالسيادة التركية. وأضعف أتباع الملك الصربيون مركز البوسنة إضعافًا شديدًا. وسُمح لخلف الملك تفرتكو أن يحكم الأراضى التى كانت تابعة له بالفعل. ولكن القسم الأكبر من البوسنة كان تحت سلطان أعضاء من مجلس الأشراف يمارسون فيها سلطات كاملة، كل فى ولايته. ونجم عن فتح الترك سكوبيه (وبالتركية أسكوب) سنة (١٣٩٢م) إقامة تخوم تركية

تحيط بالصرب والبوسنة، وأصبحت سكوبيه قاعدة الحكم الأول سنجق - بكى وهو باشا يكت، الذى خلفه ابنه إسحق. وتوالت غارات الأتراك بعد سنة (١٤١٥م) وكان من أثرها ازدياد الشعور بالنفوذ التركى فى الشئون الداخلية للبلاد، وتفاقمت الشحناء بين بارونات البوسنة والمطالبين بالعرش، وما أن تولى تفرتكو الثانى الملك (١٤٢٠ - ١٤٤٣م) حتى اعترف بالسيادة التركية. وخضع ملوك البوسنة (من سنة ١٤٢٨ - ١٤٢٩م). للجزية التى فرضها الأتراك الذين احتلوا بصفة مؤقتة بعض المدن ووضعوا حاميات فيها فى مناسبات كثيرة. ولم يكن قبل منتصف القرن (الخامس عشر الميلادى) أن استقر للأترك قرار راسخ فى مدينة هو ديجد وما جاورها من البلاد (فى ناحية سراييفو الحالية)، حيث أقام عيسى بك ابن إسحق بك حاكم سكوبيه ثغرا (بلدًا على الحدود) وتولى أمرها تحت الإشراف المباشر لموظف تركى من رتبة عالية بلقب فويفودا. وكانت هذه المساحة من الأرض تحت إشراف مزدوج، ذلك أن السادة البوسنويين للنواحى المجاورة كانوا تابعين للترك.

وهذه المنطقة الإدارية مقيدة فى سجلات ضرائب الأملاك التركية لسنة (١٤٥٥م) ولكن لم يذكر فيها شئ عن محلة باسم سراى أوواسى، مع وجود ناحية مسجلة بنفس هذا الاسم. ومع ذلك فأصول سراييفو تعود إلى ما قبل انهيار مملكة البوسنة نهائيا، إذ ورد ذكر لبلدة سراى أوواسى فى سجلات سنة (١٣٦٢م). وكان على عرش البوسنة وقتئذ ستيفان توماش (١٤٤٣ - ١٤٦١م) الذى اعتمد على مساندة الغرب ولكنه عجز عن إبراء ذمته من تعهده بأداء جزية للأتراك. وفى تلك المناسبة لم يطالبه البابا بالدخول فى المذهب الكاثوليكى فحسب بل طالبه أيضًا بقمع "الزندقة" وهى عقيدة تأصلت جذورها رغم الاضطهادات المستمرة وأصبحت هى العقيدة الرسمية للبلاد. ولم يكن من الملك، على تردده، إلا أن أمر آخر الأمر باضطهاد هؤلاء الزنادقة الذين التجأوا إلى النواحى التى يحكمها الأتراك والإقليم الذى سمى فيما بعد الهرسك - واستمر الترك بعد ذلك يستغلون الخصومة الدينية فى المملكة والخلافات الإجتماعية أيضًا. وانتهت محاولة ضم مملكة البوسنة إلى الصرب التى - كانت تحكم حكمًا استبداديًا عن طريق زيجة مدبرة بين ستيبان

توماسيفتش ابن الملك وأميرة صربية - بسقوط الدولة الاستبدادية وعاصمة بلادها سمدريفو (١٤٥٩م)، واعتمد ستيبان توماسيفتش على عون الغرب أكثر مما فعل أبوه.

ولما رفض الملك سنة (١٤٦٣م) أداء الجزية قامت الجيوش التركية بقيادة السلطان نفسه بغزو بلاد البوسنة وفتحها سريعًا. وما كادت الجيوش التركية تنسحب حتى زحف ملك المجر ماتيوس كورفينوس على بلاد البوسنة واحتل مدينة بايجه والنواحي التى تتاخمها. وفى السنة التالية استولى المجريون على سربرنك وانشاوا فيها ولايتين جعلوا قاعدة إحداهما فى بايجه والأخرى فى سربرنك - وتكونت من ذلك ثغور للمجر يعززها الحزام فى الجنوب من نهر سافا - ومن هناك كانت تشن الغارات الكثيرة خلال القرن (الخامس عشر الميلادى) والتى بلغت مداها باحتلال سراييفو ثلاثة أيام. وأقام الملك ماتياس أحد باروناته ملكا على البوسنة. وكان الترك قد أقاموا على النواحى التى احتلوها فى الماضى ابن عم للأسرة السابقة. وأسسوا مملكة اسمية لم تدم إلا إلى سنة (١٤٧٦م).

وكان محمد بك مينت أوغلى أول سنجق بكى للبوسنة سنة (١٤٨٢م) وأنشئ سنجق الهرسك سنة (١٤٧٠م؛ وفتح الترك باقى الهرسك فى آخر سنة ١٤٨٢م) ثم أنشئ سنجق آخر بعد ذلك جعل مركزه فى تسفورنيك. وسقطت ولاية سربرنك فى أيدى الترك سنة (١٥١٢م) واستولوا كذلك على يايجه وبنالوقه بعد وقعة موهاكس (سنة ١٥٢٧ أو١٥٢٨م) ومن البوسنة نفذ الأتراك إلى ليكا واحتلوا الجزء الأكبر من دلماشيا بما فيه قلعة كليس. واشترك السنجق بكى البوسنوى فى فتح سلافونيا.

وكانت سراييفو حتى القرن (السادس عشر الميلادى) مقر سنجق البوسنة. وأقيم فيها كثير من الأبنية الفاخرة المهيبة. أنشأها السنجق بكى غازى خسرو بك، الذى جاءها فى وظيفة سنجق بكى سنة (١٥٢٠م) وتوفى سنة (١٥٤١م). وأصبحت سراييفو فى ذلك الوقت مكانًا كبيرًا هامًا، ومع ذلك فقد نقلوا مقر الحكم إلى بنالوقه (حوالى القرن السادس عشر الميلادى) وتم تخطيطها وبناؤها لتكون مدينة اسلامية على يد فرهاد (صوقوللى) حاكم البوسنة الذى أصبح أول باشا بوسنوى (بكلربكى)

وفى سنة (١٥٨٠م) أنشئت إيالة البوسنة وجعلت بنالوقة قاعدتها. وكانت تضم سبعة سناجق (البوسنة والهرسك، وكليس، وكركا، وبكرك، وتسفورنيك، وبوركا) كما كانت تضم علاوة على مساحتها الحالية أجزاء من سلافونيا، وليكا، ودلماشيا. كما تضم نواحى على حدود الصرب. وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (أواخر القرن السادس عشر الميلادى) كان فى الولاية ثمانية سناجق. وفى نهاية العقد الأول من القرن الحادى عشر الهجرى (أوائل القرن السابع عشر الميلادى) ضم سنجق بوركا إلى إيالة كانيتسه المنشأة حديثًا.

وجاء الفتح العثمانى بتغييرات كبيرة فى النظم الإجتماعية للبوسنة والهرسك، وفى نفس الوقت الذى خضعت فيه البوسنة والهرسك للسيطرة التركية، كانت قواعد بناء وتنظيم الإمبراطورية العثمانية قد استكملت.

وبعد أن تم للترك فتح البلاد، بدءوا بإدخال نظامهم الإجتماعى فيها: حكومة مركزية صرفة، وأسلوبهم العسكرى الإقطاعى. ونشأت عن ذلك تغييرات فى العلاقات الاقتصادية والإجتماعية. وتولى الحكام الجدد استخراج المعادن، وهو يلى الزراعة أهم فروع نشاط البوسنة الاقتصادى السابق. وصارت المناجم جميعها ملكًا للسلطان، وأدبرت أيام أرباب الإقطاع العظام أولى القوة الذين كانت لهم السيادة فى أقاليمهم، ودخل نظام التيمارات التى تشرف عليها سلطة مركزية فى العلاقات الزراعية الخاصة بتوزيع الأراضى، وكان يدير شئون السناجق حكام يباشر الإشراف عليهم السلاطين، الذين كانت لهم أعظم الدخول وكان استبدال الحكام عندهم يحدث أكثر مما يجب. ومن الناحية الأخرى خف الضغط عن الفلاحين وابتدأت تربية الأغنام فى التحسن، أما فى الريف فقد أصبح الغالب عليه الاستقلال الذاتى وأساليب الحياة على النظام الأبوى.

وحدثت فى نفس الوقت تغييرات دينية وسلالية شملت السكان جميعًا. ودخل الناس فى الإسلام أفواجًا. وتحسنت الفلاحة الحيوانية تحسنًا ملحوظًا فى بعض الجهات الجبلية، وبخاصة فى الهرسك. وأعيد توطين مربى الأغنام فى النواحى التى أمحلتها الحروب وغيرها. وانقلب ألوف من مربى الأغنام فلاحين بعد

ما استوطنوا الأراضى الخصبة، وتوفرت بذلك قوة بشرية لاستصلاح مساحات من الأراضى التى تخربت. ونظرًا للأهمية الكبيرة المتعلقة بعملهم كمستوطنين، فقد سمح للمستوطنين أن يحتفظوا بامتيازاتهم السابقة فى تربية الأغنام. ومع هذا فإن نمو النظام الإقطاعى واستتباب الأحوال قد جعلا الكثير جدا من المستوطنين رعايا عاديين. ولما كان معظم هؤلاء المستوطنين من الصرب الأرثوذكس، فقد عادت الجهات التى خوت من الصرب، آهلة بهم من جديد.

ومن الناحية الأخرى فإن دخول الناس فى الإسلام قد أعان ديانة الحاكمين على اكتساب أشياع وأتباع من جميع الطبقات: فلاحين وسادة إقطاع وسكان مدن. ولم يكن إسلام أهل البوسنة والهرسك موضوع بحث شامل كامل حتى الآن، ولذلك بقى مشكلة تترقب الحل. وكان الرأى المقبول السائد قبل الحرب العالمية الأولى أن أتباع الكنيسة المنشقة المسمين بالبوكوميل دخلوا فى الإسلام جماعات زعمًا بتماثل فى الرأى حول القانون الأخلاقى، وللاضطهادات الدينية التى قامت بها كنيسة رومة ضدهم. وما زال هذا رأى جمهرة من العلماء اليوم (أ. سولوفيف Solovjev وآخرون). فدخول الناس فى الإسلام جماعات سمح لنبلاء البوسنة بالاحتفاظ بأملاكهم، وبقى النمط التقليدى لملكية الأراضى فى البوسنة والهرسك على حاله لم يصبه تغيير حتى القرن (التاسع عشر الميلادى). وكان دخول نظام التيمار بمثابة بناء يقام فوق بناء. ومن كبار المعضدين لهذه النظرية ش. تروهيلكا Truhelka. فالبوسنة على رأى تروهيلكا وغيره كانت تتمتع من أول الأمر بمنزلة خاصة بذاتها فى الإمبراطورية العثمانية.

وفى فترة ما بين الحربين العالميتين نهض بعض العلماء اليوغوسلافيين (ف. جوبر يلوفج، وف سكاريج) إلى البرهنة على أن هذه الآراء لا أساس لها. وكان من رأيهم : (أ) أن الإسلام دخل شيئًا فشيئًا. (ب) أن نبلاء البوسنة لم يحتفظوا بأملاكهم بعد الفتح بسبب قيام نظام التيمارات. و(جـ) أن مسوغات ملكية الأراضى مثل تلك التى سادت فى القرن الثامن عشر واستمرت إلى القرن التالى، كانت قد تطورت تطورًا تدريجيًا ضمن إطار نظام تقسيم الأراضى الزراعية القديم.

واتجه اهتمام المؤرخين اليوغوسلافيين المحدثين إلى مصادر تركية من الطراز الأول وبخاصة سجلات الأملاك العقارية الخليقة بأن تلقى ضوءا على تاريخ الشعوب اليوغوسلافية في المدة التي نحن بصددها.

وعندما كان الأتراك يحتلون جانبًا من البوسنة قبل سنة (١٤٦٣م) لم يكن هناك تيمارات سباهية في الثغور التي يسيطر عليها عيسى بك. وكانت التيمارات الموجودة ملكًا لرجال من حامية القلعة في هوديدجد. رد على ذلك أنه كان هناك عدد من السباهية، معظمهم مسلمون وقليل منهم مسيحيون، ضمن أملاك عيسى بك في داخل الثغور. أما بعد الفتح فإن معظم السباهية كانوا يؤخذون على الأخص من هنا ومن مقدونيا ثم من الصرب ومن بعض المناطق الاخرى. وكان بين السباهية الذين يرسلون إلى البوسنة كثير من أصل صقلبي. وبعد تصفية زعماء ممثلي طبقة النبلاء البوسنويين القديمة أثناء الفتح وبعده. أبقى الأتراك أول الأمر لأفراد قليلين من أسر النبلاء ولعدد لا بأس به من ملاك الأراضي الإقطاعيين القدامى الأقل شأنا، أملاكهم. وكذلك منح الفاتحون أراضي لمشايخ مربي الأغنام. وإلى هذا يعزى وجود الكثير من السباهية المسيحيين في ذلك الوقت. وبخاصة في الهرسك.

وجاء انحياز أصحاب الإقطاع البوسنوي إلى جانب الأتراك مبكرا بعض الشيء، في وقت كان لا مناص لهم فيه من الاعتماد على نفوذ الترك في تسوية المخاصمات. ولهذا قيدت أرض أسرة دوقية بافلوفتش في سجلات الأملاك العقارية سنة (١٤٥٥م) باعتبارها أرضا تؤدي الجزية جملة واحدة. وظل الحظر السياسي الذي يسير عليه هرسك ستيبان مدة طويلة معتمدا كل الاعتماد على الأتراك. وكذلك كان على أبنائه أن يعتمدوا بعض الوقت على الأتراك. أما ابنه الأصغر فقد انحاز إلى الأتراك واعتنق الإسلام وتقلد منصب الصدارة العظمى خمس مرات في حكم بايزيد الثاني وسليم الأول باسم هرسك زاده أحمد باشا. وتقلد عدد كبير من مواطني البوسنة والهرسك التابعين إلى أسر إقطاعية إسلامية وغلمان جندوا من بين الرعايا طبقا لنظام الدوشرمة وعلموا في البلاط، مناصب الوزارة والصدارة العظمى، فمحمد باشا سوكولوفتش (صوفوللي) وهو من رجال الدولة العثمانيين الأوائل

الدين ولوا منصب الصدارة العظمى (١٥٦٤/ ١٥٧٩م) كان سنيل أسرة صربية ذات جاه، وكان ذوو قرباه المسيحيون بطارق فى الصرب بعد عودة بطريرقية بج. ثم إن صلة الدم والنسب بين رجال من سلالات بوسنوية تقلدوا مناصب رفيعة وبين ذوى قرباهم، قد ساعدت إلى حد كبير فى رفع أقدار بعض الأسر البوسنوية.

ومع أن صفوف السباهية كانت، إلى حد ما، تملأ بوافدين من الاجانب. إلا أن الغالبية كانت من سلالات وطنية تجمع من بين إقطاعيى البوسنة القدامى أو من السباهية الجدد الذين أقيموا أثناء الحكم التركى. ورصدت السجلات العقارية الأولى لسنجق البوسنة أسماء مسلمة السباهية وذوى قرباهم من النصارى. كما وجدت كذلك أسماء أفراد أسرهم كاملة مجتمعة حول أسماء بعض أصحاب المناصب البارزين وكانت أملاك السلطان فى البوسنة فى تلك المدة وأملاك السنجق بكية تتاخم عددا من جفتلكات علاوة على مالهم من تيمارات، ولو أن القاعدة فى معظم هذه التيمارات أن لا تشتمل على جفتلكات. وكانت الجفتلكات أملاكا تورث، وظل هذا حالها حتى لو فقد السباهى حقه فى التيمار. والظاهر بعامة أن عددا من الإقطاعيين الأوائل الذين دخلوا فى الإسلام قد احتفظوا بأراضيهم الموروثة على شكل جفتلكات. وكانت هذه رغم ذلك قليلة العدد وتتكون من أملاك صغيرة. فالنظرية والحالة هذه لا تكاد تدعم ما ذهب إليه تروهلكا من أن النبلاء البوسنويين بقوا محتفظين بها حتى القرن (التاسع عشر الميلادى) والواقع أن عدد الجفتلكات استمر فى الزيادة ولو أنها زيادة طفيفة. حتى (نهاية القرن الخامس عشر الميلادى) وهنالك ألغيت الجفتلكات التى من هذا القبيل آخر الأمر فى عهد السلطان سليمان القانونى. ومع هذا فقد قدر لهذه الجفتلكات أن تكون قاعدة ونمطا من الماضى للتطور المقبل فى العلاقات الزراعية الخاصة بتقسيم الأراضى.

وكان أن أصبح نسل السباهية المسيحيين وأفراد الأسر التى أسلمت الذين ارتفعوا بنصيبهم تحت الحكم التركى من السباهية والزعماء ودزدارية قلاع وأصحاب مناصب سامية. ويسرت الأهمية المعطاة للبوسنة، باعتبارها من أرض الثغور. للمسلمين الارتفاع إلى مراتب النفوذ والسلطة. والحقيقة أنه بعد إيغال الجيوش

التركية وغزو مناطق تحت حكم المجر، أمر الكثير جدا من السباهية أن يستوطنوا الأقاليم المفتوحة حديثًا، ولكن هذا لم يأت بنفس النتائج التى أتى بها فى الصرب، حيث توقف إدخال الناس فى الإسلام منذ غزا الأتراك المجر. وكان إسلام الناس فى البوسنة والهرسك قد تسبب فى خلق قاعدة عريضة من المسلمين المجندين. لا من أهل المدن فحسب بل من الفلاحين أيضًا.

وبدأ قبل الفترة السابقة على الغزو التركى خلق الظروف الضرورية لتطوير جماعات المدن فى البوسنة وبخاصة فى مراكز التعدين. وأخذت مدن البوسنة بأسباب التطور والنماء بعد أن توطد الحكم التركى. وكانت الصناعات التركية الدقيقة – وبخاصة الصناعات اليدوية التى يمتاز بها الشرق الأدنى – أرقى من مثيلاتها فى البوسنة فى فترات سابقة. وحصل بذلك تطور سريع فى الصناعات اليدوية والحرف ذات الطابع الشرقى أثناء القرنين الأولين من الحكم التركى، وتقدمت تقدماً سريعاً الصناعات المتصلة بإنتاج الجلود وصياغة الذهب والمهن المتصلة بإنتاج المعدات الحربية ومستلزمات أهل المدن. وكانت صناعة التعدين العثمانية من الناحية الأخرى أقل تطورًا عما كانت عليه فى البوسنة أو الصرب حيث كان المستوطنون السكسون قد أدخلوا أصولهم الفنية وقواعدهم فى التعدين. ونظرًا لما أدخلته السلطات التركية من النظم الإدارية البيروقراطية فى مناطق المناجم التى أدمجت فى أملاك السلطنة (خاص) انتكست صناعة التعدين فى القرن الأول من الحكم التركى وهبط الإنتاج تبعًا لذلك، ثم هبط بنوع أخص فى حصيلة المعادن الثمينة. وزاد إنتاج الحديد مع هذا زيادة ضئيلة. ولهذه الأسباب كان نمو المدن فى البوسنة والهرسك أثناء الحكم التركى مقترنا (بصرف النظر عن الاعتبارات الحربية التى كانت أهم العوامل فى تحديد مواقع المدن وبنائها) لا بتنمية صناعات التعدين، بل مقترناً أكثر من ذلك بتقدم الحرف والصناعات المتعلقة بها. وكانت المدن التى يقيمها الأتراك تقع كلها فى المواقع التى تتهيأ فيها جودة المواصلات. وعلى مدى النصف الثانى من القرن (الخامس عشر الميلادى) كان دخول الإسلام فى مدن أسواق التعدين فى البوسنة القديمة بطيئـا؛ وكان أقل تمهيداً إلى تطورها

مما كانت عليه الحال فى المدن الجديدة التى بناها الأتراك على مواقع مدن أسواق سابقة. وهناك مثل جيد لذلك هو سراييفو وبنالوقة من بين مدن أخرى اتسعت وتطورت إلى مراكز للحرف ومحال للصناعات، لكونها كانت مراكز للسلطات التركية والحاميات الحربية. وعلاوة على الموظفين المدنيين من المسلمين والجنود استمر سكان أمثال هذه المدن فى الازدياد بسبب هجرة المسلمين إليها من أماكن شتى حاملين معهم عادات وأساليب شرقية فى الحياة. وفى بادئ الأمر كان تجار دبروفنك هم الوحيدين أصحاب التجارة الواسعة.

وكان إنشاء أهم مدن البوسنة والهرسك من ابتكار ولاة أفراد، وفى داخل هذه المدن وحواليها قامت أملاك هؤلاء الولاة، ومصانعهم، ودورهم، وحماماتهم، ودكاكينهم التى كانوا يوصون بها ويتركونها فى حياتهم وقفًا على أعمال البر والصدقات. وهكذا بنيت مساجد كثيرة وتكايا ومدارس دينية ومكتبات ملحقة بالمدارس والمساجد، وأدخلت طرق الدراويش طقوساً صوفية وشعائر خليقة بأن يعجب بها سكان المدن. ومجمل القول أن مدن البوسنة والهرسك أصبحت معاقل للقوة التركية وموائل للثقافة التركية. وكذلك كان للمدن تأثير على الريف، فاجتذب أعدادًا كثيرة من الفلاحين وناسًا من البقاع الريفية. وكان معظم المهاجرين فلاحين أسلموا، وغير مسلمين لم يلبثوا أن دخلوا وشيكا فى الإسلام. وكان النصارى واليهود من أهل المدن قلة. وتزودنا أقدم سجلات العقارات التركية فى البوسنة والهرسك بأدلة من الوثائق تثبت موضوع الجدل بأن الإسلام الجماعى كان منشؤه فى المدن والنواحى الريفية التى تكتنفها. وتشير السجلات إلى أن الفلاحين الذين دخلوا فى الإسلام فى سنجق البوسنة إنما كانوا فى أول هذه الفترة حول مدينة سراييفو وتدل السجلات الأولى لسنة (١٤٧٧م) للعقارات فى سنجق الهرسك وكذلك فى غيرها من سجلات العقارات أن اعتناق الإسلام لم يكن ابن لحظة، ولا يوجد أى دليل يؤيد الزعم القائل بأن حشوداً من الأشياع التابعين لكنيسة البوسنة المنشقة كانوا منضمين إلى الفاتحين. ولم يكن ليوجد مؤمنون مخلصون لكنيسة البوسنة فى غير بعض قرى الجبال فى الهرسك، كما أن بعض المؤمنين بكنيسة البوسنة كانوا مقيدين على

اعتبار انهم يعيشون فى قرية مهجورة فى سنجق البوسنة. وكانت هذه هى الحالة الوحيدة، ويبدو أن اضطهاد عشرين سنة لهراطقة البوسنة فى أيام الملك ستيبان توماش والملك ستيبان توماشيفتش قد شتت شمل كنيسة البوسنة الهرطيقية. ولا شك أن تحول هرسك ستيبان فوكجيش قد ساهم أيضًا فى توهين مركز كنيسة البوسنة فى الهرسك. وقد اعترفت الحكومة التركية بالكنيسة الصربية الأرثوذكسية، وتمتعت الكنيسة بموجب براءة سلطانية بحقوق وميزات كبيرة. ومنح السلطان محمد الثانى الفاتح الكنيسة الكاثوليكية أيضًا بعض الامتيازات. ويتضح من المعلومات الواردة فى سجلات العقارات أن المؤمنين المخلصين لكنيسة البوسنة قد اعتكفوا فى نواح نائية منعزلة فى الهرسك. وليس ثمة شاهد مسجل عن قيام أى تحول الى الإسلام فى تلك الانحاء ولا من السكان فى ذلك الوقت. والذى يستخلص من ذلك ان هراطقة البوسنة فى معظم المناطق كانوا قد ثابوا إلى الحظيرة (أرثوذكس أو كاثوليك) مما يستبعد معه تحول أتباع كنيسة البوسنة تحولا جماعيا إلى الإسلام.

ومع هذا فالراجح أن الاضطهادات السابقة من جانب الكنيسة الكاثوليكية مع الضغط الذى احتجت عليه الكنيسة الأرثوذكسية صاحبة الحق فى تحصيل أموال الكنيسة، خلقت ظروفًا عملت على تحويل التابعين السابقين لكنيسة البوسنة إلى الإسلام، ومهما يكن الأمر فإن تطور المدن إلى مراكز للإسلام وتأثيرها على القرى المجاورة قد أدى إلى انتشار الإسلام بإطراد بين فلاحى بعض المناطق منذ القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر للميلاد). وهكذا وضع الأساس لاعتناق عدد عظيم من أهل القرى للإسلام بلقب مميز لهم وهو "بوتور"، وكانت ديانتهم خليطًا من الإسلام وعناصر أخرى ووثنية متنصرة، ونصرانية وهرطقة نصرانية. وكان من أجل ذلك أن رفض الإقطاعيون والمستنيرون المتدينون من المسلمين اعتبار المسلمين من أهل القرى مساوين لهم.

واتخذت فى أيام سليمان القانونى التدابير للحد من تزايد سلطان طبقة الإقطاعيين التى كانت قد دخلت كلها فى الإسلام قبيل ذلك. فألزم سباهية البوسنة بالانتقال إلى الأراضى التى فتحت حديثا، وانتقلت التيمارات الشاغرة إلى سباهية

من نواح أخرى وغير الوضع في الجفتلكات وصارت أراضي رعايا. ولم يكن إلا وقتئذ، ثم بعد ذلك على نطاق واسع، أن استحوذ الكثير من ندماء البلاط على أملاك في البوسنة عن طريق الابتزاز والرشوة. ومع هذا، فلم يكن ثمت بد في نفس الوقت من المهادنة نظرًا لضرورات الدفاع وخاصة على الثغور ولوجود مساحات كبيرة من الأراضي المخربة. وعلى مدى القرن (السادس عشر الميلادي) استمر عدد الجفتلكات التي في حوزة أرباب الإقطاع وضباط الجيش في الازدياد، وبخاصة في نواحي الحدود. وكان منصب قبودان خاصا فيما سبق بالخدمة على الأنهار في الثغور، ثم أصبح قائدًا للحصون وأعمال الدفاع في ناحيته. وكان يمكن لطبقة الإقطاع الوطنية أن تعتمد دائمًا على منصب القبودان إن شاءت عونًا مجديًا. واضفى إنشاء إيالة البوسنة كثيرًا من الأهمية على النبلاء الوطنيين.

وأثبت القرن (السادس عشر الميلادي) أنه فترة نمو سريع وتطور في بعض مدن البوسنة. وأعقب ذلك زيادة مطردة في حجم التجارة مع المدن الإيطالية، يقوم بها تجار من البلاد ذوو عزم، وتجار كبار من دبروفنك، وتمتع السكان المسلمون باعتبارهم الأغلبية بميزات معينة، وعاشوا في أحياء خاصة بهم بمعزل عن النصارى، وأغلقت بعض نقابات المهن أبوابها نظرًا لتدفق وافدين جدد، ومن هذا القبيل هجرة سكان مسلمين إلى أماكن ومدن فيما وراء نهر سافا.

وظهرت في القرن (السادس عشر الميلادي) أمارات أزمة في الكيان الإداري العثماني العام؛ وازدادت ظهورًا في مالية البلاد. وكان من نتائجها إضعاف كبير للقوة الحربية التركية. وظهر أثر الأزمة في البوسنة أيضًا. وانتهت آخر المغامرات الحربية الهجومية بقيادة حسن باشا بريدويفتش بكلر بكي البوسنة بالاستيلاء على بهاج، وفي السنة التالية ١٥٩٣م مني جيش من البوسنة بقيادة حسن باشا بهزيمة فادحة عند سيساك جرت في أعقابها الحرب بين آل هبسبورج وتركية.

(ب) فترة الأزمات فى الدولة التركية وهزائم العثمانيين الحربية:

بقى الكيان الإدارى وحجم إيالة البوسنة، اللذان أخذا شكلا محدداً فى مطلع القرن (السابع عشر الميلادى)، دون تغيير حتى نهاية القرن تقريبًا. وكان حاكم الولاية فى هذا الوقت يحمل لقب وزير، ونقل مقر الحكومة من بنالوقه إلى سراييفو سنة (١٦٣٩م).

وانعكست الأزمة الاقتصادية والمالية الاقتصادية والمالية للإمبراطورية العثمانية والصدوع التى أصابت الكيان العثمانى على الأحوال السائدة فى البوسنة أيضًا، حيث توالت الاضطرابات واستفحل الفساد. وكان لابد للحكومة المركزية - نظرًا للصعوبات المالية وارتفاع تكاليف الإشراف على مساحات شاسعة من الأقاليم المحتلة - من أن توسع نظام تأجير الدخول الخاصة والهمايونية جميعها لآجال مسماة وأن تزيد الضرائب وتفرض أخرى جديدة. واتسع نظام التأجير لآجال حتى شمل تأجير الضرائب المحلية بل إيرادات التيمارات والزعامات التى اهتبلها ندماء السلاطين وكبار الموظفين الملحقون بالمكاتب المركزية وكثير من الرجال المشهورين فى العاصمة. وأصبح النظام البيروقراطى المتمركز الذى كان المقصود به قمع الطغيان وكبح جماحه، مصدرًا للفساد تمارسه السلطات المحلية أيضًا. ومن القرن (السادس عشر الميلادى) فصاعدًا ازدادت الأعباء المالية واستغلال الرعايا (الفلاحين) ووقع العبء على مربى الأغنام بالمثل فى النواحى المستقلة ذاتيًا؛ وكانت الحرب الطويلة (١٥٩٣ - ١٦٠٦م) تستنزف باستمرار الموارد التركية والقوة البشرية. وكان على البوسنة أن تتلقى صدمات الحرب فى مركزها المعرض للخطر. وبسبب الحرب اشتد القلق؛ وكثرت الفتن من جانب أهل الصرب فى الهرسك أثناء الحرب وبعدها. وطوال العقدين الأولين من القرن (السابع عشر الميلادى) أرسل ثوار سابقون من الأناضول إلى البوسنة ليكونوا ولاة عليها، فارتدوا فى البوسنة ثوارًا كما كانوا، وكانوا يستطيعون دائمًا الاعتماد على عون جموع كبيرة من الساخطين من طبقة السباهية الوطنيين الذين اشتد بهم الغضب والبغضاء لما كان ينعم به على ندماء السلطان والقريبين من السلطات المركزية من تيمارات وزعامات، ومن ثم أتيح

المجال للأفراد والبيروقراطيين المحليين أن يستولوا على املاك فى حجم عدة تيمارات معا. وكان الولاة الترك - الذين كانت مدة حكمهم قصيرة إلى حد ما - شديدى الرغبة فى جمع الثروات واستغلال البلاد لمآربهم الذاتية. مثلهم فى ذلك كمثل كبار الموظفين الذين ترسلهم الحكومة للتحرى عن سوء التصرف وتقصى أسباب الاضطراب.

واستمرت طبقة الإقطاع الوطنية فى نمو وازدادت قوة، ونجح تحويل أراضى الفلاحين إلى جفتلكات يملكها الولاة العسكريون والسباهية والمواطنون الموسرون كما نجح نقل ملكية الأملاك الحرة الموروثة (بشتينا) التى كانت لرؤساء القرى (كنز إس) وأراض أخرى من غير هذا القبيل. وكان يطلب من الفلاحين مستأجرى مثل هذه الجفتلكات أن يوردوا لصاحب الجفتلك ثلثا من ربع (وفى فترة متأخرة عن ذلك خمس، وفى بعض الحالات تسع) محصولهم. علاوة على إجبارهم على العمل فى الجفتلكات التى يملكها صاحب الجفتلك خاصة لنفسه. وأمثال هؤلاء المستأجرين ملزمون بدفع العشر والسالارية وباقى المكوس وعوائد نظام التيمارات إلى السباهية (أصحاب الأرض) إذا كان الجفتلك جزءا من تيمار أو زعامة كما كانت الحال فى معظم الأحوال. واتسع نظام حكومة القبودانات حتى طبق فى النواحى الداخلية للبلاد، ذلك أن الحكومة المركزية كانت عاجزة عن تهيئة الوسائل للاحتفاظ بجيش من المرتزقة بالحجم الذى تدعو إليه الحاجة. وما إن بلغت الأمور هذا الحد حتى تغطرس القبودانات وصاروا يضربون بأوامر الباشوات عرض الحائط.

وأذعن السلطان أحمد (١٦٠٣ - ١٧١٧م) لمطالب سباهية البوسنة الذين كان يؤيدهم الباشا، وأصدر فرمانا قرر فيه الحق فى توارث التيمارات فى الأسرة متى كان الوارث من أبناء أو إخوة المتوفى أو من ذوى قرباه الذين يعيشون فى الأسرة.

وأثرت التغييرات فى ملكية الأراضى وفى السياسية الاقتصادية على الفلاحين المسيحيين بنوع خاص؛ وقلما تدخل أحد فى أراضى الفلاحين المسلمين. ووسعت الضرائب المتصاعدة والاستغلال المتزايد من شقة الانقسام الموجود بين طبقتى الفلاحين. ومن ثم كثر فرار الفلاحين النصارى عبر الحدود

وازداد الخارجون على القانون (بالتركية: حيدوت) الذين عملوا قطاع طرق وهددوا الامن في الطرق.

وحالت حرب الثلاثين السنة في أوروبا في القرن (السابع عشر الميلادي) دون قيام عمليات حربية كبرى ضد الأتراك، على حين تسببت حربان طويلتان في النصف الثاني من القرن في كثير من الآلام. وهبط مستوى الاحوال المعيشية والاقتصادية في إيالة البوسنة. فالحرب ضد البندقية (١٦٦٤ - ١٦٦٩م) والاخرى الأقصر منها ضد آل هبسبرغ (١٦٦٣ - ١٦٦٤م) دارت رحاهما على أراضي ولاية البوسنة حيث توالت الغارات. وكان من نتائجها فرار السكان المسيحيين عبر الحدود أن انضم كثير من هؤلاء الفرّار (ويسمون أوسكوتشي) إلى الخدمة العسكرية في البندقية. وكان في الهرسك ايضا اضطرابات وقلاقل قام بها الشعب. ثم جاءت بعد الحروب فترة أربع عشرة سنة من سلام رحب به الناس، ونشأ عنه - إجمالا - توحد السلطان التركي. وكان الهجوم على فينا فاتحة حرب جديدة مع الحلف المقدس. دامت وقتًا طويلا (١٦٨٣ - ١٦٩٩م)، وللمرة الأولى أفلتت البوسنة جنوبي السافا من أن تكون ميدانًا للعمليات الحربية. بيد أنه كان على الجيش البوسنوي أن يشترك في الحرب ويدافع عن الحدود. واحتلت الجيوش النمسوية بصفة مؤقتة بعض النواحي جنوبي نهر السافا (سنة ١٦٨٨م) وبعد تسع سنوات تقدم الأمير أيوجين - عقب موقعة سنتا - حتى سراييفو وأتى عليها إحراقًا سنة (١٦٩٧م) وهاجر السكان المسيحيون - وبخاصة الروم الكاثوليك - وانسحبوا مع الجيوش المغيرة. وجاء الطاعون في أعقاب الحروب الطويلة. واحتفظت إيالة البوسنة بمقتضى شروط معاهدة صلح كارلوفتس (١٦٩٩م) - بحدود البوسنة والهرسك الحالية في الشمال والغرب مع بعض تغييرات طفيفة. على أنه بدئ في إقامة تحصينات جديدة على هذه الحدود، وترميم القديم منها، وأنشئت وظائف قبودان أكثر مما كان. واشتملت الإيالة على خمسة سناجق: (البوسنة، الهرسك، كليس، تسفورنك، وبهاج) وألغي السنجق الأخير بعد ذلك بوقت قصير. ونقل في هذا الوقت مقر وزير البوسنة من سراييفو إلى ترافنك.

وعاد المسلمون اللاجئون من الجهات التي تخلت عنها المجر وسلافونيا وكرواتيا ودلماشيا وأقاموا في البوسنة على الأراضي المهجورة أو القليلة السكان التي سمح لم بامتلاكها باعتبارها جفتلكات، وكان هؤلاء المستوطنون الجدد يشعرون بالكراهية والمقت نحو الدول المسيحية والعصاة مما أدى إلى زيادة الفرقة والشقاق بين المسلمين والمسيحين. وجاء عدد من المستوطنين للاقامة في المدن وكانوا في معظمهم تجارا واصحاب مهن وجنوداً.

واستدعى موقع إيالة البوسنة المعرض للغزو بذل جهود كبيرة من السكان المسلمين. وبمقتضى معاهدة صلح بوراريفاج (١٧١٨م) أعطيت النمسا حزاما من الأرض جنوب نهر السافا، وأعطيت بعض المناطق حول الحدود الغربية أيضا للنمسا والبندقية. وبالرغم من الخراب الذى سببه الطاعون وما اقترن به من تعاقب مواسم حصاد سيئة، وخسائر فادحة في الأرواح منى بها سباهية البوسنة، فقد أحرز جيش من البوسنة تحت قيادة حكيم أوغلى على باشا نصراً حاسما على النمسويين عند بنالوقة سنة (١٧٣٧م). وانتزعت معاهدة بلغراد سنة (١٧٣٩) من النمسا كل البلاد التى كان النمساويون قد غنموها بمقتضى معاهدة بوراريفاج، ماعدا حصن فوريان.

وما إن حان هذا الوقت حتى كان النبلاء الإقطاعيون البوسنويون بخاصة، والمسلمون بعامة، قد فقدوا ثقتهم بسلطان الإمبراطوريه. وعزز وفود الإنكشارية من الأقاليم المهجورة المركز الممتاز لبعض المدن، وبخاصة سرايبفو التى كانت قد منحت استقلالا ذاتيًا فعليًا. وأعطيت السلطة العظمى للأعيان والحكام العسكريين (باشوات) والقبودانات وأصبحت هذه الطبقة من كبار الموظفين هى الممثلة الرئيسية للسلطة السياسية. وفي أيام على باشا أنشئ مجلس الأعيان، وكان تكوينه من أعيان البلد والقبودانات وذوى الحيثية من جهات مختلفة من الإيالة. وكان المراد من المجلس أن يمارس الرقابة على الوزير نفسه، ومنح السلطة لكى يحدد بعض إيرادات الوزير.

ولما كان المجلس منبثقًا من هذه الطبقة المتميزة فإن وجود النبلاء المسلمين المحليين إنما قام على إخضاع الفلاحين معتمداً على توسيع رقعة

الاسترقاق توسيعًا آخر وتسلم البيكوات والأغوات، بصفتهم سادة الأرض والجفتلكات، جفتلكات جديدة أو استولوا عليها. وتسببوا بذلك فى أن يستوطن فلاحو الأراضى التى تربى الماشية أراضى أخرى مهجورة. وكانوا يعملون مستقلين عن السلطة المركزية. واغتصب القبودانات سلطات وأعمال موظفى الدولة وأجروا إيراداتها ووضعوا أيديهم على الجفتلكات واقتنوا الأملاك بشتى الوسائل. وهناك أسر قبودانات مسجلة فى القرن (الثامن عشر الميلادى) بلغت مراكز سامية فى المجتمع قرب نهاية القرن.

وكان لابد لوزراء البوسنة من رفع فئات الضرائب. وفرض غيرها من مكوس وضرائب وذلك لكى يحصلوا على الثروة ويعتاضوا ما دفعوه من ضرائب ورشاوى فى سبيل الحصول على مناصبهم. والواقع أنهم كانوا فى كثير من الاحوال يطالبون بتوريد بضائع بالذات على الفور دفعة مقدمة من ضرائب تستحق الأداء بعد ٦ - ٩ أشهر، وقد أثار هذا العمل سلسلة من الفتن والقلاقل بين سكان المدن الفقراء والفلاحين المسلمين دامت عشر سنوات فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى).

وكان لمثل هذه الظروف أثرها المشئوم على التجارة فى المدن والقرى على حد سواء، وكانت الأحوال السائدة نكسة خطيرة أصابت النمو الاقتصادى للبلاد.

وفى الحرب بين النمسا وتركية (١٧٨٨ - ١٧٩١) ألقيت مسئولية الدفاع عن نواحى الحدود على قوات البوسنة. وبصرف النظر عن استيلاء الجيوش النمسوية على بعض حصون الحدود (١٧٨٨ - ١٧٩٠م) فإنهم لم يحرزوا الا نجاحا هزيلا. وتنازلت تركية بمقتضى معاهدة سفيشتوف عن جزء صغير من أراضيها. وجلا النمسويون عن الحصون التى احتلوها.

وفى (نهاية القرن الثامن عشر الميلادى) أدخل السلطان سليم الثالث سلسلة من الإصلاحات والإجراءات لكبح جماح الإنكشارية. وجاءت سياسة الإصلاحات

المقترحة معاكسة للأسس الثابتة والنفوذ السائد لطبقة الاشراف من المسلمين، وللمركز المتميز للسكان المسلمين فى المدن فى إيالة البوسنة.

جـ- فترة الإصلاحات فى تركية والفتن فى البوسنة:

لم يكن فى الإمكان أن تقابل الإصلاحات التركية الجديدة فى البوسنة إلا بالسخط، وذلك لتدخلها كما هو واقع، فى الكيان الحربى الوطيد. ولأنها موجهة ضد الإنكشارية وسباهية الجيش. وشنت عدة حملات على العصاة فى بلاد الصرب اشترك فيها بيكوات وأغوات وجموع غفيرة من سكان المدن، ومع هذا فقد انهزم الجيش البوسنوى هزيمة فادحة عند ميشار (١٨٠٦م). وحدثت بعد ذلك بقليل قلاقل من فلاحى الصرب فى البوسنة ولكنها أخمدت سريعًا. واحتاج الأمر الى جهود أكبر ليتم قمع تمرد الدروبنياكية فى الهرسك قمعًا باتًا. واشترك مسلمو البوسنة كذلك فى قمع القلاقل فى بلاد الصرب سنة ١٨١٣م.

وتحسنت التجارة العابرة (ترانزيت) أثناء فترة حصار نابليون للقارة. واستخدمت طرق البوسنه فى ذلك الوقت لنقل القطن بصفة خاصة. وقام بهذا العمل تجار من الصرب ويهود، أصبح كثير منهم بسبب ذلك من الأغنياء. واعتمد التجار المسلمون فى البوسنة فى نجاحهم على الاحتفاظ بالميزات والحقوق الخاصة التى كانت لهم. ونالت سراييفو قسطًا كبيرًا من الاستقلال إزاء الوزراء. ونشبت حالات متتالية من الخلاف الخطير والنزاع بين الوزير والأهلين، أفضت فى بعض الأوقات إلى مقاومة مسلحة. وبتعيين جلال الدين باشا ووصوله سنة ١٨٢٠م استتب القانون والنظام بتضحيات كبيرة فى الأرواح. وكان إلغاء نظام الإنكشارية باعثًا على فتنة قام بها الجماهير مرة أخرى وبخاصة فى سراييفو، وأخمدها عبد الرحمن باشا. واستمر السخط العام مع ذلك ومقاومة الإصلاح. وعندما بذلت محاولة فى سنة (١٨٣١م) لتنفيذ الإصلاحات وإعادة تنظيم الجيش قامت فتنة تزعمها نبلاء البوسنة المسلمون بقيادة حسين قبودان كرادا شجفتش. وطالب العصاة باستقلال البوسنة والهرسك استقلالا إداريًا تامًا، وبحقهم فى اختيار وزيرهم، وأن تؤدى البوسنة جزية سنوية للسلطان. وهى مطالب لو أنها أجيبت لكان معناها حماية ميزات الأشراف

والنظام الحربى القائم. ومع هذا، فإنه عندما ابتدأ الصدام اعتزل قبودانات الهرسك بقيادة على أغا رضوان بكوفتش هذه الحركة. ورغم انتصار حسين قبودان على الجيوش الهمايونية والتفاهم الذى توصلوا إليه مع الصدر الأعظم، فقد انتهى هذا النجاح الأولى العظيم إلى لاشئ بسبب مطامع القائد الشخصية (انتخب لمنصب الوزارة فى ١٧ من أكتوبر سنة ١٨٣١)، والتنافس بين زعماء البوسنة، وسحقت حركة العصيان. وأعلنت الهرسك "باشا لق" يحكمها على باشا رضوان بكوفتش سنة ١٨٣٣.

وبعد إخماد حركة العصيان ألغى توارث القبودانلق (سنة ١٨٣٠م) وحل محله المسلملق. وعين القبودانات السابقون والأعيان والسباهية (الذين ألغى نظامهم) مسلمية وأعطوا لقب القواد. وكانت سياسة اليد الحديدية فى القفاز المخملى هى السياسة التى استخدمها الباب العالى تجاه اشراف البوسنة والمتبرمين. واستمر التصادم قائما رغم ذلك وبخاصة بين سكان سراييفو والوزراء. وتشتت شمل المقاومة نهائيا على يد عمر باشا لاطاس، وهو ضابط صغير سابق فى البحرية النمسوية، ولد فى ليكا (كرواتيا) وأرسل سنة (١٨٥٠ - ١٨٥٢م) إلى البوسنة بسلطات خاصة على رأس قوات كبيرة. ونجح فى تحطيم النفوذ السياسى الكبير الذى كان لأشراف البوسنة، ووضع الإصلاحات موضع التنفيذ. وأعدم على باشا، وألغى باشالق الهرسك. وقسمت البوسنة إلى ستة قائمقاملق والهرسك إلى ثلاثة، وصارت سراييفو المقر الرسمى للوزير. وأجريت إصلاحات أخرى فى إدارة إيالة البوسنة أثناء تولى طوبال عثمان باشا (١٨٦١ - ١٨٦٩م) منصب الوزير. وقسمت البلاد إلى سبعة سناجق وأنشئ مجلس الولاية فى سنة ١٨٦٦، وهو جماعة استشارية على أساس طائفى. وشرعوا فى تطبيق النظم العصرية على أحوال المعيشة والخدمات الصحية والمواصلات. (مدت أول سكة حديدية بنالوقة - توفى سنة ١٨٧٢م) وأنشئت مطبعة الولايه فى الستينات من القرن، وفتحت عدة مدارس.

وساعدت الإصلاحات والإجراءات التى اتخذت على تطوير فروع من الاقتصاد القومى، وتحسنت التجارة والصناعة، وإن كانت النقابات المهنية قد تعرضت

للخطر بسبب تطور السوق. وأثرى كثير من الأسر الصربية في المدن. وكان من نتيجة ذلك أن الريف بدأ يحس بنفوذ المواطنين من الصرب.

غير أن الإصلاحات لم تكن بعيدة الغور بحيث تتناول جوهر الكيان الزراعى وقضاياه، فبإلغاء نظام السباهية جعلت العشور ضريبة تؤدى للدولة. وسنَّ نظام لمعاشات تجرى على السباهية تعويضًا لهم عن فقدان دخلهم وحل هذا النظام محل الإيجارات. ومع هذا، شرع السباهية فى تحويل أراضى الزراعة الحرة المتبقية الى جفتلكانات ليعوضوا بذلك خسائرهم، وتم هذا فى القرن (التاسع عشر الميلادى). ولذلك بقى حق تملك الأرض حسب النظام الإقطاعى واستئجار الأرض ملازما للفلاحين المسيحيين، لأن الفلاحين المسلمين ظلوا باقين على حيازة جفتلكاتهم. وكان القصد أن يكون تحمل الضرائب الفادحة واقعا فى أكثره على كاهل الفلاحين، وعلاوة على ذلك فإن الضرائب والمكوس التى أكره الفلاحون (كمت) على دفعها دون مسوغ لم يكن لها نصاب معين بل كانت تجبى استبداديًا. ومثل هذه الأحوال كانت سببًا فى السخط العام بين الفلاحين، وأثارت فتنًا متوالية.

وتسببت هذه الأحوال غير المرضية فى قيام سلسلة من الفتن بين الفلاحين حوالى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، وعندما تضافرت جهود حشود من الفلاحين النصارى والفلاحين (كمت) والأغوات والبيكوات، أخذت الفتنة الكبيرة فى سنة ١٨٧٥م لونًا سياسيًا باشتراك سكان المدن من الصرب فيها، وبخاصة بعد نشوب الحرب بين بلاد الصرب والجبل الأسود وبين تركية. والواقع أن فتنة الهرسك كانت جماعية، أما فى البوسنة فإنه لم يشترك فيها غير نواحى التخوم. واستدعى قيام الفتنة تدخل الدول العظمى. وقضت معاهدة سان استفانو بأن تمنح تركية البوسنة والهرسك استقلالا ذاتيا.

ووضعت البوسنة والهرسك تحت انتداب النمسا والمجر بمقتضى شروط مؤتمر برلين ١٨٧٨. ولقيت الجيوش النمسوية المجرية التى أرسلت لاحتلال البلاد مقاومة من مسلمى البوسنة لم تكن فى الحسبان، وكان على رأس الثوار رجال الطبقة الدنيا، لأن الرجال ذوى المكانة من أهل البوسنة لم يرغبوا فى الانحياز إلى فريق

دون الآخر بعد انسحاب السلطات التركية والجيش - اللذين حرضا الشعب على الثورة ضد الغزاة وتأليف حكومة من الشعب فى سراييفو. وابتدأ الاحتلال فى ٢٩ من يوليه وتم فى ٢٠ من أكتوبر ١٨٧٨م. واتخذت إجراءات صارمة لتحطيم المقاومة فى بعض النواحى، وبخاصة حول مدينة سراييفو وفى داخلها.

٣- الثقافة الإسلامية فى البوسنة والهرسك:

كان من شأن إسلام فريق من أهل البوسنة والهرسك، وهو من ثمار الفتح التركى، أن وسم الحياة والثقافة فى البلاد بميسمه. وكان أسلوب المعيشة، العامة والخاصة، عند مسلمى البوسنة والهرسك شبيها بأمثاله فى الولايات الأخرى من الإمبراطورية العثمانية، وبخاصة فى المدن. وكانت المحلات فى المدن هى قوام الثقافة الإسلامية فى البوسنه والهرسك شبيها بأمثاله فى الولايات الأخرى من الأمبراطورية العثمانية وبخاصة فى المدن، إذ كان الطابع المسيطر عليها حضريا فى مداه وسماته وكان للفلاحين المسلمين خصائص معينة لاصقة بهم. ونظرا لاصطباغ البلاد بالصبغة الأوروبية فقد مالت عناصر الثقافة الشرقية إلى الزوال، وخاصة بين السكان المسيحيين فى فترة ما بعد الحكم التركى. وتفاقم هذا الأمر حين أصبحت البلاد جزءا من يوغوسلافيا. ومع كل فإن العناصر المميزة للثقافة الإسلامية لم تختف حتى فى أيامنا هذه. والأكثر من ذلك أنها لم تختف حتى بين النصارى، فما بال المسلمين. ولم يزل الكثير من سمات الحياة الشرقية ماثلا للعيان، مثل أسلوب المعيشة والأثاث، والطهى والشرب وخصال أخرى قديمة، وما زالت الطرائق الشرقية شائعة فى صياغة الحلى، ونسج الأبسطة، وكثير من فروع الفنون التطبيقية.

ويوجد أخلد آثار النفوذ الثقافى الإسلامى فى ميدان العمارة وتخطيط المدن، ووجدت بعض المبادئ الشرقية فى تخطيط المدن استعدادا للتطبيق بالنظر إلى غلبة المواقع ذات الشرفات. وما زالت مدن البوسنة تظهر الأنموذج السابق فى التخطيط الذى يقسمها إلى حيين، وهما الجارشى (مركز البيع والشراء والتجارة) والمحلات (أحياء السكنى).

ويمكن تمييز ثلاث مراحل فى تخطيط المدن وتشييدها بصفة عامة طوال مدة الحكم التركى. (أ) الفترة الأولى حتى نهاية القرن السادس عشر تقريبا (ب) الفترة الثانية حتى نهاية القرن السابع عشر (جـ) الفترة الثالثة حتى نهاية الحكم التركى فى البوسنة والهرسك. ففى أثناء الفترة الأولى من تطور المحلات الإسلامية فى المدن كان الولاة وكبار الأعيان الأتراك هم الذين يقومون بتشييد أماكن العبادة والأبنية العامة. وهى النماذج الممثلة للعمارة التذكارية. وإلى هذا التاريخ تعود أروع الآثار فى طراز العمارة الإسلامية فى البوسنة والهرسك مثل مسجد ألاجه فى فوجه (سنة ١٥٥٠م) ومسجد الغازى خسروبك (١٥٣٠م) ومسجد على باشا (١٥٦١م) فى سراييفو، ومسجد فرهاد باشا (١٥٧٩) فى بنالوقة، ومدرسة الغازى خسروبك المسماة سلجوقيه. ثم بعد ذلك فورشوملية مع حمام الغازى خسروبك (قبل سنة ١٥٥٦م). وبروسه بزستان (١٥٥١م) فى سراييفو وكثير غيرها. ولما نمت نقابات أرباب الحرف وتطورت سريعًا فى الفترة الثانية وكل إلى التجار تشييد الأبنية العامة. والأبنية التى تعود إلى هذه الفترة أقل أبهة فى مظهرها باستثناء بعض أبنية أقامها الحكام أو بعض ذوى المناصب الرفيعة من الأتراك. مثال ذلك تكية حاجى سنان (سنة ١٦٤٠) فى سراييفو. وتظهر على العمارة فى الفترة الثالثة علامات الانحطاط (فى أواخر المدة) وتغلغل الأفكار الأوروبية فيها. والتشبه بالطراز السائد فى مدن تركية، كما ظهرت عليه أيضًا مؤثرات مباشرة. ومع هذا فقد أخرجت هذه الفترة عدة نماذج هامة للمهارة الصناعية. وتطور مدينة ترافنك، المقر الرسمى للوزير، يعتبر مثالاً لهذه الفترة. ومسجد السليمانية (البناء الحالى يعود إلى سنة ١٨١٦م) بنى فوق بزستان. وجدد عدد من المساجد العتيقة أثناء هذه الفترة، وأبرز المعماريون المسلمون فى بناء الأبنية العامة التذكارية الملامح الجوهرية للفن العثمانى، بيد أن أشكال وخصائص هذا الفن لم تتجل كلها فى البوسنة والهرسك. وقام معلمون معماريون وطنيون ببناء مساجد صغيرة وأبنية عامة ومنازل للسكنى، ولهذا ظهرت على هذا الطراز من البناء ملامح شخصية، وبان على نماذج العمارة الإسلامية علامات لا تخطئها العين من الانحطاط فى فترة ما بعد الحكم التركى. وحاولت الحكومات النمسوية المجرية تطوير

خصائص فن العمارة الإسلامي بمحاكاة الطراز المغربي. وتباينت الأبنية المقامة على هذا النمط مع نماذج العمارة الإسلامية السابقة في البوسنة والهرسك، ومع نماذج الفترة الأخيرة من الحكم النمسوي،فضلا عن تنافرها مع المنظر العام لداخلية بلاد البوسنة وعدم مواءمتها للأحوال الجوية. وقد ثبت فشل اصطناع هذا النمط من البناء. وأهم أنموذج له هو سراي البلدية في سراييفو. وحافظ طراز البوسنة والهرسك في العمارة على كيانه فيما يختص بمنازل السكنى فترة أطول قبل أن يختفي نهائيًا.

وتدخل طائفة كبيرة من الألفاظ والاصطلاحات اللغوية التركية والفارسية والعربية الأصل في الاستعمال العادة في البوسنة والهرسك، وكان ذلك على مدى اكبر منه في الجهات التي يتكلم فيها الناس بالعربية الكرواتية. واستوعب الاسلوب الأدبي المبكر أيضًا هذه الألفاظ المستعارة، وهجرت الألفاظ والعبارات التركية في لغة الحديث العادية مع تطور اللغة الصربية الكرواتية وبتأثيرها وتوحيد قواعدها منذ سنة ١٨٧٨، وازداد ذلك من سنة ١٩١٨. وكانت حروف الهجاء السيريلية مستخدمة في المراسلات الشخصية عند مسلمي البوسنة والهرسك وبخاصة بين مسلمي البوسنة والهرسك الوطنيين أثناء الحكم التركي، وكانت الحروف العربية تستخدم في كتابة نصوص الآداب العربية الكرواتية التي ينشئها المسلمون في البوسنة والهرسك. كما كانت تستعمل في كتابة بعض المتون الصربية الكرواتية الدينية أثناء حكم النمسا وفي يوغوسلافيا قبل الحرب. وبعض الكتب المطبوعة بهذه الحروف، ما زال الحصول عليها متاحًا. وكان الهجاء فيها اجتهاديًا في البدء ثم سنت لها قواعد تدريجًا بعد ذلك. ومع هذا فلا تكاد تستعمل هذه الحروف بعد سنة ١٩٣٠ حتى ولا في الكتب الدينية.

ولم يدرس الإنتاج الأدبي عند المسلمين في البوسنة والهرسك دراسة شاملة، لا باللغة الصربية الكرواتية ولا باللغات الشرقية. ويختلف المسلمون في البوسنة والهرسك اختلافًا طفيفًا عن جيرانهم المسيحيين في ولعهم بالأغاني الشعبية والشعر الشعبي. ومنظومات ملاحم الكوسلار المتقدمة في البوسنة والهرسك لها كل

الخصائص الأساسية لقصائد الملاحم التقليدية في اللغة الصربية الكرواتية. وإنما ينحصر الاختلاف في الإتجاه الديني وكثرة تردد العبارات التركية والعزوف عن قصائد البطولة إلى الشعر القصصي. وحسنكينيجه Hasanginica قصيدة بوسنوية شعبية ذائعة الصيت في عالم الأدب. وما زالت بعض قصائد من الملاحم الشعبية من الطراز السابق باقية في جنوبي البوسنة والهرسك. وبزغ نمط من الشعر متأخر في الزمن في الملاحم الإسلامية بين قوم ثغر في الغرب يعرف باسم "كرايينا" Krajina ينشدونه بمصاحبة التمبوريكا (المندولين) ويختلف من عدة وجوه عن قصائدالكوسلار. وإذا ما قورنت الأغاني الشعبية للمسلمين من أهل البوسنة والهرسك بمثيلاتها عند مواطنيهم اتضح أن لها أيضًا، وإلى درجة رفيعة. عددا من السمات المميزة الخاصة بها. وأشهر هذه القصائد وأروجها هي القصائد الغرامية المسماة "سفدالنكا". وبصرف النظر عن المؤثرات الشرقية في اللغة والموضوعات والموسيقى الواضحة في التلحين، فالسفدالنكا قصائد أصيلة مثالية لمسلمي البوسنة والهرسك يحبها ويستمتع بها الناس في جميع أنحاء يوغوسلافيا.

وإذا حكمنا بنتائج الدراسات التي نشرت حتى الآن، فإن هؤلاء الشعراء المسلمين من أهل البوسنة والهرسك الذين كتبوا باللغات الشرقية كتبوا في الغالب بالتركية، وأقل من ذلك بالفارسية، وفي حالات قليلة جدًا بالعربية، وبين الكتاب الأتراك عدة أفراد من أصل بوسنوي. كان منهم شعراء مشهورون مثل درويش باشا بن بايزيد أغا (قتل سنة ١٦٠٣م) ومولده في مستر (الهرسك)، وصاحب الأسلوب الذائع الصيت محمد نركيسي (توفي سنة ١٦٣٤م) ولم يكن مولدهم فقط في البوسنة والهرسك ولكنهم تقلدوا أيضًا مناصب فيها مددًا طويلة، فكان الأول باشا البوسنة والأخير مدرسًا وقاضيًا. وكان أحمد سودي أيضًا من أصل بوسنوي (توفي سنة ١٥٩٧م) وهو الشارح المشهور للآداب الفارسية. ومن أخصب كتاب الشعر بالفارسية إنتاجًا، وكان يكتب أيضًا بالتركية، الشيخ فوزي. من مستر (توفي حوالي سنة ١٧٤٧م). وشعراء غيرهم كثيرون انحرفوا عن الإسلام القويم. وكتب باللغتين التركية والصربية والكرواتية كل من حسن قائمي، من سراييفو (المتوفى سنة ١٦٩٢م)

وأسكوفى البوسنوى، المسمى أيضًا هوابى (توفى حوالى سنة ١٦٥١م) وقد ولد فى طوزله دونيًا، وغير هؤلاء شعراء كثيرون من أهل البوسنة والهرسك كانوا يكتبون بالتركية وبالصربية الكرواتية. وألف الأخير منهم معجمًا للغة الصربية الكرواتية منظومًا بالتركية. وفى القرنين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين) وحتى الوقت الحاضر. كان ثمة جماعة من الشعراء نظموا قصائد دينية بروح التقاليد القديمة. ومن هذه الأشعار الجديرة بالاعتبار والتقدير قصائد فى مولد النبى (مولود) وكانت الفترة السابقة مجرد حكايات تقليدية للنصوص التركية تتلوها كتابات أصيلة. وكان معظم النثر عند مسلمى البوسنة والهرسك باللغة العربية، وكان يعنى إلى حد كبير بموضوعات أصول الدين الإسلامى وأحكام الشريعة وإدارة الدولة والتاريخ. وأقام كثير من كتاب البوسنة والهرسك وعملوا فى إستانبول وجهات أخرى من الإمبراطورية العثمانية مثل عبد الله بوسنوى (المتوفى سنة ١٠٥٤هـ = ١٦٤٤م) صاحب رسائل فى الفلسفة الصوفية، وشارح فصوص الحكم لابن العربى، واشتهر حسن كافى، المولود فى بروساك (آق حصار) بكتابته فى القانون والسياسة، وأهله علو كعبه فى الأدب لمنصب قاضيلق فى موطنه وظل يشغله طول حياته، وهناك توفى سنة (١٦١٦م)، وهو مؤلف كتاب "نظام العالم" المشهور فضلا عن مؤلفاته الأخرى. ومن الممكن أن نعد نحو أربعين مؤلفًا كان لهم نشاط فى مجال الدراسات الدينية والقانونية أثناء الفترة الأدبية فى البوسنة والهرسك. وكان كثير من مشاهير المؤرخين الأتراك من نسل بوسنوى مثل إبراهيم بجوى، ومع هذا فكتابة التاريخ بالتركية فى البوسنة والهرسك لم تنشأ إلا بعد ذلك. وكان القاضى عمر النوفوى مؤرخًا ممتازًا فى القرن (الثامن عشر الميلادى)، وكان يكتب بالتركية، وهو مؤلف "غزوات حكيم أوغلى على باشا" وهو كتاب يتناول الأحداث التاريخية فى البوسنة من (١٧٣٦م) إلى (١٧٣٩). وأول طبعة له قام بها إبراهيم متفرقة (١٧٤١م) ثم أعيد طبعه بعد ذلك وترجم إلى الإنكليزية والألمانية. وفى فترة الانتقال بين القرن (الثامن عشر الميلادى) والقرن (التاسع عشر الميلادى)، سجلت أسماء بضعة مؤرخين إخباريين بارزين (مصطفى باشسكى وصالح صدقى) دونوا الأحداث التى عاصروها. ومن المؤرخين الذين تناولوا الفترة الأخيرة من

الحكم التركي والأحداث التي تلت الاحتلال النمسوى للبلاد. نذكر صالح صدقي أفندي حاجي حسينوفتش (توفي سنة ١٨٨٨م) ومع ذلك، فإننا نجد منذ سنة ١٨٧٨. وبخاصة منذ سنة ١٩١٨ أن الجهود الأدبية قد جنحت أكثر وأكثر إلى الاندماج في الآداب الصربية الكرواتية.

وكانت المكاتب والمدارس والمعاهد الدينية (المساجد والتكايا وأمثالها) مستنبت التربية الإسلامية والثقافة في البوسنة والهرسك، كما كانت في كل الولايات التركية. والمكاتب، كما هي العادة، ملحقة بالمساجد، وكانت تقوم بالتربية الابتدائية التي أساسها تعليم قراءة القرآن والمبادئ الدينية الأولية. اما المدارس الثانوية والعالية فقد أنشئت على غرار المدارس التركية. وأول مدرسة سجلت في سراييفو ترجع إلى (أوائل القرن السادس عشر للميلاد). ومن "الوقف نامه" لسنة ١٥٣٧م أنشأ غازي خسرو بك سنجق بكي البوسنة، مدرسة خسرو بك بمكتبتها الخاصة، وفرغ من بنائها في السنة التالية، ومن ذلك الوقت جعلت مكتبة المدرسة معهداً عاماً مستقلا لوقف خسرو بك الذي ساعد على توسيع مجالها. وتضم قائمة محتوياتها المجموعة الأصلية من المجلدات في اللغات الشرقية، ومعها الكثير من النسخ المضافة ومخطوطات ووثائق تركية أخذت من الأوقاف والمدارس والمكتبات الخاصة. وأخذ عدد المدارس في الازدياد، غير أن مدرسة غازي خسرو بك كانت أشهرها. وهي مدرسة ثانوية تدرس فيها أصول الدين. وعنيت طرق مختلفة من الدراويش بالتعاليم الصوفية وبدراسات في اللغة الفارسية. ويبدو أن إنشاء أول تكية كان قبل سقوط البوسنة النهائي. وفي الخانقاه التي أنشأها غازي خسرو بك تفاصيل في البناء مثيرة للاهتمام. وكانت تكاليف الصيانة والتعليم الديني والتربية من مال الوقف.

ويرجع الفضل إلى طوبال عثمان باشا في التطور الأساسي للتعليم العام ومنشآته، فقد أنشأ "الرشدية" الأولى و"مكتب حقوق" (مدرسة الحقوق الإدارية) وأعقب ذلك افتتاحه ناديا للمطالعة العامة ومطبعة. وتتولى الدولة بمقتضى أحكام قانون التعليم (١٨٦٩م) مسئولية الخدمات التربوية وعمارة المدارس. ولم يحصل تدخل في شئون المدارس ذات الصبغة الطائفية، ولكنها كانت خاضعة لرقابة الدولة.

ولم تنفذ مواد قانون التعليم بتمامها في البوسنة والهرسك. ولو أنهم كانوا ينشئون مكاتب للصبيان ورشديات ومدراس للصناعات وللمعلمين. وتدل الإحصاءات الرسمية على أنه كان ثمة في أواخر أيام الأتراك ٩١٧ مكتبا و٤٣ مدرسة و٢٨ رشدية. علاوة على مدرسة حربية في سراييفو من درجة أدنى. ومدرسة لمعلمي المكاتب ومدرسة تجارة.

وشرعت حكومة النمسا والمجر في إدخال منهجها في التعليم الأميرى، دون أن تتدخل في شئون المدارس المحلية. وكان تعليم الدين إجباريا في المداس الأميرية. وبقيت المكاتب والمدارس (التركية) مدارس دينية. وأصبح التحاق الأطفال المسلمين بالمكاتب إلزاميا بمقتضى ما سنه قانون سنة ١٩٠٩ من لوائح. ولم يكن يمكن السماح لطفل مسلم بدخول مدرسة ثانوية ما لم يكن قد سبق له دخول المكتب. واتخذت إجراءات معينة لإصلاح المكاتب ولكن لم تهيأ لها أسباب النجاح في معظم الحالات. وفي سنة ١٩٠٩ كان هناك زهاء ١٠٠٠ مكتب قديم (صبيان مكتبي) و٩٢ مدرسة (مكتب ابتدائي) واعتبرت الرشديات ضمن المدارس الأولية لأطفال المسلمين واستمرت كذلك من بعد مع إصلاح برامجها - في القرى وبليدة برجكو فحسب - واستخدمت المدارس (القديمة) مدارس تدريب للوظائف الدينية المتواضعة. وفي سنة ١٨٨٧م أنشئت كلية لطلبة الشريعة ولقضاة المحاكم الشرعية مستقبلا. وأنشأ ديوان الأوقاف في سنة ١٨٩٢ كلية لمعلمي المكاتب. وكان الطلبة المسلمون في مدارس الدولة مخيرين بين تعلم اليونانية القديمة أو العربية.

ولم تعترف الدولة أثناء تعاقب الحكومات اليوغوسلافية المتتالية بعد الحرب العالمية الأولى إلا بالمدارس الابتدائية التي لم يستوعب عددها القليل أطفال المسلمين في سن التعليم. وكان التعليم الديني يدرس لجميع التلاميذ الملتحقين بالمدارس الابتدائية، وأصبحت المكاتب مدارس أولية أو معاهد غير تربوية لتعليم القرآن. وكان الدين يدرس في جميع المدارس الثانوية كذلك. وفتحت مدرسة ثانوية أميرية للشريعة في سراييفو سنة ١٩١٨م. بقيت كلية تدريب القضاة الشرعيين موجودة حتى سنة ١٩٣٧م، وهنالك أنشئت مدرسة عليا للشريعة وأصول الدين

الإسلامى فى مستوى الكلية. وتولى ديوان الأوقاف الإنفاق على كلية معلمى المكاتب. وهى المدارس التى أصبحت الآن ثانوية لتدريس مواد أصول الدين بصفة أساسية. وأدخلت إصلاحات أولية على "المدارس" فى سنة ١٩٣٣ ووضع لها برنامج محدد سنة ١٩٣٩ بحيث تكون الدراسة فيها مشابهة للمدارس الثانوية الأدنى درجة. وكانت مدرسة غازى خسرو باك شاذة عن هذه القاعدة فى أنها مزودة بمقرارات ثانوية أعلى. والمعروف أن عدداً من مسلمى البوسنة والهرسك قد تخرجوا من جامعات غربية. وانتقلت مهمة منح الإجازات للتلاميذ والطلبة المسلمين. وتحمل نفقات صيانة وإدارة المدارس الداخلية وتقديم التسهيلات التعليمية الأخرى. التى كانت منوطة بديوان الأوقاف، إلى جمعيات إسلامية شتى، فى الميدان العلمانى على أية حال، مثل جمعية "كاجرت" وجمعية "أوزدانيكا" وغيرهما.

وانفصلت فى يوغوسلافيا الجديدة الجماعات والجمعيات الدينية عن الدولة، ولكن الدولة قد تمد يد المساعدة إلى الجماعات الدينية. ويسمح بتدريس الدين فى الجهات المجاورة لأماكن العبادة فقط (كنص قانون الطوائف الدينية لسنة ١٩٥٣). ومع ذلك فقد أطلقت حرية الطوائف الدينية فى فتح مدارس لتدريب الموظفين وعمال الإدارة الدينيين. وبقيت المكاتب التى كان التحاق المسلمين بها إلزاميًا بأمر الطائفة الدينية الإسلامية موجودة حتى سنة ١٩٥٢، وهناك ألغيت فى أنحاء البوسنة والهرسك وفى عهد الإدارة النمسوية المجرية.

وفى يوغوسلافيا قبل الحرب، كانت دراسة فروع العلوم الإسلامية ذات العلاقة بالدين واللغات الشرقية على صلة محكمة بنشاط المدارس والكليات المذكورة آنفا. وكان متحف زيماليسكى فى سراييفو مهتما بجمع المخطوطات الشرقية والسجلات من دور المحفوظات التركية. وكان من القائمين بأمر المتحف نفر ممن درسوا الأدب الشرقى والسجلات التاريخية. وهنا تهيأت الظروف لتنمية الدراسات العلمية الحديثة فى هذا الميدان.

وفى السنين التى تلت الحرب العالمية الثانية، صرفت عناية متزايدة فى البوسنة والهرسك للدراسات الشرقية الخاصة بالشعوب الإسلامية، ولهذا أعدت

بالمدرسة الثانوية فى سراييفو مناهج على النمطين الشرقى والغربى على السواء، وفى جامعة سراييفو أنشئ فى سنة ١٩٤٩ كرسى لفقه اللغات الشرقية (التركية والعربية والفارسية وآدابها) ويقدم كرسى التاريخ أيضًا مناهج تركية فضلا عن عنايته الخاصة بالدراسات التى تتصل بتاريخ الشعوب اليوغوسلافية أثناء الحكم التركى. ويضم المعهد الشرقى بسراييفو المنشأ سنة ١٩٥٠ مجموعة قيمة من المخطوطات الشرقية ومواد تاريخية تركية أخذت من متحف زيماليسكى فى سراييفو. وفضلا عن نشره كتابه السنوى فإن المعهد الشرقى يضطلع بإعداد مجموعة منسقة من السجلات التركية والمصادر ذات الصلة بالشعوب اليوغوسلافية وهكذا يصبح تحت الرقابة العلمانية ميدان فسيح للدراسات الخاصة باللغات التركية والفارسية والعربية والشعوب اليوغوسلافية أثناء الحكم التركى وفروع أخرى كثيرة من المعرفة الإسلامية كانت يوما ما فى نطاق المعاهد والهيئات الدينية.

٤- الجماعة الدينية الإسلامية فى البوسنة والهرسك منذ عام ١٨٧٨ الميلادى:

كانت الحقوق السلطانية على البوسنة والهرسك معترفًا بها للسلطان حتى سنة ١٩٠٨م، وهنالك ألحقت الولاية بالنمسا والمجر، وظل مركز البوسنة والهرسك، مع ذلك، غير واضح المعالم فى نطاق المملكة الثنائية. ومعظم السبب فى ذلك يرجع إلى الدستور الثنائى للنمسا والمجر.

وكانت البوسنة والهرسك من قبل الضم ومن بعده واقعتين تحت رقابة ثنائية تمارسها وزارة المالية فى حكومة النمسا والمجر، وكان لكل من الدولتين حقوق معينة فيما يختص بالسياسة الإدارية وإنشاء السكك الحديدية ومسائل خاصة بتجارة البلد وماليتها.

وكان نظام حكم النمسا والمجر فى البوسنة والهرسك بيروقراطيًا بوليسيًا طوال أيامه، وكان المسئول عن الحكومة حاكم عسكرى، وعدد الدوائر الحكومية أربع ثم سبع بعد ذلك. وعين للحاكم مساعد مدنى سنة ١٨٨٢ كان له الإشراف

الفعلى على الخدمة المدنية. وقسمت البلاد، من أجل الأغراض الإدارية، إلى ست دوائر وهي: بنالوقه، وبهاج، ومستر، وترافنيك، وسراييفو، وطوزله. وقسمت هذه إلى نواح (سرزأس) وإسبوستافات Ispostava (وهى أصغر الوحدات الإدارية). ولم ينفصل القضاء عن حكومة البلاد إلا فى سنة ١٩٠٦م. ومنحت البلاد بعد ضمها دستورًا فى سنة ١٩١٠م بمجلس نيابى (Sabor) مؤلف من اثنين وسبعين نائبًا وعشرين عضوًابالتعيين بحكم مناصبهم، وكان البعض من هؤلاء ممثلين دينيين، (فمن المسلمين رئيس العلماء ومدير إدارة الأوقاف وثلاثة مفتين، وكان البعض الآخر من كبار موظفى الدولة). وكان النواب ينتخبون لثلاث عشاير حسب مراتبهم. كانت الأولى منها منقسمة إلى طبقتين، ويتبع كبار أصحاب الأملاك المسلمين الأولى منها. وتقوم المراكز الانتخابية بتنظيم هذه العشائر على أساس ملِّى. وحصر الدستور سلطات المجلس إزاء الحكومة فى حدود ضيقة، وفرض فى نفس الوقت حدودًا كثيرة على سيادة الحكومة بالنسبة لوزارة المالية فى حكومة النمسا والمجر.

وفى سنة ١٩١٢ أعطى الحاكم سلطات إضافية خاصة بالخدمة المدنية. وأجل المجلس النيابى فلم ينعقد قط طول أيام الحرب العالمية الأولى.

وبالرغم من أن الحكومة النمسوية المجرية قد أدخلت نظامًا حديثًا فى الإدارة، ونمت الصناعة (التعدين وصناعات الخشب بوجه خاص) وأنشأت الطرق والسكك الحديدية وأقامت مدارس وبعض معاهد علمية، فإن هيكل المجتمع لم يطرأ عليه تغير من عدة وجوه. والحق إنه كان فى مكنة الحكومة النمسوية المجرية أن تكتسب إلى صفها بهذه الوسائل الجانب الأكبر من أشراف المسلمين، غير أن بقاء مسألة ملكية الأراضى الزراعية دون حل، أدى إلى ركود الزراعة وأثر تأثيرًا سيئًا فى الفلاحين وبخاصة الكمت (ومعظمهم من المسيحيين الأرثوذكس). ولم يقرب صدور قانون الاسترجاع الاختيارى للأرض فى سنة ١٩١١م من حل مشكلة الملكية العقارية، ولم ينتج عنه إلا تغييرات قليلة الأهمية فى العلاقات القائمة.

وقام ب. كالاى Kallay، وزير المالية فى المملكة الثنائية، وكان إلى ذلك مؤرخًا ذائع الصيت، بالدور الرئيسى فى توجيه سياسة النمسا والمجر فى البوسنة

والهرسك من سنة ١٨٨٢ إلى ١٩٠٢م. وقد حاول أن ينشئ أمة بوسنوية ولغة بوسنوية لكي يجعل للبوسنة والهرسك كيانًا مستقلا في داخل المملكة الثنائية، ويكبح من انتشار القومية الصربية الكرواتية. وعجزت تلك السياسة عن أن تستميل إليها من بين الأهلين عددًا كافيًا من المشايعين. فقد نما الوعي القومي عند الصرب والكرواب. وكانت الأغلبية المسلمة، التي لم تتضح لها بعد جنسية، تنظر إلى تركية على أنها الوطن الأم. هذا إلى أن كثيرًا من الأسر البوسنوية قد استقرت في تركية واتخذتها موطنا. وكان الزعماء المسلمون يلحون في إصرار على الحقوق السلطانية للسلطان العثماني على مسلمي البوسنة والهرسك. ولم يتبن العصبة البوسنوية غير فريق صغير من المستنيرين وأصحاب الأراضي المسلمين.

أما الحركة الصربية السياسية فقد جعلت همها الاكبر الوصول إلى الاستقلال الذاتي أمور في أمور الكنيسة والحرية في إدارة مدارس الطائفة. ووجدت الفكرة أنصاراً لها بين جموع كبيرة من السكان وجماعة المستنيرين الناشئة حديثًا، بيد أن الكازدا الصربيين (أصحاب الثروة) هم الذين اندفعوا إلى المقدمة وقادوا الحركة. وذلك لأن سخطهم كان عاماً بسبب تغلب المصالح المالية النمسوية المجرية ورأس المال التجاري على ما كانوا يمارسونه من الربا في أعمال التجارة. ونجحت الحركة في جهودها، ومنحوا استقلالا ذاتيًا في مسائل الدين والتعليم الديني.

وأخذت الريب تزداد في نفوس المسلمين من جراء أعمال أتت بها السلطات النمسوية المجرية. فلكي تتمكن الحكومة من الإشراف على المعاهد الدينية ابتدعت سنة ١٨٨٢م منصب "رئيس العلماء"، وهو الرئيس الديني الأعلى لمسلمي البوسنة والهرسك. وكذلك "علما مجلس"، أعلى هيئة دينية ذات سيادة، يرأسها رئيس العلماء ومعه أربعة أعضاء. وبلغ الأمر بهذا النظام إلى التحكم في حقوق ديوان الأوقاف. وسخط المسلمون وارتاعوا وقدموا التماسا للإمبراطور سنة ١٨٨٦م يرجونه فيه أن يمنحهم الاستقلال الذاتي في إدارة الأوقاف، وفي سنة ١٨٩٩م نشب صراع مرير بقيادة دجابيج مفتي مستر، لتحقيق الاستقلال الذاتي، دينيا وتربوياً لجميع مسلمي البوسنة والهرسك. وارتبط الصراع بالحركة الأرثوذكسية

(الصرب). وأصر دجابيج على طلب أكثر ما يمكن من الامتيازات ولكن آراء الأغلبية هزمته. وفى سنة ١٩٠٠ عرض على الوزير كالاى مسودة قانون للطائفة الدينية الإسلامية. أكدوا فيه تأكيدا خاصا الحقوق السلطانية للسلطان على مسلمى البوسنة والهرسك. وهو مبدأ لم تكن السلطات النمسوية المجرية مستعدة لقبوله، ولما غادر دجابيج مفتى مستر البوسنة والهرسك للمشاورة مع السلطان، منع من العودة إلى البوسنه والهرسك. وأخذت الحركة من سنة ١٩٠٦م فصاعدا شكلا أكثر تنظيما وتحديدا. وانتخبت لجنة تنفيذية من التنظيمات الشعبية الإسلامية يرأسها "على بك فردوس". وبينما اللجنة تناضل فى سبيل مصالح أصحاب الأملاك إذا بهم يدخلون فى نفس الوقت فى مفاوضات مع الحكومة من أجل الحكم الذاتى الدينى. وتلكأت المفاوضات لأن الحكومة النمسوية المجرية رفضت أن تعير أذنها لسماع أدنى تلويح بالحق السلطانى للسلطان على مسلمى البوسنة والهرسك. ووصلت المفاوضات بعد الانضمام إلى نتائج مرضية. عندما أجاز الإمبراطور القانون الخاص بحكومة مستقلة ذاتيًا للشئون الدينية لمسلمى البوسنة والهرسك (وقف معارف)، خولت فيه بموجبه السلطة الإدارية العليا فيما يتعلق بالأوقاف ورواتب المدارس والكليات إلى ديوان وقف معارف (سابور)، المكون من ثمانية أعضاء معينين بحكم وظائفهم وهم رئيس العلماء وستة مفتين ومدير ديوان الأوقاف، ومن أربعة وعشرين عضوًا تنتخبهم لجان ديوان الناحية. ورئيس السابور هو رئيس العلماء بحكم منصبه. وكانت لجنة "وقف معارف" هى الأداة الإدارية والتنفيذية معًا. وكانت لجان الناحية من الجماعات الأقل شأنًا فى ديوان "وقف معارك" وتنتخبها جمعيات الناحية، ومن بينها جمعيات و"جمعيات مجلس" ويتولى السلطة الدينية العليا "علما مجلس" ويتكون من أربعة أعضاء ويرأسه رئيس العلماء. ويكون انتخاب الرئيس وأعضاء مجلس العلماء عن طريق جماعة انتخابية منفصلة مكونة من ستة مفتين وأربعة وعشرين عضوًا منتخبًا. وتعرض الجماعة الانتخابية على الإمبراطور ثلاثة من المنتخبين المرشحين للرئاسة ويعين واحد منهم فى منصب الرئيس بمرسوم، ولا ينهض هذا بأعماله إلا بعد حصوله على إذن فى مباشرة واجباته الدينية من شيخ الإسلام بإستانبول. ويرسل الالتماس

الخاص بذلك الى استانبول عن طريق سفارة النمسا والمجر. وإذا شغر مكان فى مجلس العلماء عين فيه واحد - من قبل وزارة المالية - من اثنين من المنتخبين المرشحين. ولكل إدارة مفتيها الذى تختاره الحكومة من بين المرشحين الذين يعرضهم "علما مجلس". وتؤدى الميزانية البلدية مرتبات كبار الموظفين والمستخدمين الدينيين. وقد سوى القانون أيضا مسألة المدارس الطائفية للمسلمين وحقوق كبار الموظفين الدينيين فيما يختص بالقضاة الشرعيين.

وباندماج البوسنة والهرسك فى يوغوسلافيا برزت مسألة الطائفة الدينية الإسلامية مرة أخرى فى المقدمة. وفضلا عن ذلك فقد كان هناك مسلمون فى يوغوسلافيا خارج البوسنة والهرسك، وبقى قانون سنة ١٩٠٩م سارى المفعول. رغم ذلك، حتى سنة ١٩٣٠م. وكانت هناك منظمة دينية إسلامية قائمة بذاتها تضم الصرب ومقدونيا والجبل الأسود، وأصيب بعض ملاك الأراضى المسلمين من جراء تطبيق الإصلاح بأفدح مما أصيبت به الأوقاف فى البوسنة والهرسك، ذلك لأن أملاك الأوقاف كانت أرض بناء فى المدن أكثر منها أرض زراعة فى الريف. بيد أن اللامركزية فى إدارة الأوقاف فى البوسنة والهرسك والإدارة المالية المختلة. والتصرفات السيئة، كل هذا جر عليها النكبات.

وبعد إلغاء الحكم النيابى فى يوغوسلافيا نفذ فى سنة ١٩٣٠م قانون خاص بالطائفة الدينية الإسلامية ودستورها فى المملكة اليوغوسلافية. وهكذا اتحدت الطوائف الدينية الإسلامية المستقلة استقلالا ذاتيا من العهد السابق، تحت رئاسة رئيس واحد هو رئيس العلماء وجماعة عليا واحدة ذات سيادة مؤلفة من رئيس العلماء ورئيسين من "مجلس علما". ونقل كل من المقر الرسمى لرئيس العلماء ومركز ديوان الطائفة الدينية الإسلامية إلى بلغراد. ثم كان هناك فوق ذلك مجلسان للعلماء ومجلسان "لوقف معارف" بلجانهما الإدارية، وكانت مكاتبهما الرئيسية فى سراييفو وسكوبيه. وكان المفتون، وديوان ناحية "وقف معارف" برئاسة أحد قضاة الشريعة، "وجمعيات مجلس" برئاسة "جمعيت إمام" أدنى من ذلك سلطة.

ومن الممكن أن نرى معالم القانون والدستور فيما هو واقع من أن أغلبية المناصب كانت بالتعيين وأن منصب رئيس العلماء كانت له الصدارة فى مجلس العلماء. وكان رئيس العلماء، فى الواقع رأسًا ورمزًا لطائفة دينية إسلامية موحدة فى الدولة بينما كانت الإدارة ثنائية (سراييفو وسكوبيه)، وسنت قوانين خاصة لتنظيم انتخاب المرشحين لمنصب رئيس العلماء من بين أعضاء مجلس العماء والمفتين، وكان على الجماعة الانتخابية أن تختار ثلاثة مرشحين لمنصب الرياسة، يعين واحد منهم بأمر ملكى بتوصية من كل من وزير العدل ورئيس الوزراء. وكان تعيين أعضاء مجلس العلماء والمفتين كذلك بأوامر ملكية بتوصية من وزير العدل.

وبنفاذ القانون الجديد والدستور فى سنة ١٩٣٦م حدثت تغييرات لا تتعارض، مع ذلك، مع الوحدة التى يعبر عنها منصب الرئيس ولا مع ثنائية الجماعات الحاكمة الأخرى. وأصبحت الإدارات الرئيسية للطائفة الدينية الإسلامية هى ما يأتى جماعة مجلس، ومأمورية أوقاف الناحية، وعلما مجلس فى كل من سراييفو وسكوبيه (سابور)، مع لجان الجمعية، ودواوين الأوقاف، ورئيس العلماء مع من يختاره أو بكامل هيئة المجلس. وكان محل إقامة الرئيس فى سراييفو. واستغنى عن وظيفة المفتى. والميزة الأولى لهذه المنظمات هى فى تخير الجماعات الحاكمة وكبار موظفى الدولة. فلانتخاب أعضاء لمجلس العلماء كانت كل جمعية تختار جماعة انتخابية من عشرة أعضاء، وهذه بدورها تشكل جماعة انتخابية واحدة لانتخاب ثلاثة مرشحين للرئاسة. وكما كان يحدث سابقًا، يعين واحد من المرشحين للرئاسة. وكما كان يحدث سابقًا، يعين واحد من المرشحين (وهو فى الغالب من يحصل على أكثرية الأصوات) بأمر ملكى بناء على توصية من وزير العدل. وكان عن طريق هذا التنظيم أن أثبتت المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية – وهى الحزب الذى يتزعمه م. سباهو – وجودها فى الجماعة الدينية.

وفى يوغوسلافيا الجديدة صين مركز الجماعة الدينية الإسلامية وامتيازاتها بأحكام سنت فى الدستور وعدلت بقانون سنة ١٩٥٣ الخاص بالمركز الشرعى للطوائف الدينية المختلفة. وفصلت التنظيمات الدينية عن الدولة، واعتبر اعتناق

معتقدات دينية مسألة خاصة. وسمح للطوائف الدينية أن تدير مدارس لتخريج موظفين ومستخدمين دينيين، كما سمح للدولة أن تمد يد العون لهذه الطوائف الدينية.

وتدار سياسة الطائفة الدينية الإسلامية بموجب أحكام دستور الطائفة الإسلامية في جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية الشعبية، الذى سنته ونفذته الجمعية التشريعية العليا للأوقاف في سنة ١٩٤٧م. وأدخلت عليه منذ ذلك الوقت تعديلات وأضيفت إليه أخرى. واستكمل الدستور وحدة التنظيم الدينى للمسلمين. لا عن طريق منصب رئيس العلماء فحسب، بل عن طريق إنشاء الجمعية التشريعية العليا للأوقاف أيضا، التي رخصت في نفس الوقت من أجل البناء الاتحادى للدولة، بإنشاء مجالس علماء وجمعيات تشريعية للأوقاف كل على حدة في الجمهوريات الأربع التي يؤلف فيها المسلمون جانبًا عظيمًا من السكان. وتنتخب الجمعية التشريعية العليا للأوقاف كلا من رئيس العلماء والأعضاء الأربعة في الهيئة العليا.

اعتناق البوسنة الإسلام:

أ - قبل الفتح العثماني

وصلت حملات دولة الأغالبة - التي تحكم شمال أفريقيا في الفترة من ٨٠٠ - ٩٠٩م - إلى مصب نهر البوسنة من إيطاليا وإلى مصبه في بلاد السلاف.

كما أنّ النشاط البحري الإسلامي وصل في عام ٨٦٦م إلى ميناء "دوبرفنيك" من موانى البوسنه. ورد في كتاب ألف ليلة وليلة حيث جاء ما نصه "وهناك تجمع جيش روما كله ولحق به الفرنسيون والألمان وأهالي "دوبرفنيك" كما سجل التاريخ استخدام الخلفاء والأمراء في الدولة الإسلامية حرسًا من أبناء البوسنة والهرسك وغيرهم من السلاف والصقالبه.[1]

---

[1] د. رأفت الشيخ، المسلمون في العالم تاريخيا وجغرافيا. عن الدراسات والبحوث الإجتماعية القاهرة - ١٩٩٨ ص٢٢١.

ب- بعد الفتح العثماني

أن اعتناق شطر كبير من سكان البوسنة والهرسك للإسلام في عهد الأتراك العثمانيين يظل أهم ظواهر التاريخ البوسني الحديث أهمية وتميزًا. وقد نشأت أساطير كثيرة حول طريقة حدوث ذلك وأسبابه. ولامراء في أن خير مصدر للمعلومات هو "الدفاتر" العثمانية وهي سجلات الضرائب التي سجل فيها مالكو العقارات والتي تقسم الناس إلى فئات حسب أديانهم ويذكر نويل مالكوم في كتابه: البوسنة:[1] "إن هذه الدفاتر والبيانات يمكن عمل استيفاء للتفاصيل حول انتشار الإسلام في البوسنه، وتظهر أقدم الدفاتر (١٤٦٨ - ١٤٦٩) أن الإسلام كان محدود الانتشار في السنوات القليلة الأولى بعد الغزو، ولكن الدفتر التالي الذي حلل تحليلا وافياً، يغطي سنجقية البوسنة لعام ١٤٨٥ وهو يظهر أن الإسلام قد بدأ يحدث تقدمًا له ضخامته. فكانت هناك دور مسيحية عدتها ٣٠٣٥٢، ٤٢٩٢ من الأفراد المسيحيين بين عزاب وأرامل و٤١٣٤ دارًا مسلمة و١٤٦٠ من المسلمين العزاب.

"لو فرضنا وجود خمسة أفراد في كل دار لأعطانا ذلك ١٥٥٢٢١ مسيحيًا و٢١١٣٤ مسلمًا" وسجلت لنا دفاتر عشرينات القرن السادس عشر أرقاما كلية حول سنجقية البوسنه يشكل فيها المسيحيون ١٩٠٠٩٥ فردًا والمسلمون ٨٧٥٧٥ فردًا.[2] وما لبثت عملية اعتناق الإسلام أن زادت سرعتها تدريجيًا في الهرسك، إذ أن تعليقًا صدر عن أحد الرهبان الأرثوذكس بالهرسك في ١٥٠٩ وفيه يلاحظ أن كثيرًا من أفراد الشعب الأرثوذكس قد اعتنقوا الإسلام عن رضا وقبول.[3] وفي شمال البوسنه وشمالها الشرقي كانت انتشار الإسلام بطيئًا وكان إن تم يكون في مواكبة التوسع على حساب المجر. وما إن اكتمل الفتح في عشرينات القرن السادس عشر حتى انتشر الإسلام بصورة أسرع قليلًا. وكانت انتشار الإسلام في المدن أوسع منه في المناطق الريفية، وكان المسلمون يمثلون ثلث عدد السكان في شمال شرقي البوسنه في عام ١٥٣٣ ثم ارتفعت نسبتهم إلى ٤٠٪ سنة ١٥٤٨.[4]

---

[1] نويل مالكوم، البوسنة. ترجمة عبد العزيز جاويد. سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٢٧٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٧ ص ص٨٧ - ٨٨.

[2] المرجع السابق ص٨٨.

[3] المرجع السابق ص٨٨.

[4] المرجع السابق ص٨٩ وذلك نقلا عن:

Handgic Tuzla I nejena okolina u16. Vijeku. (Saraievo 1975) pp. 118 - 122, 136 - 142.

وقد استغرقت عملية تحول معظم سكان البوسنة إلى الإسلام الشطر الأعظم من مائة وخمسين سنة. وعلينا أن نرفض تماما فكرة جلب المسلمين فى جماعات كبيرة من خارج البوسنة وإسكانهم فيها: فرغم أن العثمانيين استجلبوا فعلا بعض الشعوب التركية إلى مناطق أخرى من البلقان، فإن الدفاتر تؤكد أن مثل هذه السياسة لم تطبق فى البوسنة أبدًا. وربما اختلط الأمر على قلة من زوار البوسنة من الأجانب عندما وصفوا مسلمى البوسنه أنفسهم أنهم "أتراك".

ولا شك أن بعض المسلمين من تجار وحرفيين وفرسان (سباهى) توافدوا للإقامة ببلاد البوسنة من الأجزاء الأخرى من الامبراطورية. ولكن نسبة ضخمة من هؤلاء الوافدين فى أخريات القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، كانوا سلافًا مسلمين من بلاد سلافيه أخرى.

وأيضًا فإن الإدعاء بأنه قد جرى تحويل جماعى للبوسنيين للإسلام فى السنوات الأولى للغزو العثمانى، إنما هو ادعاء واضح الزيف: فإن عملية التحويل للإسلام كانت بطيئة فى البداية فى أحيان كثيرة واستغرقت عدة أجيال.

كذلك تشير الدفاتر أيضًا إلى عدم وجود أدنى تعرض للمسيحيين الذين أصروا على التمسك بعقيدتهم، وكان من الأشياء الطبيعية لدى الناس، أن يصبحوا مسلمين ويتسموا بالأسماء الإسلامية، ومع ذلك يواصلون المعيشة مع بقية عائلاتهم المسيحية.[1] وتساعدنا هذه العادة على تفسير السبب الذى من أجله احتفظ مسلمو البوسنه بالطريقة السلافية للأسماء الملقبة بالآباء مثل: "فرهاد بن ايفان" أو "حسن بن ميهاليو".

وهناك أيضا نظرية خاطئة أخرى حول أسلمة البوسنه ما زالت شائعة، وأن تقوضت على يد البحث التاريخى منذ سنة ١٩٣٠ وما بعدها، وهى الإدعاء بأنه عندما فتح الأتراك البوسنة، اعتنقت هيئة النبلاء المحلية بأجمعها الإسلام بغية الاحتفاظ بمزارعها الإقطاعية. وقد شاعت هذه النظرية فى القرن التاسع عشر على يد

---

[1] المرجع السابق ص٩٠.

الفرنسيسكانى والوطنى السلافى يوكيتش (IVAN FRANJO JUKICH) الذى أصدر كتابا فى ١٨٥١ عن تاريخ البوسنه تحت اسم مستعار هو: "سلافوليوب بوشنياك" أى "البوسنى المحب للسلاف" وقد أكد فى كتابه هذا أثناء حديثه عن الارستقراطية المسلحة فى البوسنه":

"انهم نشئوا عن المسيحيين الفاسدين الذين تحولوا إلى مسلمين لأن التحول إلى الإسلام كان سبيلهم الوحيد للاحتفاظ بأراضيهم، واحتفظت لهم العقيدة الجديدة بممتلكاتهم وثروتهم وحررتهم من كل الضرائب والمدفوعات وأعطتهم تفويضًا كاملا للانغماس فى كل رذيلة واتيان كل شر وذلك من أجل أن يعيشوا كالسادة العظام دون بذل أى تعب أو جهد".[1] وذلك قول غير صحيح لا ينطبق على أى نبيل بوسنى استطاع فعلا أن يحتفظ بممتلكاته: فتحويل أرضه إلى مزرعة تيمارية، كان يفرض عليه أن يبقى شطرًا كبيرًا من السنة جنديًا فى الخدمة العسكرية العاملة.

كما أن الفكرة الشائعة القائلة بأن بعض الناس اعتنقوا الإسلام رغبة فى تحسين مركزهم الاقتصادى أو اجتماعى، أمر لا سبيل إلى انكاره، لأن هذه الاتجاهات النفعية موجودة بين كل البشر، ولا مفر من أن يكون هذا الدافع وراء اعتناق الكثيرين للإسلام. بيد أن الدافع الاقتصادى لا يمكن أن يكون هو المبرر الوحيد، كما تزعم إحدى النظريات التى ترى فيه محاولة لتجنب دفع الضرائب المقررة على غير المسلمين، وهى الجزية أو الخراج. وكانت هذه ضريبة سنوية ما لبثت أن أصبحت نوعًا من ضريبة الرأس التدريجية. ففى القرن السادس عشر كان معدل المدفوع أربع دوقيات للأغنياء واثنتين لمتوسط الحال ودوقيه واحدة[2] للفقير.

---

[1] المرجع ص ص٩٩ - ١٠٠ - نقلا عن
Andric, Development of spiritual life in Bosnia. P. 20.

[2] فى ذلك الوقت كانت دوقية البندقية تستطيع أن تشترى فى المتوسط ٢٠ كيلو جرامًا من القمح فى البندقية.

وربما زادت الضريبة فى أوقات الحرب، من أجل القيام بحملات على البندقية أو آل هابسبرج. ولكن قد يحدث فى بعض الأحيان أن الضرائب فرضت أيضًا على المسلمين أنفسهم.

أى أن الرغبة فى تجنب هذه الضريبة، لم تكن بالقوة التى تدفع المرء إلى التحول عن دينه الأصلى. ولا ينبغى أيضًا ألا ننسى أن المسلمين كانوا - على العكس من المسيحيين - يدفعون الزكاة أيضًا، وهى أحد أركان الإسلام. وكان بعض المسلمين عرضة للاستدعاء إلى أداء الخدمات العسكرية إما فى ميليشيات المدن أو كجنود فى الكتائب التى يرسلها "الفارس" فى حين أن المسيحيين كانوا عادة يعفون من أداء مثل هذه الواجبات فيما عدا مناطق الحدود. وهناك عاملين هامين: اجتماعى واقتصادى اسهما فى انتشار الإسلام بالبوسنه: وهما الرقيق ونمو المدن الإسلامية. وكان أخذ الرقيق فى الحرب - ولم يكونوا فقط مجرد جند من الأعداء بل ومن السكان المحليين أيضًا - سنة عثمانية مقررة. كما كان عادة تمارس على معيار أصغر عند الدول المسيحية أيضًا. فقد سبقت أعداد ضخمة من العبيد الأرقاء فى خضم حملات الترك على آل هابسبورج، ومتى أعتنق الأرقاء الإسلام كان فى إمكانهم التماس الحرية، ولذا فإن أولئك الأرقاء الذين اجتلبوا للبوسنه، وذلك بوجه خاص من الأراضى السلافية المحيطة وهى دالماشيا وكرواتيا وسلافونيا، أسهموا إسهامًا ضخمًا فى نمو عدد السكان المسلمين.

وكان من المتحمل لدى هؤلاء الأرقاء بعد تحولهم إلى الإسلام وعتقهم أن ينتهى بهم الأمر إلى السكنى فى المدن النامية التى كانت تتيح لهم فرصًا جديدة للعمل. ففى عام ١٥٢٨ كان هؤلاء الأرقاء المعتقين يشكلون ما يقارب ٨٪ من سكان سراييفو بأكملهم.

وغلب الطابع الإسلامى على معظم المدن الكبرى التى نمت واتسعت بأراضى البلقان العثمانية. وكانت تكتظ بالمعاهد الإسلامية والمبانى الإسلامية. ولكن المدن الكاثوليكية القديمة بالبوسنة مثل سربرينيكا وفوينيكا وأولفو بما حوت

من تجار راجوزيين وعمال مناجم من الألمان صمدت أمداً طويلا إزاء الاسلحة، ولكنها لبثت في النهاية أن تحولت إلى الإسلام.

وأخيرًا هناك عامل آخر لعب هو أيضًا دورًا في عملية أسلمة البوسنه وهو نزوح السلاف المعتنقين للإسلام آنفًا من خارج تخوم البوسنه إلى داخلها. ذلك أن بعض السلاف المسلمين قدموا في السنوات الأولى بوصفهم فرسانًا (سباهي) من صربيا ومقدونيا وبلغاريا. ولكن أعظم نزوح جاء في نهاية القرن السابع عشر. عندما اجتلب تقهقر العثمانيين، من المناطق التي طال احتلالهم لها بكل من دالماشيا وكرواتيا وسلافونيا والمجر، كثيرًا من السكان المسلمين إلى تلك المناطق. ولا شك أن بعض هذه العائلات كانت من أصل بوسني، حيث كان أجدادهم قد استقروا هناك بوصفهم فرسانا (سباهي) بعد الفتوح العثمانية. وموجات النزوح هذه أضافت أعدادًا غفيرة من السلاف المسلمين إلى سكان البوسنه.

تدمير البوسنه ١٩٩٢ - ١٩٩٣:

أعلن الحزب الشيوعي اليوغوسلافي في يناير ١٩٩٠ تخليه عن احتكار السلطة في البلاد، والسماح بإقامة نظام متعدد الأحزاب، ومن ثم أعلن برلمان جمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا الاستقلال في ٢٩ فبراير ١٩٩٢ اندلع الصراع بين الصرب من ناحية والكروات والمسلمين من ناحية ثانية. وتدخل الجيش الاتحادي بجانب الصرب من أجل تمكينهم من السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من أراضي البوسنه وفرض الأمر الواقع لحين التوصل إلى تسوية سياسية تأتي انعكاسًا لهذا الأمر الواقع، وأعلن صرب البوسنه دولتهم المستقلة في ابريل ١٩٩٢.

ويمكن إيجاز اسباب الصراع في البوسنه والهرسك في الآتي:

أ - الانقسام العرقي في هذه الجمهورية، حيث توجد ثلاث قوميات: المسلمون ويشكلون ٤٣,٧٪ من عدد سكان الجمهورية البالغ عددهم ٤,٣ مليون نسمة، ثم الصرب ويشكلون ٣١,٣٪ من السكان وأخيرًا الكروات ويشكلون نحو ١٧,٢٪ من السكان.

ب- تقاطع الانقسامات العرقية والقومية والدينية مع الخريطة الجغرافية، حيث لكل عرق، دين، قومية مناطق تركز خاصة بها، فضلا عن وجود مناطق أخرى مختلطة.

ح- توظيف الدين كعنصر من عناصر الصراع سواء كان الاختلاف دينيا اى مسلمون ضد مسيحيون ام مذهبى بين الارثوذكس (الصرب) والكاثوليك (الكروات).

د- ميراث العداء الشديد سواء بين الصرب وبين الكروات من ناحية أو بين الصرب والكروات والمسلمين من ناحية أخرى. إذ ينظر الصرب والكروات للمسلمين فى البوسنه وباقى مناطق يوغوسلافيا (مقدونيا وكوسوفو) على أنهم بقايا الاتراك او امتداد الدولة العثمانية هناك.

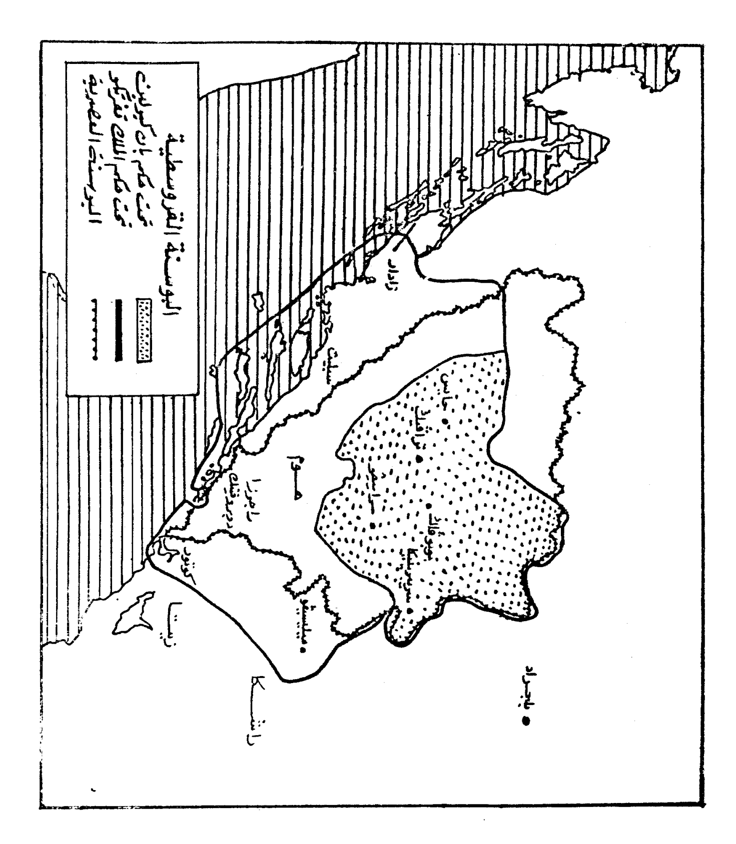
هـ - اندلاع الصراع فى البوسنه والهرسك سيؤدى إلى أن يدور داخل الجمهورية المحاطة بباقى جمهوريات الاتحاد اليوغوسلافى. وعليه يمكن أن تتدخل كل جمهورية لصالح امتداداتها فى البوسنة. فصربيا والجبل الاسود الى جانب صرب البوسنه وكرواتيا الى جانب كروات البوسنه. ويظل المسلمون دون سند خارجى لاستحالة تدخل تركيا أو أية قوى إسلامية قريبة من يوغوسلافيا، فهو أمر غير مسموح به أوربياً ودولياً. الأمر الذى يعنى أن أى صراع ينشب لابد وأن يأتى على حسابهم. ورغم تدخل عدة قوى إقليمية ودولية وهيئة الأمم المتحدة لإنهاء الصراع فى البوسنة والهرسك، إلا أن الحرب اشتدت وكان المسلمون هم الضحايا بسبب التعاطف الأوروبى مع الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك.

ففى الوقت الذى تم فيه تحجيم تركيا عن القيام بدور إلى جانب المسلمين فى البوسنه والهرسك خوفًا من إتهامها بتأييد الأصولية الإسلامية، ترك المجتمع الدولى لروسيا التحرك لتأييد الصرب وتسليحهم ومعارضة أية عقوبات دولية تفرض على الصرب.

وقد تعمدت محاولات انهاء الصراع فى البوسنه خاصة بعد أن نجح الصرب - صرب البوسنه - بمساعدة يوغوسلافيا الجديدة (صربيا والجبل الأسود) فى الاستيلاء على ٧٠٪ من مساحة أراضى البوسنه والهرسك، حتى تم التوصل الى مشروع اتفاق "دايتون" بالولايات المتحدة الأمريكية أواخر عام ١٩٩٥. والذى نص على إجراء انتخابات فى البوسنه فى موعد أقصاه ١٤ - ٩ - ١٩٩٦.[1]

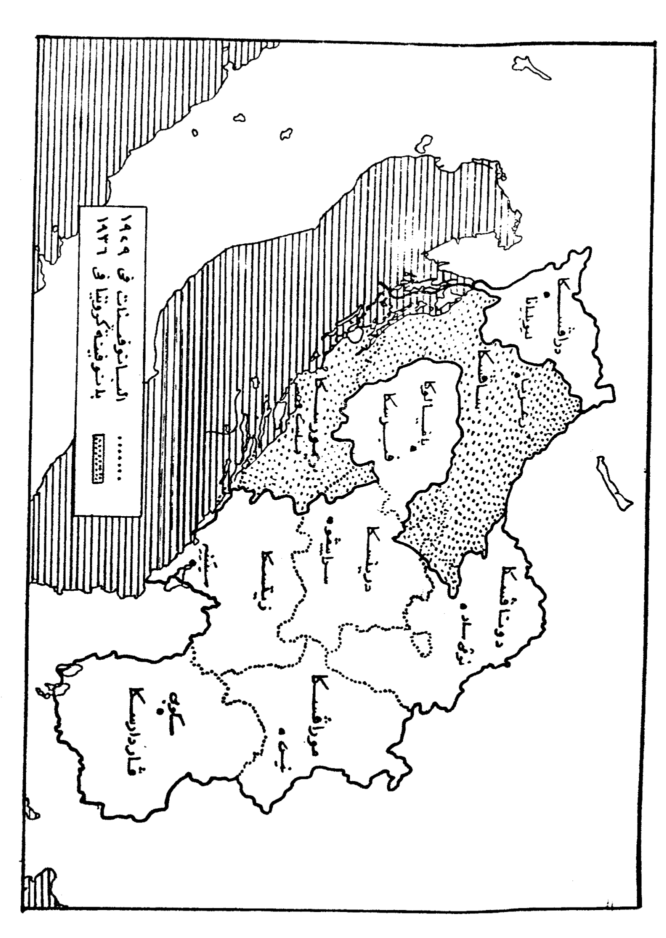
---

[1] راجع بالتفصيل: مجلة السياسة الدولية العدد ١١٣ يوليو ١٩٩٣ مقالة لسمير أمين: استغلال العرقية فى يوغوسلافيا، ولعماد جاد: أبعاد الصراع فى البوسنه والهرسك. وراجع أيضا: د. رأفت الشيخ. المسلمون فى العالم تاريخيا وجغرافيا ص ص ٢٢١ - ٢٢٤.



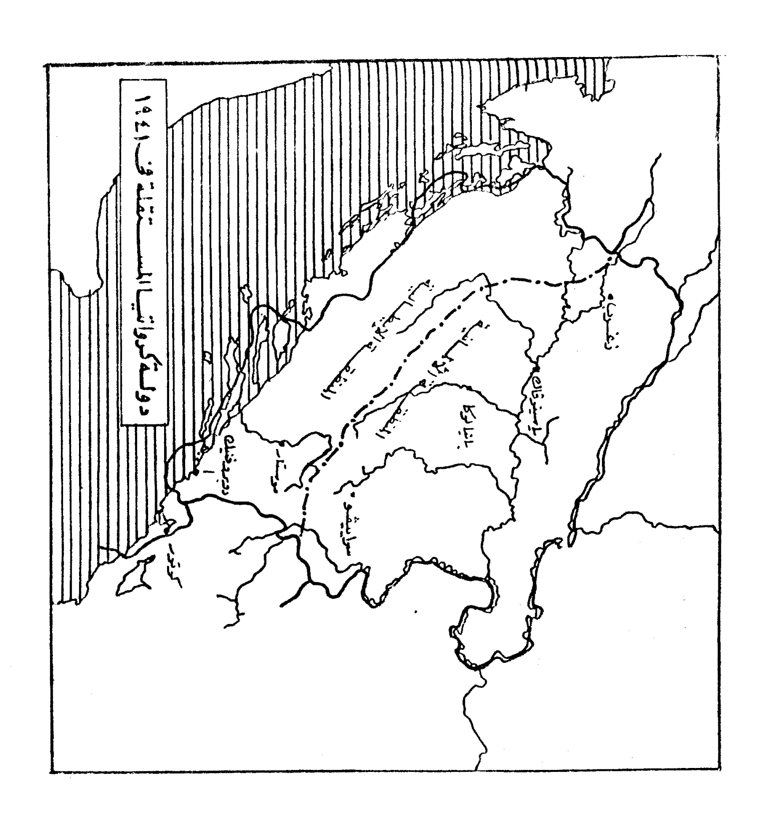
خريطة رقم (٩)

البوسنه القروسطيه



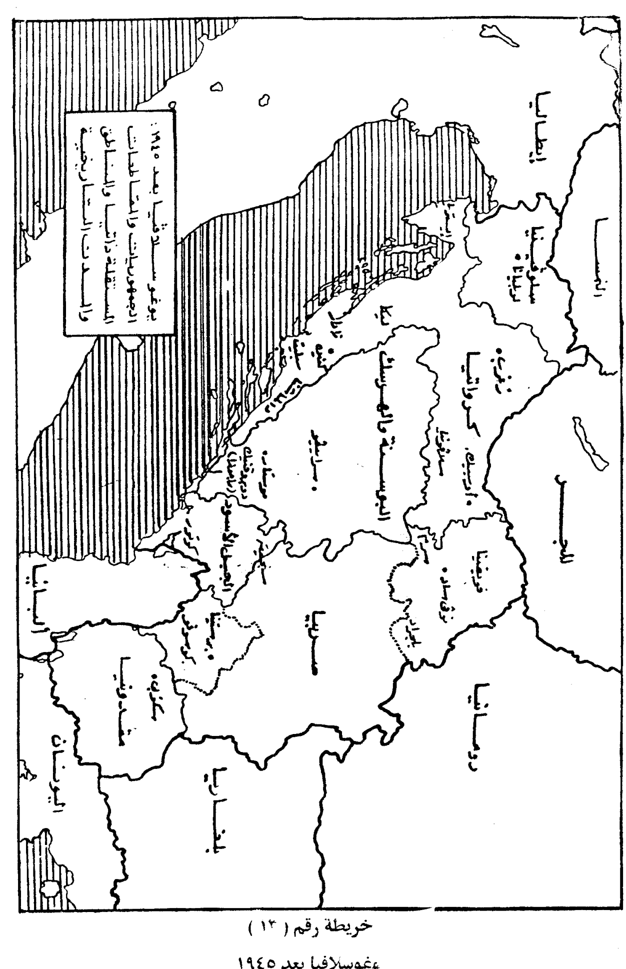
خريطة رقم (١١)

البوسنه والهرسك (١٩٢٩ - ٩٣٦



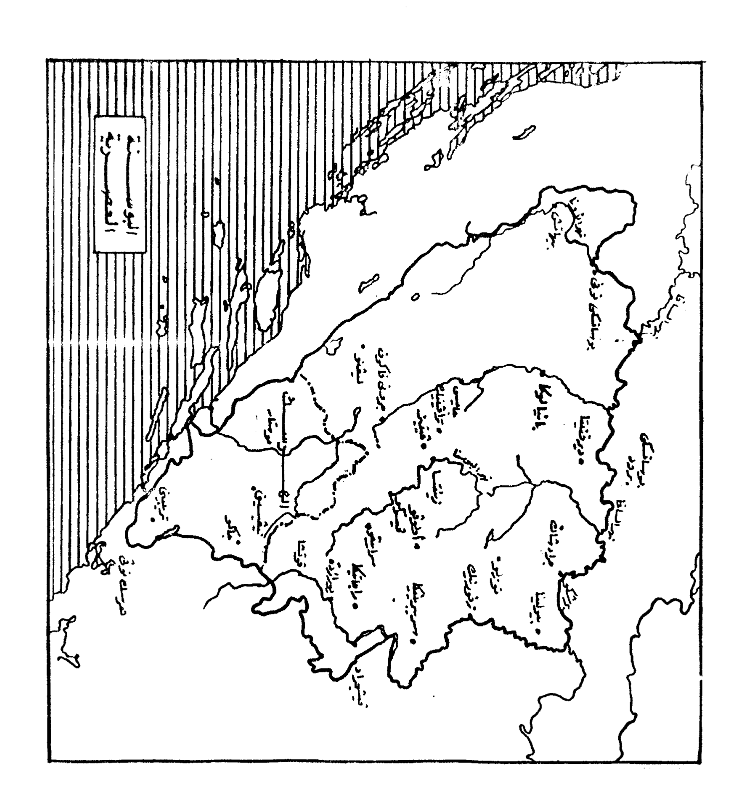
خريطة رقم (١٢)

دولة كرواتيا المستقلة فى ١٩٤١



خريطة رقم (١٣)

يوغوسلافيا بعد ١٩٤٥



خريطة رقم (١٤)

البوسه العصريه

ثـالثاً

المسلمون فى أفريقيا

مقـــدمـة

كان لدخول الإسلام فى القارة الإفريقية أثره الكبير فى تاريخها، ذلك أن العرب المسلمين الذين حملوا مشعل الإسلام وطبقوا تعاليمه السمحه من نبذ لنظرية تفوق الأجناس قال تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إنَ الله عليم خبير"[1]

وإنما انساب المسلمون بين الأفارقة فتزاوجوا واختلطوا وارتحلت القبائل العربية فى الصحراء الكبرى وربطت بين الأفارقة فى شمال القارة ووسطها وشرقها وغربها حتى أصبح تعداد المسلمين فى القارة الإفريقية يوازى ثلث سكان القارة.

ولقد وجد الإسلام فى القارة الإفريقية بيئة صالحة، فهو يمثل الآن قوة كبرى سواء من حيث العدد أو النشاط الثقافى والاقتصادى والإجتماعى. وإذا نظرنا إلى أسباب انتشار الإسلام فى إفريقيا نجدها متعددة، منها مكاتبات النبى ﷺ والخلفاء الراشدين وولاة وأمراء وملوك مصر وإفريقيا لملوك قارة أفريقيا من ملوك الحبش والبربر والسودان لدعوتهم ودعوة أقوامهم وشعوبهم إلى الإسلام.

وهجرة القبائل العربية المسلمة إلى الحبشة ومصر وحوض النيل وبلاد السودان الشرقى (البجه - النوبه - الحبش) وبلاد السودان الأوسط (الكانم - التكرور - تشاد) وبلاد السودان الغربى وجنوب شرق افريقيا. هذا علاوة على الفتوحات الإسلامية فى القارة الإفريقية، ومساهمة الإسلام فى مواجهة الاستعمار الأوروبى - الصليبى بشتى أنواعه.

كذلك كانت اقامة المدن الإسلامية بمثابة ركيزة لنشر الإسلام واللغة العربية فى الأقاليم التى تم فتحها ومن أمثلة هذه المدن نجد: (الفسطاط - القيروان - فاس - مراكش - كانو - الخرطوم - تمبكت - جاو - صنغى).

---

[1] الآية ١٣ من سورة الحجرات.

كما لعبت الطرق الصوفية أيضًا دوراً ريادياً فى نشر الإسلام، وتصحيح العقيدة بعد أن مارس السكان بعض العادات الوثنية التى اختلطت بالمثل والقيم الإسلامية، علاوة على جهادهم ضد الاستعمار الصليبى الأوروبى.

وكذلك دور الأزهر الشريف فى نشر الإسلام فى القارة الأفريقية، ودعم المراكز الإسلامية فى الصومال والسودان وجيبوتى والسنغال وجزر القمر وتشاد وليبيا واريتريا ونيجيريا وغانا. كذلك ساهمت الرباطات[1] فى شمال وغرب أفريقيا فى نشر الدين الإسلامى.[2] والإسلام فى أفريقيا المدارية، يطلق عليهم البعض "المسلمين السود" أو "المسلمين البانتو" أو "الإسلام المدارى" كما يسميهم الكتاب الأوربيون. ويتوزع هذا النطاق أساساً بين غرب أفريقيا فى الدرجة الأولى ومشرقها فى المحل الثانى.

ففى غرب أفريقيا يستوعب الإسلام دول الصحراء والسفانا فى الشمال: تشاد والنيجر ومالى وموريتانيا والسنغال وغمبيا. وصف دول السفانا والغابة فى الجنوب. ففى الأولى كأغلبية مطلقة لا تقل عن ٩٠٪ وفى الثانية كأقلية هامة باستثناء غينيا التى يسودها الإسلام. ففى الكاميرون مثلا نصف مليون مسلم وفى فولتا العليا يؤلف المسلمون من طوارق وفولا وديولا نحو ٦٠٠ ألف، وفى غينيا "الصغرى" البرتغالية يجتمع الماندنجو والفولا ١٧٢ ألفًا وثمة فى ليبريا جماعات المانتان الشديدة التمسك بالإسلام، وفى بقية السفانا والغابة ابتداء من سيراليون حتى جمهورية أفريقيا الوسطى بل وحتى جنوب السودان تسود الوثنية ولكن المسلمين كثيرون، كما أنّ

---

[1] جمع رباط وهى عبارة عن ثكنات عسكرية لحراسة الثغور الإسلامية وحمايتها من الروم فى البحر المتوسط. ثم تطورت وظيفتها بعد ذلك لتصبح مراكز متنوعة الوظائف حيث اتخذها العلماء مقاراً لتقديم كافة الخدمات مثل مستشفيات لعلاج المرضى ودار لراحة المسافرين بين الأمصار الإسلامية، ومدرسة يلقى فيها المرابطون دروسهم ومعمل لصناعة الحبر والرق والورق. وداراً لنسخ المصاحف الشريفة وكتب الحديث والفقه.

[2] د. رأفت الشيخ، المسلمون فى العالم تاريخيا وجغرافيا. ص ص١٦٨ - ١٦٩.

بالكونغو نحو ١٠٠ ألف مسلم (هذه الأرقام فى أوائل الستينات) ولكن نيجيريا بلا شك أهم جزيرة اسلامية فى افريقيا السوداء. وفى عام ١٩٦٣ [illegible] اتى اول احصاء بعد الاستقلال بمجموع ٥٥.٥ مليون نسمة.

وفى غرب أفريقيا اشتدت حركة الجهاد الإسلامى فى العصر الحديث. وبرزت زعامات إسلامية قادت حركة التحرير من جهة ونشر الدعوة الإسلامية من جهة أخرى. فنجد على سبيل المثال: الشيخ عثمان بن فودى يجاهد فى سبيل محاربة البدع وإقامة دولة الخلافة فى سوكوتو فى القرن التاسع عشر. وانتشار الإسلام فى مناطق كثيرة غرب القارة، وقيام دول إسلامية على أنقاض الامارات مثل: دولة مالى التى ساهمت بنصيب كبير فى نشر الدعوة الإسلامية خصوصا عندما ذهب ملوكها إلى اداء فريضة الحج فى مكة، وعادوا حاملين لواء الدعوة ومنهم السلطان منسى موسى (١٣٠٧ – ١٣٣٢م). والمجاهد التيجانى[1] الحاج عمر الفونى التكرورى (١٧٩٥ – ١٨٦٤) الذى سعى لتكوين امبراطورية على أنقاض الإمارات الوثنية فى حوض السنغال (امبراطورية التوكلور).[2] أيضًا جهاد الشيخ محمد الأمين فى منطقة سانجامبيا واتسم جهاده بالعنف والصلابة وقصر المدة التى لم تتجاوز العامين ولكنها كانت عميقة فى مغزاها وقوية فى آثارها (١٨٨٥ – ١٨٨٧).[3]

---

[1] الطريقة التيجانية – أسسها الشيخ أحمد التيجانى فى القاهرة (١٧٣٧ – ١٨١٥) وكان أصلا أحد أعضاء الطريقة الخلواتية، ثم غادر الشيخ التيجانى القاهرة إلى شمال أفريقيا حيث أقام أول زاوية له فى قرية أم ماضى التى صارت مقر الطريقة الجديدة ومنها انتشرت الطريقة إلى السودان الغربى والسنغال وموريتانيا. ويرجع الفضل فى انتشار هذه الطريقة إلى جهود الشيخ محمد الحافظ بن مختار الحبيب وهو أحد أتباع الشيخ أحمد التيجانى.

[2] د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، المرجع السابق ص ص٧٩ – ١١٧.

[3] اختلفت الآراء بين المؤرخين حول اتباع الشيخ محمد الأمين الطريقة الوهابيه أو السنوسيه أو التيجانيه. المرجع السابق ص١٢٤.

كذلك يعد رابح فضل الله من الزعماء المسلمين الذين كان لهم الدور الفعال فى نشر الحضارة الإسلامية فى وسط أفريقيا وغربها بالإضافة إلى مقاومة الاستعمار الأوروبى فى سبع سنوات فى مرحلة التكالب على القارة الأفريقية. واتخذ هذا المجاهد الإسلامى من منطقة بحيرة تشاد مقرا له، وقاوم الفرنسيين وأعوانهم.

وفى شرق أفريقيا نجد للإسلام وزن سياسى خاص. فقد تميزت حركة الجهاد الإسلامى ضد القوى المسيحية هناك بقوة المقاومة وصلابتها بالمقارنة بحركات المقاومة والجهاد الإسلامى فى بقية أجزاء القارة الأفريقية. ذلك أن هذه المنطقة عرفت الإسلام قبل غيرها، فكان العرب أقدم الأجناس وصولا للساحل الشرقى للقارة الأفريقية، وكان لعرب شبه الجزيرة وخاصة الوافدين من اليمن وعمان السبق فى هذا المجال. وتغلب الجانب الإقتصادى فى فترة ما قبل الإسلام وساعد ظهور الإسلام فى مكة على تقوية الصلات بينها وبين شرق أفريقيا وغذاها بعناصر جديدة من المهاجرين والتجار الحاملين للدعوة، كهجرة المسلمين الأوائل مرتين للحبشة ثم توالت الهجرات بعد ذلك وتعددت أسبابها وأماكن استقرارها على الساحل الأفريقى. وصارت منطقة شرق أفريقيا وبلاد الصومال مسرحًا لحركة صليبية ضخمة، ليست نابعة من داخل الحبشة فحسب، بل جاءت نتيجة التحام القوى الأوروبية التى راحت تتعقب المسلمين بعد طردهم من الأندلس ومحاولات تعقبهم فى شمال أفريقيا والاتصال بملك الحبشة "برسترجون" PRESTER JOHN بقصد الأطباق على المسلمين من كل جانب للقضاء على ثرواتهم بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.[1]

وتزعم حركة الجهاد ضد هذه القوى المسيحية التى شاركت فيها البرتغال مع الأحباش الإمام الغازى أحمد بن إبراهيم (أو أحمد القرين) الذى كان لجهاده أثر كبير فى نشر الإسلام فى شرق القارة الأفريقية. وظل الصراع قائمًا بين المسلمين والمسيحيين فى الصومال والحبشة واتخذ شكلا صليبيًا للتوسع على حساب الشعوب المجاورة، وحظى امبراطور الحبشة (منليك الثانى) بدعم القوى المسيحية له، فراح

---

[1] راجع للمؤلف كتاب: فضل المسلمين فى كشف الطريق البحـرى للـهند (١٤١٥ - ١٤٩٨) ص ص٤٣ - ٤٨.

يتوسع على حساب جيرانه من الصوماليين وفى الرابع الأخير من القرن التاسع عشر. صار القرن الإفريقى هدفاً للقوى الاستعمارية خصوصاً بعد انسحاب مصر من الصومال وشرق افريقيا، واعتبار هذه المنطقة أرضاً لا صاحب لها. وبدأ التنافس بين القوى الاستعمارية من أجل تقسيم أملاك الصوماليين بين الإيطاليين والانجليز والفرنسيين. واستفاد الأحباش من عمليات التقسيم، فتوسعوا على حساب جيرانهم طبقًا لقرارات مؤتمر برلين لعام ١٨٨٥/٨٤.(١)

وفى هذه المنطقة الهامة من أفريقيا تظهر شخصية الزعيم والمناضل المسلم السيد محمد عبد الله حسن الذى قاد جهاد المسلمين وجنود الموحدين ضد قوى المستعمرين من الأحباش والإيطاليين والبريطانيين. وفى شرق أفريقيا ظهرت سلطنات وممالك، كما ظهرت مدن الساحل الشرقى لأفريقيا مثل "مالندى" و"ممباسا" وكيلوا وسوفالا وموزمبيق التى خضعت لأمراء من المسلمين الذين لهم الفضل فى جعل حياة الأفارقة الشرقيين أكثر تقدمًا ورقيًا من سكان غرب أفريقيا. وهذه المدن الإسلامية هى التى تعرضت وعانت من هجمات البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر.

وهناك قامت الدولة الإسلامية فى زنجبار على عهد السيد سعيد بن سلطان حاكم مسقط وعمان فى أوائل القرن التاسع عشر، وقد لعبت تلك الدولة دورًا مهمًا فى نشر المدنية العربية الإسلامية لا فى شرق أفريقيا فحسب وإنما فى حوض نهر الكونغو وفيما يعرف بجنوب غرب أفريقيا، حيث قامت رحلات وهجرات للملسمين من شرق القارة إلى غربها شجعها السلطان سعيد بنفسه. ولعلنا نتذكر كذلك الدور الذى قامت به مصر فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) فى نشر الثقافة العربية الإسلامية فى جنوب السودان وأوغنده وساحل الصومال.

وبالنسبة لوسط وجنوب القارة الأفريقية، نجد أن وسط القارة قد جاءته هجرات بشرية متباينة مثل: البربر والطوارق من الشمال، ثم العرب والبربر بعد فجر الإسلام ومعهم الثقافة الإسلامية واللغة العربية، ومن الجنوب جاء إليها الأفارقة الزنوج ومعهم الثقافات والمعتقدات الأفريقية، ومن الغرب نزح إليها الطوارق والفولانى، ومن

---

(١) Crowe, S.E.: The Berlin West African Conference, (1884 - 1885) London 1942.

الشرق وصلت إليها الشعوب النيلية والنوبيين فى فترات متقطعة. وقد ادى ذلك الى تفاعل الثقافات والحضارات.

أما فى جنوب القارة فقد أدت ظروف الاستعمار القديم فى الشرق الاقصى خلال القرن السابع عشر، إلى قيام هولندا بنفى أعداد كبيرة من زعماء مسلمى ماليزيا وأندونيسيا الى أبعد نقطة فى الجنوب الافريقى حيث منطقة الكاب تاون.

ولما وقعت المنطقة فى أيدى الاستعمار البريطانى خلال القرن التاسع عشر، رأت فى ستينات هذا القرن أن تهجر الهنود إلى إقليم ناتال ليقوموا بزراعة القطن والقصب بعدما استعصى عليها إجبار الزولو على ذلك، وكان نسبة من العمال الهنود من المسلمين. كما توافد كثير من التجار المسلمين إلى جنوب أفريقيا بعد ذلك. وهكذا يكون المجتمع الإسلامى من الماليزيين فى الكيب والهنود فى ناتال. وقد عانى هؤلاء من سوء الحكم الهولندى ثم البريطانى.

وأخيراً علينا أن نشير إلى جانب هام كان له أثره الخطير على مستقبل القارة الأفريقية، سهّل لجحافل الجيوش الاستعمارية الأوروبية وأساطيلها أن تتدفق منه لتضع يدها على القارة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ألا وهى "قناة السويس". فإذا كانت أفريقيا غداة افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية (١٨٦٩) ما تزال ملكاً للأفريقيين، فقد كانت تسعة أعشار أراضى القارة تحكم بطريقة او بأخرى بمعرفة الأفريقيين، إلا أنه بعد ثلاثين عامًا من افتتاح القناة للملاحة العالمية، انقلبت هذه النسبة وأصبحت معظم أجزاء القارة نهباً للاستعمار الأوروبى والذى تصدت له الشعوب الإسلامية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.[١]

وسوف نقوم بدراسة المسلمين فى ارتريا والمسلمين فى جنوب الصحراء الكبرى فقط بالنسبة لقارة أفريقيا.

---

[١] لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، راجع للمؤلف كتاب: قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوروبى. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. سلسلة تاريخ المصريين العدد رقم ٨٠ سنه١٩٩٥. ص ص٣٢٣ - ٣٩٣.

الفصل العاشر

المسلمون فى اريتريا

وفى جنوب الصحراء الكبرى



أولا: المسلمون فى اريتريا:

تشبه اريتيريا من الشمال والغرب مثلث الزوايا، وهى ذات موقع استراتيجى هام على الساحل الغربى للبحر الأحمر، فيبلغ طول الساحل الأريترى نحو ألف كيلو متر ويبتدئ من رأس قصار فى الحدود السودانية شمالا وينتهى عند باب المندب فى رأس ارحتيا فى الصومال جنوبًا المسمى بساحل عفار وعيسى وفيه عدد من المراسى الطبيعية مثل مرسى تكلاى ومرسى قبع ومرسى كبكب ومرسى فاطمة ومرسى بيلول والمجال كبير فى التوسع فى صناعة صيد الأسماك. وتتبع اريتريا ١٢٦م جزيرة، أكبرها جزيرة (دهلك كبير) ويعتقد وجود بترول فيها.

واريتريا هى أولى مستعمرات إيطاليا، وميناء عصب على ساحلها قد تم شراؤه عام ١٨٦٩ بمعرفة الأب سابيتو Sapeto[١] ضمن بعثة لازاريست على يد شركة "فلوريو روباتينو. وفى عام ١٨٨٢ تنازلت الشركة الإيطالية عن حقوقها للحكومة الإيطالية.[٢]

وقد كان لافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية (نوفمبر ١٨٦٩) أثره فى فتح المجال للشركات الملاحية الإيطالية وللاستعمار الإيطالى لإنشاء مستعمراتها فى عصب لخلق محطة بحرية لها قيمتها بين أوروبا والشرق الأقصى ولإنشاء مركز تجارى تنطلق به إلى قلب القارة الأفريقية.[٣]

والجدير بالذكر أن التنافس الاستعمارى الأوروبى للحصول على مراكز بحرية وقواعد استعمارية بمعرفة كل من. بريطانيا وفرنسا وإيطاليا فى عدن واوبوك وعصب، أصبحت رؤوس جسور للانقضاض منها للداخل إلى القطاع الشرقى للقارة الأفريقية.

---

[١] من أبرز رجال التبشير والمستشرقين الإيطاليين (١٨١١ - ١٨٩٥).

[2] Rowan - Robinson., England, Italy, Abyssina. London. 1935. P. 67.

[٣] حول دور قناة السويس فى فتح الباب للشركات الملاحية الأوروبية - راجع للمؤلف كتاب: الصراع الولى حول استغلال قناة السويس (١٨٦٩ - ١٨٨٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٥. ص ص٩٤ - ٩٥.

السكـــــان:

تـأثر الـتركيب الجنـس الزنجـي ولاسـيما علـى طـول الحـزام الصحـراوى الأفريقى الذى يمتد ما بين أراضى اريتريا المطلة على البحر الأحمر وأراضـى حتـى مـالى والسنغال حتـى الميحط الأطلسـى فعلـى طـول هـذا النطـاق اختلطـت الدمـاء العربية الحامية بالدماء الزنجية التى امتدت جنوبًا مع الزحف العربـى. وانتشر الديـن الإسلامى بين غالبية السكان كما انتشرت اللغة العربية وذلـك علـى شكـل يتمثـل فـى انتشار طرق القوافل التى تربط أفريقيا الزنجية وحوض البحر المتوسط ومـن أشـهرها الطريق السودانى المصرى الذى كان يبدأ من أراضى الحبشة إلى جوبا فى الجنوب السودانى ومنها إلى الملكال على النيل الأبيض ثم يمتد الطريق مستخدمًا مياه النيل حتى الخرطوم.[1]

ويمكن تقسيم سكان اريتريا ثلاثة أقسام: بدو – حضر – وبين بين (خليط مـن هذا وذاك) وقـد تكـون فـى القبيلـة طائفـة مـن البـدو وأخـرى مـن الحضـر وثالثـة بـين أولئك وهؤلاء. ومعظـم سـكان اريتريـا مـن الجنـس الحـامى الـذى كـان يظهـر بـأوضح مميزاته وخصائصه أيام الحضارة المصرية القديمة فى بقاع متعددة من المنطقة التـى كانت تكون المستعمرة الإيطالية.

والعنصر الغـالب هـم الأحبـاش الذيـن يسكنون الهضبـة، وهـم عـين التكرينـه الذين يعيشون فى الجانب الآخر من حدود الدولة الأثيوبية. وأحباش هـذه المنطقة لديهم ثقافة تقوم على نظام أبوى حسـن وجميعهم مـن الرعـاة والمزارعين ويكونـون جماعات مستقرة فى القرى يجاور بعضها بعضًا فى العادة.

وهنـاك أيضًا جماعتـان مـن المزارعين المستقرين تعيشـان فـى القرى همـا: الكونامه والداريه، وهم يمتزجون بعض الامـتزاج بـأهل السـودان. ومـع أن الأحبـاش من النصارى فـإن الداريـه والكونامـه وثنيـون. أمـا بـاقى سـكان اريتريـا فمعظمـهم مّـن

---

[1] د. محمد إبراهيم حسن، جغرافية أفريقيا وحوض النيل. مركز اســـكندرية للكتـــاب. اسكندرية ١٩٩٧ ص ص٥١٩ – ٥٢٠.

البدو والقبائل التى تعيش على الرعى، كما أن غالبيتهم تدين بالإسلام، وبالأخص بنى عامر وهم خليط من أجناس متعددة، وكانوا يعيشون على تربية الماشية. ويقسمون حياتهم بين الجبل والبحر، ثم الهبب وغيرها من القبائل المتحالفة التى تعيش بين بنى عامر والبحر، وهم من الرعاة الرحل، ثم قبائل: المنسيه والماريـة والسبدرات والتورها والهاسو والدناقل والدهلكى وغيرها. وكل هذه القبائل قديمة أتت فى الأصل من مرتفعات إثيوبيه، ولكنها اختلطت بالمصريين واليونان من المستعمرين الذين دخلوا البلاد عن طريق البحر. والبيلانى الذين يقطنون وداى تشرن يكونون جزءا هامًا من هذه الأقوام، وهم منقسمون إلى: أقباط وكثالكه ومسلمين، ولا يعيشون عيشة البداوة التى تحياها القبائل السابقة ..

وتجاور قبائل البت تاكويه والبكينه والمنسة: قبيلة البيلانى. أما الأساورته والمنيفرى والهاسو فهى قبائل بدوية ترعى الماشية وتهتم بعض الاهتمام بالزراعة وتدين بالإسلام.

وبلغ عدد سكان مستعمرة اريتريا الإيطالية – وفق تعداد (عام ١٩٠٥) – ٢٧٤,٩٤٤ نسمة منهم ١٥٢,١٧٧ نسمة من المسلمين و١٠٢,٨٥٣ من القبط و١٢,٦٣٢ من الوثنيين و٧,٢٥٥ من الكثالكه و٢٩٧ من البروتستانت. ولا تشمل هذه الأرقام السكان البيض ولا جماعات الدناكل الذين يعيشون داخل الحدود التى عينت عام ١٩٠٨م. ويشكل المسلمون الآن حوالى ٧٨٪ من إجمالى عدد السكان البالغ عددهم حوالى ٤ مليون نسمة ينتمون عرقياً للتيجراى مع المسيحيين والمجموعات القبلية واللغوية الأخرى التى تبغ ٩ مجموعات.

والإسلام هو أسرع هذه الأديان إلى نفوس الناس وأكثرها انتشارًا.

وتعيش الغالبية من المسلمين الارتريين فى الأقاليم الشرقية والغربية والشمالية. ويتركز النصارى والجيرت فى الهضاب الوسطى المكتظة بالسكان ويتحدثون بالتكرينيه. وأن الغالبية الغالبة من المسلمين – سواء أكانوا من المقيمين أم من البدو الظاعنين – يعيشون فى الأغوار المتناثرة السكان ويتكلمون "التكره" والعربية فى نطاق محدود جدًا. وهم سلالة البجه وغيرها من القبائل الكوشيه

والمهاجرين اليمنيين الأولين، وبنو عامر هم أكبر حلف قبلي. ويشغلون جزءا كبيرًا من غربى اريتريا ويعترفون بالزعامة الدينية للأسرة الميرغنيه. وفى التلال الشمالية يكوّن الهبب والآدتكلس والآدتمريام حلف بيت أسكده القبلي. ويزعمون أنهم سلالة أسرة مكية، ولكن معظم هذه الذكريات القبلية لا يمكن إثباتها. ويعيش الساهو على طول المنحدر وسفوح التلال المؤدية إلى حلف الدناقل القبلي الذى يعيش فى الغور القاحل المترامى الأطراف وراء ساحل البحر الأحمر. وهو من أشد بقاع العالم حرارة وإمحالا. أما سكان ثغر مصوع (واركيكو وعصب) فمشاع بين الأجناس وتشمل أفراد قبائل من التلال، ودناقل، وسودانيين وعرباً وهنوداً وجماعات من أصل تركى. والموحد بينهم هو الإسلام. وكان سكان جزائر دهلك القائمة تجاه ساحل مصوع من أوائل أهل شرقى أفريقيا الذين دخلوا فى الإسلام، وتكشف كثير من شواهد القبور التى عليها نقوش بالحروف الكوفيه عن هذه الصلة الإسلامية القديمة.

وتاريخ اريتريا متشابك كل التشابك مع تاريخ أثيوبيا وجنوبى جزيرة العرب من ناحية ومع السودان من ناحية أخرى. وقد استقر مهاجرو جنوبى بلاد العرب على طول ذلك الجزء من الساحل الغربى للبحر الأحمر - الذى يعرف الآن باريتريا. ومن هناك توغلوا بعد فى الداخل وأقاموا مملكة أكسوم التى تركت آثارًا كثيرة جدًا فى تربة أريتريا. ثم أصبحت اريتريا من بعد القاعدة التى مدت منها مملكة أكسوم سيادتها على شقة عريضة من ساحل جنوبى غربى جزيرة العرب.

وكان هناك أيضًا السبيل الكبير الذى تدفقت منه أسباب الاحتكاك العدائية والثقافية بمروة وحضارتها، وأصبحت اريتريا بحكم كونها الولاية البحرية التقليدية لإثيوبيا ومنفذها الوحيد إلى البحر، مكان وثوب يشن منه المسلمون هجومهم الذى أدى إلى نشوب صراع استمر قرونًا، ويتخذ منه البرتغاليون قاعدة للتحرير من هذه السيطرة العربية. وفى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) كانت مصوّع وأركيكو القاعدة التى حاول منها الأتراك أن يغزوا الهضبة المسيحية (وهو حادث بقى ماثلا فى لقب "نائب" أركيكو، وممثل السلطان العثمانى). وقد حارب المصريون مراراً فى القرن التاسع عشر ليقيموا لأنفسهم موطئ قدم ثابت فى إريتريا حتى أنزل

بهم الإمبراطور يوحنا هزيمة حاسمة بالقرب من كورة سنة ١٨٧٦. وقد شن السير روبرت نابير Sir Robert Napier حملته الناجحة على تيودور (سنة ١٨٦٧ - ١٨٦٨) من خليج زولا. وكون الإيطاليون جاهدين مستعمرتهم من تلك الأجزاء من الولاية البحرية التي كان الإمبراطور منليك الثاني الشوهي، على خلاف سلفه يوحنا التكرى، عاجزًا عن القتال في سبيلها أو غير راغب فيه. وقد أنفذ الإيطاليون جيوشهم من إريتريا إلى إثيوبيا مرتين في أربعين عامًا، حتى طردوا منها آخر الامر اثناء الحرب العالمية الثانية. ومن سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٥٢ تولت أمر اريتريا ادارة بريطانية عسكرية، وهي فترة تجلت أثناءها من أول الأمر الأطماع الإسلامية والمسيحية. وكان ثمة خطة ترمي إلى التخلص من إريتريا بوصفها وحدة سياسية مصطنعة فيدمج غربها الإسلامي في السودان والوسط المسيحي في اثيوبيا. غير أن هذه الخطة انهارت آخر الأمر حين قررت هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٠ جعل إريتريا وحدة فدرالية مستقلة استقلالا ذاتيًا تحت سيادة التاج الإثيوبي. وهذه التسوية القلقة أدت شيئًا فشيئًا إلى امتصاص إثيوبيا الكامل لإريتريا، ذلك أن أية ضمانات دستورية كانت خليقة أن تعجز عن صيانة كيانها الاقتصادي أو السياسي. وتتمتع الأقلية الإسلامية الكبيرة بحرية معقولة من التعبير الديني والسياسي في الإمبراطورية المسيحية. ونفذ قرار الأمم المتحدة سنة ١٩٥٢. ثم بعد ذلك أخذت إثيوبيا تلغي بنود الاتحاد تدريجياً وسيطرت على مرافق الاقتصاد الاريتري. وفي عام ١٩٦٢ ألغي الاتحاد وأصبحت اريتريا ولاية أثيوبية دون أن تدخل من الأمم المتحدة. ودخلت اريتريا في ضمور اقتصادي.

ولكن المقاومة الشعبية الاريترية بدأت تنمو تدريجيا، ولا سيما بعد سقوط الامبراطورية وظهور الحكم العسكري في أثيوبيا عام ١٩٧٤م كرد فعل للثورة في اريتريا وتردي الأوضاع الاقتصادية وضعف النظام وانتشار الفوضى في البلاد. واستمر الصراع إلى أن نالت اريتريا استقلالها في أبريل ١٩٩٣.

ونتيجة للنشاط الصهيوني والأمريكي في القرن الأفريقي، نجد أن رئيس اريتريا أفورقي قد اقام علاقات طيبه مع إسرائيل، وأخذ أفورقي بلاده بتوجهات نحو

القارة الأفريقية بعيدة عن العروبة والإسلام لاعتبارات ذاتية وأخرى ذات صلة بعلاقات تاريخية مع اثيوبيا وتاثيرات أمريكية.

وقد تعززت تلك التوجهات بفرضه اللغة التيجريه كلغة رسمية للبلاد وتجاهل لقوانين الأحوال الشخصية للمسلمين، وظهرت تلك التوجهات فى نزاعه مع اليمن - التى سبق لها أن أيدت كفاح الشعب الاريترى للاستقلال - على جزر حنيش هذا علاوة على تأييده لحركة التحرر فى جنوب السودان بقيادة جارانج.

موقف الولايات المتحدة الأمريكية:

اتسم موقفها بمساندة اثيوبيا فى صراعها مع اريتريا من أجل بقاء اثيوبيا شوكة فى مواجهة الحكم الإسلامى فى السودان من ناحية وإمكانية تهديد الأمن القومى المصرى من الناحية المائية من ناحية ثانية. أما إسرائيل فإنه منذ الهزيمة الأولى لأثيوبيا فى ٦ مايو ١٩٩٨ وهى تعمل على دعم اديس أبابا بالسلاح من ناحية والمشورة العسكرية من ناحية ثانية علاوة إمدادها بالصور والخرائط من خلال القمر الصناعى لمواقع القوات الاريترية على خط المواجهة.

اللغـــات:

التكرينية والتكرى كلتاهما خلفتا الإثيوبية السامية (كعريز)، ويتحدث بالأولى جبرت الهضاب، أما اللغة الثانية فهى اللسان الأول للمسلمين فى الأغوار الغربية والشرقية وفى التلال الشمالية. وتعرف التكرى فى مديرية كسلا بالسودان باسم "الخاصية". ولم تدرس بعد دراسة مستفيضة الخلافات اللهجية فى نطاق التكرى. ولا تستطيع التكرى أن تفاخر بأن لها أدبًا مكتوبًا، كما أن العربية تسلبها بعض شأنها. ذلك أن العربية لها مكانة بين المسلمين والتجار تعوذالتكرى. وقد كان القرار الذى اتخذته الحكومة الإريترية سنة ١٩٥٢ بجعل التكرينية والعربية اللغتين الرسميتين لإريتريا • بالرغم من أن معظم المتحدثين بالتكرى لا يعرفون من العربية إلا القليل. أو قل إنهم لا يعرفونها على الإطلاق - قرارًا أملته السياسة وتحقيق الهيبة. ولم يمله

الحكم السليم. واللغتان الرئيسيتان غير الساميتين اللتان يتحدث بهما مسلمو إريتريا هما البدوية والبلينية.

الـــديـــن:

لقد كان الإسلام قوة في إريتريا الحبشة منذ بعث محمد ﷺ بعض أتباعه الأولين ملتجئين إلى النجاشي، وقد حمل الضغط الذي مارسه المسلمون من البحر الأحمر طوال القرون الوسطى، الأحباش على القتال في سبيل مذهبهم في النصرانية. على أن الإسلام في إريتريا وفي إثيوبيا لم يستطع - بالرغم من بلوغ عدد المسلمين فيها قرابة نصف السكان - أن يخترق الدرع الواقي للمذهب المسيحي وتغيير كيانه الجوهري. بل إن الأمر جرى على عكس هذا، ذلك أن الجبرت كانوا قد هضموا كل الهضم النمط الثقافي واللغوي للحياة الحبشية التقليدية حتى أن عقيدتهم بدت مفارقة لكيان الإسلام. ومع ذلك فإن الإسلام لا يزال يتقدم بين الأقوام الكوشية والنيلية في مناطق الأغوار، ولكنه لا يتقدم خطوة بين أهل الهضاب. والدعوة الإسلامية للناس كافة لها سحر خاص في جميع تلك الأقاليم التي لم تطبق فيها تطبيقًا صادقًا الرسالة المتفردة الوطنية لمذهب القائلين بالطبيعة الواحدة المسيحي.

وقد رسخت القادرية رسوخًا في المناطق الساحلية لإريتريا، وخاصة في مصوع والأرض المتاخمة لساحلها. ولكن أوسع الطرق نفوذًا في إريتريا هي بلا شك الميرغنية أو الختميّة، وقاعدتها في كسلا، وهي سائدة في الأقاليم الغربية، وخاصة بين بني عامر والهبب وغيرهما من القبائل الإسلامية. ووفقًا للتعداد الإيطالي سنة ١٩٣١ تبلغ نسبة "المذاهب" في إريتريا: ٦٥٪ من المالكية، و٢٦٪ من الحنفية، و٩٪ من الشافعية. ومع أن الشريعة تخضع بصفة عامة للقانون العرفي بين الكثير من القبائل، فإنها لا تزال سائدة في المناطق الحضرية، وقد شجعت الحكومة الدنيوية، سواء الأوروبية أو الإثيوبية، على نمو القانون المدني الإسلامي وإقامة محاكم "القضاة".

ثانيًا: المسلمون فى جنوب الصحراء الكبرى:

فى جنوب الصحراء الكبرى، فى الأراضى المتسعة الممتدة من السنغال فى الغرب إلى الصومال فى الشرق، هناك اليوم من المسلمين ما يعادل أتباعه فى شمال أفريقيا. إلا أنه يختلف عن الإسلام فى شمال أفريقيا من حيث التركيب العرقى المعقد والانقطاع فى التوزع الجغرافى. لذا فإن هذه الشعوب الإسلامية تتصف بتنوع أكبر فى السمات المميزة لعقيدتها الإسلامية المحلية. ففى كثير من الأحيان تتخلله مجتمعات مسيحية كبيرة وتجمعات قبلية واسعة لا تزال تدين بصورة رئيسية بالأديان الأفريقية التقليدية. وكثيرًا ما يشكل المسلمون أقليات صغيرة ضمن مجموعات كبيرة غير مسلمة. وحتى فى الأماكن التى تكون لهم فيها الغلبة العددية فإن القليل من البلدان التى يعيشون فيها هى اليوم دول إسلامية رسميا. وهكذا ففى قسم كبير من هذه المنطقة يجد الإسلام نفسه فى حال من الاحتكاك ومن المنافسة الديناميكيين مع ديانات تقليدية عريقة بالإضافة إلى المسيحية، فما من شك بأنه لا زال يتقدم بصورة ثابتة. وهذا ينطبق بصورة خاصة على الوضع فى غرب أفريقيا، وفى أثيوبيا حيث مما يشجع الحركة الإسلامية أن الحكام الأمهريين المسيطرين سياسياً هم مسيحيون منذ قرون.

وفى بعض الأماكن، شاعت عناصر من الثقافة الإسلامية مثل الختان أو أساليب التنجيم والعرافة بين شعوب غير إسلامية وأصبحت جزءاً من أنظمتها الثقافية التقليدية. ففى كل مكان كيف الإسلام نفسه مع الثقافة المحلية والبيئة الإجتماعية، وقد أدى ذلك فى بعض الحالات إلى نشوء تركيبات جديدة فريدة كما هو الحال فى الثقافة السواحلية. على أن الارتباط بين العروبة والإسلام لم يكن تماماً إلا فى السودان الشمالى، حيث أصبحت اللغة العربية هى اللغة المحلية، خلافًا للبلاد الأخرى التى نحن بصددها هنا. أما فى الأماكن الأخرى فبالرغم من وجود بعض

التأكيد أحيانًا على الهوية العربية، فإن الإسلام لا ينظر إليه على أنه عقيدة خاصة بالعرب وحدهم، ولا تعد الولاءات الإسلامية والعربية شيئا واحدا.

يعيش حوالى ثلثى المسلمين من سكان جنوب الصحراء الكبرى، فى غرب أفريقيا، حيث توجد فى نيجيريا أكبر جماعة من المسلمين، فى حين أن السنغال وغينيا ومالى والنيجر هى إسلامية بصورة رئيسية، وإن لم يكن الإسلام هو العقيدة الوحيدة فيها. وهنالك جماعات أصغر (عدداً) فى ليبيريا وغانا وتوغو. وفى أفريقيا الوسطى والشرقية، والشمالية الشرقية نجد أن المسلمين هم الغالبية فى السودان الشمالى، ويكاد لا يوجد لهم منافسون فى زنجبار وجمهورية الصومال. ثم أن العنصر الإسلامى قوى أيضًا أثوبيا (وخصوصا فى أريتريا)[1] وفى تنزانيا، حيث يوجد من المسلمين ما قد يوازى ثلث مجموع السكان فى كل من هذه الدول. وهنالك جماعات إسلامية أصغر تعيش فى كينيا وأوغندا ومالاوى وزامبيا والكونغو.

وبالرغم من أن الحدود الإسلامية والحدود السياسية كانت متطابقة فى الامبراطوريات الإسلامية القديمة فى عهد ما قبل الاستعمار فى المنطقة، فلا يوجد اليوم إلا جمهوريتا الصومال وموريتانيا اللتان تأسستا كدولتين إسلاميتين رسميا[2]. ومن المفارقات أن جمهورية السودان، وهى عضو فى الجامعة العربية، لم تقرر بعد تبنى دستور إسلامى، وقد لا تفعل ذلك بالنظر لمصالح سكانها الجنوبيين الكثيرين.

ويلعب الإسلام خارج هذه الدول دوراً على جانب كبير من الأهمية فى السياسات الداخلية لكثير من البلدان، وبصورة خاصة فى السنغال ومالى والنيجر ونيجيريا، وفى أثيوبيا، وإلى درجة أقل، فى تنزانيا، وهو كذلك يخلق روابط هامة ما بين هذه الدول، وهى روابط ذات قوة سياسية كامنة قد تستغلها الأجيال القادمة. وعلى صعيد غير رسمى فهو يوجد رابطة هوية ومصلحة مشتركة تجمع بين المسلمين

---

[1] انظر الفصل السابق.

[2] قبلت موريتانيا والصومال عضوين فى الجامعة العربية، الأولى موريتانيا الإسلامية سنة ١٩٧٣، والثانية سنة ١٩٧٤.

ذوى الأصول العرقية والانتماءات السياسية المختلفة وذلك ضمن الظروف المتغايرة فى حياة المدن. هذا الاعتراف بتضامن إسلامى أوسع وهو بالطبع مرن جدًا ويرتبط بالظروف الخاصة – يتجسد بصورة حية فى اشتراك الأفريقيين الواسع فى الحج إلى مكة وإلى العديد من المزارات المحلية الأقل شأنا.

لقد أدى اعتناق الإسلام، بالإضافة إلى تأثيره على عادات اللباس والنواحى الأخرى للثقافة المادية، وبصورة خاصة على الهندسة المعمارية، إلى إعطاء طابع إسلامى قوى للطقوس الحياتية الأساسية التى يتميز بها مجرى حياة الفرد من المهد إلى اللحد. ذلك لأن هذه الطقوس متشابهة إلى درجة كبيرة لدى الجماعات المسلمة الكائنة فى جنوب الصحراء الكبرى، بالرغم من التنويعات المحلية التى تعكس عناصر سابقة للإسلام. وبالطريقة نفسها نجد أن التقويم الإسلامى بطقوسه الشعبيه، وخصوصًا فى رمضان، شهر الصيام، يعطى طابعا متجانسا لتنظيم الحياة فى جماعات كانت بينها فى الماضى فروق كبيرة. وهنالك سمات متشابهة تتجاوز الاختلافات العرقية والثقافية الكبيرة لهذه المنطقة الواسعة، وتتجلى هذه السمات فى الأنماط التقليدية للتعليم الإسلامى وإن كان ذلك لا يخلو من اختلافات هامة فى مدى توسع المدارس المحلية للتعليم العالى، مثل مدرستى تمبكتو وجينه فى غرب أفريقيا، أو هرر فى الشمال الشرقى، بحيث تتمكن من إنتاج مؤلفات دينية وتاريخية باللغة العربية.

وأما فيما يخص الحياة الإجتماعية فتتجلى السمات المتشابهة أوضح ما تكون فى حياة الأسرة حيث تركت الشريعة الإسلامية، بغير شك، أكبر أثر اجتماعى لها. فبالرغم من أن الزواج يقترن بعادات تعود إلى ما قبل الإسلام، مثل ثروة العروس، فإنه يتصف بسمات أساسية واحدة ما بين السنغال إلى الصومال، ويستطع الأزواج الجمع بين أربع زوجات فى وقت واحد وفق الشريعة. وهنالك تقيد "بالعدة" أو فترة الانتظار التى تسبق الزواج الثانى وذلك بعد الطلاق أو موت الزوج. والأطفال ملك للزوج أو ورثه. وفى أمور الإرث تطبق عادة الشريعة الإسلامية من قبل المحاكم الشرعية الموجودة فى كل مكان، ولكن بما لا يتعارض مع الأنماط

التقليدية العريقة المتعلقة بحقوق الملكية. وبنفس الطريقة تقريبًا تطبق قواعد الشريعة فيما يتعلق بالدية أو دفع التعويض عن جريمة القتل والأضرار الأخرى، لكنها كثيراً ما تعدل على ضوء النظم الإجتماعية التى تعود إلى ما قبل الإسلام. وهكذا نجد مثلاً بين الصوماليين سلسلة كبيرة من أقرباء الأب يتحملون مسئولية الدية فى حالات القتل المتعمد، على حين أنه يتوجب على القاتل بموجب الشريعة الإسلامية، أن يتحمل المسئولية وحده.

وأخيراً فى السياسة، نجد أن مبادئ الحكم والمؤسسات السياسية الإسلامية قد طعمت بدرجات متفاوتة البنيات السياسية لتلك الممالك الأفريقية التقليدية التى اعتنقت الإسلام، وأفضل الأمثلة الباقية نجدها فى دول الهوسا فى نيجيريا الشمالية. وقد تقلص اليوم مجال تطبيق الشريعة الإسلامية، كما هو الحال فى البلاد الإسلامية الأخرى، وأصبح يقتصر على أمور الأسرة والأحوال الشخصية، بحيث يشكل هذا شكل عودة إلى الوضع السابق لعهد الاستعمار وظروفه.

لا نستطيع أن نقول الكثير هنا عن التاريخ الطويل للإسلام فى هذه المنطقة الواقعة إلى جنوب الصحراء الكبرى. إلا أنه يجب أن نلاحظ أن كلا من السودان الشرقى وأجزاء من شمال شرق أفريقيا كانت مفتوحة للتأثيرات الإسلامية فى القرن السابع، فى حين أن غرس الإسلام فى شرق وغرب أفريقيا لا يمكن تتبعه بصورة موثوقة إلى ما قبل القرن العاشر. ففى ذلك الوقت كانت كل أفريقيا تقريباً الواقعة إلى جنوب الصحراء الكبرى قد أصبحت مفتوحة للدين الجديد من خلال الشبكة الواسعة من طرق القوافل التى كانت توصل عبر الصحراء الكبرى إلى الشمال، وفى الشرق إلى موانئ ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى. والواقع أن ارتباط الإسلام بالتجارة كان هو السبب الرئيسى لدخول هذا العدد الكبير من شعوب هذا الجزء من القارة فى الإسلام، ولم يلعب الفتح الخارجى للغزاة المسلمين دوراً هاما إلا فى السودان الشرقى، وهو الجزء الوحيد فى المنطقة الذى لعب فيه الاستيطان العربى الواسع النطاق دوراً حاسماً فى نشر الإسلام. وكان غزو الدول المحلية التى اعتنقت الإسلام للمجتمعات الوثنية عاملا هاما فى السودان الغربى، وإلى حد ما فى أثيوبيا،

وإن كان يبدو من المفارقات هنا أن يكون للامتداد الاخير للامبراطورية الأمهرية المسيحية فى القرن التاسع عشر أثر أعمق وأكثر استمراراً على انتشار الإسلام.

وفى الأماكن الأخرى وبصورة عامة، كان لعامل التجارة الإسلامية التأثير الأكبر. وهنا لم يكن الذين قاموا بالدور الحاسم فى غرس الإسلام من العرب فى معظم الحالات. ففى الفترة الأولى لدخول الإسلام إلى السودان الغربى يجب إعطاء الفضل الأكبر إلى البربر من أصحاب الجمال الذين كانت قوافلهم التجارية العظيمة تجوب دروب الصحراء، وفى الشمال الشرقى لعب الصوماليون من البدو الرحل دوراً مماثلاً كتجار قوافل ومن خلال هجراتهم إلى الغرب والجنوب من أوطانهم السابقة فى الركن الشمالى من القرن الأفريقى. وكانت هنالك أيضًا، بالطبع، جماعات محلية أخرى مثل الهوسا وديولا فى غرب أفريقيا الذين قاموا بعد اعتناقهم للإسلام فنشروا الدين كذلك من خلال علاقاتهم التجارية الواسعة، وعلى العكس من ذلك نجد فى شرق أفريقيا أنه بالرغم من أن الذهب والعاج والرقيق والموارد الأخرى السهلة الاستثمار والموجودة فى الداخل. قد وصلت إلى التجار المسلمين الساحليين، فإن هؤلاء التجار لم ينفذوا بأنفسهم إلى داخل البلاد بأعداد كبيرة حتى أواخر القرن الثامن عشر.

ولقد كان لهؤلاء التجار المسلمين الأوائل، سواء أكانوا من العرب، أم من غير العرب المدفوعين بحماسة الداخلين جديدا إلى الدين، تأثير قوى فى المجتمعات التى كانت وثيقة فى أول الأمر والتى كانوا يمرون بها خلال أسفارهم وكثيراً ما كانوا يقيمون بين ظهرانيها.

وبالرغم من أنهم لم يكونوا عادة من الدعاة النشطين فى المجال الدينى، فإن عباداتهم الدينية الغامضة كانت تثير انتباهاً كبيراً، وكانت معرفتهم بالثقافة الإسلامية واتصالاتهم التجارية الواسعة المدى تضفى عليهم وعلى الرجال الأتقياء الذين كانوا يسافرون معهم بريقاً خاصاً فى نظر السكان المحليين. ففى الممالك الوثنية الكبيرة التى أقاموا فيها كأقليات صغيرة تحت حماية الملك تبين أن لديهم صفات خاصة يمكن الاستفادة منها. فهناك، مثلما سيصبح عليه الحال بالنسبة

للإداريين الاستعماريين الأوائل الذين جاءوا بعدهم، وجد الملوك الوثنيون ومؤيدوهم من المناسب الاستفادة من هذه الأقلية التجارية الإسلامية فى عدة أمور تتراوح بين استخدامهم فى تحصيل الضرائب والمحاسبة والسلك الدبلوماسى إلى ضمهم بين صفوف الحرس الملكى حيث أثبتوا جدارتهم نتيجة لعدم وجود روابط محلية لهم ولمعداتهم العسكرية وخبرتهم التى كانت متفوقة فى معظم الأحيان. وفى أضعف الحالات، أصبح من الشائع لدى الملوك الوثنيين أن يزينوا بلاطاتهم بمن يقتنونهم من رجال بلاط مسلمين، والأهم من ذلك أن يجاملوا الدين الجديد، كما فعل منسا موسى من مالى (١٣١٢ - ١٣٣٧) أو أسكيا محمد من سونغهاى (توفى عام ١٥٢٨) من أجل دعم قوة الطقوس التقليدية المرتبطة بالملكية، وأن كان هذا قد أدى فى بعض الأحيان إلى نتائج مؤسفة. فبعد أن أصبح الإسلام امتيازاً ملكياً جديداً فإنه بالطبع كان يعطى الحاكم الطموح "عقيدة وعلما وسلاحا" وكان باستطاعته أن يقدم تبريراً قوياً لفتح الممالك الوثنية المحيطة، ويساعد على ضمهم سياسياً فيما بعد. وكذلك فإن الزعماء المحاربين والمغامرين التجار الذين أصبحوا فى الطليعة فى ظروف التغير الاقتصادى والإجتماعى، والذين كانوا يسعون إلى إقامة وتدعيم ممالك جديدة وأسر مالكة جديدة فى الأماكن التى لم يكن يوجد فيها أى منها فى السابق، هؤلاء الزعماء كثيراً ما كانوا يلتفتون إلى الإسلام ليستقوا منه مبرراً عقلانياً مناسباً للأوضاع الجديدة التى أوجدوها. ففى أثيوبيا، كان رؤساء القبائل الصغار وقادة الحروب الطموحون الذين شجعهم التغير الاقتصادى فى وسط "غالا" التى كانت جمهورية تقليديا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - كانوا يميلون إلى اعتناق الإسلام أو المسيحية كأساس لسلطتهم الجديدة، التى كانت غير دستورية من وجهة نظر التقاليد.

ومن العوامل التى دعمت تأثير هذه الاعتبارات التى سهلت انتشار العقيدة الإسلامية، بساطة المتطلبات العقائدية الإسلامية وتسامحه إزاء المعتقدات الدينية التقليدية والعرف المحلى، الذى كان هو والشريعة مصدرين متوازيين للقانون التطبيقى. ولكن هذه السمات لم تحظ بإعجاب الحكام التقليديين أو الزعماء الجدد

فقط، بل إن الدين الجديد كان بصورة عامة جذاباً بوجه خاص باعتباره مصدراً لأساليب جديدة فى أداء الطقوس، بالنسبة إلى أناس كانوا يفتشون دائما عن علاجات قوية خارقة للطبيعة نظراً لافتقارهم إلى أى تحكم علمى يذكر فى بيئتهم أو مصيرهم. وهذه السمة كانت بدورها تزداد أهمية حيثما كانت الظروف الجديدة تخلق إمكانات جديدة للتقدم الإجتماعى وتوترات جديدة داخل المجتمع.

رغم أن الأدلة المفصلة المتعلقة بالتأثير المتبادل لهذه العوامل فى عملية دخول الإسلام إلى أفريقيا الواقعة إلى جنوب الصحراء الكبرى غير متوفرة بصورة عامة، فإن تفاعلها يمكن أن يظهر فى بعض المناطق التى ينتشر فيها الإسلام اليوم. مثال ذلك أن التغيرات الاقتصادية، هذا القرن بين سكان كينيا الجيرياميين قد أدت إلى ظهور طبقة جديدة من المزارعين من ممولين وتجار محاصيل. هؤلاء المقاولون الناجحون قد أثاروا بالطبع غيرة وحسد جيرانهم الذين يقلون عنهم والذين لا زالوا يعملون فى زراعة المحاصيل الضرورية لغذائهم اليومى، ولذا أصبحوا هدفا رئيسيا للسحر والشعوذة. ولكى يحموا أنفسهم تحولوا إلى الإسلام وأصبحوا يعرفون محليا "بالمسلمين المتطببين"، لأن هذا يحميهم من المكر والكراهية اللذين يجلبهما النجاح ويمكنهم من الاستغناء عن الالتزامات التقليدية فى اقتسام الطعام على أساس أنه كمسلمين يتوجب عليهم مراعاة قيود غذائية تقليدية من شأنها أن تعزلهم وتحميهم فى آن واحد من جيرانهم الحسودين. وهناك أسباب قوية تدفعنا لأن نفترض أن دوافع من هذا النوع قد لعبت دوراً حاسماً فى الانتشار التدريجى للإسلام فى فترات وأماكن تنقصنا عنها مثل هذه المعلومات التفصيلية على الرغم من أننا لا نملك أن نجزم بذلك.

ولكن إذا كانت مثل هذه الاعتبارات قد شجعت الإفريقيين كثيراً على التوجه نحو الإسلام كدواء لمصائب هذه الحياة، بحيث اعتبر هذا الدين الجديد فى الواقع كمصدر جديد للقوى الخارقة اللازمة لمعالجة مصاعب الحياة اليومية ومصائبها على طريقة الدين الافريقى التقليدى، فإننا يجب ألا ننسى أن العقائد الأخروية الأوسع التى يقدسها الإسلام إنما تمثل تحولا جذريا جديداً عن العقائد

التقليدية. فالاعتقاد بحياة أخرى ينال فيها الإنسان الثواب والعقاب على أعماله التى ارتكبها فى هذه الحياة، هذا الاعتقاد غريب بصورة عامة عن الأديان التى ارتكبها فى هذه الحياة، هذا الاعتقاد غريب بصورة عامة عن الأديان الأفريقية التقليدية، ودخول هذا الاعتقاد مع الإسلام يعطى أساسا جديدا لتقييم الأخلاق.

وأخيرًا فيما يتعلق بغرس الإسلام الفعلى، يجب أن نسجل الأثر الهام للتيارات المحلية السائدة والمتعلقة بحركة السكان وهجرتهم. فحيثما كان تدفق الهجرات القبلية يتطابق مع مسار انتشار الإسلام من خلال التجارة، كان هذا التطابق يدعم انتشار الإسلام، وهذا بالفعل ما حدث، بصورة عامة، فى غرب أفريقيا. وينطبق الأمر نفسه إلى حد بعيد فى تاريخ شرقى السودان وكذلك فى شمال شرق أفريقيا. أما فى شرقى أفريقيا فكانت حركة الهجرة تتجه إلى الانتقال من داخل البلاد إلى الساحل أى بعكس اتجاه انتشار الإسلام وبذا فقد أدت إلى حصره فى تلك المنطقة الساحلية. فهنا فى الواقع كان الإسلام الساحلى، الذى ترمز إليه كلمة سواحيلى ذاتها، عبارة عن مغناطيس يجذب العناصر القبلية من الداخل إلى مركزه الواقع على الساحل، حيث أصبح دين مدن لا يقتصر على فئة قبلية واحدة، وأدى ذلك إلى نشوء ذلك التركيب الثقافى واللغوى الفريد الذى تمثله اللغة السواحيلية اليوم، والمؤلف من عناصر البانتو وعناصر عربية وفارسية.

تتبع الأجزاء المختلفة لأفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى مذاهب مختلفة للشريعة وذلك تبعا للمصادر الإسلامية المختلفة التى تأثرت بها. ففى غرب أفريقيا يسود المذهب المالكى الذى نشرته فى أول الأمر حركة الموحدين فى القرن الحادى عشر، وهو أيضًا المذهب الرئيسى فى السودان الشمالى، إلا أن المذهب الحنفى أدخل إلى السودان الشمالى فى الفترة التركية – المصرية (١٨٣٠ – ١٨٩٦) واعتبر القانون الرسمى للمحاكم. وفى شمال شرق، وشرق أفريقيا، حيث يطغى التأثير الحضرمى، يسود المذهب الشافعى رغم أن جماعات من الأقلية تدين بمذاهب أخرى.

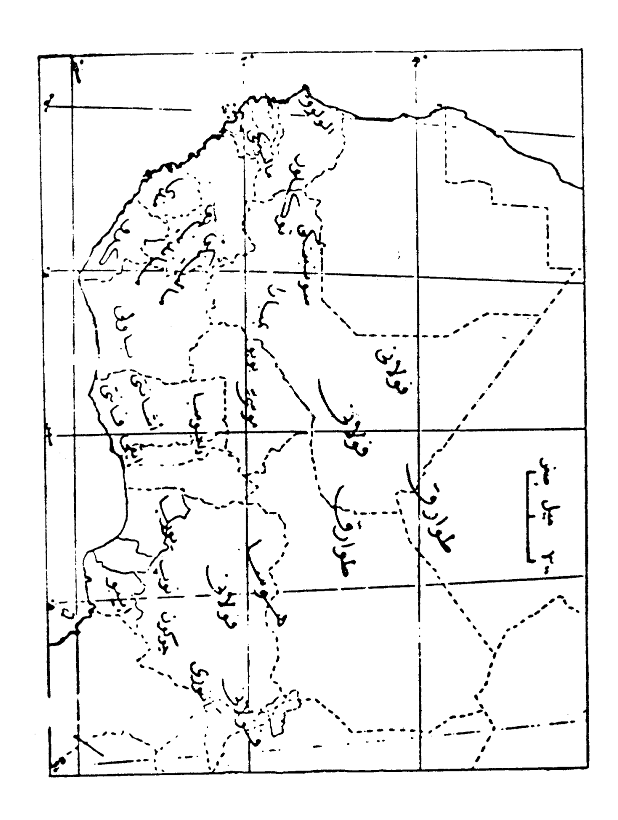
كذلك فإن الطرق الدينية متعددة الانتشار وقد كانت (الطريقة) القادرية أول طريقة أدخلت فى جميع المناطق ولها أكبر عدد من الأتباع. وفى القرن السادس عشر أدخلت هذه الطريقة فى السودان الغربى بواسطة مركز النيجر العلمى العظيم فى تمبوكتو، وفى الفترة نفسها نقلت إلى (لاهور) التى كانت تحتل مكانا مماثلا فى شمال شرق أفريقيا. وكان أروع تحقق لهذه الطريقة هو جهاد الهوسا فى القرن التاسع عشر بوحى من عثمان دان فوديو (١٧٥٤ - ١٨١٧). وفى العقود الأولى من القرن العشرين كان أتباعها نشيطين أيضًا فى تنظيم المقاومة ضد المستعمرين الألمان فى تنجانيقا فى ظل القيادة الملهمة للشيخ الصومالى عويس بن محمد البراوى (١٨٤٦ - ١٩٠٩) الذى أدت تعاليمه وكتاباته الغزيرة إلى نشوء العويسية، وهى إحدى فروع الطريقة التى لا تزال حتى اليوم شائعة جداً فى الصومال الجنوبى وفى أجزاء من الساحل الشرقى. أما أول جهاد قومى (١٩٠٠ - ١٩٢٠) بقيادة الشيخ محمد عبد الله حسن (١٨٦٤ - ١٩٢٠) ضد المستعمرين البريطانيين والأثيوبيين والإيطاليين لبلاد الصومال فلم يكن مرتبطاً بالطريقة القادرية بل بالصالحية التى كانت تناوئها بضراوة، والتى كانت مشتقة من طريقة سيدى احمد بن إدريس الفاسى المكية المعروفة بالطريقة الأحمدية. وفى الشمال نجد أيضًا الطريقة المهدية وصاحبها محمد أحمد (١٨٤٣ - ١٨٨٥) المعروف بالمهدى، فى السودان. وهذه الطريقة لم تكن مشتقة من أية طريقة أخرى بل كانت تتجاوز الحواجز المذهبية وتخاطب جميع المسلمين فى مقاومتهم للسيطرة الخارجية. ومع ذلك وبالرغم من الفوارق فى انتماءات زعماء الجهاد إلى الطرق المختلفة والمواقف المتعارضة التى تقفها الطرق نفسها فى مختلف الأراضى المستعمرة، فإن الدلائل الوثائقية تدل على أن هذه الحركات كانت فى الواقع على اتصال، وأن الطرق التى كانت موجودة فى غربى السودان أسهمت فى الهام المهدى فى السودان الشرقى، كما كان هو بدوره مثالاً رائعاً يحتذى بالنسبة للشيخ الصومالى محمد عبد الله حسن.

وفي جميع أنحاء أفريقيا الواقعة إلى جنوب الصحراء الكبرى نجد أننا مدينون لزعماء الطرق الصوفية المحليين بالكثير من الادب الدينى والتاريخى المكتوب باللغة العربية وباللهجات العامية المحلية والذى بقى حتى اليوم. وما زالت للطرق الصوفية حتى اليوم أهميتها بوصفها أساساً طائفياً للعبادة، وهى تشكل عوامل هامة فى السياسة، وبعد ذلك أصبحت الطريقة التيجانية التى أسسها أحمد التيجانى من فاس (توفى ١٨١٥) والطريقة المريدية لصاحبها الشيخ أحمد بامبا (توفى عام ١٩٢٧) الذى يؤم ضريحه فى طوبا فى السنغال أفواج من الحجاج من غرب أفريقيا، منافستين حاميتين للطرق القديمة فى السودان الغربى. وأدخلت الحركة الأحمدية الهندية فى هذه المنطقة عنصراً جديداً للنزاع، فى حين أن المهاجرين الجدد من الهند والباكستان إلى شرق أفريقيا يشكلون الجماعة الشيعية الوحيدة فى أفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

وفى كثير من الأحيان، ثمة تأكيد قوى على تقديس الأولياء كوسطاء يلجأ المرء إليهم لتقريب المسافة البعيدة التى يعتقد أنها تفصل الإنسان عن الله وعن بركة الرسول، وإن كان هذا التأكيد لا يقترن دائما بالطرق الدينية. وينطبق هذا الأمر بصورة خاصة على السودان الشرقى وشمال شرق أفريقيا حيث ينسجم تقديس الأولياء إلى حد كبير مع التأكيد التقليدى على نسب السلف، رغم أن جميع من يقدسون ليسوا مجرد أسلاف أسبغت عليهم صفة الأولياء. وتشكل بعض الفرق الدينية مثل طائفة "سيد برخدله" فى الصومال الشمالى الذى تعتبر زيارة قبره ثلاث مرات ذات أهمية دينية تعادل زيارة مكة مرة واحدة، وطائفة الشيخ "حسين بلياله" فى جنوب شرقى أثيوبيا – هذه الفرق تشكل المركز المحلى لممارسة شعائر الدين. وهذه الطوائف تمثل كل ما احتفظ به الإسلام الشعبى اليوم من ذكرى سلطنتى إيفات وبالى اللتين تصدتا فى القرون الوسطى للمملكة الأمهرية المسيحية المتوسعة، وكادتا لفترة قصيرة فى القرن السادس عشر أن تطيحا بها كليا.

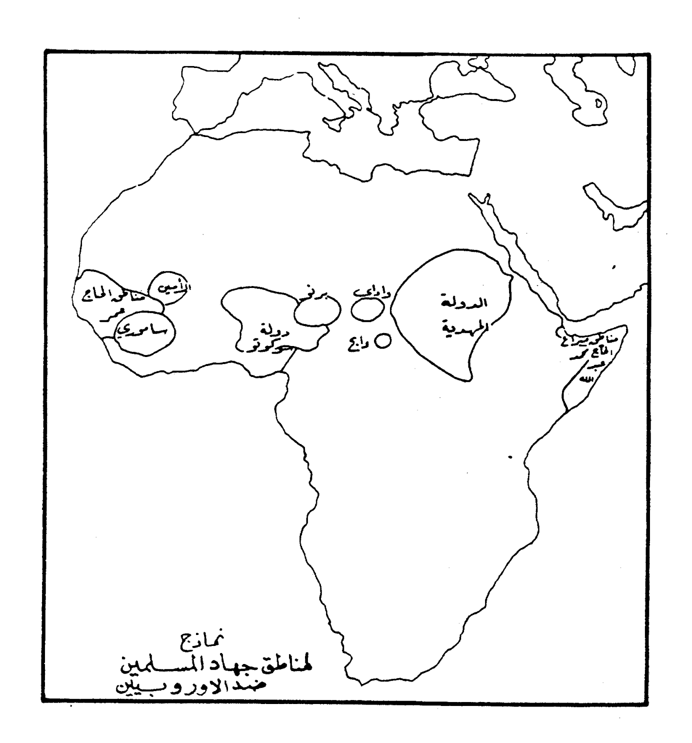
مثل هذه الطرق، ومعها شعائر الإسلام السحرية، تشكل بالنسبة للرجال والنساء على السواء، وسيلة لتلبية الحاجات المتكررة التى لا تشبعها العقائد الأخروية

الرفيعة للإسلام. ومن نفس المنطلق فإن استبعاد النساء المألوف من الطقوس الرسمية الرئيسية للإسلام كان يترك فجوة تملؤها الطقوس المحلية المتعلقة بمسائل الأرواح مثل أرواح بورى لدى قبائل الهوسا وطقوس الزار فى أثيوبيا والسودان والصومال وطقوس البيبو على الساحل السواحيلى. هذه العبادات تشتمل على مجموعة كبيرة من الأرواح المألوفة التى تتدخل لكى تعبر بأمانة عن الظروف المتغيرة للمجتمع.



القبائل الرئيسية فى غرب أفريقية

نقلا عن: د. عبد الله عبد الرازق - المسلمون والاستعمار الأوربى لافريقيا ص٢٧٥ .



نقلا عن: د. عبد الله عبد الرازق - المسلمون والاستعمار الأوربي لافريقيا ص ٢٧٤

المــراجـع

أولا - باللغة العربية

١- القرآن الكريم

٢- أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى (ابن بطوطه)، رحلة ابن بطوطه المسماه تحفة فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. طبعة بيروت ١٩٦٠.

٣- أحمد طاهر، أفريقية فى مفترق الطرق. الدار المصرية للتأليف والترجمة. سلسلة دراسات أفريقية رقم ٥. القاهرة ١٩٦٥.

٤- د. السيد حسين جلال، الصراع الدولى حول استغلال قناة السويس (١٨٦٩ - ١٨٨٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٩.

٥- د. السيد حسين جلال، قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوروبى (١٨٨٢ - ١٩٠٤) سلسلة تاريخ المصريين. العدد رقم ٨٠ - الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٥.

٦- د. السيد حسين جلال، فضل المسلمين فى كشف الطريق البحرى للهند. (١٤١٥ - ١٤٩٨). الهيئة المصرية العامة للكتاب. المكتبة الثقافية العدد رقم ٥١٢. القاهرة. ١٩٩٥.

٧- الفريد بل، الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى، من الفتح العربى إلى اليوم. ترجمة د. عبد الرحمن بدوى. دار الغرب الإسلامى. بيروت. الطبعة الثالثة. ١٩٨٧.

٨- د. آمال السوبكى، تاريخ إيران السياسى بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩). سلسلة عالم المعرفة. العدد رقم ٢٥٠. الكويت. أكتوبر ١٩٩٩.

٩- بانيكار. ك. م، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز جاويد. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر. (سلسلة الفكر السياسى والاشتراكى) دار المعارف. القاهرة. ١٩٦٢.

١٠- بول، كولز، العثمانيون فى أوروبا. ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ. سلسلة الألف كتاب الثانى. رقم ١٢٦. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٣م.

١١- بيتر مانسفيلد، تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط. ترجمة عبد الحميد فهمى الجمال. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة تاريخ المصريين. العدد رقم ٩١. القاهرة ١٩٩٥.

١٢- د. جلال يحيى، التنافس الدولى فى بلاد الصومال. دار المعرفة. القاهرة ١٩٥٩.

١٣- د. جلال يحيى، العالم الإسلامى الحديث والمعاصر. المكتب الجامعى الحديث. الاسكندرية. ١٩٨٢.

١٤- د. جلال يحيى، مصر الإفريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر. دار المعارف ١٩٨٤.

١٥- د. جمال حمدان، العالم الإسلامى المعاصر. كتاب الهلال. العدد ٥١٢. أغسطس ١٩٩٣.

١٦- د. رأفت الشيخ، المسلمون فى العالم. عين الدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية. الطبعة الثانية ١٩٩٨.

١٧- شاخت وبوزون - تراث الإسلام، ترجمة د. محمد زهير السمهود، د. حسين مؤنس وآخرون. سلسلة عالم المعرفة. الأجزاء الاول والثانى والثالث (أعداد ٨، ٩، ١٠). الكويت. ١٩٨٨.

١٨- د. شوقى الجمل، دور مصر فى أفريقيا فى العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة مصر النهضة (مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر). القاهرة. ١٩٨٤.

١٩- عبد الرشيد إبراهيم، العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين. ترجمة احمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى. المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومى للترجمة).

٢٠- عبد العزيز محمد الشناوى، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. مكتبة الأنجلو المصرية. المجلد ١، ٢. القاهرة ١٩٨٠.

٢١- د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوروبى لأفريقيا. سلسلة عالم المعرفة. العدد رقم ١٣٩. الكويت. يوليو ١٩٨٩.

٢٢- د. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام فى الهند. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط٣. ١٩٩٠م.

٢٣- د. عبد المنعم النمر، كفاح المسلمين فى تحرير الهند، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٠م.

٢٤- على أدهم، الهند والغرب. سلسلة أخترنا لك. العدد رقم ١٠. دار المعارف (بدون تاريخ).

٢٥- د. عمر عبد العزيز عمر، موضوعات فى تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث. دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية. ١٩٩٤.

٢٦- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة د. نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى.

جـ١ (العرب والأمبراطورية العربية). دار العلم للملايين. بيروت. ط١. ١٩٤٨.

جـ٢ (الامبراطورية الإسلامية وانحلالها). دار العلم للملايين بيروت. ط١. ١٩٤٩.

جـ٣ (الأتراك العثمانيون وحضارتهم) دار العلم للملايين بيروت. ط١. ١٩٤٩.

جـ٤ (الإسلام فى القرن التاسع عشر) دار العلم للملايين بيروت. ط١. ١٩٥٠.

جـ ٥ (الدول الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى) دار العلم للملايين بيروت. ط١. ١٩٥٠.

٢٧- د. محمد إبراهيم حسن، جغرافية أفريقيا وحوض النيل. مركز الاسكندرية للكتاب. اسكندرية. ١٩٩٧.

٢٨- د. محمد مصطفى صفوت، مؤتمر برلين وآثاره فى البلاد العربية. القاهرة. ١٩٥٧.

٢٩- محمود شاكر، التاريخ الإسلامى المعاصر. القارة الهندية (١٩٢٤ - ١٩٩١م). وجنوب شرقى آسيا وماليزيا واندونيسيا. مجلد رقم ١٩، ٢٠. المكتب الإسلامى. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٩٢.

٣٠- محمود شاكر، المسلمون فى الامبراطورية الروسية. مجلد رقم ٢١. المكتب الإسلامى. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٩٤.

٣١- محمود شاكر، التاريخ الإسلامى المعاصر، الأقليات الإسلامية. ط٢ بيروت ١٩٩٥.

٣٢- نظام الدين أحمد بخشى الهروى، المسلمون فى الهند من الفتح العربى إلى الاستعمار البريطانى. ترجمه عن الفارسية د. أحمد عبد القادر الشاذلى. (٣ أجزاء). الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٥.

٣٣- نويل مالكوم، البوسنه، ترجمة عبد العزيز جاويد. الهيئة المصرية العامة للكتاب. (الألف كتاب الثانى) العدد ٢٧٩. القاهرة ١٩٩٧.

٣٤- نوريس. هـ. ت، الإسلام فى البلقان (الدين والمجتمع بين أوروبا والعالم العربى). ترجمة عبد الوهاب علوب ومراجعة محمد خليفة حسن. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومى للترجمة. العدد رقم ٤٩. القاهرة ١٩٩٨.

٣٥- نينل الكسندرفنا دوليتا، الامبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية فى ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر. ترجمة أنور محمد إبراهيم. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ١٩٩٩.

٣٦- هربرت فيشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث. ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٤.

٣٧- د. وجيه أبو حمزة - تاريخ الشعوب الإسلامية. (بدون تاريخ).

٣٨- دل ديورانت، قصة الحضارة - الهندو جيرانها. الجزء الثالث. ترجمة د. زكى نجيب محمود.

٣٩- د. ياسين محمد مراد - السكان فى العالم الإسلامى. بحث منشور فى مجلد: "المؤتمر الإسلامى الدولى عن "السكان فى العالم الإسلامى" - المنعقد بجامعة الأزهر بالقاهرة فى الفترة من ١ - ٤ رجب سنة ١٤٠٧هـ (٤ مارس ١٩٨٧). المركز الدولى الإسلامى للدراسات والبحوث السكانية.

ثانيًا - مراجع بلغات أجنبية:

1- A bed Hussein, the destiny of Indian Muslems. London. 1965.

2- Crowe, S.E. The Berlin West African conference (1884 - 1885). London. 1942.

3- Gorden East. W, Geography Behind history London. 1948.

4- Huzayin. S.A.S, Arabia & The Far East. Cairo. 1942.

5- Piere Rondot, l'Islam et les Muslumens d'Aujourd'hui. Paris 1960.

6- Rowan, Robinson, England, Italy, Abyssina. London. 1935.

7- The New Cambridge Modern History, T. XII. The shifting Ballance of World Forces. (1898 - 1945). London 1968.

ثالثًا – الدوريات ودوائر المعارف:

- مجلة السياسة الدولية (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية) أعداد متفرقة.
- دائرة المعارف الإسلامية. النسخة العربية. إعداد وتحرير. إبراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى ود. عبد الحميد يونس وآخرون الناشر: كتاب الشعب.

الفهـــرس

تم بحمد الله

مع تحيات

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : ٥٣٥٤٤٣٨ - إسكندرية